

طبع بأمر من صاحب الجلالة الأمير المؤمنين الملك محمد السادس نصره الله

المملكة المغربية

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

الطريقة التجانية في المغرب والسودان الغزني

خلال القرن التاسع عشر الميلادي

الجزء الثاني

تأليف

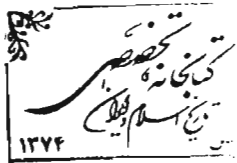
الأستاذ أحمد الأزمي

طبع بأمر من صاحب الجلالة الأمير المؤمنين الملك محمد السادس نصره الله

المملكة المغربية
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

الطريقة التجانية في المغرب والسودان الغربي

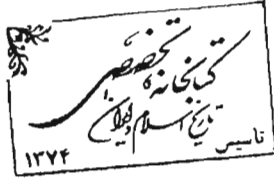
خلال القرن التاسع عشر الميلادي



الجزء الثاني

تأليف
الأستاذ أحمد الأزمي

1421 هـ - 2000 م



الباب الثالث

الإنتاج الفكري لأهم رجالات الطريقة
التجانية بالمغرب خلال القرن 19 و النصف
الأول من القرن 20.

الفصل الأول

مؤلفات جامعة لأوراد الطريقة و علوم شيخها

لا نزع من خلال ما نستعرضه في هذا الفصل، أننا سوف نحيط إحاطة شاملة بكل ما كتبه شيوخ التجانية عن طريقهم، إما من أجل تدوين تعاليمها ونشرها والتعريف بها وفك غوامضها، أو من أجل الرد على خصومها، فذلك مطمح بعيد المنال، لكثرة المؤلفات التجانية خلال القرن 19، المنشور منها والمخطوط داخل المغرب وخارجه، مما لا يسمح بمعالجة هذا الموضوع في باب واحد، بل يستحق وحده أن يكون عنوان أطروحة جامعية لغزارة المادة العلمية المتوفرة للتوثيق.

وكل ما سنقوم به هو التركيز على أمهات المؤلفات التجانية في المغرب، على امتداد القرن 19 للتعريف بها وإبراز مضامينها، والأهداف التي ترمي إليها، دون الإسهاب في الكلام عن مؤلفيها الذين سبق التعريف بهم في فصول سابقة. ولتحقيق هذا الهدف، صنفنا المؤلفات التي نريد الحديث عنها في هذا الباب إلى ثلاث مجموعات :

المجموعة الأولى : اهتمت بتدوين تعاليم الطريقة و علوم شيخها كما سمعها أصحابه منه، و بعملها هذا، دونت أهم مبادئ الطريقة، و عرفت

بنفسها و بشيخها الذي أبان عن مستوى علمي رفيع، مكنه من البرهنة على سنية تعاليم طريقته بشكل مقنع، وهذه المجموعة تم تأليفها في حياة الشيخ.

المجموعة الثانية : دونت بعد وفاة الشيخ لعدة أغراض أهمها نشر

تعاليم الطريقة على أوسع نطاق في المغرب و خارجه، بعد ظهور المطبعة¹ وشرح بعض المصطلحات و العبارات و القضايا الواردة ضمن أدبيات الطريقة، و الرد على بعض المراسلات من مختلف المصادر، تتضمن استفسارات حول مسائل تتعلق بفقه الطريقة التيجانية، أو التصدي لكتابات الخصوم الذين رأوا في مذهب الطريقة التيجانية و توجهاتها، في رأيهم، خطرا على عقيدة المسلمين و خروجا عن منهج السنة النبوية في أداء الشعائر الإسلامية، فشنوا بذلك حربا لا هوادة فيها على التيجانيين.

المجموعة الثالثة: تهتم بتراجم الأصحاب الذين تلاقوا مع سيدي احمد التيجاني و أخذوا عنه، كما أولت نفس المجموعة اهتماما بكل من نظم قصيدة، إشادة بالزاوية التيجانية بفاس كإنجاز حضاري، أو حبا في

1 - محمد المنوني، مظاهر يقظة المغرب الحديث، مطبعة الأمنية، الرباط 1973. ج I ص

205: و ما بعدها.

- جرمان عياش، دراسات في تاريخ المغرب، الشركة المغربية للناسرين الباحثين، الرباط،

1986، ص: 121 و ما بعدها.

شيخها و تقديرها له على الدور الذي لعبه في الإسهام في إقامة صرح الأخلاق و تربية النفوس، و التمسك بالفضيلة، و هي قيم لا يفlech أي مجتمع بدونها.

I – ملاحظات أولية : كتب منسوبة لأشخاص رروا عن الشيخ المؤسس.

عدد هذه المؤلفات ثلاثة، و هي منسوبة لثلاثة من أخص أصحاب الشيخ سيدي أحمد التيجاني و أكثرهم إخلاصا و حبا له، و تفانيا في خدمته، قبيل و خلال أهم فترات الدعوة للطريقة التجانية. فقد وقفوا إلى جانب شيخهم ماديًا و معنويًا، و ساندوه في كل المواقف الصعبة التي مر بها حتى تحقق له النجاح، مما أهلهم لاحتلال منصب خليفة الشيخ.

و هؤلاء الثلاثة هم : علي حرازم برادة، صاحب كتاب جواهر المعاني، و محمد بن المشري الذي ينسب إليه كتاب الجامع لما افترق من دور العلوم الفائضة من بحار القطب المكتوم، و الطيب السفيناني صاحب الإفادة الأحمدية لمريد السعادة الأبدية. و ما يميز هذه الكتب أن أصحابها قاموا بعملية تصنيف و جمع ما قاله سيدي أحمد التيجاني فقط، أي أنهم ليسوا أصحاب الأفكار و الأذكار و التعاليم الواردة في ثنايا هذه المؤلفات، مع ملاحظة أن أهمية هذه الكتب تتفاوت من واحد لآخر، ففي الوقت الذي

يقترّب فيه جواهر المعاني إلى حد ما من مستوى الجامع لما افترق، من حيث الشكل و المضمون، نجد كتاب الإفادة الأحمديّة بسيطاً في كل شيء، بغض النظر عن الجمل و العبارات التي ضمنها كتابه، و نسبها لسيدى احمد التجاني.

1 - جواهر المعاني¹

سنبدأ بتفصيل القول حول كتابي جواهر المعاني و الجامع لما افترق من درر العلوم لمكانة صاحبيهما في قلب الشيخ سيدى احمد التجاني، و للمجهود الذي بذلاه من أجل جمع مادة هذين الكتابين اللذين ظهرا في جزءين بالنسبة لكل واحد منهما، مع الإشارة إلى أن جواهر المعاني نشر عدة مرات، في حين لازال الجامع لما افترق من درر العلوم مخطوطاً حسب علمنا.

أما عن المعلومات التي يتضمنها كل واحد من هذين المؤلفين فإنها متشابهة، و يكاد يكرر بعضها البعض، إلا في بعض الحالات التي سوف نبينها فيما بعد. و هذه مسألة طبيعية ما دام أن الفقيهين التجانيين، علي حرازم برادة، و محمد بن المشري، لم يفعلوا أكثر من تدوين و جمع و تصنيف ما كانا يسمعانه من شيخهما بخصوص تعاليم الطريقة و فقهها،

1- العنوان الكامل لهذا الكتاب هو جواهر المعاني و بلوغ الأمانى في فيض سيدى أبى

العباس التجاني.

و أجوبته على مختلف الأسئلة التي كانت ترد عليه، كما ضمنا هذين الكتابين أورداد الطريقة و أذكراها، و صيغا من الصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم، قالوا، رواية عن شيخهما أنه أخذها مباشرة من الرسول صلى الله عليه وسلم، يقطعة لا مناما، هذا علاوة على ما أورداه في المصدرين نفسهما من القضايا الفقهية الدقيقة و الشروح المستفيضة للآيات القرآنية التي أبدع فيها و أفاد بشكل مثير للإنتباه، و هذا ما سنعمل على إدراج نماذج منه، بعد أن نكون قد تطرقنا لأهم العناصر التي نعتبرها تقعيدا للطريقة التيجانية، هدفها التربية الروحية و الإصلاح الإجتماعي، بناء على ما نسب لشيخ الطريقة في الكتابين موضوع التحليل من أفكار وقواعد و تعاليم.

غير أنه قبل الخوض في محتويات الكتابين، نود أولا إيراد رأي مؤلفيهما، حول الأسباب التي جعلت كل واحد منهما يقدم على عمله، وكيف كانت علاقاتهما فيما بينهما، و هل هناك من المؤشرات ما يسمح للباحث بالقول بتميز أحدهما عن الآخر، من حيث الموضوعية و الواقعية و عمق التحليل، و ضبط الوقائع و غير ذلك من الأمور، لنتساءل بعد ذلك عن الهدف الذي توخاه ابن المشري من تحرير ما جمعه في كتابه، و لنعرف إلى أي حد يشكل عمله تكرارا أو إضافة لكتاب صاحبه في الطريقة، علي حرازم برادة.

يفيد علي حرازم برادة، و هو بصدد الحديث عن دواعي تأليفه

وجمعه لكتاب جواهر المعاني، أن أسبابا موضوعية حفزته على ذلك من بينها دخوله في طريقة هذا الشيخ، و ما رأى من شيمه و شمائله، و ما سمع من كلامه و معارفه و إشارات¹، مما عز وجوده و قل وروده، فحذا به ذلك، مع ما طلبه منه بعض الإخوان و الأعيان، أن يتعرض لما تيسر لديه من التعريف به و بطريقته و عرفانه و نشأته و مسيرته، و خلقه و كلامه، و مكاشفاته و كراماته، و غير ذلك من مآثره و آياته «فجمعت في هذا التأليف ما استحضرت من ذلك مما هو بعض هنالك اسعافا لمن طلب وإتحافا لذي الرغبة²...»

إن هذا التصريح من قبل الفقيه علي حرازم برادة، يفيد الباحث، في شيء لا يخلو من أهمية، و هو أنه لم يقم بعملية جمع و تحرير ما قاله شيخه فقط، بل قام بمجهود جمع المادة الضرورية من مختلف المصادر المتاحة له للتأريخ لنشأة سيدي أحمد التجاني، و دراسته و رحلاته داخل المغرب العربي و خارجه، لأخذ العلم من أفواه رجالاته، و للإتصال بشيوخ الطرق الصوفية، و يبدو أن علي حرازم برادة لم يجد صعوبة كبيرة في ذلك لأنه كان معاصرا لشيخه، قضى جزءا من حياته إلى جانبه، في عين ماضي، و في فاس، قبل تصدر سيدي احمد التجاني للمشيخة

1 - علي حرازم برادة، جواهر المعاني و بلوغ الأمان في فيض سيدي أبي العباس التجاني، دار الجيل، بيروت 1988، ج I ص 5.
2 - نفسه، ص 5.

و بعد ذلك، و هذا ما لم يتأت لمحمد بن المشري حسبما نظن.
كما أن استجابة الفقيه علي حرازم برادة لرغبة بعض الإخوان
والأعيان، في تأليف ما ألفه، لا ينطبق على مضمون الكتاب برمته، بل
يخص الجزء الخاص منه بحياة الشيخ فقط من البداية إلى الإعلان عن
نفسه شيخا للطريقة التجانية. أما ما تبقى من مضمون جواهر المعاني،
من فصول متضمنة لقضايا و تعاليم تهم الطريقة، و فتاوي فقهية مختلفة،
منسوبة لشيخها، فقد جمعه و صنفه و بوبه و حرره بأمر من الشيخ
سيدي احمد التجاني، يشهد على ذلك قول علي حرازم برادة نفسه من أنه
«لما مضى له شهران بفاس أمرنا رضي الله عنه بجمع هذا التأليف بأمر من
سيد الوجود صلى الله عليه و سلم مؤكدا ألا ينبغي تركه بعد أن كان أمرنا
بتمزيق ما جمعناه منه لسبب اقتضاه الوقت و الحال¹...». و امثالا لرغبة
الشيخ شرع في جمع مواد هذا الكتاب و تحريره في أوائل شهر شعبان عام
1213 بفاس².

و عن الجانب التوثيقي المصدري، يرى المؤلف أنه كان صارما في
جمع مادة التحرير، لا يسجل إلا ما وجدته بخط سيدي احمد التجاني أو
يسمعه منه، أو من أصحابه و ملازميه، و أحيانا من خط غيره لكن

1 - المصدر نفسه، ج I، ص 45.

2 - نفسه، ص 7.

بعد التثبت و تحري الصدق ممن يحكيه ، و يظهر من كلامه أنه كان مرتاحا من أخبار رواته لأن «الظن بهم جميل إذ كل ما نقلت عنه أو رويت موسوم بسمه الصلاح فيما رأيت، فيهم أهل سيادة و أهل ديانة¹». و قبل أن يدخل في صلب الموضوع، و هو بصدد مقدمة الكتاب حاول أن يظهر للقارئ مدى علو كعبه في المنهج و العلم و الموضوعية و حرصه على أن تكون فصول كتابه و موادها خاضعة لقواعد مدروسة، و منطق معين، ضمانا لجودته، و سعيا لنيل رضى قرائه، إذ لا بد في نظره لكل فن من فنون العلم من قواعد يضبط بها، فكما أنه للفقهاء قواعد و للإعراب قواعد تبنى عليها أحكامها، و يرجع إليها في ضبط قوانين كل منهما، كذلك لأهل الكشف و علم الأذواق، قواعد يبنى عليها صحيح أمرهم، و يعرف بها فاسده من صحيحه، و يلجأ إليها عند الحاجة. و حتى يكون منطقيا مع نفسه، سطر في بداية الكتاب قاعدة قال عنها أنها «جامعة لأصول التحقيق دافعة عن مراجعها كل إشكال و توهم و خيال فاسد، و تكون لما يأتي أساسا و مهادا وأصلا في معرفة قواعد هذا الفن في هذا الكتاب وغيره»².

و علاوة على هذا المجهود الذي بذله الفقيه علي حرازم برادة في تحرير كتابه جمعا و تأليفا و تحريرا، و على مستوى فكره الجيد

1 - نفس المصدر السابق.

2 - نفسه، ص 18.

الذي يعكسه المؤلف نفسه، فقد أبان عن تواضع العلماء، وبساطة الصلحاء، ومثالية الفقهاء، عندما طلب من كل مطلع على كتابه أن يغض عنه الإنتقاد، ويصلح ما وجد فيه من الخلل، ويقابل جهله بالصفح والإغضاء، لأنه ليس من أهل العلم ودرأيته، ولا من أهل النحو وصناعته إلى أن قال «و من أقام لنفسه عذرا سقط عنه اللوم»¹. أما الكتاب في حد ذاته المنسوب إليه و الذي يحمل عنوان جواهر المعاني و بلوغ الأماني في فيض سيدي أبي العباس التجاني، فهو في جزءين، يشتمل على مقدمة و ستة أبواب، وكل باب يضم عدة فصول، باستثناء الباب الأخير الذي لم يقسمه المؤلف إلى فصول.

تناول الباب الأول التعريف بمولد شيخ الطريقة، و بأسرته، و نشأته، و بدايته و مجاهدته، و أخذ طريق رشده، و تطرق الباب الثاني لأحوال الشيخ و سيرته و أخلاقه، في حين خصص الباب الثالث لعلم الشيخ و كرمه و خوفه و صبره و دلالاته على الله. أما الباب الرابع فاهتم بترتيب أوراد الطريقة و أذكارها، و فضل تاليتها، و معرفة حقيقة الشيخ الذي يتبع في سائر أقواله و أفعاله، في حين تناول الباب الخامس أجوبة الشيخ عن الآيات القرآنية على طريق الإشارة الربانية، و شرحه لبعض الأحاديث النبوية، و بعض إشارات العلوية. الباب السادس و الأخير ضم جملة من كرامات الشيخ و بعض ما جرى من تصريحاته.

1 - المصدر نفسه، ص 9.

و ذكر علي حرازم برادة في آخر كتابه، أنه أتم تحريره في منتصف شهر ذي القعدة الحرام من سنة 1214هـ / 1799م¹. ويبدو أن هذا الكتاب ظل مخطوطا لمدة تزيد عن قرن و ربع القرن إلى أن طبع على الحجر بالقاهرة سنة 1927م²، و تكرر طبعه بمصر، حيث ظهر في جزئين يضمنان 555 صفحة، و بهامشه كتاب رماح حزب الرحيم على نحور حزب الرحيم لمؤلفه الحاج عمر الفوتي. و يبدو أن هذه الطبعة الحجرية المصرية هي التي انتشرت في مشرق العالم العربي و مغربه. أما النسخة التي تتوفر عليها فصادرة عن دار الجيل ببيروت سنة 1988، يشتمل الجزء الأول منها على 264 ص، بينما يضم الجزء الثاني 288 ص، أي ما مجموعه 552 ص بالنسبة لمجموع صفحات الكتاب.

بعد هذا العرض الموجز عن الأسباب التي دعت الفقيه علي حرازم برادة إلى تحريم كتابه، و معرفة رأيه في محتواه مضمونا، و منهجا و توثيقا ننتقل لإلقاء نظرة مماثلة على الفقيه محمد بن المشري، و على الأسباب التي جعلته يقدم على تأليف كتاب الجامع لما افترق من درر

1 - المصدر نفسه، ج II، ص 285.

- Berque (J.), l'Intérieur du Maghreb, XVe s - XIXe s, op.cité, 243,n°1-2
- Awad (M.), un fondateur de confrérie religieuse maghrébine
Sidi Ahmed al-Tijani (1737- 1815), op.cité, p.254.

مع ملاحظة أن أي واحد من الدارسين لم يحل على المصدر الذي اعتمد عليه.

- محمد المنوني، المصادر العربية لتاريخ المغرب، منشورات كلية الآداب و العلوم

الإنسانية، الرباط 1989، ج II، ص 28.

العلوم، و على أهم ما ورد في هذا الكتاب ليتسنى بعد ذلك عقد مقارنة بين المؤلفين ومعرفة ما إذا كان كتاب الجامع يشكل إضافة أو تكراراً لجواهر المعاني.

2 - الجامع لما افترق من درر العلوم ¹.

أول ما يشد انتباه الدارس في هذا الموضوع هو الإحترام المتبادل بين الشيخين الخليفين في الطريقة التجانية، علي حرازم برادة و محمد ابن المشري، نستدل على ذلك بما ورد في كتاب جواهر المعاني على لسان مؤلفه، من تقدير و احترام لمحمد بن المشري، حيث نعت به « العالم العلامة، الفهامة الدراكة... الجامع بين الإفادة و علوم الطريقة خازن سره ² و حافظ عهده... و خليل أنسه... الشريف المنيف... الحسني السائح السباعي أصلاً، التكرتي من خط الجريد... و دارهم دار علم و صلاح، و لا زالوا إلى الآن من العلماء العاملين... و جلهم أخذ طريقة شيخنا ³... » و من المعلوم أن محمد بن المشري كان إماماً للشيخ التجاني في الصلاة لعدة سنوات،

1 - الإسم الكامل لهذا الكتاب الذي لا زال مخطوطاً هو : الجامع لما افترق من درر العلوم الفائضة من بحر القطب المكتوم.

2 - الضمير يعود على الشيخ احمد التجاني.

3 - علي حرازم برادة، جواهر المعاني، م. س، ج I، ص 86.

لأن هذا الأخير كان من صفاته أنه لا يؤم أحداً، وهذا ما جعل علي حراز مبرادة يصفه بخازن سره و حافظ عهده، و يمجّد أصله الشريف. نفس الإحترام و التقدير كان يكتنه محمد بن المشري لعلي حراز مبرادة، يتضح ذلك مما ذكره ابن المشري عندما كان بصدد الحديث عن كتاب جواهر المعاني و التنويه بمستواه «لأن أخانا السيد الحاج علي حراز رضي الله عنه كان أفاد في نسخته و أجاد في مدح قدوته و أطال الكلام في بعض مواضع نسخته لنصاحة قلمه و فتح بصيرته و مدد قدوته كأنه بحر يمدّه¹...»

أما عن الأسباب التي دعت له لتأليف كتابه، فمنها ما هو مشترك بينه وبين الفقيه علي حراز مبرادة و منها أسباب انفرد بها دون صاحبه، فأورد أن أمرين حملاه على تحرير كتابه أولهما حفظ كلام الشيخ سيدي احمد التجاني من الضياع، رغم أن بعض النجباء² قيد جله. إلا أنه في رأي ابن المشري دائماً، لم يكن بإمكانه استيفاءه بكامله، لأن بحر سيدي احمد التجاني لا ينقطع مدده. أما الأمر الثاني فيرجع إلى كون كلام الشيخ (التجاني) تفرق في نسخ عديدة على بلدان إسلامية مختلفة، بين أنصار الطريقة. و حصل في بعضها زيادة على غيرها أو تكرار أو نقص بحسب فهوم النساخ، و مع خشية ابن المشري من أن يعزو الناس ما فيه من

1 - محمد بن المشري، الجامع لما افترق من درر العلوم م.س، ج I ص : 4.

2 - يقصد علي حراز مبرادة.

النقص و الخلل لشيخ الطريقة، انتدب نفسه لتحرير نسخة صحيحة¹
جامعة لكل ما سمعه من شيخه الذي رافقه مدة طويلة و كان خازنا
لأسراره كما علمنا.

لكن ما هو سبب اختلاف النسخ ؟ جوابا على هذا السؤال يفيد ابن
المشري قائلا : « إنما لما كتبنا نسخا من كلام سيدنا رضي الله عنه
فتبادرها المحبون من تلاميذه و كتبوها بعد إخراجها من المبيضة بحسب
فهم كل واحد لرغبتهم في كلام سيدهم، فمن كانت فيه نجابة رتب على ما
أراده من المناسبة فصولا وأبوابا، و بعضهم كتب ما وجد في المبيضة
واتبعه²... » ثم يعود محمد بن المشري بالذاكرة إلى الورا ليقدم لنا عنصرا
إخباريا لم يتعرض له علي حرازم برادة، مفيدا أنه بعد عشر سنين من
ابتداء جمعهم لما سمعوه من أقوال سيدي احمد التجاني، أمرهم هذا الأخير
بإتلاف ما قيدوه (سجلوه) من مسموعاتهم عنه، فامتثلوا أمره، بعد تحير
كبير وتوسلات له بالتراجع عن ما أمر به، لكن بدون جدوى. فأتلفوا ما
كانوا يتوفرون عليه، في وقت بقيت نسخ أخرى بيد بعض أصحاب الشيخ،
ممن لم يكن لهم علم برغبة الشيخ في الإتلاف لبعد أماكن سكناهم³.

1 - محمد ابن المشري، م.س، ج I، ص 3-4.

2 - نفسه، ص 4.

3 - نفسه.

و من المرجح، في تقديرنا أن هذه الفترة¹، كانت سابقة عن إقامة الشيخ التجاني الأخيرة بفاس، وقد تكون سابقة² حتى عن تاريخ صدره للمشيخة بإذن الرسول صلى الله عليه و سلم، بعد الرؤيا التي رآها في قرية أبي سمغون سنة 1196³. ما يجعلنا نميل إلى هذا الطرح، هو تصريح ابن المشري بأن سيدي احمد التجاني، بعد إصدار أمره بالإتلاف، بقي مدة لم يتكلم في الحقائق إلى أن ارتحل إلى مدينة فاس سنة 1213، فأمرهم من جديد بجمع ما أتلّفوه من أقواله معللا ذلك بحصول الإذن له من الرسول صلى الله عليه و سلم، و هو أمر لا يمكن مخالفته.

و أمام هذه الضرورة الملحة، شرعنا نتساءل بشكل ملح، يقول ابن المشري حول ما إذا كان بالإمكان العثور على نسخة نجت من الإتلاف. وبعد فترة من البحث و التحري المتواصل أمكن العثور على نسخة عند بعض الإخوان، فسر الشيخ بذلك و استبشر، لأنه في حالة عدم العثور على أية نسخة سالمة من الضياع، كان بالإمكان أن يتسبب ذلك في تعب و مشقة للشيخ إذا أراد استحضار كل ما قاله، كما صرح الشيخ نفسه بذلك⁴. وعلى

1 - فترة العشر سنين التي جمعوا فيها ما سمعوه من الشيخ.

2 - لم يذكر ابن المشري التاريخ الذي حرر فيه نسخته كما فعل الفقيه علي حرازم برادة .

والذي لا شك فيه هو أنه حررها بعد أن أنجز برادة نسخته.

3 - علي حرازم برادة، م.س، ج I، ص : 43.

4 - محمد بن المشري، م.س، ج I، ص 4.

أساس هذه النسخة شرع علي حرازم برادة في تحرير النسخة المنسوبة إليه ، بمساعدة ابن المشري الذي كان يملي عليه ، و يقدم له العون في ترتيب فصولها و أبوابها و في ذلك يقول ابن المشري «...فساعفته وأملت عليه نحو خمسة كراريس أو أكثر في القالب الكبير ، ثم تفرد لكتابتها وحده ، و رتب باقيها على ما ظهر له ، فلما بلغ إلى آخر النسخة المنسوبة له ، وقع له السفر إلى الحرم الشريف الذي لم يرجع منه رحمه الله علينا و عليه ¹ ».

و إذا كانت نسخة علي حرازم برادة منقولة من النسخة التي نجت من الإتلاف ، وبما أن النسخة المنقولة عنها ، كانت تتضمن كل أقوال الشيخ ، فما هو السبب أو الأسباب الأخرى التي جعلت ابن المشري يحرر نسخة أخرى ، ما دام أن الهدف المتوخى تحقق بعد أن أنجز علي حرازم برادة نسخته ، وهو حفظ كلام الشيخ من الضياع ؟

نميل إلى الإعتقاد بأن ابن المشري أنجز عمله بسبب عدم اقتناعه على ما يبدو بجودة محتوى جواهر المعاني ، لأسباب موضوعية أهمها :

1 - عدم استجابة هذا الكتاب لرغبة كل الأحباب التجانيين الذين تتفاوت مستوياتهم الثقافية ، و أوضاعهم الإجتماعية فمنهم ² المتعلم والعالم و الأمي .

1 - المصدر نفسه .

2 - محمد بن المشري ، م.س ، جI ص : 3-4 .

- 2 - كون ابن المشري جمع عناصر أخرى من كلام سيدي احمد التجاني¹ حسب ما ذكر لم تدخل في نسخة علي حرازم برادة لكثرتها.
- 3- كثرة التكرار و الحشو في نسخة علي حرازم برادة.
- 4 - ارتفاع مستواه² المعرفي على مستوى عامة أتباع التجانية، لتواضع مستواهم الثقافي بالنسبة للأغلبية.
- 5 - توصله بطلب بعض الناس بوضع مختصر لأقوال الشيخ.
- و نظرا لكل ما سبق يقول ابن المشري : «تحركت همتي لنفعم مع طلب بعضهم مني أن نضع لهم مختصرا من كلام سيدنا رضي الله عنه، يفهمه الحاضر و البادي، فأجبتهم لذلك مستعينا بالله بعد الإستخارة³...»
- و تعقيبا على هذه الملاحظات التي أبداهها ابن المشري بخصوص نسخة علي حرازم برادة، و بعد قراءتنا لجواهر المعاني، و للجامع لما افترق، لم نلمس شيئا من خلال محتوى هذا الأخير يجعلنا نكون انطباعات بأن ما سطره من أهداف، انطلاقا من نفس الملاحظات، ضمنه نسخته، و كان في مستوى الوعود التي قطعها على نفسه، فإذا وجد حشو

1 - المصدر نفسه، ص: 4.

2 - المقصود به كتاب جواهر المعاني.

3 - محمد بن المشري، م.س،، ج I، ص5.

و تكرار في جواهر المعاني، فالملاحظة نفسها تنطبق على الجامع لما افترق من درر العلوم، باعتبار أن مستوى اللغة و الأسلوب هو نفسه في الكتابين لأن صاحبيهما ينتميان لجيل واحد و مدرسة و ذهنية واحدة. كما أن الإختصار الذي وضعه ابن المشري كأهم هدف، من وراء كتابة نسخته، استجابة لطلبات توصل بها، لم يتأت له، بحيث عند مقارنة الكتابين نجد أن كل واحد منهما يضم ما يناهز خمسمائة صفحة.

من جهة أخرى لم يقسم ابن المشري موضوعات كتابه إلى فصول واضحة المعالم كما هو الشأن بالنسبة لكتاب علي حرازم برادة، بل نجده لا يفرق بين الباب و الفصل، و اكتفى في المقدمة بإعطاء ملخص عما سيتضمنه الكتاب من مواد، فأفاد أنه رتبته على جزئين :

الأول : مشتمل على التعريف بنسب الشيخ القدوة و ابتداء أمره و ارتحاله¹ من بلده إلى مقصوده، و ملاقاته للأشياخ إلى أن ظفر ببغيته، و أمر ظهور طريقته و كيفيتهما، و ما اشتملت عليه من الأوراد العظام و الوظائف الفخام، و فضائلها و فضل من دخلها، و ما يناسب هذا من معرفة شيخ التربية... على أن يختمه حسب قوله بالصلاتين العظيمتين اللتين من إملاء، سيد الوجود صلى الله عليه و سلم ثم وعد بأن يلحق كل ذلك بشيء من فضائل الصلاة على النبي صلى الله عليه و سلم، لتحصل الفائدة لكل من أراد مطالعة هذا الجزء من عامة أتباع سيدنا و من غيرهم،

1 - محمد بن المشري، م.س، ص : 6.

لأن أكثرهم عوام، لا قدرة لهم على فهم العلوم الظاهرة، فضلا عن الحقائق¹.

الثاني : أعد ابن المشري هذا الجزء، حسب إفادته، لمن كانت فيه أهلية المطالعة و البحث، باعتباره أتى مشتملا على تفسير سيدي احمد التجاني لبعض الآيات القرآنية، فتكلم في أكثرها على طريق أهل الظاهر، وبعضها على طريق أهل الإشارة، مخبرا أنه رتب الآيات في الوضع على حسب ترتيب السور، تبركا بكتاب الله العزيز، واقتداء به، إلا ما ورد في حق صفوة الخلق عليهم الصلاة والسلام التي ينزه قدرهم على ظواهرها، مشتملا أيضا على أحاديث نبوية على طريق العامة والخاصة، و على مسائل كبيرة من الحقائق من كلام قدوتنا و ما يناسب من كلام غيره، يضيف نفس المصدر².

هذا الكتاب الذي لا زال مخطوطا حسب علمنا³ لم يذكر صاحبه في النسخة التي رجعنا إليها، متى شرع في تحريره، و لا متى انتهى منه، على عكس ما فعله علي حرازم برادة، و كل ما نجده في آخر صفحته من الجزء

1 - المصدر نفسه، ص : 5.

2 - نفسه، ص 6.

3 - يفهم مما أشار إليه صاحب فهرس المخطوطات العربية، الخزانة العامة، الرباط، ص 267 أن هذه النسخة تحمل عنوانا آخر و هو روض المحب الفاني فيما تلقيناه من أبي العباس التجاني، مخطوط رقم 2047 د.

الثاني من نفس النسخة هو اسم الناسخ المختار بن ابراهيم المبارك
الحسني التستاوتي أصلا السلاوي دارا و منشأ، الذي ذكر أنه انتهى من
نسخه يوم الثلاثاء 16 صفر 1283 / 1866¹.

بعد تقديم هذه المعلومات المقتضبة المتعلقة بمحتويات الجامع لما
افترق من درر العلوم، نعود لطرح السؤال الأساسي، بخصوص هذا
الكتاب و الذي أثرناه سابقا و أجلنا الجواب عليه. و هو هل تشكل نسخة
الجامع لما افترق إضافة أو تكرارا لجواهر المعاني؟

لا نعتقد أن نسخة ابن المشري تكون إضافة لنسخة علي حرازم
برادة، وهذا الإنطباع أشار إليه مصدر آخر²، ولنتأكد من ذلك اطلعنا على
محتوى النسختين، فتبين لنا صدق هذا الحكم، مع إثارة الإنتباه إلى أن
التطابق بين النسختين يهم المضمون و لا يتعلق بالشكل، لأن ابن المشري
لم ينقل نسخة علي برادة حرفيا، فهو يقدم و يؤخر، يختصر حيناً،
ويسهب أحياناً أخرى، علاوة على انفراده في نسخته ببعض القضايا
القليلة التي لم ترد في عمل صديقه و صاحبه، مما سنعمل على إبرازه، لكن
قبل ذلك نقترح تقديم جدول يوضح أن جل المواضيع المتناولة، إن لم نقل
كلها، في جواهر المعاني، هي نفسها المطروقة في كتاب الجامع لما افترق
من العلوم.

1 - محمد بن المشري، م.س، II، ص : 265.

2 - محمد عبد الله عنان، فهارس الخزانة الملكية، المجلد الأول، فهرس قسم التاريخ و كتب
الرحلات، الرباط 1980، ص 295.

مقارنة بين مضموني جواهر المعاني و الجامع لما افترق من درر العلوم¹.

عناون المواضيع المتناولة	في جواهر المعاني	في الجامع لما افترق من درر العلوم...	تعقيبات
1 - فصل في التعريف بنسب الشيخ سيدي حمد التجاني، قطب الأقطاب، علم الطريقة و بحر الشريعة و الحقيقة.	الجزء I ، ص 22	الجزء I ، ص 6 و ما بعدها.	الموضوعان رقم 1، و رقم 2 الموالي، قسمها ابن المشري فصلين، ولم يدخلهما تحت باب، بينما علي حرازم برادة جمعهما في باب واحد
2 فصل في ابتداء أمر الشيخ و نشأته	الجزء I ، ص 27	الجزء I ، ص 8 وما بعدها	ضمن الفصل الأول من الباب الاول ' من جواهر المعاني

1 - عناوين المواضيع المدرجة ضمن هذا الجدول و الجداول التالية منقولة حرفيا تقريبا من كتاب الجامع لما افترق من دور العلوم، وما يقابلها في جواهر المعاني إما له نفس العنوان أو أن =

3 - فصل في مراي الشيخ في أول عمره تدل على مقامه وعلى حاله اليوم	الجزء I، ص 44-45	الجزء I ص 10 وما بعدها	شكل هذا الموضوع، خاتمة الفصل الثالث من الباب الأول من جواهر المعاني
4 - باب في انتقاله من بلده ورحلاته لملاقاة الأشياخ	الجزء I، ص 36-37-38	الجزء I، ص 13 وما بعدها.	تطرق برادة لهذا الموضوع في الفصل الثالث.
5 - سند الشيخ محمود والشيخ السمان في الطريق رضي لله عنهما.	الجزء I، ص 39-40	الجزء I، ص 16 وما بعدها	هذه المسألة تطرق لها علي حرازم برادة في الفصل الثالث من الجزء الأول: تحت عنوان : في أخذ رشده وهدايته.

= = المضمون فقط يدل على ذلك .

كما تجدر الملاحظة إلى أن بعض المسائل التي تطرق لها ابن المشري ضمن فصل أو باب

واحد عالجها علي حرازم برادة في أماكن متفرقة من كتابه.

6 - فصل في صفة مقامه الذي لم يصله أحد من الرجال	الجزء I، ص 48 وما بعدها.	الجزء I، ص 17 وما بعدها.	عالجه علي حرازم برادة في الفصل الأول من الباب الثاني
7 - فصل في نبذة من مناقب الشيخ وبارقة من كراماته.	الجزء II، ص 207 وما بعدها.	الجزء I، ص 24 وما بعدها.	عالج حرازم برادة جزءا كبيرا من هذا الموضوع في بداية الباب السادس والأخير من كتابه.
8 - باب في ذكر أوان ظهور طريقته المقدسة وكيفية ترتيب أورادها ووظائفها ، وفضلها ==	الجزء I، ص 100 وما بعدها	الجزء I، ص 28 وما بعدها.	تطرق برادة لجزء كبير من هذا الموضوع في الفصل الأول من الباب الرابع.

			= وفضل الأوراد المذكورة.
9 - فصل في ذكر الياقوتة الفريدة والحقيقة المحمدية.	الجزء I، ص 114-122 الجزء II، ص 265.	نفسه، ص 34 وما بعدها.	هذا الموضوع الذي ذكر جمعه ابن المشري في فصل واحد، عالجه برادة • ضمن الفصل الأول من الباب الرابع، وضمن الباب السادس والأخير من كتابه.
10 - فصل يكتب لذاكر الاسم بكل ملك خلقه في العالم فصل عشرين من ليلة القدر	الجزء I، ص 60 وما بعدها	الجزء I، ص 50 وما بعدها.	تطرق علي حرازم برادة لهذا الموضوع ضمن الفصل الأول من الباب الثاني على الخصوص وفي أماكن متفرقة..

11 - باب في معرفة شيخ التربية وصفة لمريد الصادق وما يناسب هذا الباب من الشروط اللازمة، وبعض من شطحات الأولياء وكذلك الأجوبة على الأنوار المشرقة وما معها وكل ما يناسب هذا المحل من كلام لشيخ.	في الجزء I، ص 109 - 129	الجزء I، ص 58 وما بعدها	تطرق صاحب جواهر المعاني لهذا الموضوع في الفصل الثاني . و الفصل الثالث من الباب الرابع
12 - فصل في الأمور التي تكون سببا لطرده المريد عن الشيخ.	الجزء I، ص 129.	الجزء I، ص 74 وما بعدها	يوجد ضمن الفصل الثاني من الباب الرابع من كتاب جواهر المعاني

13 - فصل في أجوبة الشيخ من بعض شطحات الأولياء.	الجزء I، ص 12، ثم الجزء II ص 62-63-64	الجزء I، ص 80 وما بعدها.	تناول علي حرازم برادة هذا الموضوع في أماكن مختلفة من كتابه، في مقدمة الجزء I، وضمن الفصل الثالث من الباب الخامس.
14 - حقيقة لقطبانية	الجزء II، ص 80.	الجزء I، ص 98 وما بعدها.	ضمن الفصل الثالث من الباب الخامس من جواهر المعاني.
15 - فصل في أسئلة على الشيخ حول الأنوار المشرقة	الجزء I، ص 68.	الجزء I، ص 105 - 106.	ضمن الفصل الثالث من الباب الخامس من جواهر المعاني.

16 - فصل في فيوض لشيخ وادعيته ومطالبه الحسية.	الجزء I، ص 141 وما بعدها	الجزء I، ص 121 وما بعدها.	ضمن الفصل الثالث من الباب الرابع من جواهر المعاني.
17 - باب في رسائل لشيخ البليغة، ونصائحه لرقيقة.	الجزء II، ص 151 - 184.	الجزء I، ص 131 إلى 158.	أدرجها علي حرازم برادة في الفصل الرابع من الباب الخامس.
18 - فصل في جواب لشيخ عن سؤال يتعلق بإهداء ثوب	نفسه، ص 209 وما بعدها.	نفسه، ص 165 وما بعدها.	يلاحظ أن ما سماه ابن المشري فصلا في رقم 18، يتكامل مع رقم 20، ورغم ذلك عمل على فصلهما، وقد تطرق =

علي حرازم برادة لهذا الموضوع في الباب السادس .			= = الصلوات للرسول صلى الله عليه وسلم
ضمن الباب السادس من جواهر المعاني.	نفسه، ص 168 إلى 220	الجزء II ، ص 265 إلى 279 و مابعدھا	19- باب في ذكر الصلوات التي هي من فيض الغيب
ضمن الباب السادس من جواهر المعاني.	نفسه، ص 225 و مابعدھا	نفسه، ص 210.	20- فصل في ذكر شيء من فضائل الصلاة على النبي (ص) و خواصھا و تبركا بها.

21 - باب	- الجزء I،	الجزء II،	هذا الباب قسمه علي حرازم برادة إلى فصلين، فصل خاص بأجوبة الشيخ علي الآيات القرآنية، وآخر لأجوبته على الأحاديث النبوية
يشتمل على آيات قرآنية وأحاديث نبوية تكلم الشيخ عليها.	ص 148 وما بعدها.	ص 1 وما بعدها	
22 - فصل	الجزء I،	نفسه،	ضمن مقدمة الجزء الأول من الجامع لما افترق من درر العلوم.
في محبة لحق الخلق.	ص 16	ص 5.	
23 - فصل	نفسه،	الجزء II،	ضمن الباب السادس من جواهر المعاني
في معنى المعية التي وردت في القرآن الكريم وكذلك معنى القرب.	ص 215 وما بعدها.	ص 82.	

24 - باب في أحاديث قدسية وغيرها والفاظ من المتشابه كالضحك والقدم.	الجزء II، ص 2، ثم ص 21 وما بعدها.	الجزء II، ص 105 وما بعدها.	هذا الفصل عند ابن المشري يحمل اسم: الفصل الثاني في الأحاديث النبوية وعلموه الاختصاصية المصطفوية.
25 - فصل في بيان محبة الرسول صلى الله عليه وسلم للنساء والطيب.	الجزء II، ص 38 وما بعدها.	الجزء II، ص 138 وما بعدها.	ضمن الفصل الثاني من الباب الخامس من جواهر المعاني
26 - فصل في إزالة	الجزء I، ص 195.	الجزء II، ص 151	ضمن الفصل الأول من الباب الخامس من =

جواهر المعاني	و ما بعدها.		= ووضوح التحقيق في بطلان حديث الغرانيق
ضمن الفصل الأول من الباب الخامس من جواهر المعاني.	الجزء II، ص 158 و ما بعدها.	الجزء I، ص 258 و ما بعدها.	27- فصل حول الأخبار الواردة في السيدات الطاهرات، سيدتنا فاطمة بنت رسول الله (ص)، و مريم ابنت عمران و أسية بنت مزاحم و أمنا خديجة رضي الله عن جميعهن

28- فصل في بيان سبب المحبة و العداوة بين الخلق.	الجزء II، ص 108.	نفسه، ص 161 و ما بعدها.	ضمن الفصل الثالث من الباب الخامس من جواهر المعاني.
29- باب في حل رموز وإشكالات لبعض الأكابر من السادات رضي الله عنهم.	نفسه، ص 48 و ما بعدها	نفسه، ص 163 و ما بعدها.	تطرق علي حرازم برادة لهذا الموضوع في الفصل الثالث من الباب الخامس
30- فصل في معنى جواهر القلب السبعة	نفسه، ص 92.	نفسه، ص 175 و ما بعدها	ضمن الفصل الثالث من الباب الخامس من جواهر المعاني
31- فصل في معرفة الروح	نفسه، ص 56.	نفسه، ص 179	ضمن الفصل الثالث من الباب الخامس =

من جواهر المعاني.	و ما بعدها.		= والقلب والنفس و السر و الخفاء و إخفاء الخفاء
ضمن الفصل الأول من الباب الخامس من جواهر المعاني	الجزء II، ص 183 و ما بعدها	الجزء I، ص 223 و ما بعدها	32- باب في أن الحروف تنقسم إلى ثلاثة أقسام، وفي بيان التصرف بها، وهي لفظية ورقمية وفكرية، وما يوجد عند كل واحد منهما
ضمن الفصل الثالث من الباب الخامس =	نفسه، ص 187	الجزء II، ص 100	33- فصل: هل خرج

من جواهر المعاني.	و ما بعدها	و ما بعدها	= النبي عند ولادته من محل الولادة أم من تحت السرة ؟
عالج علي حرازم برادة هذا الموضوع ضمن الفصل الثالث من الباب الخامس من جواهر المعاني.	نفسه ، ص 192 و ما بعدها	نفسه ، ص 106.	34- باب في مسائل من كلام الشيخ تتعلق بالجواب عن سؤال: الكشف الصحيح إذا خالف النص الصريح، ماذا يقدم منهما ؟
ضمن الفصل الثالث من الباب الخامس من جواهر المعاني. ==	نفسه ، ص 202 و ما بعدها	نفسه ، ص 109 و ما بعدها	35- فصل حول قول الشيخ : عدد الأنفاس أربعة

			== و عشرون ألفاً، نصفها داخل و نصفها خارج، و أما الخواطر فعددتها سبعون ألف خاطر.
ضمن الفصل الثالث من الباب الخامس من جواهر المعاني.	نفسه، ص 210 و ما بعدها	نفسه، ص 115	36- فصل حول شرك الأغراض.
ضمن الفصل الخامس من الباب الخامس من جواهر المعاني. ==	نفسه، ص 220 و ما بعدها	نفسه، ص 184 و ما بعدها	37- باب في مسائل فقهاء قال فيها الشيخ ليست على إطلاقها في الكتب،

			= = إنما بعضها باطل، و بعضها فيها تفصيل.
ضمن الفصل الثالث من الباب الخامس من جواهر المعاني	نفسه، ص 240 و ما بعدها	نفسه، ص 66 و ما بعدها	38- فصل حول قول الإمام الغزالي ليس في الإمكان أبدع مما كان، و جواب الشيخ عن ذلك.
ضمن الفصل الثالث من الباب الخامس على الخصوص، و في أماكن متفرقة من جواهر المعاني. = =	الجزء II، ص 241 و ما بعدها	الجزء II، ص 111 و ما بعدها	39 - فصل حول جواب الشيخ عن الفرق بين العلوم والفتوحات والمواهب

			= و الفيوض و الحقائق و الدقائقو الرقائق، و التجليات، و المشاهدات و المكاشفات و المعارف و الحضرات و المقامات و المنازل و الأنوارو الواردات و الأحوال.
--	--	--	--

كانت هذه جداول توضيحية، قمنا من خلالها بالمقارنة بين كتابي جواهر المعاني و الجامع لما افترق من العلوم، رامين من وراء ذلك إلى إثبات أن عمل ابن المشري يكرر عمل علي حرازم برادة إلى حد كبير. أما ما يمكن أن يشكل إضافة في عمل ابن المشري مقارنة مع عمل زميله وصاحبه، فنعتقد أنه يتعلق بقضايا قليلة، قد يكون تلقاها من شيخه بعد وفاة الفقيه علي حرازم برادة سنة 1218، و بأجوبة عن أسئلة طرحها ابن المشري نفسه على سيدي احمد التجاني، يشهد على ذلك العبارات المتكررة التي يقول فيها : « و سألت سيدنا رضي عنه ». و يوجد في

هذه الإضافة أيضا مسائل قال عنها إنها ليست من كلام الشيخ. و نعرض
فيما يلي، ضمن جدول لأهم المسائل التي رصدناها في كتاب الجامع لما
افترق من درر العلوم، و التي نظن أن صاحبه انفرد بها.

جدول بأهم المسائل التي انفرد بها كتاب الجامع لما
افترق من درر العلوم لابن المشري

عناوين المواضيع المتناولة في الجامع لما افترق من درر العلوم.	الجزء ء و الصفحة
1 - فصل : مسألة مهمة في الكلام عن الأئمة.	الجزء I، ص 158 و ما بعدها
2 - فصل أجنبي في مسائل ينبغي كتابتها هنا وإن كانت ليست من كلام سيدنا رضي الله عنه.	نفسه، ص 160 و ما بعدها
3 - فصل في ذكر آيات فيها رجاء عظيم للتائبين، و من أي محل تطلب، و في قاتل المومن عمدا، هل له توبة أم لا ؟	الجزء II، ص 20 و ما بعدها
4 - فصل في جملة آيات منها ما	نفسه، ص 28 و ما بعدها.

	ورد في رؤية الحق، هل حصلت لأحد في الدنيا غير سيد الوجود (ص)؟
نفسه، ص 47 و ما بعدها.	5 - فصل في بيان معرفة الروح القدسي و الروح الحيواني.
نفسه، ص 58 و ما بعدها.	6 - فصل في بيان أقسام الوحي.
نفسه، ص 93 و ما بعدها.	7- فصل فيما ورد من الآيات التي تصرف عن ظواهرها في حق صفوة الله النبيئين و المرسلين عليهم الصلاة و السلام و كذلك الملائكة
نفسه، ص 208 و ما بعدها.	8 - باب في معرفة الرياضة و أصولها .
نفسه، ص 246 و ما بعدها.	9 - سألته رضي الله عنه عن الكاف في قوله تعالى ليس كمثله شيء، فإن علماء المعقول اختلفوا فيها.

10- فصل: سؤال حول من يدعي التبحر في العلم. و هو ما رأس العلم و ما قلبه و ما أجنحته ؟	نفسه، ص 249 وما بعدها.
11- باب وهو ختم هذا المجموع المبارك حول عدد أدراج الجنة و عدد كل من يدخلها	نفسه، ص 250 و ما بعدها.
12- فصل في بعض نصائح سيدنا : اعلم أن قساوة القلب أعظم البلايا.	نفسه، ص 252 و ما بعدها.
13- باب في بيان ماهية قواعد العقل عند المنحصرين في دائرته و عند غيرهم من الكمل المحققين.	نفسه، ص 252 و ما بعدها.

3 - الإفادة الأحمديّة لمريد السعادة الأبدية .

مؤلف هذا الكتاب هو الفقيه و العالم الجليل محمد الطيب السفيناني،
مقدم الطريقة التجانية في وقته بفاس، و ثالث الثلاثة إلى جانب علي حرازم

برادة و ابن المشري، الذين أمنوا بدعوة سيدي احمد التجاني وساندوه بالغالي و النفيس، حتى عرفت الطريقة بنفسها و اشتد ساعدها. ولم يكتف السفيناني بالدعم المادي عندما وضع كل ما يملك رهن إشارة الشيخ، بل كان له إسهام فكري على غرار ما فعل صاحب جواهر المعاني والجامع لما افترق. غير أن كتابه، الإفادة الأحمديّة لمريد السعادة الأبدية، لا يرقى إلى مستوى الإثنين الآخرين شكلا و مضمونا، وإن كان تدوين ما قاله شيخهم هو العامل المشترك الذي يجمع بينهم، و لا يشير السفيناني في مقدمة كتابه و لا في نهايته إلى التاريخ الذي أنجز فيه كتابه، و من المعلوم أنه عاش ما يقرب من ثلاثين سنة بعد وفاة سيدي احمد التجاني عام 1230/1815.

توجد بالخزانة العامة مخطوطتان من هذا الكتاب، إحداهما تحمل رقم 2106/د، و هي منسوبة لسيدي احمد التجاني¹ و الثانية تحمل رقم 900د منسوبة للطيب السفيناني. و لم نتمكن من معرفة متى و لا أين طبعت الإفادة الأحمديّة لأول مرة، مع الإشارة إلى أن النسخة المنشورة التي نتوفر عليها تم طبعها بمصر² سنة 1389/1970، بعناية و تعليق السيد محمد الحافظ المصري التجاني صاحب التآليف العديدة في الطريقة التجانية، و في مقدمتها كتابه عن دولة الحاج عمر الفوتي التجانية بالسودان

1 - ربما باعتبار أنه صاحب المضمون.

2- محمد الطيب السفيناني، الإفادة الأحمديّة لمريد السعادة الأبدية، علق عليه العلامة السيد

محمد الحافظ التجاني، مصر 1389.

الغربي . هذه النسخة المنشورة في 125 صفحة تشتمل على مدخل بقلم محمد الحافظ التجاني، عرف من خلاله في حوالي عشر صفحات بالشيخ سيدي احمد التجاني و بمؤلف الإفادة، ثم يليه النص الكامل للإفادة، مع تعليق له على مضمونها، و شغل هذا النص حيزا يقدر بحوالي 100 صفحة من الحجم المتوسط. أما آخر هذه النسخة المنشورة فقد ذيله محمد الحافظ المصري بملحق من أربع صفحات، أجاب فيه عن بعض الأسئلة المتعلقة ببعض مضامين الإفادة التي تحتل أكثر من تأويل.

و قبل إعطاء نظرة سريعة عن مضمون الإفادة الأحمدية، ليتأتى لنا مقارنتها بشكل جيد مع جواهر المعاني والجامع لما افترق، و معرفة مدى أهميتها في الكتابات التي ساهمت في تدوين تعاليم الطريقة التجانية، وعلوم شيخها، نشير إلى أن احمد سكيرج أورد مقتطفات منها في كشف الحجاب عن تلاقى مع الشيخ التجاني من الأصحاب².

استهل الطيب السفيفاني كتابه، بعد الحمدلة والصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم قائلا : «...و بعد فأول ما يعتنى بتقييده بعد كلام مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم كلام المشايخ

1 - محمد الحافظ التجاني، الحاج عمر الفتوي، سلطان الدولة التجانية، الزاوية التجانية، القاهرة، د.ت.

2 - احمد سكيرج، كشف الحجاب، م.س، ص 177 إلى 184.

رضي الله عنهم إذ هم خلفاؤه المغترفون من فيض بحرهِ...وأولى ذلك عندي جمع كلام شيخ الشيوخ و معدن الثبات والرسوخ، قطب الأمة المحمدية و خليفة عين الرحمة الربانية، أبي العباس مولانا احمد التجاني الحسني رضي الله عنه¹...»، لأن كلام شيخه على حسب قوله، أجل عنده من كلام غيره وأوقع في قلبه لجزالته و كثرة نفعه، و أفاد أنه تلقى جله مشافهة منه والباقي ممن يثق به. و من الأسباب التي جعلته يقوم بهذا العمل خوفه على أقوال شيخه من الضياع، لينتفع بها من أراد الله به الخير و الإنتفاع، و هو سبب من الأسباب التي حفزت علي حرازم برادة و ابن المشري على إنجاز كتابيهما.

و هنا لابد من لفت الإنتباه لمسألة مهمة من الناحية المصدرية، ذلك أن مؤلفي جواهر المعنى و الجامع لما افترق، تلقيا كل الأقوال المنسوبة للشيخ، في حياته، و منه مباشرة، لأنهما توفيا معا قبل وفاة سيدي احمد التجاني، الذي لقي ربه سنة 1230 كما أسلفناه في حين لم يميت السفيناني إلا سنة 1259 / 1843، مما يعني أن ما أورده في الكتاب الذي نحن بصددّه، قد يتضمن أقوالا مشكوكا في صحة نسبتها للشيخ التجاني، و مما يجعلنا نصدر هذا الحكم قول السفيناني : «...و لقد تلقيت جله

1 - محمد الطيب السفيناني، الإفادة الاحمدية، م.س، ص 12.

مشافهة منه و الباقي ممن أثق به ¹ ...»

رتب الطيب السفيفاني أقوال شيخه ترتيباً أبجدياً، و عقب ² على كل قول له، ذي مدلول ديني، اقتصادي أو اجتماعي أو سياسي، بما يفسر سبب إيراد سيدي احمد التجاني لذلك القول. و نقدم فيما يلي جدولاً يعرض لبعض أقوال الشيخ التجاني من حكم، و توجيهات عامة، و شعور أحياناً بالمرارة و الغضب، مصحوبة بكلام الطيب السفيفاني بالمناسبة مع التأكيد مرة أخرى على أننا سنختار نماذج فقط من هذه الأقوال، مراعاة للتركيز والإختصار دون أن نورد شيئاً عن تعليقات محمد الحافظ المصري الكثيرة على محتوى الإفادة الأحمدية.

1 - المصدر نفسه، ص 12.

2 - حالات قليلة فقط من أقوال الشيخ لم يعقب فيها السفيفاني على كلام شيخه.

**بعض أقوال الشيخ سيدي احمد التجاني من خلال الإفادة
الاحمدية لمريد السعادة الأبدية**

ص	حرف	تعقيب الطيب السفياني عليه	كلام الشيخ سيدي احمد التجاني
13	الألف	سببه أنه سئل رضي الله عنه أيكذب عليك قال نعم و ذكره.	1 - إذا سمعتم عني شيئاً فزنوه بميزان الشرع فإن وافق فاعملوا به وإن خالف فاتركوه.
32	الألف	و ذلك لسبب لم يبينه لنا.	2 - أمرني صلى الله عليه وسلم بجمع كتاب جواهر المعاني وقال لي : كتابي هو وأنا ألفته ، بعدما كنت أمرت بتمزيقه و مزق.
35	الألف	سببه أن بعض الناس أهدى له غنما أو إبلا فيها شاة مريضة فردها إليه	3 - أنت أولى بها مني.

40	الألف	سببه أن بعض الأحاباب عرض عليه بنته لولده سيدي محمد الحبيب، فتعلل بذلك، و ما تمت السنة حتى كانوا قاطنين بها.	4 - أولادي لا تليق بهم إلا الصحراء، يفلحون بها و يعيشون، و البنت لا تليق بها إلا الحاضرة.
43	الباء	سببه أن قائد الوقت ضرب عبدا لسيدي احمد التجاني بشهادة بعض التجار وسجنه، فلما سمع الشيخ بذلك أتى القائد و قال له لم ضربت العبد؟ أنت ظالم، قال له شهد فيه المسلمون فقال رضي الله عنه و الله ما هنا إلا الكافر و أخوه فأقام بيينة على هذه القولة و كتب به إلى السلطان، فأخبر بالبيينة و بالكتابة إلى السلطان، فقال لست بناكر حتى يقيم علي البيينة، =	5 - بعد ما يقرأه يتركه و لا يتكلم في شأنه (يقصد السلطان).

		قال (ص) لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم بعضا... ووقع كما أخبر (ر).	= =
44 45	الباء	سببه أن مخزن الوقت أراد أن يجيز ماء في دار أيتام جيران له رضي الله عنه، فامتنع مقدمهم من ذلك و قال إن غلبت على أمري أدفعهم لدار الشيخ و هو يتكلم في شأنهم، فأخبر بذلك فذكره، فحول الله قلب المخزن و جوز الماء في المحجة.	6- بالحق جيرانني، ما نجوزهم في الدنيا و لا في الآخرة.
46	التاء	سببه أنه سئلت منه فاتحة و أعيد عليه سؤال الفاتحة مرة أخرى فذكره.	7- تكرار الفواتح مبطل للدعاء

46	التاء	كان رضي الله عنه يشدد فيها غاية، ويرى أن صاحبها، إن لم يتب من استعمالها لا يموت على حسن الخاتمة.	8 - تبعة حرام و الأصل في حرمتها قوله (ص) كل مفتر حرام وهي من المفترات.
47	الثاء	يعني نبذه و أخذ ورد آخر معه، و لو كان قبله لأن الإنفراد به شرط في طريقه، و قوله الأولياء شامل للأحياء والأموات.	9 - ثلاثة تقطع التلميذ عنا : أخذ و رد على وردنا، و زيارة الأولياء و ترك الورد.
49 50	الحاء	قاله في الترك الذين بالجزائر، لأنهم يقدمون قوانينهم على قانون الشرع و يحكمون بغير ما أنزل الله.	10- حكاهم كفار
52	الخاء ==	سببه أنه سئل رضي الله عنه عن معنى دار الضمانة، فذكره.	11- الخروبي الطرابلسي كان

			= قطبا و سأل النبي (ص) الشفاعة في أهل عصره فقال له (ص) سبقك محمد ولدي (يعني سيدي محمد بن عبد الله الشريف دفين وزان)
52	الدال	سببه، قيل له إن بعض المشايخ قال الدار المباركة ليس فيها مبارك ولا مباركة.	12- الدار المباركة هي التي فيها مبارك و مباركة
54	الذال	سببه أن بعض الناس كان يدعي أنه أخذ وردده رضي الله عنه و كان يتعرض لإذايته، فلما رأى منه ذلك أخبر بهلاكه، فقليل له تاب من ذلك فذكره.	13- ذنوب الشيخ لا تغفر.
54	الذال	سببه أنه رضي الله =	14- الذي يعطيني

		= شيئاً يعطيه الويل. عنه كان يتكلم في الأخذ والعطاء، وأنهما لا يكونان إلا من الله ولله. و من أعطى لغير الله تعالى، أو أخذ من غيره فما له إلا الويل، وذكره.	
56	الراء	سببه أن أصحابه أوقدوا الزاوية ليلة سبع و عشرين من رمضان على عادة مساجد البلد وكثرُوا المصابيح فأخبر بذلك، فذكره.	15- روحوا اطفئوا المصابيح و أغلقوها
57	الراء	قاله لطالب علم أخذ عنه الورد و بقي جالسا، فقال له قم لشغلك، قال ما عندي شغل أنا طالب فذكره، و من عادته رضي الله عنه يحض أصحابه على تعليم أولادهم الحرف بعد تعليم ما تيسر من القرآن، =	16- روح يا مسكين تعلم صنعة ما دمت صغيرا

		و تعليم الكتابة ليلا يضيعوا.	= =
58	الطاء	بدون تعليق.	17- طابعنا ينزل على كل طابع و لا ينزل طابع عليه.
59	الطاء	بدون تعليق	18- الطالب كيف الذيب لا صوف لا حليب، و العامي كيف النعجة منها الصوف منها الخروف منها السمن منها اللبن منها اللحم.
64	الكاف	سئل عن لعب الشطرنج فذكره	19- كل ما يشغل عن الله من هذه اللعوب فهو حرام.
64	الكاف	قاله لامرأة قبلت الأرض =	20 - كفرت، قولي

		بين يديه رضي الله عنه.	= أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله.
66	اللام	قاله تحدثا بنعمة الله تعالى، ونصيحة وترغيبا لأخذ طريقته المحمدية على منشئها أفضل الصلاة و أزكى التسليم.	21- لو أطلع أكابر الأقطاب على ما أعد الله تعالى لأصحابنا في الجنة لبكوا عليه وقالوا ما أعطينا شيئا.
70	اللام	قاله لوصي على ثلث فجعل يزم الشيء الذي لا عبرة به مثل القصعة والزلائف و المغارف فذكره، فبحث الوارث في الوصية فأفسدها بتلك المقاشحة.	22 - لا تقاشح مقاشحة أهل ¹ فاس.

1 - واضح هنا أسلوب التعبير العامي.

70	اللام	سببه، وقف الناس على الشتاء و جاءوا يطلبونه يدعو لهم الله أن يسقيهم فذكره.	23 - الله يلطف بنا وإذا لم يكن اللطف و كانت الشتاء من يأكل الزرع و يلهو به.
78	الميم	بدون تعليق	24 - ما خلفت أحدا سوى الحاج علي حرازم أمرني (ص) بذلك فخلفته.
79	الميم	سببه أن بعض أهل البيت طلبه أن يدعو له بالإستقامة، فقال له : الله يقبل عليك بفضله ورضاه فسئل لماذا، لم يدع له بالإستقامة، فذكره.	25 - من يريد الإستقامة في هذا الزمان كمن يريد أن يبني سلما إلى السماء.
83	النون	بدون تعليق	26 - الناس اليوم كيف الدجاج أعطهم غير يحصلوا شيئا =

			= في فهمهم و لا عليهم فيه من أين أتى و لا أين يصيرون ¹ .
84	الصاد	قاله لما كان يتكلم في فضلها.	27 - الصلاة في الزاوية مقبولة قطعا.
85	العين	قاله لرجل شاوره في أمر ولده.	28 - علمه ما تيسر من القرآن و علمه الكتابة و علمه صنعة يعيش بها.
90	القاف	سببه أن بعض المبتدعة المدعين سأل بعض أصحابه أن يعطيه شيئاً من الطعام و الإدام فسوفه ليسأل الشيخ فلما سأل ذكره.	29 - قل له الرصاص نعطيك على قلبك

1 - التعبير العامي غالب على هذه العبارة.

85	القاف	قاله في سيدي الحاج علي حرازم مؤلف كتاب جواهر المعاني.	30- قال لي صلى الله عليه و سلم هو منك بمنزلة أبي بكر
92	السين	سببه أن بعض حكام الوقت وشى به للسلطان فتخوف أصحابه من ذلك، فذكره.	31- سمعت في الحضرة أنني لا تصل إلى يد بسوء أبدا.

ص	حرف	تعقيب الطيب السفيفاني عليه	كلام الشيخ سيدي احمد التجاني
92	السين	ثبت عند أصحابه رضي الله عنه رفع الإذن في الورد عمن شربه.	32 - سكر القالب حرام أكله و بيعه، ثبت عندي أنه مصفى بالدم، و هو عندي بمنزلة الخمر.
96	الشين	ذكره تحدثا بنعمة الله.	33- شفّعني الله في أهل عصري من يوم ولادتي إلى يوم حلول رمسي.
97	الهاء	سببه أنه ذكر بين يديه في ليلة السابع و العشرين من رمضان، أن النساء يبتن في القرويين و يزغرتن عند ختم القرآن... فذكره.	34 - هذا مسجد مهان يجب علينا هجره.

100	الواو	سببه أن رجلا كان يجيء كل جمعة للقرويين، و منذ يجيء و هو يمر بين يديه و يلوح له بالكلام، و وقف مرة قبالة بعد الصلاة خارج المسجد و هو يركب، و أكثر من كلامه، فهز عليه الفرس و ذكره. فما تمت الجمعة حتى مات مما أصابه في ذلك الوقت.	35- و الله حتى نفوس في مصارين اليهودي ابن اليهودي.
101 102	الواو	سببه أنهم سرقوا له ماء داره من موضع القسمة بالمبرد، و حين طالع ذلك ذكره.	36- و الله حتى نأمن في اليهودي و لا نأمن في أهل مصر و أهل فاس.
104	الياء	سببه أن قائد الوقت صنع وليمة ودعاه فأتى رضي لله عنه للوليمة، و ذكره لعله =	37- يا أبا مسعود، خذ شيئا من الطعام في أنية.

		أخذه والله أعلم على سبيل المدارة لأنه لا يأكل للشبهة...	= =
104	الياء	بدون تعليق	38- يزيد بن معاوية ملعون لقوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُوْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾

بعد استعراض بعض ما تضمنه كتاب الإفادة الأحمدية للطيب
السفياني يتضح أن قيمته العلمية لا يمكن مقارنتها مع مضامين كتابي
جواهر المعاني والجامع لما افترق. ففي الوقت الذي نجد فيه هذين
الأخيرين عبارة عن مجلدين ضخمين و طافحين بكل ما يتعلق بالطريقة
التجانية من أورد، و أذكار و أجوبة الشيخ على أسئلة متعددة، منها ما يهم
فقه الطريقة و منها ما يتعلق بالفقه الإسلامي بشكل عام، نجد كتاب الإفادة
نحيفا في حجمه، فقيرا في مضمونه، تغلب العامية على الأسلوب الذي علق

به على أقوال الشيخ سيدي احمد التجاني.

و من المؤشرات التي تدل على تفوق مستوى علي حرازم برادة و ابن المشري العلمي على صاحبهما الطيب السفنياني، المقدمتان المتصدرتان لكتابيهما، المحررتان، بلغة عربية سليمة، و بمستوى علمي جدير بالإحترام، و هذا ما لا نلمسه في كتاب الإفادة. لكن العامل المشترك الذي يوجد بين هذه الأعمال الثلاثة في شكلها العام، كما قلنا آنفا، هو جمعها لكلام سيدي احمد التجاني.

بعد هذه الملاحظات الأولية حول هذه الكتب، و مؤلفيها، و مقارنة مضامينها، ننتقل إلى الشق الثاني من هذا المحور، المتعلق بأوراد الطريقة و أذكارها و علوم شيخها كما يعكسها المؤلفان الرئيسيان.

II - أوراد الطريقة و علوم و كرامات شيخها خلال

جواهر المعاني و الجامع لما افترق من درر العلوم .

1- أوراد الطريقة .

يعتبر كتابا جواهر المعاني و الجامع لما افترق من درر العلوم، المصدران الأساسيان لمعرفة أصول الطريقة التجانية و قواعدها بالإضافة إلى بعض النماذج من كرامات الشيخ و تضلعه في مختلف العلوم الإسلامية، بغض النظر عن كون هذين الكتابين يكرر أحدهما الآخر في

جل ما ورد فيهما من معلومات.

و الواقع أن ما يمكن أن نطلق عليه إنتاجا فكريا لرجال الطريفة التجانية في هذه الفترة المتزامنة مع حياة الشيخ، من خلال الكتابين المذكورين، تطرق بشكل أساسي لكل ما يتعلق بشخصية سيدي أحمد التجاني من ولادته إلى وفاته، مروراً بنشأته، ودراسته وسلوكه، وأسفاره، و الأخذ عن شيوخه إلى أن أمره الرسول صلى الله عليه وسلم بقرية أبي سمغون سنة 1196هـ بالتصدر للمشيخة وإعطاء الأوراد لمن رغب فيها، لينتقل بعد ذلك، وبصفة نهائية إلى مدينة فاس التي سيتخذها ابتداءً من سنة 1213 هـ¹ قاعدة لانتشار طريقته. وهي المواضيع التي خصص لها علي حرازم برادة ثمانية فصول امتدت على حوالي مائة صفحة، ليتطرق في الأبواب والفصول الباقية إلى مواضيع أخرى لها صلة وثيقة بالشيخ دائماً، بل وهي المتعلقة بتعاليم الطريقة التجانية من أورداد و أذكار كما تلقاها المؤلفان من شيخهما، وكذا كرامات الشيخ وأجوبته على مختلف الأسئلة التي تبرر مدى تضلعه في مختلف العلوم العقلية والنقلية. وهذه المواضيع الأخيرة هي التي تملأ الحيز الأكبر من كتاب جواهر المعاني باعتبار أنها تشغل مائة وإحدى وستين (161) صفحة، مما تبقى من الجزء الأول من الكتاب، ثم كل الجزء الثاني منه، والذي تقدر صفحاته

1 علي حرازم برادة، جواهر المعاني، م.س، ج I، ص 44.

بمائتين وخمسة وثمانين (285).

و بما أن الفصول الثمانية الأولى المشار إليها أنفا قد وظفنا أهم مضامينها في فصول سابقة تتعلق بأهم مراحل حياة الشيخ قبل تصدره لإعطاء أوراد الطريقة و بعدها، فإننا سنركز أساسا، فيما يلي على كل ما يتعلق بأوراد الطريقة، وعلاقة الشيخ بالمريد، وكرامات سيدي احمد التجاني، و علومه، مقتصرين في ذلك على إعطاء الخطوط العريضة، لأهم هذه الأدبيات لاستحالة عرضها بكاملها لطولها و لتعدد أغراضها، و تشعب شروحاتها و تأويلاتها. و لتحقيق هذه الغاية نبدأ بتقديم نظرة إجمالية عن أوراد الطريقة و أذكارها من خلال جواهر المعاني و الجامع لما اُفترق من درر العلوم.

تطرق علي حرازم برادة لموضوع أذكار الطريقة و أورادها ضمن الفصل الأول من الباب الرابع،¹ بينما تطرق إليه ابن المشري ضمن باب في الجزء الأول من كتابه²، مع التذكير مرة أخرى بأن هذا الفقيه لا يهتم بترقيم الأبواب و الفصول، بل لا يفرق بين الباب و الفصل.

و حول هذه الأوراد نقرأ في جواهر المعاني ما يفيد أنها من أعظم الأوراد و فيها من الخير ما لا يخفى على أهل السداد، و هي من أحسن

1- المصدر نفسه، ص 100.

2- محمد بن المشري، م.س ج I، ص 28 و ما بعدها.

ما رتب أهل الله في زواياهم قصد الجمع على الله لمن خالطهم. و تبعاً لرأي علي حرازم برادة، فإن التصوف كان قد اضمحل بالمغرب حتى أتى الشيخ سيدي احمد التجاني الذي عمل من خلال أو راده على إحياء «الطريقة بعد دروس آثارها و شيد منار الولاية بعد خبو أنوارها، سلك بذلك مسلك السادات الكرام العارفين الكمل الاعلام... حتى بدت بظهوره الطريقة و جاءت بحمد الله موافقة للشريعة والحقيقة¹...» و رداً على كل معترض على هذه الأوراد من حيث مشروعيته، نسب علي حرازم برادة للشيخ زروق قوله : «و بالجملة فأحزاب المشايخ رضي الله عنهم صفة حالهم و نكتة مقالهم، وميراث علومهم وأعمالهم، و بذلك جروا في كل أمورهم، لا بالهوى قبل كلامهم، وربما جاء بعدهم من أراد محاولة ذلك بنفسه لنفسه، فعاد ما توجه عليه بعكسه²».

1- علي حرازم برادة، م.س، ج I، ص 101.

2 - نفسه، ص 102.

بخصوص مشروعية الذكر، أورد الحاج عمر الفوتي حديثاً للرسول صلى الله عليه وسلم هذا نصه : «روى الإمام أحمد في مسنده بإسناد حسن و الطبراني وغيرهما، عن يعلى ابن شداد حدثني أبو شداد بن أوس، وعبادة بن الصامت حاضراً يصدقه قال: كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: هل فيكم غريب؟ (يعني من أهل الكتاب) فقلنا: لا يا رسول الله. فأمر بفتح الباب وقال: ارفعوا أيديكم وقولوا لا إله إلا الله. فرفعنا أيدينا ساعة ثم قال: الحمد لله أنك بعثتني بهذه الكلمة وأمرتني بها =

و يواصل علي حرازم برادة حديثه عن هذه الأوراد، واصفا إياها بأحسن الأوصاف، من جلب للبركات و تيسير للمطالب و بلوغ المآرب، مما جعل صيتها ينتشر في أقصى البلدان، بسبب نسبتها للرسول¹ صلى الله عليه وسلم، الذي قال لسيدي احمد التجاني : «فقراؤك فقرائي و تلاميذك تلاميذي»² . هذه الأوراد منها ما هو إجباري، و منها ما هو اختياري، بل منها ما هو خاص بالشيخ و لم يبيح به لأحد، و لم يتم التطرق لها في جواهر المعاني و الجامع لما افترق من درر العلوم «لأنها مكتومة عن الغير إلا من فتح الله عليه»³ . و نبداً باستعراض أهم الأوراد اللازمة، على أن نتطرق بعد ذلك للأوراد الاختيارية.

الورد اللازم⁴ :

– استغفر الله مائة مرة (100).

= = و وعدتني عليها الجنة إنك لا تخلف الميعاد. ثم قال: أبشروا فإن الله غفر لكم». أنظر الحاج عمر الفتوي، رماح حزب الرحيم على نحور حزب الرجيم، بهامش جواهر المعاني. م.س، ج I، ص 185.

1 – علي حرازم برادة، م. س، ج I، ص 102.

2 – محمد بن المشري، الجامع لما افترق من درر العلوم، ج I، ص 31.

3 – نفسه، ص 29.

4 – علي حرازم برادة، جواهر المعاني، م. س ج I، ص 102.

- الصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم بأي صيغة¹ كانت مائة مرة (100).

- الهيئلة².

و هذه الأوراد الواردة في جواهر المعاني، و الجامع لما افترق من العلوم، هي التي، قال مؤلفاهما في شأنهما أن الرسول صلى الله عليه وسلم هو الذي رتبها للشيخ سيدي احمد التجاني وأمره بتلقيها لكل من طلبها منه من المسلمين ذكرا أو أنثى، طائعا أو عاصيا. و فيما يخص الصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم، يعود علي حرازم برادة ليوضح أن هذه الصلاة مائة مرة من الأفضل أن تكون بصلاة الفاتح لما أغلق³ لما فيها من الفضل العظيم و الثواب الجسيم⁴. و الصلاة التي بعدها في الفضل حسب نفس المصدر هي اللهم صل على سيدنا محمد عبدك و نبيك و رسولك النبي الأمي و على آله و صحبه و سلم تسليما، أما التي

1 - يشير محمد ابن المشري، في هذا الصدد إلى صلاة الفاتح لما أغلق بالتحديد، أنظر الجامع لما افترق من درر العلوم، ج I، ص 31.

2 - المراد بها لا إله إلا الله.

3 - نص هذه الصلاة كاملا هم : اللهم عل على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق و الخاتم لما سبق، ناصر الحق بالحق، و الهادي إلى سراطك المستقيم و على آله حق قدره و مقداره العظيم، سبحان ربك رب العزة عما يصفون و سلام على المرسلين و الحمد لله رب العالمين.

4 - لمعرفة فضل صلاة الفاتح يمكن الرجوع إلى جواهر المعاني، ج I، ص 117.

تحتل الدرجة الثانية من الفضل هي : اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله¹ ، على أن يترك حسن الاختيار وواسع النظر للملقن الذي يمكن أن يعين للمنخرط الجديد نوع الصلاة التي تلائمها حسب أهليته و ثقافته ، ومدى استعدادة لاقتحام هذا الميدان.

هذا الذكر له وقته ، الذي يبتدىء ، من بعد صلاة الصبح إلى الضحى ، ومن بعد صلاة العصر إلى صلاة العشاء. و من فاته الذكر في هذين الوقتين لعذر مقبول ، فليقض ما فاته في النهار و الليل. غير أن من أخذ هذا الورد ثم تركه بصفة نهائية ، لابد من أن تكون عاقبته سيئة ، كما أخبر بذلك سيد الوجود صلى الله عليه و سلم² . و أهم شروط هذا الذكر المحافظة على الصلوات في أوقاتها في الجماعة إن أمكن ، و الطهارة البدنية و الثوبية و المكانية و استقبال القبلة و الإمتناع عن الكلام ، و من كانت له القدرة على مراعاة شروط إضافية لكان أحسن و أفيد مثل استحضار صورة القدوة و صورة المصطفى صلى الله عليه و سلم بين يدي الذاكر بهيبة و وقار ، من أول الذكر إلى آخره ، و كأنه جالس أمامها ، مستحضرا في نفس الوقت معاني ألفاظ الذكر إن كانت له قدرة على فهمها ، و إلا عليه أن يستمع لما يذكره بلسانه ليشغل فكره عن الجولان في غير ما هو منهمك فيه³ .

1 - علي حرازم برادة ، م. س ، ج I ، ص 103.

2 - نفسه ، ص 103.

3 - نفسه.

و آخر شرطين ضمن هذه السلسلة من الشروط ، و هما من الأهمية
بمكان ، مفاد الأول أن هذا الورد لا يلحق لمن له ورد من أورد مشايخ
آخرين ، بل نجد تعاليم سيدي احمد التجاني صارمة فيما يخص هذا
الشرط «... و كل من أذنته و أمرته بتلقين أوردنا و إعطاء طريقتنا فله هذا
الشرط بأن لا يلحق أحدا ممن له ورد أو طريقة من المشايخ فإن فعل و
خالف فقد رفعت عنه الإذن¹...». أما الثاني فيقضي بعدم زيارة الأضرحة و
الأشياخ ، و في ذلك يقول الشيخ التجاني « من أخذ وردنا و دخل طريقتنا
فلا يزور أحدا من الأحياء أصلا ، و أما الأموات فإم زارهم يعتقد أنه
واصلهم لله لا غير لأنهم أبواب الله ، وواصلهم لله و يطلب من الله عند
مواصلته إياهم رضا الله ورضا رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضا
شيخه عليه²...».

الأوراد الاختيارية :

الأوراد الاختيارية ، حسب ما هو وارد في جواهر المعاني و الجامع
لما افترق من درر العلوم يمكن أن نقسمها إلى قسمين ، قسم شبه إلزامي ،
و آخر اختياري.

1 - المصدر نفسه ، ص 104 .

2 - نفسه ، ج I ، ص 104 .

القسم الشبه إلزامي :

يتضمن وردين أحدهما يومي و الآخر أسبوعي :

- اليومي : وهو ما يسمى بالوظيفة، و يتلى عادة في الزوايا، ويشتمل على الإستغفار بأية صيغة مائة مرة و صلاة الفاتح لما أغلق مائة مرة أو خمسين مرة و الهيلة مائتي مرة أو مائة، و جوهرة الكمال إحدى عشر مرة، وبتبدئ ب : اللهم صل على عين الرحمة الربانية¹ . و هذه الوظيفة يقول علي حرازم برادة غير لازمة للطريقة، فمن أراد ذكرها فليذكرها ومن تركها فلا يلام، و تكفي في وقت واحد إما في الصباح أو في المساء، و لا يستغنى بقراءة الوظيفة عن الورد، بمعنى أن من ترك الورد عليه قضاؤه ومن ترك الوظيفة فلا قضاء عليه² . و من الأمور التي جعلتنا نقول بأن هذا الورد شبه إلزامي، ما ورد في هذا الباب من تأكيد على ضرورة الإستعداد بالطهارة المائية قبل البداية في قراءة جوهرة الكمال لأن النبي يكون حاضرا عند قراءتها، و ما دام الأمر كذلك، في اعتقاد المشرع التجاني، فإن الكثير من الفقراء يحرصون على الحضور في هذه الوظيفة للتبرك بحضرة الرسول صلى الله عليه و سلم، و التماس المدد في فيوضاته.

1 - يمكن الإطلاع على نص هذه الصلاة كاملا في الجزء الثاني من جواهر المعاني، الباب

السادس، ص 216.

2- علي حرازم برادة، م.س، ج I، ص ك 105.

- **الاسبوعي** : هذا الورد يتم فيه ذكر الهيلة جماعة بالزوايا بعد صلاة عصر يوم الجمعة، ويذكر علي حرازم برادة في شأنه أنه من الأوراد اللازمة للطريقة، وكأنه نسي أنه جعله ضمن الاختيارية. وضمن نفس الموضوع تطرق إلى حالة معينة، فأورد أن من كان له إخوان في البلد فعليه جمعهم من أجل ذكر الهيلة جماعة، لأن هذا يقول المؤلف شرط في الطريقة، لكن من غير حد ولا حصر فيما يخص العدد، وإن كان في البلد وحده وليس بها إخوان له، يجوز له ذكرها وحده.

القسم الاختياري :

الأوراد والأذكار المصنفة داخل هذا القسم كثيرة في عددها وطويلة في مضامينها وشروحاتها، ويمكن أن نميز فيها بين نوعين على الأقل، أوراد وأدعية و صلوات على الرسول صلى الله عليه وسلم، أمر سيدي احمد التيجاني أصحابه بتدوينها وتعليمها للناس قصد التعبد بها ضمن تعاليم الطريقة، وهي في غالب الأحيان منسوبة لشيوخ وأئمة عاشوا في عصور سابقة إلى جانب نوع ثان من الصلوات والأدعية، قال شيخ الطريقة إنه تلقاها مباشرة من الرسول صلى الله عليه وسلم. وتجنبنا للطول والملل، مع مراعاة حصول الإفادة، فضلنا معالجة هذا الموضوع ضمن جداول على أن نبدأ بالأوراد غير المنسوبة للرسول صلى الله عليه وسلم

في مرحلة أولى لنتطرق بعد ذلك للصلوات و الأوراد المنسوبة له صلى الله عليه وسلم.

بعض أوراد و أذكار الطريقة التجانية الاختيارية من
خلال جواهر المعاني و الجامع لما افترق من درر العلوم.
(غير منسوبة للرسول صلى الله عليه و سلم)

اسم الدعاء أو الصلاة	أهم مضامينه و فضائله	في جواهر المعاني	في الجامع لما افترق من درر العلوم	وقته
1- الحرز اليمني و هو دعاء السيفي	لم يذكر علي حرازم برادة و لا ابن المشري مضمونه، و اكتفى صاحب جواهر المعاني بالقول بأن من ذكره مرة تكتب له عبادة سنة و مرتين بسنتين	جواهر المعاني ج I، ص 105. ==	لم يتحدث عنه و أورد أورادا أخرى في الجزء I، ص 122 و ما بعدها.	

			و هكذا، و من حملة معه كتب من الذاكرين الله كثيرا و لو لم يذكره ¹ .	= =
	غير وارد.	نفسه ص 105.	لم يذكر المصدران نصه، و أشار علي حرازم برادة فقط إلى أن له خاصية عظيمة و لم يكن الشيخ يلقنه إلا للخواص من أصحابه.	2 - حزب البحر

1 - قال علي حرازم برادة في نفس الصفحة : و من أراد فليطالع الجواهر الخمس لسيدي غوث الله. و قد ورد هذا الدعاء أيضا في كتاب الجواهر الخمس لمؤلفه الشيخ سيدي محمد بن خطير الدين العطار دار الفكر 1318، ج II، ص: 287.

3- الأسماء- الإدريسية	أولها: سبحانك لا إله إلا أنت يا رب كل شيء ووارثه ورازقه وراحمه. إحدى وأربعين اسما وآخرها يا غياثي عند كل كرب ومجيبني عند كل دعوة ومعاني عند كل شدة ويأرجائي حين تنقطع حيلتي ¹ .	نفسه، ص 105.	تحدث الكتاب في الجزء I ص 126 عن أدعيته أخرى.	
4 - دعاء : لله مغفرتك	اللهم مغفرتك أوسع من =	نفسه ص 106.	ج I ص 124 ولكن	ثلاث مرات

1 - ذكر علي حرازم برادة أن هذا الدعاء يذكر بدون شرط ولا يحتاج إلا لإجازة الشيخ وله

فضل عظيم.

في الصباح و ثلاث مرات في المساء.		ليس بهذه الصيغة.	ذنوبي و رحمتك أرجى عندي من عملي.	= أوسع من ذنوبي.
ثلاثا في الصباح و ثلاثا في المساء.	ج I، ص 126 لكن بصيغة مخالفة.	ج I، ص 106.	لا إله إلا الله و الله أكبر، لا إله إلا الله وحده، لا إله إلا الله و لا شريك له، لا إله إلا الله له الملك و له الحمد لا إله إلا الله و لا حول و لا قوة إلا بالله العلي العظيم.	5 - وظيفة اليوم و الليلة

6 - الدور الأعلى للشيخ الأكبر ابن العربي الحاتمي.	...منه استغفار سيدنا الخضر عليه و على نبينا أفضل الصلاة والسلام، وهو اللهم إني أستغفرك من كل ذنب تبت إليك منه ثم عدت فيه وأستغفره من كل ما وعدتك به من نفسي ثم لم أوف لك به...	جواهر المعاني ج I، ص 106.	غير وارد في هذا الكتاب.	في الصباح و المساء بقدر الطاقة.
7-المسبعات العشر المعلومة من	و هي الفاتحة مع البسمة سبعاً، ثم	جواهر المعاني ج I، ص	غير وارد. ==	

		106.	المعوذتان مع البسملة سبعاً، ثم الإخلاص مع البسملة سبعاً ثم الكافرون مع البسملة سبعاً ثم آية الكرسي سبعاً...	= الخاصة و العامة.
على قدر الطاقة عند النوم.	غير واردة	جواهر المعاني ج I، ص 106.	أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له و أن محمداً عبده و رسوله وأن عيسى عبد الله ورسوله وابن أمته و كلمته ألقاها إلى مريم و روح منه و أن الجنة حق و أن النار حق.	8 - ماورد في صحيح البخاري

9- ورد	الفاتحة أربعا ثم آية الكرسي مرة ثم اللهم إني أقدم إليك بين يدي كل نفس و لمحة و لحظة و طرفة يطرق بها أهل السموات و أهل الأرض و كل شيء هو في علمك كائن أو قد كان...	نفسه ج I، ص 107.	غير وارد	أربعا دبر كل صلاة.
10- ورد	قراءة سورة الإخلاص مرة يضع يده على عينيه و يقرأها و يضع أيضا يده على صدره و يقرأها ثم أعوذ =	نفسه ج I ص 107	غير وارد.	ثلاثا دبر كل صلاة.

			بکلمات الله التامات من شر ما خلق.	
دبر کل صلاة.	ج I، ص 163-162	ج I، ص 107.	تبارکت إلهي من الدهر إلى الدهر و تعالیت إلهي من الدهر إلى الدهر، و تقدست إلهي من الدهر إلى الدهر، و أنت ربي و رب کل شيء لا إله إلا أنت يا أكرم الأكرمين.	11 - ورد دبر کل صلاة
دبر کل صلاة.	نفسه 164-163	ج I، ص 107	سبحان من تعزز بالعظمة، سبحان من تردى بالكبرياء، سبحان من تفرد بالوحدانية، = =	12 - ورد دبر کل صلاة.

			سبحان من احتجب بالنور...	==
قدر الإستطاعة في الصباح و المساء.	غير واردة	ج I، ص 107.	آية الكرسي سبعا ثم لقد جاءكم رسول من أنفسكم إلى آخرها سبعا، ثم أعود بكلمات الله التامات من شر ما خلق...ثم يا من أظهر الجميل و ستر القبيح.	13-ورد في الصباح والمساء.
في الصباح و المساء.	غير واردة	ج I، ص 107-108 ==	الأسماء الإدرسية و الإخلاص إحدى عشرة مرة بقصد التحصين، و كذلك آية الكرسي سبعا	14-أوراد في الصباح والمساء.

			بقصد التحصين و آية الحرص و هي لقد جاءكم سبعا بقصد التحصين...	= =
يذكر في الصباح و المساء مرة أو دبر الصلوات.	غير واردة	ج I ص 108.	ذكره في قوت القلوب و ذكر له فضلا عظيما و هو : أنت الله لا إله إلا أنت رب العالمين أنت الله لا إله إلا أنت العلي العظيم...الخ...	15- دعاء أبو طالب المكي.

بعد أن تطرقنا في الصفحات السابقة لأهم الأذكار الاختيارية التي يوصي الشيخ التجاني بالتعبد بها لتعدد فضائلها، نحاول فيما يلي تقديم أهم الصلوات التي قال عنها كل من ابن المشري و علي حرازم برادة أن الرسول صلى الله عليه و سلم، أملاها من فيضه الشريف يقضة على

سيدي احمد التجاني، وهي اختيارية أيضا.
وتجدر الإشارة إلى أن هذا الأخير وضع شروحا على هذه
الصلوات، وهي الشروح التي جمعها كل من ابن المشري و علي حرازم
برادة، ووضعها عناوين كما سنبين ذلك، ونظرا لطول هذه الصلوات
التي تشغل مع شروحها حيزا كبيرا من صفحات الجزء الثاني من كتاب
جواهر المعاني، فإننا سنعمل على تقديمها في جداول أيضا.

صلوات من إملأ الرسول صلى الله عليه و سلم يقظة على
الشيخ سيدي احمد التجاني.

أهم الصلوات	بعض مضامينها	في جواهر المعاني	في الجامع لما افترق من العلوم.	مكان شرحها		تعقيبات
				في جواهر	في الجامع لما افترق	
1- ياقوته الحقائق في التعريف بحقيقة سيد الخلايق.	الله الله الله اللهم أنت الله الذي لا إله إلا أنت العالي في عظمة انفراد حضرة أحديتك التي شئت فيها بوجود شؤونك وأنشأت من نورك الكامل نشأ الحق... وجعلتها	جواهر المعاني ج II، ص 215 و ما بعدها	ج I، ص 167.	ج II، من 217 و ما بعدها	من ص 167 إلى 202.	العنوان الذي وضعه علي حرازم برادة لهذا الشرح وهو: جوهرة الحقائق في شرح ياقوته الحقائق،

ج II، ص 218.					صورة كاملة تامة.	==
العنوان الذي وضعه علي حرازم برادة على هذا الشرح هو الفيوضات الرحمانية في شرح عين الرحمة الربانية ج II، ص 254.	من ص 202 إلى 213 .	ج II، ص 254 وما بعدها	ج II، ص 202	ج II، ص 216.	اللهم صل وسلم على عين الرحمة الربانية والياقوتة المتحقة الحائطة بمركز الفهوم والمعاني ونور الأكوان المتكونة الأدمي صاحب الحق الرباني...	2- جوهرة لكمال.

3 - الصلاة	اللهم صل	ج II، ص	ج I، ص	ج II،	من ص 213 إلى 225.	لم يضع علي حرازم برادة عنوانا لهذا الشرح كما فعل في السابقتين ج II، ص 266.
الغيبية	وسلم على	216.	213.	265 وما		
في	عين ذاتك					
لحقيقة	العلية					
الأحمدية.	بأنواع					
	كمالاتك					
	البيهية					
	في حضرة					
	ذاتك					
	الأبدية					
	على عبدك					
	القائم بك					
	منك لك					
	إليك بآتم					
	الصلوات					
	الزكية...					

هذه الأذكار والأوراد والأدعية التي تعرضنا لها بإيجاز، لا يصح الإنتساب للطريقة التجانية بدون الإلتزام بالضروري منها.

من جهة أخرى وفي سياق الحديث عن الأذكار والأوراد والطريقة بشكل عام، يتطرق علي حرازم برادة لموضوع يطرح نفسه بإلحاح في هذا

الميدان، و يتعلق الأمر بالإجابة عن حقيقة الشيخ، و ما إذا كان طلبه و اتباع طريقته واجبا وجوبا شرعيا. و قد خصص المؤلف للإجابة على هذه الأسئلة و غيرها فصلا كاملا¹. مع لفت الإنتباه إلى أن عناصر الإجابة التي سنوردها هي من لفظ و إملاء الشيخ سيدي احمد التجاني، مما يؤكد مرة أخرى أن الإنتاج الفكري التجاني، وظف أساسا، في هذه الفترة المبكرة للتعريف بالطريقة، و نشر تعاليمها، و دعم شيخها.

بالنسبة لمسألة الشيخ الواصل، يعرفه صاحب جواهر المعاني بأنه «هو الذي رفعت له جميع الحجب عن كمال النظر إلى الحضرة الإلهية... و وصل مقاما يمكنه من معاينة الحق في الحق للحق بالحق²» و من كانت له مثل هذه التربية في نظر نفس المؤلف، هو الذي تشد إليه الرحال للدخول في طريقته، لأن فيه تجسيد كمال إذن الحق سبحانه و تعالى إذنا خاصا في هداية عبده بإرشادهم إلى الحضرة الإلهية، و متى عثر المرید على من هذه صفته من الشيوخ، أصبح من الواجب عليه أن

1 - هو الفصل الثالث من الباب الرابع من الجزء الأول من كتاب جواهر المعاني، ص 135

وما بعدها.

2 - نفسه، ج I أو ص 135.

يلقي نفسه بين يديه كالسميت بين يدي غسله¹ ، وهذا حكم نرى أنه يسري على جميع الطرق و ليس على التجانية وحدها.

و جوابا على السؤال المطروح حول ما إذا كان طلب الشيخ و الدخول في طريقتة فرضا على كل فرد أو على البعض دون الآخر، أفاد علي حرازم برادة أن طلب الشيخ في الشرع ليس بواجب وجوبا شرعيا يلزم من طلبه الثواب و من عدم طلبه العقاب ، و لتبسيط الجواب للقارئ أورد مثالا حيا من الواقع اليومي، فذكر بأن طلب الشيخ واجب منطقي مثل الضمان إذا احتاج إلى الماء و لم يبحث عنه، فإنه سيموت بدون شك، فطلبه إذن لازم عقلا.

و ما دام الإنسان لا مفر له من الله من الحساب، فإن ظل متبعا لهواه، معرضا عن شريعته و حدوده، فإن سوء العاقبة هو الذي ينتظره. و بما أن خسران الإنسان لآخرته لا يساويه، أي خسران، فإنه بإعمال العقل، يصبح طلب شيخ كامل أمرا واجبا وجوبا نظريا وضعيا، و ليس وجوبا شرعيا، لأنه يقول علي حرازم برادة « ليس في نصوص الشرع إلا وجوب توفية القيام بحقوق الله تعالى ظاهرا و باطنا على كل فرد فرد من جميع العباد، ولا عذر لأحد في ترك ذلك...لوجوب

1 - المصدر نفسه، ص 136.

- محمد بن المشري، الجامع لما افترق من درر العلوم، م.س، جI، ص : 60-61.

العقاب¹ ...»

و في نفس السياق شبه صاحب جواهر المعاني، حالة الفرد المسلم الذي يريد معرفة كيفية سلوك الطريق إلى الله، بحالة المريض الذي ألمه الداء، فهل الأجدر بالنسبة له مثلاً، البحث عن طبيب ماهر، أم الإستسلام لمرضه ليفتك به لا محالة؟ وإذا كان المنطق السليم يختار اللجوء في هذه الحالة، إلى الطبيب فإن النفس في نظر علي حرازم برادة و شيخه، هي أحوج ما تكون إلى طلب شيخ تربية روحية، يداويها من عللها و أدرانها².
بعد أن تطرقنا بإيجاز شديد لأهم آراء الشيخ التجاني و خليفته³ حول حقيقة الشيخ، و موقف الشريعة من طلبه و الدخول في طريقته، نمر للحديث عن علوم و كرامات الشيخ التجاني.

2 - علوم شيخ الطريقة من خلال جواهر المعاني والجامع

لما افترق من درر العلوم .

سوف نعالج تحت هذا العنوان كل ما يتعلق بأجوبة الشيخ عن بعض الآيات القرآنية و الأحاديث النبوية، و عن بعض الإشكالات و القضايا

1 - علي حرازم برادة، جواهر المعاني، م.س، ج I، ص 139.

- محمد بن المشري، م.س، ج I، ص 63 - 64.

2 - علي حرازم برادة، جواهر المعاني، م.س، ج I، ص 139.

3 - نقصد علي حرازم برادة و ابن المشري.

الدقيقة التي طلب رأيه في البث فيها. و مما تجدر الإشارة إليه في هذا الموضوع قبل الإسترسال في بسط خطوطه العريضة، أن القسط الأوفر من هذه الآيات القرآنية و الأحاديث النبوية التي شرحها سيدي احمد التجاني، وأدلى بدلوها فيها، تصب مضامينها في مادة التصوف، مما يعني، في نظرنا أن الفصلين الأول و الثاني من الباب الخامس من كتاب جواهر المعني، المخصصين لهذا الموضوع، أريد لهما غرضان أساسيان على الأقل، أولهما إبراز تضلع الشيخ في علوم القرآن و الحديث و ثانيهما إثبات سنية التصوف و مشروعيته بين سائر العلوم الدينية، و ما يتبع ذلك من فضل و ثواب لكل معتقد في أولياء الله، غير منتقد لهم.

و مما لا ريب فيه أن هذه الإستراتيجية، إن صح التعبير، أعطت أكلها بما ترتب عنها من إقبال متزايد على الانخراط في هذه الطريقة التي زاد من بريقها واقعية شيخها، الذي كان يعمل على التوفيق دوما بين ما هو زماني وروحي،¹ كما تشهد على ذلك النصوص المنسوبة إليه و رأي بعض

1 - تشهد كثير من أقوال سيدي احمد التجاني على واقعيته و عقلانيته، كما أوردها محمد الطيب السفيناني في إفادته، و هذه بعض الأمثلة الواردة في الإفادة لمريد السعادة الأبدية.
- أولادي لا تليق بهم إلا الصحراء يفلحون بها و يعيشون، و البنت لا تليق بها إلا الحاضرة (ص40).

- تكرار الفواتح مبطل للدعاء (ص46).

- روح يا مسكين تعلم صنعة ما دامت صغيرا (ص57).

- علمه ما تيسر من القرآن و علمه الكتابة و علمه صنعة يعيش بها (ص85)

الدارسين فيه.¹ ونقدم فيما يلي جرداً لأهم الآيات القرآنية التي نسب شرحها لسيدى احمد التجاني.

1 - من الدارسين الذين أشادوا بواقعية سيدى احمد التجاني وعقلانيته وبعده نظره :
- Berque (J.).op / cité, pp 240 et ss,

جرد بأهم الآيات القرآنية الواردة في كتابي
جواهر المعاني و الجامع لما افترق من درر و التي ينسب
شرحها لسيدى احمد التجاني.

الآيات القرآنية المعنية	في جواهر المعاني	في الجامع لما افترق من العلوم .	مكان شرحها	
			في جواهر المعاني	في الجامع لما افترق من درر العلوم.
1- ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحِبِّبْكُمْ اللَّهُ...﴾	جواهر المعاني ج I، ص 155.	ج II، ص 5.	ج I ص 155 إلى 169.	ص 5-6-7
2- ﴿فَفِرُوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾	من نفسه ج I ص 170.	ج II ص 57.	ج I، ص 170.	ص 57.
3- ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾	من نفسه ج I، ص 170.	ج II ص 57.	ج I ص 170 171.	ص 57-58.

ص 50_49.	ج I ص 171 إلى 173.	ج II ص 49.	نفسه ج I، ص 171.	4- ﴿يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب﴾.
ص 34_33.	ج I ص 173- 174.	ج II ص 33.	م. نفسه ج I، ص 173.	5- ﴿فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون...﴾ الآية.
ص 34_33.	ج I ص 174.	ج II ص 33.	م. نفسه ج I، ص 174.	6- ﴿فاما الذين شقوا ففي النار...﴾ الآية.
ص 48_47.	ج I ص 174- 175.	ج II ص 47.	م. نفسه ج I، ص 174.	7- ﴿ثم أورثنا الكتاب للذين اصطفينا من عبادنا...﴾ الآية.
ص 4_3.	ج I ص 175.	ج II ص 3.	م. نفسه ج I، ص 175.	8- ﴿قال رب أرني كيف =

				= تحيي الموتى... يا زكرياء إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى...﴿ الآية. ﴿اجعلني على خزائن الارض...﴿ الآية.
ص 36_37	ج I ص 175 إلى 179.	ج II ص 36.	نفسه ج I، ص 175.	9- ﴿اعطى كل شيء خلقه ثم هدى. ﴿
ص 82_83_84	ج I ص 179.	ج II ص 82.	م.نفسه ج I، ص 179.	10- ﴿مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان...﴿ الآية
ص 100_101 102.	ج I ص 189- 191.	ج II ص 100.	جواهر المعاني ج I، ص 189.	11- ﴿فقال إني سقيم﴾ (ما حكى الله عن الخليل عليه، السلام). = =

				= ﴿فعله كبيرهم هذا...﴾
	ج I ص 192.		م. نفسه ج I ص 192.	12- ﴿ولو لو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله و استغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيماً﴾.
ص 24_23.	ج I ص 192- 193.	ج II ص 23.	م. نفسه ج I، ص 192.	13- ﴿و من يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً﴾.
ص 21_20.	ج I ص 193	ج II ص 20.	م. نفسه ج I، ص 193.	14- ﴿و الذين إذا فعلوا ==

				= فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم.﴿
	ج I ص 193- 194		نفسه ج I، ص 193.	15- ﴿لقد تاب الله على النبيء والمهاجرين و الأنصار.﴾
ص 26-25.	ج I ص 194.	ج II ص 25.	نفسه ج I، ص 194.	16- ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله و ابتغوا إليه الوسيلة.﴾
ص 46-45.	ج I ص 194.	ج II ص 45.	نفسه ج I، ص 194.	17- ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم...﴾ الآية.

18- ﴿و عنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو﴾ (الآية)	نفسه ج I، ص 194.	ج II ص 25.	ج I ص 194- 195.	ص 25-26.
19- ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي...﴾ ثم يحكم الله آياته...﴾	نفسه ج I، ص 195.	ج II، ص 22.	ج I ص 195-	ص 22-23.

الآيات القرآنية المعينة.	في جواهر في الجامع المعاني.	لما افترق في جواهر في الجامع المعاني	مكان شرحها		تعقيبات
			في جواهر في الجامع المعاني	لما افترق في جواهر في الجامع المعاني	
20- ﴿و من أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا﴾	نفسه ج I، ص 196.	ج II ص 37.	ج I ص 196.	ص 37-38	-

21- ﴿ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان﴾. - ثم الآية: ﴿وَمَا أَدْرِ مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بَكُمْ﴾ - إلى غير ذلك من الآيات التي نحت هذا النحو.	نفسه ج I ص 196.	ج II ص 51.	ج I ص 202-196.	ص 51-53. طلب السائل تفسير هذه الآيات بارتباط مع حديث عائشة رضي الله عنها : من قال إن النبي صلى الله عليه وسلم يعلم ما في غد فقد كفر...
22- ﴿قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم﴾. - مع قوله تعالى : ﴿الله يتوفى	نفسه ج I ص 202.	ج II ص 41.	ج I ص 202-206.	ص 41-42. طلب السائل شرح هذه الآيات بارتباط مع مع قول أبي الحسن الشاذلي. وتول قبض

أرواحنا بيدك وحل بيننا وبين غيرك.					==الأنفس حين موتها...﴿
—	ص 46-45	ج I ص 206- 207	ج II ص 45	منفسه ج I ص 206	23- ﴿إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض...﴿ الآية...
—	ص 35-34	ج I ص 207- 208	ج II ص 34	منفسه ج I ص 207	24- ﴿يحمو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب.﴿
—	ص 6-5	ج I ص 208	ج II ص 5	منفسه ج I ص 208	25- ﴿ويحذركم الله نفسه..﴿
	ص 48-47	ج I، ص 208-	ج II، ص 47	ج I، ص 208	26- ﴿فإذا سويته ==

		212.			= نفخت فيه من روعي. ﴿
—	—	ج I ص 213 _ 215.	—	ج I، ص _ 212 _ 213.	27- ﴿ووهبنا لداوود سليمان نعم العبد إنه أواب. ﴿
وردت هذه الآيات في سياق السؤال الآتي : معنى المعية التي وردت في كلام الله : ﴿وهو معكم أين ما كنتم. ﴿ ﴿وهو معكم أين ما كانوا ==	ص 82 - 84_83	ج I، ص 215 _ 218.	ج II، ص 82.	ج I، ص _ 215.	28- ﴿وهو معكم أين ما كنتم. ﴿ ﴿وهو معهم أين ما كانوا... ﴿ _ ﴿و نحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون... ﴿ _ ﴿و نحن أقرب إليه من جبل لوريد... ﴿

و نظائرهما... و كذلك معنى القرب في قوله تعالى: ﴿و نحن اقرب اليه من حبل الوريد﴾، فقد اختلفت أقاويل العلماء لاختلاف فهومهم... إلخ...					==
	ص 58_57.	ج I ص 21.	ج II، ص 57.	ج I، ص 128.	29- ﴿و لنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين و نبلو اخباركم﴾
==	ص 34_33.	ج I ص	ج II، ص	ج I، ص	30- ﴿قال =

		229- 230	33	229	= رب أرني أنظر إليك قال لن تراني...﴿ الآية..
فهو اجتماع المدح والذم، يقول السؤال في شيء واحد والإزراء بالشيء والتعظيم له في شيء واحد من واحد سبحانه وتعالى محيط بعلم كل شيء، خبير بباطن كل شيء حكيم فهو أشكال عظيم.	ص 86-87	ج I ص 234 235	ج II ص 86	ج I، ص 234	31-﴿اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو...﴿ الآية. مع قوله تعالى: ﴿كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين﴾ الآية... مع قوله : =

					= تعالى : ﴿فاخرجناهم من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم...﴾ الآية...
	ص 3-4 5_	ج I، ص 235_236	ج II، ص 3	ج I، ص 235	32- ﴿رب أرني كيف تحيي الموتى، قال أو لم تؤمن قال بلى، ولكن ليطمئن قلبي﴾
	ص 58- 59	ج I، ص 236- 254	ج II، ص 58	ج I، ص 236	33- ﴿والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم و ما غوى و ما ينطق عن ==

					= الهوى إن هو إلا وحي يوحى.
—	ص 88-89.	ج I، ص 25 258-4.	ج II، ص 88.	ج I، ص 254.	34- يوم يكشف عن ساق (الآية)
السؤال المرتبط بهذه الآيات هو: هل كلام الملائكة يستلزم نبوتها وكذلك الوحي لأم موسى هل يستلزم نبوتها أم لا، وهل السيدة مريم أو سيدتنا فاطمة رضي الله عنهما أفضل.	ص 158 159.	ج I، ص 58 261-.	ج II، ص 158.	ج I، ص 258.	35- هو إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين. وأوحينا إلى أم موسى.. الآية...

هذه هي أهم الآيات القرآنية التي تطرق إليها الشيخ سيدي أحمد التجاني بالشرح و التحليل في المصدرين المذكورين. وبإمكان المطلع على هذا الشرح، أن يدرك أن سيدي أحمد التجاني لا يعتبر القرآن دالاً على كلام الله كما يذهب إلى ذلك أهل السنة¹. لذلك فهو يعتبر أن قولهم «القرآن دالّ على كلام الله تعالى فيه إطلاق تسامح وإلا فوجه التحقيق في ذلك أن كلامك بالقرآن دال على مدلولات الكلام الأزلي لا على عين الكلام الأزلي البارز من الذات فإن ذلك لا تمكن الدلالة عليه ولا وصول للخلق في تلاوة القرآن إلى القرآن إلا بهذه المثابة فقط²».

و بهذا الفهم فإن اسم القرآن ما أطلق إلا على الكلام الذي يتلفظ به الخلق، الدال على مدلولات كلام الله تعالى، ولا يمكن أن يطلق على المعنى البارز من الذات المقدسة، كما أن الكلام في القرآن تبعاً لسيدي أحمد التجاني، على وجهين، الوجه الأول هو ما عليه عامة الناس وما عليه أحوالهم من الظلم و جزائه و التقريع و التوبيخ، وإيقاع الوعيد عليهم باللعنة و السخط والعذاب وإيقاع الحمد و الثناء على القائمين بأمور الله منهم.

1 - علي حرازم برادة، جواهر المعاني، م.س، ج I، ص 150.

2 - نفسه، ص 150.

أما بالنسبة للخاصة فإن خطاب القرآن يتضمن شيئاً آخر، و لتوضيح هذا الأمر يرى الشيخ التجاني أن ظاهر القرآن المخاطب للعامة، هو عبارة عن غطاء غطى الله به أسرار القرآن، و هي الأسرار التي تركت مع مذاقات أهل الخصوص، حسب نفس الرأي من وراء أطوار الحس و العقل المدركين في أمر العامة، و لذلك وجب كتم هذه الأسرار على كل من علمها، لأن الله لم يرد إظهارها إلا للخاصة العليا من خلقه¹. فهل يتفق أهل السنة مع آراء الشيخ التجاني هذه؟ لا نستطيع الإجابة عن هذا السؤال، لأنه يدخل في إطار تخصصات أخرى لا قبل لنا بها. و نكتفي هنا بطرحه فقط، لنمر إلى الجانب المتعلق بالأحاديث النبوية التي شرحها الشيخ سيدي احمد التجاني و بسط القول فيها، وأهم ما يميز هذه المجموعة من الأحاديث قلة عددها وارتباطها الوثيق بموضوع التصوف على غرار ما لاحظناه بالنسبة للآيات القرآنية في الصفحات السابقة، باعتبار أن الهدف، هو نفسه، و هو خدمة الطريقة و الإشادة بخصال و مزايا شيخها، فما هي هذه الأحاديث ؟

1 - المقصود بهم هنا كبار العارفين من أولياء الله الذين كشفت عنهم الحجب بفضل

مجاهدتهم و تبوئهم لأعلى المقامات.

**جرد بأهم الأحاديث التي شرحها الشيخ التجاني بجواهر
المعاني و الجامع لما افترق من درر العلوم**

تعقيبات	مكان شرحها		في الجامع لما افترق	في جواهر المعاني	بعض مضمون الحديث النبوي
	في الجامع لما افترق	في جواهر المعاني			
—	ص 106- 107.	ج II ص من 2 إلى 11.	ج II ص 106.	جواهر المعاني ج II ص 2.	1- يقول الله- سبحانه و تعالى في حديث قدسي: أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي...
—	116_115.	ص 29_11	ج II ص 11.	المصدر نفسه ج II- ص 11.	2-... لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه... الحديث (حديث قدسي).

3- ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا... إلخ. حديث قدسي	من نفسه ص 29.	ج II، ص 130.	ص 29-36	ص 130-131	—
4- تنام عيني ولا ينام قلبي. الحديث.	نفس المصدر ص 36.	ج II، ص 143.	36 وما بعدها	ص 143-144	—
5- حجابہ النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره من خلقه.	نفس المصدر ج II ص 36.	ج II، ص 140.	ص 36-38	141-140 142.	—
6- حبيب إليّ في دنياكم ثلاث ... (الحديث).	نفسه ج II ص 38.	ج II، ص 138.	ص 38-40	ص 138-140 139.	—
7- الرؤيا الصالحة... (الحديث).	نفسه ج II ص (40).	ج II ص 145.	ص 40-44	146-145 147.	—

8- ألا وإن الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق الله السموات والأرض... (الحديث).	ج II ص 44.	ج II ص 148.	من ص 44 إلى 47.	ص 148 وما بعدها	—
9- كان جبريل يدارسني القرآن في كل رمضان مرة ... (الحديث).	ج II ص 47.	لم يرده صاحب هذا الكتاب.	ص 47- 48.	—	ورد في سؤال حول معنى المدارسة.
10- حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات.	نفس المصدر ص 48.	غير وارد.	ص 48-49.	—	—
11- علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل.	نفسه ج II ص 62.	غير وارد.	ص 48-49 50.	—	سئل الشيخ سيدى احمد التجاني عن مسائل منها قوله (عليه السلام): =

== علماء أمتي كأنبياء بنى إسرائيل.					
--	--	--	--	--	--

يلاحظ من خلال هذا الجدول أن عدد الأحاديث التي شرحها سيدي احمد التجاني قليلة إذا ما قورنت بعدد الآيات القرآنية، وقد تكون هذه المسألة متعمدة تجنباً للطول وإفساح المجال لبسط القول في ماسماه علي حرازم برادة ب « إشارات الشيخ العلوية و حل مشكلاتها بعبارات وهبية». و يتعلق الأمر بأجوبة سيدي احمد التجاني عن كثير من الإشارات و المسائل الصوفية و الدينية الدقيقة، التي يحتاج الشارح لها إلى علم لدني يهبه الله لمن يشاء من أصفياؤه، فضلاً عن إمامه بما ظهر من علوم الدين.

و يبدو أن مجموعة هذه الإشكالات (الإشارات) التي سنورد بعضها هي التي رام علي حرازم برادة و ابن المشري التركيز عليها و الإكثار منها لإبراز علو كعب شيخهما في العلوم العقلية و النقلية على حد سواء، و مما يعزز هذا الطرح أن أسئلة هذه المجموعة، و جهت إلى شيخ الطريقة في غالبيتها العظمى من قبل علي حرازم برادة و ابن المشري، بينما الأسئلة التي وجهها غيره داخل نفس المجموعة قليلة جداً كما سنلاحظ، و بذلك

نرجح أن تحرير كتابي جواهر المعاني والجامع لما افترق، علاوة على
أنهما يضمنان كلام الشيخ، فإنهما أعدا من حيث المضمون بشك مدرّس
يخدم أهدافا معينة أشرنا إليها أكثر من مرة. ونقدم فيما يلي جدولا لهذه
الأسئلة لنتمكن من أخذ فكرة عنها :

جرد بأهم الاسئلة التي تضمنت الاجوبة عنها إشارات
الشيخ العلوية.

مضمون الاسئلة	في جواهر المعاني	في الجامع لما افترق	مكان شرحها		تعقيبات
			في جواهر المعاني	في الجامع لما افترق	
1 ما معنى هذا القول؟ تطهر بماء الغيب إن كنت ذا سر وإلا تيمم بالصعيد و بالصخر. و قدم إماما كنت أنت إمامه و صل صلاة الفجر في أول العصر فهذه صلاة العارفين ==	ج II ص 49-48.	ج II ص 168.	56-49	ص 168 و ما بعدها	يقول علي حرازم برادة : إن هذا الجواب من إمام الشيخ أبي العباس التجاني رضي الله عنه.

					== بر بھم فاین کنت منھم فانضح البر بالبحر.
—	179 وما بعدها	62-56	ج II ص 179	ج II ص 56	2- هل النفس والروح والقلب والسر أسماء لمسمى واحد أو كل واحد من ذلك على حدة ؟
—	ص 240 وما بعدها	ج II ص 67-66	ج II ص 240	المصدر نفسه ص 66	3- ما معنى قول الإمام الأكبر والقطب الأشهر أبي حامد الغزالي : ليس في الإمكان أبدع مما كان.
—	غير وارد	68 - 67	غير وارد	المصدر نفسه ص 67	4 - معنى قولهم : معرفة الولي أصعب من معرفة الله.

—	ج I ص 106 وما بعدها.	72-68.	ج I ص 106.	المصدر نفسه ص 68.	5- ما هذه الأنوار المشرقة على أهل الهدايات في الطريق؟ وهل هي أنوار أزلية في كل مؤمن يكشف له عنها بسبب التوبة أم لا تشرق إلا عند تمكن القلب من الإيمان؟
—	ص 163 وما بعدها	73-72.	ج II ص 163.	ج II ص 72.	6- سؤال حول معنى البيتين: عينان عينا لم يكتبهما قلم في كل عين من العينين نونان نونان نونان لم يكتبهما = =

					== قلم في كل نون من النونين عينان.
—	—	ج II، ص 73-75.	غير وارد.	ج II، ص 73.	7- هل يدخل الجن الجنة، وينعمون فيها كالآدميين أو لا نصيب لهم فيها وهل يرجعون ترابا كالحيونات؟
—	204.	ص 75.	ج II، ص 204.	ج II، ص 75.	8- سؤال حول حقيقة التصوف.
—	ص 120 وما بعدها.	ص 75.	ج I، ص 120.	ج II، ص 75.	9- سؤال حول حقيقة الولاية.
—	ص 248 وما بعدها.	ص 75- 76.	ج II، ص 248.	ج II، ص 75.	10- سؤال حول حقيقة العلم.

11- سؤال حول حقيقة الولي.	نفس المصدر ج II، ص 76. 243.	ص 76.	243 وما بعدها.	—
12- سؤال حول قولهم أن دائرة الولي أوسع من دائرة النبي.	نفس المصدر ج I، ص 76. 104.	ص 76-77.	ص 104 وما بعدها.	—
13- سؤال حول حقيقة العارف.	نفس المصدر ج II، ص 77. 209.	ص 77-78.	209 وما بعدها.	—
14- سؤال حول حقيقة القطبانية.	نفس المصدر ج I، ص 80. 98.	ص 80-83.	ص 98 وما بعدها.	—
15- ما هو الآن الدائم؟	نفس المصدر غير وارد ص 84.	ص 84.	—	—
16- سؤال حول حقيقة النبوة.	نفس المصدر ج II، ص 84. 201.	ص 84.	ص 201 وما بعدها.	—
17- سؤال حول حقيقة الرب.	نفس المصدر ج II، ص 84. 201.	ص 84-85.	ص 201.	—

18- سؤال حول حقيقة المراقبة و المشاهدة.	نفس المصدر .85	ج I، ص 104	ص 85- .86 وما بعدها.	ص 104.	—
19- سؤال حول دائرة العارف.	نفسه 85	ج I ص 104	ص 85- .86 وما بعدها.	ص 104	—
20- سؤال حول حقيقة المعرفة بالله تعالى.	نفسه .86	ج I ص .75	ص 86- .87 وما بعدها	ص 75	—
21- سؤال حول معنى الفقير ابن وقته.	ج II، ص .87	غير وارد.	ص 87.	—	—
22- الفقير الصابر و الغني الشاكر أيهما أفضل ؟	ج II، ص .87	ج II، ص .193	ص 87.	ص 193 وما بعدها.	—
23- سؤال حول حقيقة الذكر.	نفسه ص .93	ج II، ص .247	ص 93- .99	ص 247.	—

—	ص 202.	ص 99- 100.	ج II، ص 202.	نفس المصدر ص 99.	24- سؤال حول معنى الدهر.
—	ص 187 و ما بعدها	ص 100- 109.	ج II، ص 187.	نفسه 100.	25- هل خرج النبي (ﷺ) عند ولادته من المحل أو من تحت السرة؟
—	ص 201 و ما بعدها.	ص 109- 110.	ج II، ص 201.	نفسه ص 109.	26- سؤال حول عدد أنفاس الإنسان.
—	ص 185 و ما بعدها.	ص 110- 114.	ج II، ص 185.	نفسه ص 110.	27- سؤال حول المكالمة التي يدعيها الصوفية و محادثتهم و حول معنى المكالمة والفرق بين سماع الأنبياء لكلام الله تعالى وغيرهم.

—	—	ص 114- 115.	غير وارد.	نفس المصدر ص 114.	28- سؤال حول معنى هذا التسبيح. سبحان الله ملء الميزان و منتهى العلم و مبلغ الرضا و زنة العرش.
—	—	ص 124.	غير وارد.	نفسه ص 124.	29- سؤال حول من احتلم في السفر ولم يقدر على الإغتسال بوجه من الوجوه. هل يذكر جميع ما عنده من الأوراد أم لا؟
—	ص 197 وما بعدها.	ص 124- 126.	ج II، ص 197.	نفسه 124 125.	30- ما معنى قول الشيخ الجزولي في ==

					== حزب الفلاح : أفضل ما هو أهله.
—	—	ص 126.	غير وارد.	ج II، ص 126.	31- سؤال حول حقيقة الزهد
—	ص 198 وما بعدها.	ص 128- 129.	ج II، ص 198.	نفس المصدر ص 128.	32- سؤال حول معنى العافية وحقيقتها.
—	—	ص 129.	—	نفسه ص 129.	33- سؤال حول حقيقة العجب.
—	ص 200 وما بعدها.	ص 130.	ج II، ص 200.	نفسه ص 130.	34- سؤال حول حقيقة المكر.
	ص 137 وما بعدها.	ص 132- 134.	ج II، ص 137.	نفسه ص 132.	35- سؤال حول عينية الذات والصفات التي هي معتقد المحققين من أهل الله.

—	ص 91 وما بعدها.	ص 140- 142.	ج I ص 91.	نفس المصدر ص 139.	36- سؤال حول معنى هذين البيتين : أيا سري يا جهري وبعضي وجملتي ويا كل أجزائي ومكمون خفيتي ويا عين بهجتي وأنوار مهجتي وبرد فؤادي أمنن علي برؤية.
—	ص 94 وما بعدها.	ص 142- 144.	ج I ص 94.	نفسه ص 142.	37- سؤال حول أبيات مطلعها : حقيقة ظهرت في الكون قدرتها فأظهرت هذه الأكوان والحجبا تنكرت بعيون العالمين كما ==

					= =تعرفت بقلوب العرف الأدبا.
—	—	ص 149.	غير وارد.	نفس المصدر ص 149	38- سؤال حوا . تفضيل الصحابي الذي لم يفتح عليه و عن القطب من غير الصحابة.
—	ص 103- 104.	—	ج I، ص 103.	غير وارد.	39- في الفرق بين الحقيقة و الطريقة و الشريعة.

حاولنا جهد المستطاع، في ما تقدم من صفحات إبراز جزء من الإنتاج الفكري لرجال الطريقة التجانية في حياة الشيخ سيدي احمد التجاني، من خلال كتب ضمت مقولاته وأفكاره وشكلت في مجملها مضامين تعاليم الطريقة التجانية، ورغم أن هذه الكتب منسوبة في تأليفها لأشخاص معينين، فإن دورهم فيما ورد فيها انحصر في التقديم والتصنيف والتبويب فقط، وهو عمل لا يستهان به.

و بما أن الإنتاج الفكري لرجال هذه الطريقة لم يتوقف بعد وفاة

شيخها وأقرب أصحابه مثل علي حرازم برادة و محمد بن المشري، و
الطيب السفيناني، فإننا سنتابع تطور هذا الإنتاج شكلا و مضمونا بعد عهد
الشيخ المؤسس، لنقدم الخطوط العريضة لفحواه و أغراضه، ضمن ما
سميناه في بداية هذا الفصل بالمجموعة الثانية، ثم ننتقل بعد ذلك للحديث
عن مجموعة ثالثة تتموضع زمنيا في فترة لاحقة من القرن 19 و النصف
الأول من القرن العشرين، بعد المجموعة الثانية.

الفصل الثاني:

مؤلفات الجيل الثاني و أغراضها

هذه المؤلفات كثيرة في عددها مقارنة مع ما ألف في عهد الشيخ ومرد ذلك في اعتقادنا إلى تزايد عدد الداخلين في الطريقة، و إلى رغبة الفقهاء منهم على الخصوص في تحقيق مراد سيدي احمد التجاني و نيل رضاه بتأليف كتب غايتها بشكل عام مواصلة نشر تعاليم الطريقة والإشادة بفضائل أذكراها و أورادها و بقيمة شيخها الصلاحية و الروحية. و مما ساعد على تعدد نسخ الكتب المؤلفة في الطريقة و تداولها بكثرة بين الناس تطوع الكثير من النساخ التجانيين و غير التجانيين، و تفانيهم في إخراج عدة نسخ من الكتاب الواحد في زمن قياسي، حبا في رسول الله صلى الله عليه وسلم، و في أولياء الله الصالحين، مثل سيدي احمد التجاني، الذي تعتبر محبة الناس له محبة لله و لرسوله من خلاله، باعتبار أن الناس لا يبجلون الشيخ لذاته، و لكن لما يجسده من سلوك و أخلاق ربانية، و كرامات، تدل على أنه من المصطفين الأخيار. و مع علمنا أن العامل الأكثر أهمية في تكاثر الإنتاج الفكري بالمغرب منذ نهاية القرن 19 ، هو ظهور الطباعة، فسوف لن تستفيد المؤلفات التجانية من هذا الاختراع في الفترة التاريخية

التي تهمنا إلا جزئيا¹.

إن المؤلفات التي سنتطرق إليها في هذا المحور لها مميزاتها وخصائصها رغم أنها تنهل من معين واحد، هو الكتاب و السنة و تعاليم الطريقة التجانية، مثل تأليف الجيل الأول، فهي من جهة صادرة عن فقهاء لم يأخذوا الطريقة عن الشيخ مباشرة، فقهاء عاصروا مؤثرات المذ الإوربي الكولونيالي و ضغوطه على المغرب خلال القرن 19، انطلاقا من عهد المولى سليمان إلى مطلع القرن العشرين، و مع ذلك فإن الملاحظة الأكثر شدا للإنتباه في هذا الصدد، هو عدم اهتمام هذه الكتب بالجوانب السياسية و أخبار المعاناة التي كان يكابدها المغرب سياسيا و اقتصاديا و اجتماعيا، وهو يصارع التكاليف الاستعماري طيلة القرن، إذ انصبت جهود مؤلفيها بوجه خاص على خدمة الطريقة و الإشادة بمرتبة شيخها في السنية والصالح.

نعم، لا يمكن أن ننكر أن بعضهم كانت له تأليف خارجة عن الإهتمام اللصيق بالطريقة التجانية، كالفقيه أكنسوس الذي اهتم بالتاريخ و الشعر

1- عن ظهور الطباعة بالمغرب، يمكن الرجوع إلى:

- محمد المنوني، مظاهر يقظة المغرب الحديث، مطبعة الامنية، الرباط، 1973، ص 201

إلى 232.

- جرمان عياش، دراسات في تاريخ المغرب، الشركة المغربية للنشر المتحدين، الدار

البيضاء 1986، ص 121 إلى 143.

وفنون أدبية أخرى¹، إلى جانب تكوينه الصوفي، إلا أن هذا الإنتاج طغت عليه المسحة الصوفية والأخلاقية، كما يمكن ملاحظة ذلك في ثنايا كتاب الجيش العرمرم. لقد حاول هؤلاء المؤلفون حسب افتراضنا، معالجة الأسقام والمشاكل بإقناع الناس بأهمية الفرار إلى الله تعالى باعتبار أن الجونب الروحية بشكل خاص والدينية بشكل عام، كان من بين أغراضها دعوة الناس من أجل العودة إلى الالتزام بتعاليم كتاب الله وسنة رسوله، والإبتعاد عن اقتراف المعاصي وارتكاب الخطايا، حتى يغير الله ما حل بهم من ويلات تجسدت في وهنهم وتفرق كلمتهم واستباحة ديارهم وثرواتهم من قبل العدو الكافر. وهذا يعني، في نظر مؤلفي هذه الكتب أن ما حل بالبلاذ من كوارث سببه خروج العباد بهذه البلاد عن الصراط المستقيم، فلحق بهم سخط الله، وبما أن الهدف (الرجوع إلى الله)، ليس بالأمر الهين، وبمــــا أنه لا يمكن أن يتحقق إلا بتربيته عامة الناس تربية روحية تمكنهم من سلوك مقامات تقربهم من معرفة الله حق المعرفة،

1 - بالإضافة إلى الجيش العرمرم الذي يشتمل على مقاطع شعرية غير قليلة تتخلل الأخبار التاريخية المحررة بأسلوب تطفى عليه المسحة الأدبية. تجدر الإشارة إلى مخطوط لنفس المؤلف يشتمل على عدة رسائل من هذا الأخير إلى الأمير سيدي محمد بن المولى عبد الرحمان بن هشام وإلى بعض وزراء عصره مثل محمد غريط، و محمد بن العربي بن المختار، تتناول في ثناياها أخبار سياسية واقتصادية واجتماعية متنوعة في أسلوب أدبي رقيق ومتميز.

انظر: محمد المصباح اليعقوبي، رسائل سيدي محمد أكنسوس، مخطوط بخزانة الفقيه بن

سودة بفاس رقم 375.

وتجعلهم يعبدونه كأنهم يرونه، فإن منتجي الفكر التجاني من رجالات الجيل الثاني خلال القرن 19، ربما رأوا في توجهات تعاليم طريقتهم المؤسسة على الكتاب والسنة والمتضمنة للكثير من الأذكار والأوراد والصلوات، وتلقينها للمريدين أحسن دواء بإمكانه تخليص الأمة مما حل بها من نكبات، إنه مجرد افتراض.

ما يميز كتب هذه المجموعة أيضا هو تنوعها وتعدد أغراضها وصدورها عن فقهاء مؤرّعين على جّل أنحاء المغرب من شماله إلى نهر السنغال. ونظرا لعجزنا وقصور جهدنا عن معالجة كل ما أنتج طيلة فترة الجيل الثاني، فإننا سنعمل فيما يلي على التطرق لأهم هذه الكتب التي وإن رامت في مجملها ضمان استمرارية الطريقة التجانية وتجذر تعاليمها والدفاع عنها وعن شيخها في المغرب وخارجه ضد الأعداء والمنكرين، فإننا من أجل وصول تلك الغاية، بدأ لنا بعد تصنيفها وكأنها قسمت الأدوار فيما بينهما، مما حتم علينا التطرق إلى كل صنف على حدة لنطلع على أهم مكوناته.

I - مؤلفات منافحة عن الطريقة وشيخها

لم يدخل عصر سيدي احمد التجاني من منتقدين لطريقته وحاقدين عليه خصوصا بمدينة فاس بسبب ما انطوت عليه تعاليم الطريقة المنسوبة

إليه من مبالغة في تقديم شيخها والإشادة بعلو مقامه، وحسن المآل الذي سيؤول إليه كل من احتذى بحماه، غير أن هذه الانتقادات¹ لم تكن ذات أهمية إذا ما قورنت بالسهام التي وجهت له ولطريقته بعد وفاته، وبعد أن انتشرت الأدبيات التجانية في كل أنحاء المغرب وخارجه، فكثير المنكرون والمعترضون وظهر منهم من رأى في تعاليم التجانية انحرافا عن السنة، ومنهم من كفر الشيخ الطريقة²، مستعينا في ذلك بأقوال الأئمة الغابرين وبعض العلماء المعاصرين³ لقوله، في رأيهم، بأمور لم يوافق عليها علماء الظاهر، ومنهم من رأى فيه دجالا ومحتالا ودخيلا على التصوف لأنه ليس شيئا حقيقيا باعتبار أن من لا شيخ له لا يعتبر شيئا، كما هي حالة سيدي

= 1 - في مقدمة هؤلاء المنتقدين يأتي كل من الفقيه أبي القاسم الزياني والفقيه الطيب بنكيران، كما أسلفنا.

2 - يمكن الرجوع في هذا الموضوع إلى:

الحق المبين في انتصار التجانية على علماء القرويين، وهو تاليف، على حد تعبير عبد العزيز التسماني خلوق، أراد به صاحبه الدفاع عن الفقيه النظيفي الذي أفتى فيه علماء القرويين بحرق كتبه التي ذكر في بعضها أن صلاة الفاتح من كلام الله القديم، وأنها أفضل الأذكار، بأمر من السلطان العليا. وكان هذا عام 1343 إلى رئيس المجلس العلمي بفاس، انظر:

عبد العزيز التسماني خلوق، حياة احمد سكيرج، م.س، 57، غير أننا للأسف لم نستطع الحصول على هذا المخطوط (الحق المبين...)

3 - على غرار ما قام به أحد الفقهاء الشناقطة. انظر:

- محمد الخضر بن مايابى، مشتهى الخارق الجاني في رد زلقات التجاني الجاني، دار إحياء

الكتب، مصر 1276 هـ.

احمد التجاني، وفي مقدمة أصحاب هذا الرأي احمد البكاي¹ شيخ الطريقة المختارية الكنتية (القادرية) بالسودان الغربي المعاصر للفقيه محمد أكنسوس، والذي كانت له معه مراسلات تناول معظم مضمونها الإشادة بأكنسوس والاعتراف له بعلمه وصلاحه من جهة وتأسفه على انخداع مثل هذه الشخصية² ووقوعها في حبال التجانية وشيخها الذي لا يمكن لأحد أن يقيم الدليل على أحقية مشيخته، وإن كان لا ينكر أنه من أهل الصلاح.

وأمام هذا الهجوم المضر بالطريقة وتعاليمها وبسمعة شيخها، لم يبق الفقيه أكنسوس مكتوف الأيدي، فألف من أجل الرد على منتقديه، الجواب المسكت في الرد على من تكلم في الطريقة التجانية بلا تثبت³، ويلاحظ أن مع تكاثر المنتقدين للطريقة تكاثر أيضا عدد المدافعين عنها خلال القرن 19. فعلاوة على فقيها محمد أكنسوس، ظهر فقهاء تجانيون آخرون ممن حركتهم الغيرة على شيخهم، وتعاليم طريقته، فتصدوا لذلك بالتأليف

1 - احمد البكاي بن الشيخ محمد بن الشيخ المختار الكنتي شيخ تصوف سياسي وأديب كبير، ينتمي إلى بيت من أكبر بيوتات السودان الغربي في تاريخها الفكري والاجتماعي. انظر: ضالة الأديب، م.س، ص 150.

2 - احمد البكاي، رسالة لأكنسوس في الطريقة التجانية، مخطوط رقم D1071 bis الخزانة العامة، الرباط.

3 - محمد أكنسوس، الجواب المسكت في الرد على من تكلم في طريقته الإمام التجاني بلا تثبت، المطبعة الثعالبية، الجزائر 1331/1913، ثم مخطوط الخزانة العامة رقم 1604 حول نفس الموضوع.

لدحض ما يقوله الخصوم، وأبرز الذين خاضوا هذه المعركة في الفترة التي تهمنا علاوة على أكنسوس:

– إبراهيم الرياحي

– محمد بن محمد الصغير، ابن انبوجة العلوي التيشيتي، مؤلف كتاب الجيش الكفيل بأخذ الثأر ممن سلّ على الشيخ التجاني سيف الإنكار¹.

– محمد بن عبد الله العلوي

– محنض باب بن ابيد الديماني

– سيدي عبد الله بن احمد دام

– احمد بن محمد بن العباس العلوي الشنقيطي صاحب "كتاب

الغضب اليماني في الرد عن شيخنا سيدي احمد التجاني"².

– احمد بن الامين الشنقيطي

– محمد العربي بن ادريس العلمي اللحياني

– محمد بن عبد السلام كنون

1 – محمد بن محمد الصغير، ابن انبوجة العلوي التيشيتي، الجيش الكفيل بأخذ الثأر، ممن سل على الشيخ التجاني سيف الإنكار، طبع على الحجر بفاس عام 1319، وطبع بالقاهرة على هامش بغية المستفيد لابن السائح، دت، وطبع بالقاهرة مستقلا سنة 1938، طبقا لما ورد في كتاب ضالة الأديب، م، س، أما النسخة التي اعتمدنا عليها فهي طبعة القاهرة سنة 1938.

2 – احمد بن محمد العلوي الشنقيطي، الغضب اليماني في الرد عن شيخنا سيدي احمد التجاني، مخطوط رقم 2/2135 د، الخزانة العامة الرباط.

- احمد الأمين الشنقيطي، مؤلف كتاب درء النبهاني عن حرم الشيخ سيدي احمد التجاني¹
- محمد كنون، مؤلف كتاب الدر المنظوم في نصرة القطب المكتوم، وهو الذي ذيل هذا الكتاب بكتاب آخر أسماه، النطق المفهوم في حل مشكلات الدر المنظوم².
- ابراهيم الرياحي³.
- وبعد أن قدمنا هذه المؤلفات مع أصحابها نعود إليها واحداً واحداً بشيء من التفصيل حتى نكون عنها نظرة أشمل وأفيد.

1 - عبد السلام بن عبد القادر بن سودة المري، دليل مؤرخ المغرب الأقصى، م، س، ج، I، ص

2 - محمد كنون، الدر المنظوم في نصرة القطب المكتوم، وهذا الكتاب مذيّل بآخر تحت عنوان: النطق المفهوم في حل مشكلات الدر المنظوم، مخطوط الخزانة العامة رقم 6/1235 د.

3 - أخذ الفقيه العلامة الشيخ ابراهيم الرياحي (التونسي) الطريقة التجانية على يد الفقيه علي حرازم برادة عندما توقف بتونس وهو في طريقه إلى الديار المقدسة، ثم أخذها بعد ذاك مباشرة عن الشيخ سيدي أحمد التجاني، بمناسبة حلوله بالمغرب سنة 1218 موافق 1830 موفداً من قبل ملكه في مهمة سياسية. انظر:

عمر بن محمد بن علي بن الشيخ ابراهيم الرياحي، تعطير النواحي بترجمة الشيخ سيدي ابراهيم الرياحي مطبعة بكار تونس 1320، ج 1 ص 19، 20-21.

1 - رد الفقيه محمد أكنسوس على انتقادات الفقيه احمد

البكاي

لا يمكن أن نستوفي في هذه النقطة الفرعية كل ما جرى من مراسلات وما دار من مساجلات ونقاش بين الفقيه الكنتي القادري الطريقة، الشيخ احمد البكاي، وبين الفقيه التجاني الشيخ محمد أكنسوس، لأن حصيلة هذه المراسلات تستحق دراسة خاصة بالنظر لأهميتها. وسنكتفي من جهتنا بإبراز أهم القضايا التي اختلفت فيها وجهات نظر الفقيهين من خلال المراسلات المتبادلة بينهما، ليتأتى لنا بذلك فهم السبب الذي جعل محمد أكنسوس يؤلف كتاب الجواب المسكت لدحض كل طروحات خصمه التي هدفت إلى نسف التجانية من الأساس طريقة وشيخا.

في البداية نرى من المفيد أن نشير إلى أن أحمد البكاي (ت 1865) ينحدر من أسرة المختار الكنتي القادري الطريقة، وهي الأسرة التي كان لها نفوذ قوي بالسودان الغربي خصوصا خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وقد اشتهرت قادريتهم هناك وعرفت بالمختارية الكنتية. وكان لشيوخ هذه الطريقة التي ينحدر مؤسسوها من المغرب، علاقات وطيدة مع الملوك المغاربة في العصر العلوي¹، كما عملوا على

1 - مخطوط رقم 147 ع، ورقة 30 وما بعدها، خزانة علال الفاسي، الرباط.

-B.N.P.MO.FA.Man. 5259. Fo.66.

إنشاء فروع لزاويتهم بالمغرب خصوصا بمكناس ومراكش. وحتى لا نطيل الكلام في هذه المسألة نعود لأحمد البكاي المعاصر للفقير أكنسوس، فنقول بأنه ينتمي لهاته الأسرة الكنتية، فهو أحمد البكاي بن محمد (ت1826). بن المختار الكنتي (1811)، و كان يرأس أكنسوس من مقر إقامته بتمبكتو على الضفة اليسرى الشمالية لنهر النيجر.

أول رسالة تتوفر عليها منسوبة لأحمد البكاي لا يخاطب فيها الفقير محمد أكنسوس مباشرة. وتحمل هذه الرسالة تاريخ متم شوال عام 1270 / 1854. وفي هذا التاريخ كانت الطريقة التجانية قد عرفت انتشارا واسعا في السودان الغربي، لكون محمد الحافظ الشنقيطي الذي توفي سنة 1245 / 1830، كان قد عمل على نشرها ببلاد شنقيط، وما وراء نهر السنغال إثر أخذه مباشرة عن الشيخ التجاني كما أسلفنا.

وما بين حوالي 1830 و 1850 أفلح الحاج عمر الفوتي في جعل أغلبية الشعوب المستقرة بين نهر السنغال و بلاد الهوسا (نيجيريا الشمالية)، شرق نهر النيجر، تدخل في الطريقة التجانية، و تأتمر بأوامره لتحقيق أهداف سنتعرف عليها في فصول قادمة. تأسيسا على ما سبق، نرى أن تحرك الشيخ أحمد البكاي في اتجاه المغرب له ما يبرره، بالنظر إلى النجاح الساحق الذي حققته الطريقة التجانية في الصحراء و السودان الغربي، بما في ذلك تمبكتو و ما جاورها من مناطق شاسعة على حوض نهر النيجر، كانت الطريقة القادرية المختارية و الكنتية هي المهيمنة عليها،

ماديا و معنويا.

و سعيا وراء استئصال الداء من جذوره، عمد الشيخ احمد البكاي، في تصورنا، إلى محاولة تقويض الطريقة التجانية من أساسها لإفساد سمعتها، و جعل الناس يتخلون عنها لاستبدال الذي هو أدنى بالذي هو أحسن، الأحسن في نظر البكاي هي الطريقة القادرية.

مضمون هذه الرسالة الأولى التي تحمل تاريخ 1270 هـ، يزكي إلى حد كبير الطرح الذي نميل إليه، فهي تخاطب جماعة من القادريين الكنتيين المختارين بمراكش، لأن الرسالة تبتدأ هكذا : «إلى إخواننا وأحبائنا وأحبائنا وتلامذتنا المراكشيين عموما و خصوصا»¹، أما الذين خصهم بالذكر في هذه الرسالة فهم :

- الفقيه الصوفي الحاج محمد بن أحمد الصحراوي.

- مقدم الزاوية القادري المختاري المبرور الحاج محمد عمور.

- إمام الزاوية مولاي المدني العلوي الشريف.

- الفقيه السيد عبد الخالق الدباغ.

- الفقيه السيد عبد السلام بن طاهر.

- الفقيه سيدي عبد الله الديماني.

- نقيب الشرفاء مولاي عبد الكبير بن مولاي الطايغ.

1 - أحمد البكاي، رسالة لمحمد أكنسوس في الطريقة التجانية، م.س، ورقة 2 «أ»

بعد ذكر هذه الأسماء انتقل صاحب الرسالة إلى ذكر الغرض منها، وهو الغرض الذي جاء في عدة أوامر وأفكار وتنبيهات، نعرض لأبرزها في النقاط الآتية :

- حض تلامذته على الإئتلاف ونبذ الإختلاف، مذكرا إياهم بأن مثلهم يقتدي بهم أكابر الفقهاء ويهتدي بهم الأصاغر الضعفاء.

.. لفت انتباههم وإرشادهم إلى ضرورة معرفة أهمية الشيخ السيد عبد القادر الجيلي وإلتزام طريقته والتعلق بسنده لأنه لا مثيل له في الأشياء والأوراد والأصحاب.

- إخبارهم أنه قرأ كتاب التجانية (لعله جواهر المعاني) المؤلف في شيوخهم فإذا فيه : «ذكر لشيخنا سيدي عبد القادر الجيلي وسموه بسلطان الأولياء... فتعجبت وقلت سبحان الله كيف كتبوا بلا إرادة منهم فإنهم يدعون أن لا مثل للتجاني في الأشياء ولا لأصحابه في الأصحاب¹...» . بناء على ما سبق، حذرهم بأن من رغب عن صحبة الشيخ عبد القادر الجيلي، مفضلا صحبة غيره فإنه سوف يستبدله بمن هو أقل لأن هذا الشيخ من آل النبي و من ذريته.

- إعلامهم بأنه لم يبق من الطرق الصوفية طريق موصل من غير طريقة الشيخ عبد القادر الجيلي، لأنها موصلة إلى الآن، لم تتغير حالها ولم

1 - المصدر نفسه، ورقة 2 «ب».

رجالها، على عكس ما حدث للطرق الأخرى التي انقطعت انقطاعاً.

– إفادتهم بأن مصداق كلامه هو أن الشيخ الولي عبد القادر الجيلي، قال له: يا عبد القادر، كل ديك يصرخ ثم يسكت إلا ديك فإنه يصرخ إلى يوم القيامة¹.

– استدراج طلبته المراكشيين لإقناعهم بأنه لا يوجد على وجه الأرض اليوم رجل واحد وأصل مرب، إلا و كان من تلاميذ الشيخ عبد القادر الجيلي وعلى طريقته.

– إخبارهم بأن أباه وجده هما خليفتا الشيخ عبد القادر الجيلي في حاله و مقامه².

يلاحظ من خلال هذه العناصر الأولية الواردة في الرسالة أن الشيخ البكاي، مصمم على بذل مجهود نظري لإقناع طلبته بوجهة نظره التي تهدف إلى إقرار أن الطريقة القادرية المختارية الكنتية هي الطريقة الصوفية الوحيدة التي تستمد مشروعيتها من تسلسل سندها حتى الرسول صلى الله عليه و سلم، فإذا كان الشيخ عبد القادر الجيلي مشهوداً له بصلاحه ومشيخته و صحة سنده، و ما دام أن الشيوخ من تلامذته الذين أخذوا عنه، لا يوجد من يضاهيهم في الولاية و الصلاح، فإن والديه اللذين ينهلان من نفس المشرب، حسب تصوره، يعتبران خليفته، و بما أن البكاي ينحدر

1- المصدر نفسه، ورقة 3 «أ».

2 - نفسه.

من هذين الخيفتين القادريين، أليس هذا أكبر دليل على استحالة وجود شيخ في مستواه، شيخ يفتخر بتوفره على السند الموصول حتى عهد الشيخ الجيلي.

هذا المدخل كان ضروريا لوضع رد أكنسوس في سياقه التاريخي، ونحن نتحدث عن رسالة البكاي التي حاول فيها صاحبها البرهنة على أن الذي يختار الدخول في طريقة بلا شيخ، ولا سند، لا شيء سوى ما شاع من أن من أخذ ورد الشيخ التجاني تفتح له أبواب الرزق، مصاب في عقله بخبال¹.

و من الواضح في هذا الخطاب أن الشيخ أحمد البكاي يقصد في خطابه الإساءة للطريقة التجانية و شيخها، خوفا من منافستها الشديدة لطريقته. ومعلوم أيضا أن التجانيين روجوا من خلال أدبياتهم لمسألة اليسر المادي الذي يحصل لكل من دخل في حمى طريقته، و لعل هذه المسألة لا تخص الطريقة التجانية وحدها، بل تقول بها كل الطرق قديمها وحديثها.

ما تبقى من أفكار الرسالة يخدم نفس الهدف، الذي هو التنقيص من الطريقة التجانية، ولكن بحنكة خبير، و ذكاء نادر، فهو قبل أن يتحدث عن خصومه بالدرجة الأولى، عمد إلى تدبيج تلك المقدمة المنمقة، و كانت خطوته الموائية هو إبداء احترامه و تعلقه بالعرش العلوي، و حث مريديه

1- المصدر نفسه، ورقة «3» «ب».

على احترام القائمين على الحكم بالمغرب و عرض أمورهم على : «سيدنا الخليفة مولانا سيدي محمد بن مولانا الإمام عبد الرحمان نصرهما الله¹»، بعد ذلك نص على الفقيه سيدي محمد أكنسوس بالإسم، و طلب من أنصاره أن يبلغوه الخطاب الموجه إليه في هذه الرسالة في أسلوب ينم ظاهريا عن الإحترام و التقدير الذي يكنه للفقيه التجاني ولشيخه، يقول هذا الخطاب «و سلموا مني على أخينا في الغيب المبريء من العيب الفقيه النبيه الصالح الراجح سيدي محمد أكنسوس و أخبروه عني أنني أحبه في الله وأحبوه أنتم ولا يزهكم فيه أنه على طريق التجاني، فإن أخوة الإسلام تجمعنا...إني أندبه إلى طريق الشيخ عبد القادر وإلى اعتقاده وأخذ ورده²...».

أفصح إذن سيدي احمد البكاي عن منيته، و رفع الحجاب عن بغيته، وحتى لا يشعر مخاطبه بالإهانة و الدنيوية، وأصل استعمال التعابير المنتقاة، و النصائح الغالية، و الأفكار الملتوية مع مرونة كافية، فعبر له عن عدم ممانعته في أن يحتفظ بورده التجاني، لكن هذا الإحتفاظ لا يغنيه عن الشيخ عبد القادر الجيلي، لأنه لا يوجد شيخ الآن يصله بشيخ من الشيوخ

1 - المصدر نفسه، ورقة 5 «ب».

2 - نفسه، ورقة 5 «ب».

إلا أن يكون من القادرية، وهذا لا يعني تقليلا من أهمية سيدي احمد التجاني، فهو في نظر البكاي «مرابط صالح»، إلا أنه لم ير له كلاما في التربية ولا عملا لها، وكل ما نسبوه له زور وبهتان، لأن ما نسب له هو لبعض العلماء السابقين عن زمانه¹، ثم يعود مرة أخرى لتلطيف الكلام نحو مخاطبه فيقول: «وما أردت بهذا تنقيصه، فإني لا أنتقص منتسبا إلى الله تعالى ولو كان كاذبا²...». و يختم الشيخ البكاي هذه الرسالة بإخبار مريديه أنه سيكتب مباشرة إلى الفقيه محمد أكنسوس كتابا خاصا به.

1 - هذه الأطروحة هي التي انساق معها جميل أبو نصر الذي ألف كتابا حول التجانية، والتي ترى أن ما ورد في جواهر المعاني لا علاقة له بسيدي احمد التجاني، وكل ما في الأمر حسب نفس المصدر هو أن علي حرازم برادة جامع مادة الكتاب، عمد إلى نقل سيرة أحد أولياء القرن 17 المغاربة أحمد بن عبد الله معن، التي تحمل عنوان: المقصد الأحمد في التعريف بسيدنا عبد الله أحمد، من تأليف عبد السلام بن الطيب القادري الحسني. و يضيف نفس المصدر أن هذه السرقة ظلت غير معروفة حتى طبع كتاب جواهر المعاني سنة 1927، مما حدا بالسلفيين مولاي العربي العلوي و عبد الحي الكتاني إلى الجهر بعدائهما للتجانية، بعد اكتشاف السرقة وواصلوا معا مجهودهما الذي انتهى بطبع كتاب المقصد الأحمد سنة 1932 بهدف ضرب مصداقية التجانية، أنظر:

- Abun -Naser (j.). op. cité, pp 24-25,

غير أنه عندما عدنا لمقارنة مضمون المقصد الأحمد... المطبوع على الحجر عام 1351 بما

ورد في جواهر المعاني، لم نجد بعض التشابه في العبارات إلا في المقدمة، أما صلب الموضوع فيختلف فحواله كلياً عن كتاب المقصد.

2 - أحمد البكاي، رسالة لأكنسوس في الطريقة التجانية، م.س، ورقة 4.

هذه إذن هي أهم الأفكار التي تضمنتها رسالة شيخ الطريقة المختارية الكنتية أحمد البكاي إلى مريديه بمراكش و التي يبدو أن هدفها الرئيسي كان هو إقناع التجانيين و القادريين المختاريين بأن الطريقة التجانية لا تعتبر طريقة صوفية للترقية و السلوك لأن شيخها لا شيخ له، و بذلك فهو ليس شيخا، و عليه فهو ينصح إخوانه في الطريقة بالثبات في طريقتهم، و يهيب بالتجانيين بالإنخراط في القادرية، و في مقدمتهم الفقيه أكنسوس الذي وعده بمكاتبة خاصة، فهل سيفي بوعده ؟

نعم، بعث سيدي احمد البكاي برسالة خاصة إلى الفقيه أكنسوس بتاريخ 24 ربيع الثاني 1301 / 1884، و بغض النظر عن المشكل¹ الذي يطرحه تاريخها، فإنها أتت في محتواها لتوجه الدعوة بشكل واضح و صريح إلى الفقيه المذكور ليتخلى عن التجانية و ينخرط في قادرية الكنتيين، مستحضرا كل الأفكار التي ساقها في رسالته السابقة لكن مع شيء من الإختصار إذا ما قورنت بالسالفة التي بلغ عدد صفحاتها حوالي تسعة، في حين لم يتعد عدد الصفحات التي نحن بصدها أربع صفحات. ابتداءً الشيخ البكاي هذه الرسالة كعادته بعبارات تدل من الناحية

1 - نقصد بذلك أنه في سنة 1884 كان الشيخ أحمد البكاي قد فارق الحياة منذ سنة 1865، و نرجح أن المراسلة قد تكون تمت خلال سنة 1865 أو قبلها. و أن الخطأ ربما في وضع الأرقام هو الذي طرح هذا المشكل. من جهة أخرى يلاحظ أن تاريخ الرسالة التي أجاب بها أكنسوس البكاي تطرح نفس المشكل كما سنرى.

الشكلية على التقدير الكبير الذي يكنه لمراسله «من عبد ربه سيدي احمد البكاي بن سيدي مجمد بن سيدي المختار بسلام أسنى، وتحية حسنى، إلى الأخ الحبيب و الفقيه اللبيب سيدي محمد الكنسوسي¹...».

بعد التحية و السلام دخل في الموضوع مباشرة، فأخبره بأن واجب الأخوة يفرض عليه تنبيه الإخوان، خصوصا و أنه يحبه و لا يسمع عنه، إلا ما يسر في الخير و الدين و العلم. و بما أنه لا يؤخذ شيء من ديننا هذا، يفيد البكاي، مخاطبا أكنسوس، إلا على ثقة في العقل و الدين و العلم و الصلاح، لا سيما طريق الصوفية الأولياء و طريق الأوراد و الأسماء لعزتها و غرابتها و سمو أمرها، و مع ما يقال عنك أنك تجاني الطريقة، فإنك بهذا مخاطر بنفسك و مخاطر بغيرك ممن يأخذون عنك، وليبرهن على ذلك يقول البكاي : «...ولم أسمع للتجاني نفسه طريقة، بل له ورد ، و من شاء اتخذ وردا ... و أما الطريق الذي يذكر التجانيون عن التجاني فليست بطريق، إنما ذكرا و تواجدا و رقصا، و لعبا و هجرانا لأولياء الله تعالى²...»

و استمر يحاور صاحبه وكأنه يقدم له درسا في الشريعة و التصوف،

1 - أحمد البكاي، رسالة إلى أكنسوس، مخطوط 1071 د، الخزانة العامة، الرباط، ورقة 2 «أ».

2 - نفسه، ورقة 2 «أ»

منبها إياه أن الرسول صلى الله عليه وسلم الذي هو أعلم الخلق بكل شيء «لم يوظب لأمته وردا من الأذكار إلا الذكر ثلاثا وثلاثين، بعد كل صلاة، ثم مائة من سبحان الله و بحمده في كل يوم ومائة من لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير¹». ثم بدا وكأنه يوبخه عند نعته بالغافل والمغفل إذا كان مقتديا بغير قدوة لأن «التجاني لا علم لك به إذ لم تلقه، ولم تلق عنه ذا علم تثق به أو يوثقك به²...».

و مرة أخرى يذكره بأن التجاني ليس من أهل التربية وإن كان من أهل الصلاح، مجددا له التأكيد، في نفس الوقت، أنه باعترافه بالصلاح لشيخه، فهو بذلك لا ينتقص من شأنه، وهذا لا يتنافى في نظره مع كونه ليس من أهل التربية.

ولكي يستدرج الفقيه أكنسوس إلى قبول عرضه، لم يسأم أحمد البكاي من الضرب على نفس الوتر، وهو إبداء الإحترام للشيخ التجاني ونفي تصدره للمشيخة الصوفية في نفس الوقت، مذكرا إياه بما خاطبه به في رسالته السابقة، فهو في الوقت الذي يصرح فيه أنه لا يندب مخاطبيه للطريقة القادرية لأنه يحسد التجاني والتجانية، ولكن دعوة لأهل الخير

1 - المصدر نفسه ورقة 2 «ب».

2 - نفسه .

ونصيحة لهم، وإلا فإن الكل يعلم أن الطريقة القادرية، أفضل وأكمل، وأن كل الطرق اندثرت باستثناء الطريقة القادرية بدليل قول الشيخ لمريده عبد القادر كل ديك يصرخ ثم يسكت إلا ديك فإنه يصرخ إلى يوم القيامة¹. وفي ختام الرسالة، و قصد إشعار الفقيه أكنسوس، ربما بعلو كعبه، و كبر شأنه ذكر له أنه لولا تعيين الإختصار، لقلق المتأهبين للسفر، لعرض عليه الكثير من الحجج والأدلة المقنعة، و بما أن الأمر كذلك، فإنه يخبره بأن مريده و حامل الرسالة إليه الفقيه عبد الله بن ألفا عم، بإمكانه توضيح كل ما هو في حاجة إليه بخصوص الموضوع المطروح عليه الذي هو، الإقبال على الطريقة المختاركية الكنتية، و الإعراض عن الطريقة التجانية². فهل سيكون الفقيه أكنسوس بنصيحة أحمد البكاي عاملا، وبالطريقة التجانية جاحدا؟

– رد الفقيه أكنسوس :

جاء رد الفقيه أكنسوس في رسالة جوابية تحمل تاريخ 26 جمادى الثانية 1301/1884، مع الإشارة إلى وجود نسختين أخريين لها، لا تحملان أي تاريخ³، و الطابع الذي يميز هذه الرسالة التي تحمل عنوان

1 – المصدر نفسه، ورقة 2 «ب»

2 – نفسه، ورقة 3 «ب». =

«الجواب المسكت في الرد على من تكلم في طريق الإمام التجاني بلا تثبت، هو طولها الذي امتد على 78 صفحة، تبعا للنسخة المنشورة بالجزائر»¹ ويرد ذلك كما سنرى إلى كون مؤلفها رد على خصمه البكاي بكل ما يتطلب الموقف من حزم وحنكة ودراية في علوم الشريعة والحقيقة لدحض كل عناصر الأطروحة البكائية، فصلا فصلا، ونقطة نقطة، ونحن وإن كنا لا نستطيع لأسباب منهجية، أن نتعرض لكل مضامين هذه الرسالة، فإننا مع ذلك سوف نحرص على التطرق لأهمها خصوصا ما يتعلق بخدمة صلب الموضوع و توضيح أهم جوانبه.

قبل الدخول في تفاصيل هذه الرسالة الجوابية الدفاعية لابد من إبداء ثلاث ملاحظات لافتة للإنتباه، حول صاحبها، أمكننا استنتاجها من المضمون نفسه . تتعلق الملاحظة الأولى بما عبر عنه الفقيه من احترام مبالغ فيه تجاه الشيخ البكاي إلى درجة الحط من قيمته أحيانا، أما

== 3 - ما قلناه بشأن تاريخ مراسلة البكاي في هامش سابق ينطبق على تاريخ هذه الرسالة، غير أن ما نريد توضيحه هنا، هو خلو النسخة المنشورة بالجزائر (عام 1331/1913) من التاريخ، وكذا نسخة الخزانة العامة بالرباط رقم D 1071 bis، و النسخة الوحيدة التي تحمل التاريخ المشار إليه أعلاه هي نسخة الخزانة العامة بالرباط، رقم 1071 د، رغم أن المضمون واحد في كل هذه النسخ، فإننا تتبعنا أخبار هذه الرسالة من خلال النسخة المنشورة بالجزائر، ونشير في النهاية إلى أن العنوان الذي يلخص هذه الرسالة هو : الجواب المسكت في الرد على من تكلم في طريق التجاني بلا تثبت.

الملاحظة الثانية، و هي مرتبطة بالأولى، فتخص موقف المجاملة الذي خص به مخاطبه، و ظل وفيأ له على طول الرسالة كما سنلاحظ، فصار بذلك يوهم الناس أن الشيخ البكاي، لم يكن ليصدر مثل هذه الأحكام على الطريقة التجانية و شيخها لو لم يبلغه المغرضون أخبارا و تفاصيل مشوهة، والواقع أن الشيخ الكنتي كان على علم بكل المتغيرات الطرقية بالمغرب، لأن التواصل لم ينقطع قط بين تمبكتو و الضفة الشمالية الغربية للصحراء.

افتتح الفقيه أكنسوس رسالته، بعد البسملة و الصلاة على الرسول صلى الله عليه و سلم، بقصيدة رائية من ستة و عشرين بيتا، نظمها في مجملها لمدح الشيخ أحمد البكاي و أسرته و طريقته، و مما جاء فيها على الخصوص :

سيدنا المختار¹ لا زال ذكره يحف به الرضوان إن جلى الذكر
وبالشيخ مولانا الإمام محمد² فذان هما الشمس المنيرة و البدر.
ونجلهما المختار³ خير خليفة كما تخلف الآساد أشبالها الجزر

1 - هو جد أحمد البكاي.

2 - هو أب أحمد البكاي.

3- هو أخ أحمد البكاي.

ورابع أركان الجلالة أحمد¹ أولئك في أوج المعالي هم الزهر.
بهم نصر الإسلام وازدان وازدهى و لازمهم في ظلهم ذلك النصر²

بعد القصيدة، أورد من ضمن ما أورده آية قرآنية، يستشف منها شعور بالظلم و الإمتهان من قبل من أراد السوء بطريقته، فابتهل إلى الله بقوله **«ربنا افتح بيننا و بين قومنا بالحق و أنت خير الفاتحين»**³. ثم خص صاحبه بعد ذلك بأزكى التحايا و أنقاها، ذاكرًا في حقه أن الله قد خصه بأسنى المواهب و العطايا، و جاعلا منه مركز الأصالة التي تزهو به الجوامع و المجامع، و مطلع الأسرار الخافقة الألوية و السيادة المشرقة أفلاكها العلوية، إمام الطريقة و شيخ السنة و الحقيقة و منبع الفيوض اللدنية على الإطلاق المتحلي بمكارم الشيم و أحاسن الأخلاق، أبو العباس سيدي أحمد البكاي بن الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيدي المختار أعزهم الله⁴.

1 - هو أحمد البكاي نفسه

2- محمد أكنسوس، الجواب المسكت في الرد على من تكلم في طريق التجاني بلا تثبت،

م.س، ص 3-4.

3 - نفسه، ص 5.

4 - نفسه، ص 6.

بعد هذه الديباجة المنمقة أخبره بأنه توصل بكتابه الكريم الواجب التعظيم، و هو الكتاب الذي كان يوم وصوله بالنسبة لأكنسوس يوم عيد وفرح و سرور و نشوة ما بعدها نشوة، غير أن فقيها سرعان ما استدرك قائلاً بأن هذه الرسالة مع ذلك أوقعته في حيرة، و جعلته يتساءل مع نفسه هل يبادر بكتابة الجواب أو يغض الطرف و يغلق الباب ؟ فما هو يا ترى الصواب، يضيف أكنسوس ؟ لماذا إذن هذا الموقف المتردد ؟ يجب فقيها بكل بساطة بأن الجواب يقتضي الكلام، في حين لا يقتضي مقام الشيخ البكاي العالي إلا الإنقياد و الإستسلام¹. و مع اعترافه بحقارة نفسه، و تصريحه بأن مثله لا يسعه محاوره أمثال هذا الشيخ الذين فرغوا من تربية أنفسهم و أقامهم الله تعالى مقام الإرشاد لخلقه من أبناء جنسهم، مع كل ذلك فهو لم يتجرأ على الجواب إلا بعد أن وجد ما يبرره من خلال الإستشهادات الآتية :

- ما أورده الشيخ زروق من أن تحقق العلم بالمزية لا يبيح السكوت بعد تعين الحق، إلا بعد العلم بحقيقة ما عليه الفاعل من غير شك، ثم إن وقع انكار فليس بقادح في واحد منهما، كما قال الخضر لموسى عليهما السلام في أول أمرهما².

1 - المصدر نفسه ، ص 8.

2 - نفسه، ص 7.

- ما أورده ابن المبارك من رواية أنس بن مالك، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «الساكت عن الحق كالمتكلم بالباطل، و كاتم الشهادة كالشاهد بالزور، و محرم الحلال كمحلل الحرام»¹.

فما هي إذن أهم عناصر الأجوبة التي اقتنع الفقيه أكنسوس في النهاية بصياغتها، ليدلو بدلو، قصد الذب عن شيخه و طريقته، و إطلاع الخصوم على حقيقة هويته، و قطع الطريق على الطامعين في اصطياده، الراغبين في زحزحته عن مساره؟

يمكن إجمال هذه العناصر في النقاط الآتية :

- البرهنة على أن استبدال شيخ بآخر و طريقة بأخرى في التصوف، أمر غير جائز.

- البرهنة على أن سيدي احمد التجاني شيخ كامل.

- توضيح مسألة مقام ختمية الشيخ سيدي احمد التجاني.

- البرهنة على جواز السماع و الرقص في الطريقة التجانية.

- مسألة المفاضلة بين الشيخين الجيلاني و التجاني.

- توضيح موقف التجانية من زيارة الأضرحة.

- توضيح سبب أخذه هذه الطريقة.

- خاتمة.

1 - المصدر نفسه، ص 9-10.

فكيف تطرق فقيهننا إذن لكل عنصر من هذه العناصر ؟

– البرهنة على أن استبدال شيخ بآخر و طريقة بأخرى أمر

غير جائز في التصوف :

في البداية أبلغ أكنسوس مخاطبه أنه يقدر موقفه و يتفهم الأسباب،
الكامنة وراء دعوته للدخول في القادرية الكنتية، ما دام أن كل من دخل في
طريق من طرق المشايخ ينبغي له أن يدعو إلى الدخول في مثل ما دخل هو
فيه، وربما دعا كل واحد منهما صاحبه إلى ما عنده لأن كل واحد منهما
محب للآخر ومشفق عليه، و كل منهما يرى أن طريقه أحسن الطرق و أن
شيخه أكمل المشايخ و ذلك هو الواجب عليه، يضيف نفس المصدر¹.

و مما لا شك فيه هنا أن الفقيه أكنسوس يرى في شيخه أحسن
المشايخ، و يتعجب كل التعجب ممن يريد منه أن ينقض عهده، و هذا ما
جعله يحاور الشيخ البكاي مسائلاً إياه « ما يقول أهل الله تعالى العلماء
العاملون في رجل مومن بايع ولياً من أولياء الله تعالى و ألقى إليه قياده
وعاهد الله على متابعته في السر و الجهر... و الحالة أنه ما دخل في عهد
ذلك الولي حتى استقرأ جميع الطرق الموجودة بعقله... و ظهر له
بالبرهان... أنه ليس فوق الأرض و لا تحت السماء من هو أقرب إلى حضرة
الله تعالى... من ذلك الشيخ... الذي فوض إليه إرادته²...؟ ». و ليحرج خصمه

1 – المصدر نفسه، ص 11.

2 – نفسه، ص 13-14.

أكثر أردف قائلاً : «و لنفرض ذلك الرجل المومن أحد أتباعكم، هل يحق له أن يذهب إلى غير شيخه، و هل لفعله وجه عند أهل الطريق¹؟...»

و ليبرهن له على صواب وجهة نظره أورد مجموعة من الحجج، من بينها ما ورد في الذهب الابريز في مناقب سيدي عبد العزيز من كون الشيخ الذي يرى من مريده الإلتفات إلى غيره يقطع عنه المدد² و كذا قول سلطان العارفين محيي الدين ابن عربي الحاتمي في كتاب التجليات : المبايعون ثلاثة الرسل و الأشياخ و السلاطين، و المبايع في الحقيقة في هؤلاء الثلاثة واحد و هو الله تعالى³ . و من نكث من الأتباع فحسبه جهنم خالدين فيها ﴿و لا يكلمهم الله يوم القيامة و لا يزكيهم و لهم عذاب أليم﴾⁴ هذا حظه في الآخرة يقول أكنسوس، أما في الدنيا، فاستشهد بما أرده من أن أبا يزيد قال في حق تلميذه لما خالفه، دعوا من سقط من عين الله تعالى، فأصبح بعد ذلك من المخنثين⁵ . و ساق لنفسه الغرض ما روي عن أن أبا سلمان الداراني أمر تلميذه بأن يلقي بنفسه في النار، فأطاع

1 - المصدر نفسه، ص 14.

2 - المصدر نفسه، ص 11.

3 - المصدر نفسه، ص 14.

4 - سورة البقرة، 174.

5 - محمد أكنسوس، الجواب المسكت، م.س، ص 14.

شيخه بدون أدنى تردد، فعادت عليه النار بردا و سلاماً¹.
و بناء على ما سبق يرى أكنسوس، كخلاصة بالنسبة لهذه النقطة، أن
كل واحد يجب عليه أن يعتقد أن طريقته أفضل من غيرها و شيخه أكمل من
غيره، و إلا لم يحصل على طائل، مستشهدا في ذلك بقول الشريشي و لا
تقدم من قبل اعتقادك².

– البرهنة على أن سيدي احمد التجاني شيخ كامل :

يبدو أن الفقيه محمد أكنسوس، اغتاز كثيرا لما ورد في خطاب الشيخ
البكاي، من حط و تنقيص لشيخه، فهو رغم التأدب المصطنع المتكلف،
تجاه صاحبه، و رغم محاولته إبطال التهمة عنه و إلصاقها بمبلغه،
رغم كل ذلك، فإن الشرر المتطاير من عبارات الغضب الصادرة عنه لا تترك
مجالا للشك في أن فقيها كان في الواقع متحاملا على خصمه.
من هذه العبارات قوله : «و مما يجب ذكره هنا لا لكونه (الشيخ التجاني)
مجهولا فيعرف، أو خفيا فيظهر، فإنه أجلى من شمس الظهيرة
وأشهر، و لكن ليهلك من هلك عن بينة و يحيى من حيى عن بينة³ »، ثم
يضيف «...و للرد على من بلغكم أيذككم الله أن شيخنا أبا العباس

1 – المصدر نفسه، ص 15.

2 – المصدر نفسه، ص 59.

3 – المصدر نفسه، ص 15.

التجاني رضي الله عنه لا طريقة له حتى قلمت فيما كتبتم إلينا، إنه شيخ معدوم و طريق غير معلوم، فيقال سبحان الله سبحانه فكيف يسلب العارف معرفته إذا أراد امتحانه لو غيرك قالها يا أبا عبيدة¹...».

لقد قدمنا الاستشهاد بهذين النصين على طولهما، لنبين المراجعة التي كان يشعر بها من جراء الإساءة لشيخه و طريقته، لكن ما هي الحجج التي يدلي بها أكنسوس لدحض طروحات منازلته ؟ لإقامة الدليل على كمال شيخه و سنية طريقته و علو شأنها على غيرها من الطرق، أورد سيدي أحمد التجاني سنيين، سند عام و سند خاص.

السند العام يتعلق بسلسلة الشيوخ الذين أخذ عنهم في المشرق والمغرب : بفاس و جبل الزبيب وزواوة، و غير ذلك، و تلقى منهم الأسرار و الأنوار، و بشروه بما يؤول إليه أمره كما حدث له مع مولاي الطيب بن محمد الشريف اليملحي الوزاني و القطب الجامع أبو عبد الله سيدي محمد ابن عبد الكريم السمان ساكن المدينة المنورة، بالإضافة إلى أخذه الطريقة الخلوتية بسند متصل² مرفوع العمدة من شيخه الكامل سيدي محمد الكردي

1 - المصدر نفسه.

2 - يمكن الاطلاع على سند سيدي أحمد التجاني و سلسلة شيوخه في جواهر المعاني الجزء الاول، ص 38، 39، 40، 41، 42، ثم ص 108، 109. و في الجزء الاول من الجامع لما افترق من درر العلوم، ص 145.

المصري عن الشيخ الحفني إلى سيد الوجود صلى الله عليه و سلم كما هو
مذكور في جواهر المعاني و غيره¹.

أما السند الخاص و الذي يتميز به عن سائر شيوخ الطرق الأخرى،
يرى الفقيه أكنسوس، فهو أخذه مباشرة عن الرسول صلى الله عليه و سلم
الذي أذن له حسب قوله في هداية الخلق إلى حضرة الحق، يقظة لا مناما،
و قال له صلى الله عليه و سلم ، يضيف أكنسوس، إنه لا منة لأحد من
المشايع عليك².

و حتى لا يعتقد الشيخ البكاي أن الفقيه المراكشي وقع في تناقض
عندما قال بانعدام الوساطة في السند بين الشيخ التجاني و بين
الرسول صلى الله عليه و سلم، و هو ما يتنافى مع ما قرره أنفا من كون
هذا الشيخ أخذ سند الطريقة الخلوتية عن الشيوخ المذكورين، بادر الفقيه
أكنسوس إلى القول بأن الأمر ليس فيه أي تناقض، مستدلا
في ذلك بكلام أبي الحسن الشاذلي الذي سئل عن من يكون شيخه ؟
فأجاب «كنت أنتسب إلى الشيخ مولانا عبد السلام بن مشيش و أنا الآن لا
أنتسب إلى أحد بل أعوم في عشرة أبحر خمسة من الأدميين : النبي

1 - محمد أكنسوس، الجواب المسكت، م.س، ص 16.

2 - المصدر نفسه، ص 17.

صلى الله عليه وسلم، وأبو بكر، وعمر وعثمان وعلي، وخمسة من
الروحانيين : جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل والروح¹ « أفمن كان
سنده، يقول أكنسوس مدعماً بالأولياء الكبار من جهة، والاتصال بالرسول
صلى الله عليه وسلم مباشرة من جهة أخرى، يقال عنه إنه لا طريق له أو
طريقه غير معلوم؟ إنه غاية العجب، يضيف نفس المصدر، و لتسليط المزيد
من الضوء على هذه المسألة استشهد برأي الشعراني الذي ذكر بأن هناك
من المريدين من يتولى الله تربيته من غير واسطة لأحد من الأئمة، ومنهم
من يتولاه بواسطة بعض الأولياء، ولو ميتاً في قبره، والله عباد يتولى
رسول الله صلى الله عليه وسلم تربيتهم بنفسه من غير واسطة، بدوام
صلاتهم عليه، في حالة عدم وجود شيخ مرشد².

وإذا كان الشيخ التجاني يتوفر على كل الشروط التي تؤهله لتصدر
المشيخة في التصوف كما لاحظنا، يقول أكنسوس، مخاطباً صاحبه، كيف
أمكن لمن بلغكم أن يقول أن هذا الشيخ ليس من أهل التربية، فإن أراد
بالتربية، يضيف فقيمها، التربية المشهورة الإصطلاحية التي سلكتها،
وسلك بها الجنيد والسري وابن أدهم وأمثالهم، فإنها اليوم طريق

1 - المصدر نفسه، ص 17-18.

2 - المصدر نفسه، ص 19-20.

مهجورة الأعلام، لا يمكن لأحد اليوم العمل بمقتضاها،¹ و ليدعم رأيه أورد أكنسوس بيتا شعريا للشيخ أبي مدين الغوث قال فيه :

و اعلم بأن طريق القوم دارسة و حال من يدعيها اليوم كيف ترا².

فطريق القوم عرفت الانقراض و التلاشي منذ عهد أبي مدين الغوث في القرن السادس الهجري، فما بالك بحالها في القرن التاسع عشر، الذي نشاهد فيه، يقول صاحب الجواب المسكت، من يدعي التربية الإصطلاحية و أحوالهم أحوال أتباعهم مناقضة لأحوال السلف الصالح حبا في الدنيا و تهافتا على أبواب الأمراء، مما جعل الشيخ التجاني يقول : « من طلب الاستقامة التامة اليوم كمن طلب سلما يصعد به إلى السماء »،³ و ذلك في رأي الفقيه أكنسوس أن الإستقامة التامة هي ثمرة التربية المعلومة لأنها مجاهدة النفوس على سلوك طريق السلف الصالح و هذا ما لا قبل لأحد به في هذا الزمان.

1 - المصدر نفسه، ص 46.

2 - المصدر نفسه، ص 46.

3 - المصدر نفسه، ص 47.

- محمد الطيب السفياني، الإفادة الاحمدية...، م.س، ص 49، و قد أورد المؤلف قولة شيخه هذه بشكل مخالف شيئا ما، و نصها «من يريد الاستقامة في هذا الزمان كمن يريد أن يبني سلما إلى السماء»، و هو ما يؤدي نفس القصد و المعنى.

و بالإضافة إلى رأي كل من أبي مدين الغوث و سيدي أحمد التجاني للبرهنة على أقول عهد التربية الإصطلاحية، أورد شهادة شيوخ آخرين كالشيخ زروق الذي روى عن شيخه الحزرمي أن التربية بالاصطلاح ارتفعت، و لم يبق إلا الإفادة بالهمة و الحال، ثم أبو علي اليوسي الذي أفاد أن شيوخ التربية نصوا على انقطاع التربية المصطلح عليها منذ زمان و كرهوا السلوك عليها و التسليك بها، و الشعراني الذي أكد نفس الشيء¹.

بعد هذه الآراء يخلص المؤلف إلى القول بأن هذا العصر لا يلائمه إلا التربية بالهمة و الحال، و هذا ما كان يقوم به الشيخ التجاني الذي دخل في طريقته أقوام من مختلف شرائح المجتمع من «دباغ أو خراز أو حائك أو فلاح²...»، و كم من واحد من هؤلاء انقلبت أحواله و صفت مشاربه، يضيف نفس المصدر، فتفجر بالحقائق و نطق بالحكمة، و أشرق ظاهره بالأنوار التي في باطنه «...و هذا القدر مشاهد في أصحابه ولا ينكره أحد ممن مارسهم و خالطهم و ذلك بلا خلوة و لا رياضة³». بناء على كل هذه الحجج و الاستشهادات يعتقد الفقيه أكنسوس أن شيخه سيدي أحمد التجاني شيخ تكرم الله عليه بمقام الختم الذي لم يصل إليه أحد غيره، فما هي حقيقة هذا الختم؟

1 - محمد أكنسوس، الجواب المسكت، م.س، ص 48.

2 - المصدر نفسه. ص 49.

3 - نفسه، ص 49.

- توضيح مقام ختمية الشيخ التجاني :

للبرهنة على أن الشيخ سيدي أحمد التجاني، فوق كل الأولياء، يؤكد الفقيه محمد أكنسوس للشيخ أحمد البكاي، في رسالته هذه إليه، على أن طريقة شيخه طريقة نبوية مصطفىوية محمدية، بسبب أخذ صاحبها مباشرة من الرسول صلى الله عليه وسلم و لذلك فإن مقامها مقام محمدي، وهذا المقام الشريف صعب المنال، لأن صاحبه لا يصل إليه إلا بعد تخطي «مائتي حجاب و سبع و أربعين ألف حجاب و تسعمائة و تسعة و تسعين حجاباً»¹ (247999) .»

و مثل هذا الترقي لا يتأتى لكل ولي، وهنا لا ينكر الفقيه أكنسوس أن المقام الذي وصله شيخه شاركه فيه بعض من قبله من الأولياء، لكن لا يشاركه فيه من بعده لأنه الخاتم الأكبر الذي ختم الله به المقام المحمدي، كما أخبره بذلك الرسول صلى الله عليه وسلم. فمن شاء فليؤمن و من شاء فليكفر يضيف نفس المصدر². فما هي يا ترى حقيقة الختمية كما يراها فقيها؟

- حقيقة الختمية:

لتوضيح معنى هذا المقام لجأ الفقيه أكنسوس إلى توظيف نصوص

1 - المصدر نفسه، ص 22.

2 - المصدر نفسه.

منسوبة لعدة شيوخ أهمهم سيدي احمد التجاني، مولاي عبد القادر الجيلاني، علي كرم الله وجهه، ثم محيي الدين ابن عربي، وهكذا أورد أكنسوس كلا ما للشيخ التجاني منقولا عن الشيخ عبد القادر الجيلاني جاء فيه «من ألف البهاء من الله تعالى و لم يطالع إلا صفات الجمال من الحق لا يثبت لبدو العظمة والكبرياء²». و تعقيا على قول الشيخ الجيلاني «لا يثبت لبدو العظمة والكبرياء»، و توضيحا له أفاد سيدي احمد التجاني أنه لا يثبت لها إلا الأكابر من الرجال و العارفين، لأن أكملهم و هو القطب الكامل لا تتجلى له حقيقة الكبرياء إلا بعد بلوغه المرتبة العليا من القطبانية، و ذلك المقام هو ما يسمونه ختم المقامات الذي لم يرتقه إلا القلائل من الأقطاب، لبعد مرامه، فإذا ما ارتقاه القطب ووصله يتجلى له هناك الحق بالكبرياء². و نقلا عن علي بن أبي طالب قال الشيخ التجاني أيضا «المعرفة كشف سبحات الجلال و غايتها الدهش في كبرياء الله تعالى³». و قد أراد بهذا يقول مؤلف الجواب المسكت مقام الختم في القطبانية باعتباره غاية الغايات.

أما محيي الدين ابن عربي الحاتمي، يفيد أكنسوس، ففي كلامه ما

1 - المصدر نفسه، ص 23.

2 - نفسه.

3 - نفسه.

يدل أن الختم مراتب أعلاها لا يكون إلا لشخص واحد «و هو الذي لا يكون بعد لغيره¹».

و هذا المقام الرفيع المتنافس عليه، يصرح فقيهما بشكل قطعي، أنه لشيخه سيدي احمد التجاني، لأن سيد الوجود صلى الله عليه و سلم أخبره أنه صاحب هذا المقام بشكل لا يقبل أي تأويل². و سعي وراء نفس الغرض، وهو محاولة إقناع الخصم و إفحامه، أورد كلاما لمحيي الدين ابن عربي في الفتوحات المكية، يفيد في نظره أن الشخص الذي يتحدث عنه هذا العارف، ولقيه بفاس، و الذي يحمل سمات (إمارات) خاصة حيث مقام الختم، هو الشيخ سيدي احمد التجاني، و هو ما قال ابن عربي بشأنه «وقد اجتمعت به سنة 595 هـ و رأيت العلامة التي أخفاها الله تعالى فيه عن عيون عباده، و كشفها لي بمدينة فاس حتى رأيت خاتم الولاية المحمدية منه و رأيت مبعثه بالإنكار عليه فيما يتحقق به في سره من العلوم الربانية³». و بما أن الفارق الزمني كبير جدا بين عصري العارف ابن عربي والشيخ أحمد التجاني فقد ذكر فقيهما أن الاجتماع المذكور برزخي⁴. لكن

1 - المصدر نفسه، ص 24.

2 - نفسه.

3 - نفسه، ص 24.

4 - نفسه، ص 25. و المقصود به روعي.

ما هو رد أكنسوس على قول البكاي بأفضلية شيخه مولاي عبد القادر الجيلي على جميع الشيوخ؟

- مسألة المفاضلة بين الشيخ مولاي عبد القادر الجيلاني و سيدي احمد التجاني.

بخصوص هذه المسألة لا يمانع الفقيه محمد أكنسوس في فضل الشيخ عبد القادر الجيلاني و لا في كماله و جلال قدره، و نعته بإمام الصديقين و قدوة المهتدين و حجة العارفين، لكن الشيء الذي يعترض عليه، هو ما ذكره البكاي في رسالته من أفضليته على كل من سواه من الأولياء. و الحالة هذه أنه لا يخفى عليه (البكاي)، يضيف أكنسوس ما وقع من الخلاف في تفضيل الأنبياء و الرسل بعضهم على بعض¹، ما عدا النبي محمد صلى الله عليه و سلم الذي ثبتت سيادته على بني آدم و جميع المخلوقات، و كذلك ما وقع من الخلاف في تفضيل الصحابة بعضهم على بعض باستثناء أبي بكر الصديق. و التفضيل هنا حسب نفس المصدر هو طبقا لما أورده المشرع صلى الله عليه و سلم و ليس حسب الهوى². فما كان مبينا على هذا الأساس من التفضيل و جب العمل به، و ما خرج عن هذه القاعدة و جب تركه، هذا مع الأخذ بعين الاعتبار أنه لا يلزم من الأفضلية الظاهرة الأفضلية الباطنة، كما هو عند الشعراني في لطائف المنن، يفيد

1 - المصدر نفسه، ص 53.

2 - نفسه، ص 53.

أكنسوس، بل الواجب هو محبة الجميع¹.

و حتى يثبت الشيخ أكنسوس لمخاطبه أن ما يزعمه من سمو شيخه عبد القادر الجيلاني على الجميع، ليس صواباً أورد عدة دلائل تسند طرحه، تقتصر على إيراد أهمها :

- الكرامة لا تقتضي التفضيل، وفي ذلك قال الجنيد: مشى رجال باليقين على الماء و مات رجال بالعطش و هم أفضل منهم².

- قوله صلى الله عليه و سلم لا تفضلوني على يونس بن متى³.

- تنبيه صاحب الجيش الكبير لكل من اعتبر واعتقد بأفضلية شيخ لمجرد سماعه بظهور كرامة عليه⁴.

- قول يونس بن حبيب أقبح الهجاء الهجاء بالتفضيل⁵.

- تحذير جدكم الشيخ المختار في الكوكب الوقاد من تفضيل شخص

أو نوع على آخر إلا بدليل يستدل به من الكتاب و السنة⁶.

فحسب المعطيات التي ينطلق منها، و الحجج التي يقدمها يرى

1- نفس المصدر، ص 54.

2 - نفسه، ص 55.

3 - نفسه، ص 58.

4 - نفسه، ص 56.

5 - نفسه، ص 59.

6 - نفسه، ص 59.

أكنسوس أن القول بأفضلية الشيخ عبد القادر الجيلاني على الشيخ أحمد التجاني شيء غير مقبول، باعتبار تساوي المعايير الظاهرية بينهما على الأقل كالشرف والعلم والولاية. إنما السؤال الذي يطرح نفسه بالنسبة لنا كباحثين، هو : إذا كان الشيخ أكنسوس يقول بتساوي المؤهلات بين الشيخين، فما الذي يجعله في النهاية يخلص إلى وضع شيخه في أعلى المقامات ؟

جواباً على هذا التساؤل يذكر الفقيه أكنسوس أن لشيخه أحمد التجاني خاصية انفرد بها و ميزته عن غيره من الأولياء، وهي وجوده في الآخر من الزمان، بالإضافة إلى ما أخبره الرسول صلى الله عليه وسلم به، من علو شأنه على غيره من الأولياء في الدنيا والآخرة، فاستحق بذلك تبوء مقام الختم كما سبق ؟

و رغم أن سيدي أحمد التجاني قال مثل مقولة¹ الشيخ عبد القادر الجيلاني، فإن العلو والسمو ثابت للشيخ التجاني بسبب تأخر عصره عن

1 - ينسب للشيخ عبد القادر الجيلاني قوله « قدمي على رقة كل ولي لله تعالى »، وهذا يعني سموه على جميع الأولياء. كما ينسب للشيخ أحمد التجاني قوله : « قدمي هاتان على رقة كل ولي لله تعالى من أول نشأة العالم ». وهو ما يعني أن مرتبته فوق جميع الأولياء. وهذا لا يتناقض مع ما ذكره الشيخ عبد القادر الجيلاني، في رأي الشيخ التجاني. باعتبار أن التصدر المذكور لشيخ القادرية على جميع الأولياء يهم عصره فقط، أنظر :

- محمد الطيب السفيني، الإفادة الاحمدية، م.س، ص 86.

- محمد أكنسوس، الجواب المسكت، م.س، ص 66.

عصر شيخ القادرية ، و لا يمكن في نظر أكنسوس أن تحمل مقولة الشيخ الجيلاني (قدمي على رقبة كل ولي لله تعالى) على العموم لتناقضها مع ما نقله صاحب الممتع الاسماع وغيره عن الإمام محمد بن سليمان الجزولي قوله : « قيل لي يا عبدي فضلتك على خلقي بكثرة صلاتك على نبيي ¹ ». والحالة هذه أن عصر الشيخ الجزولي متأخر عن عصر الشيخ عبد القادر الجيلاني.

- توضيح موقف التجانية من زيارة الأضرحة.

من ضمن القضايا التي عابها الشيخ البكاي على التجانيين موقفهم من زيارة الأولياء الأحياء منهم والأموات ، و لذلك خاطبه أكنسوس بما يفيد أنما أخبره به مبلغه ، عن التجانيين من هجرانهم لأولياء الله تعالى ، هو في الحقيقة اكتفأؤهم بزيارة شيخهم ، لا يتعلقون إلا به و لا يستمدون إلا منه ، وما عدا هذا فقد أقسم الفقيه أكنسوس بالله العظيم أن فقراء طريقته يعظمون أولياء الله غاية التعظيم ، لكن بشرط أن لا يستمدوا منهم أي شيء كما أوصى بذلك الشيخ سيدي احمد التجاني ، عملا بقول الرسول صلى الله عليه و سلم « مر أصحابك أن لا يزوروا أحدا من الأولياء إلا إذا

1- المصدر نفسه ، ص 66.

مروا بأصحابي فليزوروهم¹».

- بيان أسباب و ظروف أخذه الطريقة.

كان آخر شيء تطرق إليه الفقيه أكنسوس في جوابه المسكت، هو رده على ما وجهه له البكاي من انتقاد بسبب أخذه عن الشيخ التجاني رغم عدم التقائه به، وعدم أخذه عن ذي ثقة و ذي علم أخذه عنه (عن الشيخ التجاني)، و الواقع أن الشيخ أكنسوس اهتدى إلى جواب مفهم، حسبما نتصور، بخصوص هذه المسألة، عندها قال له بأن ما ورد في رسالته من لوم يفهم منه أن من لم يلق أحدا من المشايخ لا يمكنه اتباعه و لا الدخول في حزبه، و أنه إن فعل ذلك مخاطر بنفسه و بغيره فقط، و هذا يعني أيضا، يضيف أكنسوس مخاطبا البكاي «أن من لم يلقكم أعزكم الله لا نسبة بينه و بينكم، بل من لم يلق الشيخ عبد القادر، لا نسبة بينه و بينه كذلك، ولم نعلم أحدا قال ذلك...»²

ثم ذكره بعد ذلك بأن اللقاء مع الشيخ لم يشترطه أحد إلا نادرا، زيادة في التأكيد، كما فعل محمد بن اسماعيل البخاري في رواية الحديث، و ذلك يفيد أكنسوس «لأن صور المعتقدات إذا برزت لا تحتاج إلى صور الأشخاص، بخلاف صور الأشخاص فإنها تحتاج إلى صور

1 - نفس المصدر ص، 50.

2 - نفسه، ص 71.

المعتقدات»¹.

و رغم أن اللقي غير مشروط، يواصل فقيهننا، مخاطبا البكاي، مخبرا إياه بأنه لقي شيخه (التجاني) لقاء التبرك و دعا له بالخير، و لم يأخذ عنه في حياته لأنه كان صغير السن مشغول البال بأخذ العلوم والأحكام الشرعية. و لم يكتب له أخذ طريقته عن وارث أنواره، إلا بعد وفاته²، و في ذلك قال :

أتاني هواها بعد معرفة الهوى فصادف قلبا خاليا فتمكنا³.

و قبل أن يودع صاحبه و يختم رسالته، بلغ البكاي سوء تصرف مبعوثه إليه، الذي عوض أن يسلم إليه الرسالة بعد وصوله مباشرة إلى مراكش، ذهب إلى فاس و أقام بها شهورا، فأفشى خبر الكتاب و أذاع أمره، ولم يسلمه له إلا بعد رجوعه من فاس⁴.

في ختام هذه الرسالة التي تحمل عنوان « الجواب المسكت»، نخلص إلى القول بأن الشيخ أكنسوس رغم التواضع و دماثة الأخلاق التي ظهر

1 - نفس المصدر.

2 - نفسه، ص 72.

3 - نفسه.

4 - نفسه، ص 74.

بها من خلال مضامين خطابه إلى الشيخ البكاي، ولعل ذلك من شيم أخلاقه النبيلة، فإنه قد بذل كل ما في وسعه من أجل الذب عن شيخه وطريقته، بما قدمه من حجج وأدلة تنبيء بمدى اطلاعه على مختلف العلوم، مفندا بذلك نقطة نقطة مزاعم خصمه.

و سواء اقتنع البكاي أم لم يقتنع بحجج الفقيه أكنسوس، فإن الذي لا شك فيه هو أن البكاي قد خسر المعركة في إقناع أكنسوس بقبول القادرية الكنتية بديلا عن التجانية، مما جعله يكتب ردا مطولا «وعنيفا» على رد أكنسوس، حاول فيه تفنيد ما أورده هذا الأخير من استشهادات و نصوص في الجواب المسكت، وحمل هذا الرد الكتاب اسم «الفتح القدوس في الرد على أبي عبد الله محمد أكنسوس»¹، ولم يرد أكنسوس على البكاي هذه المرة على ما يبدو، لأن هذا الأخير توفي سنة 1865، بينما الأول توفي سنة 1877.

وقبل أن نطوي صفحة أكنسوس، نشير إلى أن هذا العالم، خلف كتباً أخرى، في أغراض دينية و تاريخية و أدبية متعددة.

2 - محمد بن محمد الصغير بن انبوجة العلوي التيشيتي² (ت 1858/1275)

هذه الشخصية الفذة، الذي كانت له صلات وثيقة مع السلطة

1 - مخطوط رقم 2455 ك، الخزانة العامة الرباط. =

المركزية و مع أشهر رجالات الطريقة التجانية، كأكنسوس، كما أسلفنا، يعتبر أحد أبرز كبار التجانيين الذين أخلصوا النية و العمل للشيخ سيدي احمد التجاني ببلاد شنقيط في أقصى جنوب المغرب، من خلال إنجازاتهم الفكرية التي تصدوا من خلالها بكل قوة لمن أراد لشيخ الطريقة سوءا، كما سنعمل على إبراز ذلك لاحقا.

و بهذه المناسبة لا نخشى المغامرة بالقول بأن عدد المدافعين عن الطريقة التجانية و شيخها، و قيمتهم العلمية ببلاد شنقيط ضد المنكرين، بدا أكثر أهمية مما هو عليه في شمال البلاد حيث نشأت و ترعرعت. هذه القناعة نتمسك بها على الأقل في الفترة الراهنة بناء على ما نتوفر عليه من مصادر.

إذا كان الفقيه محمد أكنسوس قد رد على الشيخ أحمد البكاي المقيم بتمبكتو بالسودان الغربي، بخصوص إنكاره لتصدر سيدي احمد التجاني للمشيخة في التصوف، فإن العلامة محمد بن انبوجة¹ الذي تخلى عن القادرية المختارية. ليختار التجانية طريقته الصوفية²، تصدى للرد على أكبر مشهر بالشيخ التجاني و طريقته. و هذا المنكر هو محمد ادبيجة

= = 1 - أحد أعلام الحياة الفكرية الكبار ببلاد شنقيط خلال القرن الثالث عشر الهجري، كان

فقيها متضلعا، و قاضيا سارت بذكره الركبان و شيخا بارزا من مشايخ التصوف. أنظر : سيدي عبيد الله بن سيدي محمد الصغير، ابن انبوجة العلوي التيشيتي، ضالة الأديب، م.س.

2 - المصدر نفسه ، ص 38.

الكملي¹.

ونظرا للخطر الكبير الذي كان يشكله هذا المنتقد على الطريقة التجانية واتباعها بمستواه العلمي الرفيع، وكثرة أشعاره التي وظفها لنفس الغاية، وتعدد المعجبين به، فإن الشيخ محمد الصغير بن انبوجة بذل مجهودا فكريا محترما و جبارا، دحض فيه كل مزاعم ادبيجة، مدعما أفكاره باستشهادات من الكتاب والسنة وأقوال كبار الفقهاء والمتصوفة من العصور السالفة، وسمى الكتاب الذي خصصه لهذا الغرض «الجيش الكفيل بأخذ الثار ممن سل على الشيخ التجاني سيف الانكار»²، مع ملاحظة أن أخ المؤلف سيدي عبدة سمي هذا الكتاب «الجيش الكبير في الرد على جموع النكير»³.

هذا الكتاب الذي يشتمل على ما يزيد على مائتين وخمسين صفحة، قسمه صاحبه إلى سبعة أبواب، خصص الباب الأول لحقيقة الولي وشروطه، و الباب الثاني لحقيقة البدعة، و تطرق في الباب الثالث للتحذير

1 - هو محمد ادبيجة بن عبد الله بن حبيب الله الكملي. و اللقب الذي غلب عليه حسب (ضالة الأديب ص 108) هو ادبيجة الكملي المتوفى سنة 1280. و كان يعد من مشاهير علماء شنقيط وشعرائها في القرن 13/19. اشتهر بإنكاره للطريقة التجانية، ترجم له كل من الأمين الشنقيطي في الوسيط، م.س، ص 348، و الخليل النحوي في بلاد شنقيط م.س، ص 506.

2 - سبقت الإشارة إليه و التعريف به.

3 - سيدي عبدة بن محمد الصغير بن انبوجة الشنقيطي التشييتي، ميزاب الرحمة الربانية في الترجمة بالطريقة التجانية، مصر، د.ت، ص 4.

من الإنكار على أولياء الله الأخيار، ثم عالج في الباب الرابع صحة جواز رؤية النبي صلى الله عليه وسلم يقظة، و يبدو أن واسطة عقد كتابه و لبه وعصارته، هو الباب الخامس الذي يحمل عنوان : « في الرد على باطل هذا المنكر و زعماته و ما سود به صحيفة أعماله و وجوه ورقاته»، و هو الباب الذي وظفه ابن انبوجة بشكل أساسي و فعال لمناقشة خصمه اديجة وإفحامه كما سيتضح.

أما البابان السادس و السابع فقد عرض فيهما لأهمية الشيخ وعلاقته بالمريد و حقيقة الورد التجاني. و نظرا لغزارة القضايا التي يتضمنها كتاب الجيش هذا، فإننا سنركز اهتمامنا بالدرجة الأولى على الباب الخامس منه الذي أفردده صاحبه للرد على إديجة الكمليلي، منتقنين منه الأفكار الأكثر دلالة على مناصرة الطريقة التجانية و تعاليمها. و عن سبب تأليفه لهذا الكتاب، ذكر أن الله أوقفه على ورقات فيها ما هو أرق منها و أضعف من بيت العنكبوت، و أوهن، من الاستخفاف بحرمة الشيخ سيدي احمد التجاني، ألفها بعض المنتسبين للعلم « فأخذني ما يأخذ الجرد المغيظ غيرة وحمية على حرمان أولياء الله الحفيظ، فهممت بتقطيعها وتمزيقها، بعد ما فهمت مراد صاحبها بترقيقها¹».

1 - سيدي محمد بن محمد الصغير بن انبوجة العلوي التيشيتي، الجيش الكفيل بأخذ الثار..

و يرى ابن انبوجة أن سبب طغيان هذا المنكر و استفحال أمره يرجع بالدرجة الأولى إلى خلو الساحة من أي منافس له ، قادر على رده و مساجلته لكي يرجع عن غيه ، و لا يمكن تفسير هذه الوضعية ، تبعا لنفس المصدر ، بانعدام وجود علماء في مستوى ادبيجة أو تقاعس فقهاء التجانية بالمنطقة عن أداء ما يفرضه عليهم الواجب إزاء هذا الخصم ، بل يرد ذلك إلى كون الشيخ محمد الحافظ الشنقيطي¹ أمر بالإعراض عنه و تخلية جانبه ، كما هو شأن من سلف من أولياء الله الكمل.

غير أنه بعد وفاة الشيخ محمد الحافظ سنة 1830 ، و مع استمرار الكمليلي في هجائه² ، برزت مجموعة من المدافعين عن التجانية ، ممن تصدوا له مستعملين نفس السلاح الذي هو الشعر ، و يمتاز صاحب الجيش من بين كل هؤلاء بثقل وزن علمه و طول نفسه ، و عمق أفكاره وأصالتها ، فهو لم يرد على ادبيجة شعرا فقط ، بل بتحرير كتاب مفصل ومحكم.

و بما أن الرأي العام ببلاد شنقيط كان يتجاوب أكثر مع النصوص الشعرية على ما يبدو باعتبارها صحافة الوقت ، و نشرته الإخبارية ، عمد ابن انبوجة ، علاوة على كتابه الجيش إلى نظم قصيدة هجائية ردا على

1 - سبق التعريف به في فصل سابق و للتذكير ، فهو الذي أخذ الطريقة عن سيدي احمد التجاني بفاس ، و نشر تعاليمها ببلاد شنقيط.

2 - سيدي عبد الله بن سيدي محمد بن محمد الصغير بن انبوجة العلوي التيشيتي ، ضالة الاديب ، م.س ، ص 39.

ادبيجة لنفس الغرض، سماها «سرية الجيش»¹. وقد طبعت في نهاية الطبعة المصرية من كتاب الجيش على هامش البغية، وذكرها أخوه سيدي عبدة في ميزابه.

من بين الأسباب التي دفعت صاحبنا لكتابة جيشه، بالإضافة لما سبق، رغبته في الانتصار لجانب الأولياء، ودفاعاً عن شيخه الكامل سيدي أحمد التجاني مستحضراً في ذلك قوله تعالى: ² ﴿وَلَمَنَ انتَصِرَ بَعْدَ ظَلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾³، ولبيان لعامة المسلمين حقيقة هذا المنكر حتى يكونوا على بصيرة من تلفيقاته و هذيانه، عسى أن يكون له عند هذا الشيخ حظوة يعتد بها⁴ ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُل نَفْس مَّا عَمِلَتْ مِّن خَيْرٍ مُحْضَرًا﴾⁵ إن الواجب هو الذي فرض عليه القيام بهذا العمل، والهدف منه يفيد صاحب الجيش إقناع هذا المنكر بالرجوع عن غيه، فإن انتهى وتاب إلى الله فذاك هو المطلوب، وإن صمم على البقاء على ما هو

1 - المصدر نفسه، ص 39، 111

2 - سيدي محمد بن محمد الصغير بن انبوجة العلوي التيشيتي، الجيش الكفيل بأخذ التار، م.س، ص 5.

3 - سورة الشورى، 41.

4 - سيدي محمد بن محمد الصغير بن انبوجة العلوي التيشيتي الجيش الكفيل بأخذ التار، م.س، ص 5.

5 - سورة آل عمران، 30.

عليه من التصعب لأطروحته، فالله حسيبه، ﴿وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون¹﴾.

إن القضايا التي سيدافع عنها المؤلف من خلال كتابه الجيش مختلفة إلى حد ما عن القضايا التي ناقش فيها الفقيه محمد أكنسوس الشيخ أحمد البكاي، باعتبار أن الأطروحة التي كان يدافع عنها هذا الأخير، هي البرهنة على بطلان مشيخة سيدي أحمد التجاني و طريقته، وإثبات مشروعية الطريقة القادرية، بهدف القضاء على كل من ينافسها، في حين لا يبدو أن ادييجة الكمليلي كان يهدف إلى نفس الطريقة التجانية من الأساس لصالح طريقة أخرى، بل نرى أن موقف إدييجة السليبي من تعاليم التجانية هو ما رآه فيها من شطحات و خروج عن تعاليم الإسلام السني، كما سيتبين لنا. و أياً كان الأمر فإن ابن انبوجة يفيد في جيشه أن ورقات² إدييجة تضمنت عدة قضايا منها تكفير الطائفة التجانية بسبب ما رآه فيها من خروج عن السنة بينما أشياخ التجانية و عامة المسلمين برآء منها³، ثم نسبة الرضاع بأخوة الورد، وإنكار إعادة الأجسام إلى جانب تبديعه لهم في أمور أخرى⁴.

1- سورة الشعراء، 227.

2 - يقصد كتيبه الصغير الذي أعده صاحبه لانتقاد التجانية و شيخها.

3 - في رأي فقهاء التجانية و من ضمنهم مؤلف الجيش الكفيل بأخذ الثار.

4 - سيدي محمد بن محمد الصغير بن انبوجة العلوي التيشيتي، الجيش الكفيل بأخذ الثار،

م.س، ص 5-6.

مما لا شك فيه أن محمد إديجة الكمليلي حرر انتقاداته للطريقة التجانية شعرا، بدليل أن ابن انبوجة وهو يناقشه في كتاب الجيش، عمد في غالب الأحيان إلى استحضار أبيات قصيدة خصمه بالتدريج، بيتا بيتا أحيانا أو مجموعة أبيات أحيانا أخرى، ليطلع القارئ عليها ثم يشرحها، ويفند مضامينها بعد ذلك، و سنعرض لأهم ردود مؤلف الجيش الكفيل بأخذ الثأر حتى يتضح ذلك.

كان أول شيء ناقشه ابن انبوجة مع خصمه، ضمن الفصل الخامس، هو مسألة تكفير التجانيين، فمهد لذلك و لردوده عامة بالتأكيد على أن لكل شيء ميزانا يظهر الحق من الباطل، مستندا في ذلك على ما أورده في أبواب سابقة من حجج و أدلة حول حقيقة الولي، و التحذير من الإنكار على أولياء الله و جواز رؤية النبي يقظة، مذكرا بأن المنكرين أقسام، و من بينهم المحقون، و المبطلون، و طالبا من المنصف أن يزن حال خصمه بالقسطاس المستقيم، ويعرضه على محك البراهين التي قدمها، حتى يمكن الحكم عليه بالدخول في زمرة المبطلين¹.

1- نفسه، ص 49.

بعد هذا التمهيد دخل مباشرة في صلب الموضوع قائلًا «أما التكفير
ففي قوله سامحه الله تعالى» :

وأنكروا إعادة الأجسام من عهد آدم وعهد سام¹.

تعقيبا على ما نسبته إديجة للتجانيين من إنكار للإيمان بالبعث، أكد
المؤلف، رادا على خصمه أن هذا الكلام افتراء على التجانيين، ما دام أن
حقيقة البعث واردة في القرآن الكريم كقوله تعالى : ﴿وَحْشَرْنَاهُمْ فَلَمْ
نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾²، ثم قوله عز وجل ﴿قُلْ يَحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ
مَرَّةٍ﴾³. فإن كان للبعث معنى آخر أكمل، يفيد المؤلف مخاطبا إديجة،
فليفدنا به، وفي هذه الحالة سنكون جهالا منكرين⁴.

بعد ذلك انتقل لمناقشة صاحبه فيما ينسب للتجانيين من اعتقاد في
مساواة الورد بالرضاع، وما ينتج عن ذلك من إقرار الأخوة وثبوتها بين
الفقراء والمريدين بورد الطريقة، وهذا ما يتضح من قول إديجة : «مثل

1 - المصدر نفسه.

2 - سورة الكهف، 47.

3 - سورة يس، 79.

4 - سيدي محمد بن محمد الصغير بن انبوجة العلوي التيشيتي، الجيش الكفيل بأخذ الثار،

م.س، ص 49.

ذلك جعل وردهم رضاعاً¹. ولعل هذا القول يشكل شطرا واحدا من بيت شعري، لم ير صاحب الجيش ضرورة لذكر شطره الآخر. ردا على هذا الزعم، يقترح ابن انبوجة على المنصف إذا بلغه مثل هذا الخبر أن يقول ما قاله الإمام السنوسي «قد ابتلينا بأقوال باطلة تنسب لأئمة السنة²». مذكرا بأنه قدم نص هذا القول بكامله في خاتمة الباب الأول من كتابه الجيش، وبذلك فإنه ينفي عن التجانيين نفيا قاطعا ما يريد المنكر عليهم أن يتهمهم به في هذا الصدد، لينتقل بعد ذلك مباشرة إلى مناقشة مسألة رؤية النبي صلى الله عليه وسلم، يقظة، والتي ينفىها إديجة جملة وتفصيلا، مبديا رأيه في ذلك بقوله :

وما ادعوا من أخذ هذا الورد عن الرسول يقظة لا يجدي
إذا لم تحقق في اللقاء الدعوى ولم تنل كرامة بطغوى
ولم يرد عن النبي المصطفى لقياه يقظة بنور ما انطفى³.

تعقبا على مضمون هذه الأبيات الشعرية التي ينفي فيها صاحبها إمكان رؤية الرسول صلى الله عليه وسلم يقظة، وبالتالي عدم تلقي

1 - المصدر نفسه، ص 50.

2 - نفسه، ص 50.

3 - نفسه، ص 52.

الشيخ التجاني أي شيء عنه صلى الله عليه وسلم، مما يؤدي به في النهاية إلى القول بتكذيب شيخ الطريقة، يؤكد ابن انبوجة على العكس من ذلك أن مثل هذه الرؤية ممكنة، وقد تحدث عنها وقال بإمكانها الكثير من العلماء والصلحاء ممن شاهدوه بالفعل يقظة.

و للتأكد من هذا الطرح يقترح المؤلف على المنصف أن يعود إلى محتوى الباب الرابع من كتاب الجيش، ليطالع على رأي أكابر العلماء في الموضوع كالغزالي و محيي الدين ابن عربي و ابن حجر و السيوطي وغيرهم¹. و كتبرير لاستحالة رؤية النبي صلى الله عليه وسلم يقظة، على الشيخ التجاني، يقول إديجة الكملي :

فالروح من عالما العلوي و لا يرى العلوي بالسفلي²

رد مؤلف الجيش على هذا القول واضح، و مفحم في نظره، لأنه يستند على الكتاب و السيرة النبوية، و أقوال كبار العلماء، من ذلك ما أورده من أن الملائكة من العالم العلوي، و رغم ذلك، فقد ثبتت رؤية الصحابة لجبريل عليه السلام في الصحاح كالبخاري و غيره، عندما طلع عليهم و جلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم، و لم يعرفه أحد منهم و لا رأوا

1 - المصدر نفسه، ص 52، 53.

2 - المصدر نفسه، ص 54.

عليه أثرا للسفر، لولا أن الرسول صلى الله عليه و سلم أخبرهم بجلية الأمر
فيما بعد¹.

من المسائل التي أنكرها إديجة على التجانيين و بدعهم بها، اعتقادهم
بحضور روح النبي صلى الله عليه و سلم و أرواح الخلفاء الراشدين عندما
يكون جموع التجانيين بصدد قراءة جوهرة الكمال سبعا، و في ذلك يقول :

و أنه يزور أهل الجوهرة² بروحه إذ هي دين أظهره
و أنه يحضر في رجال عند ابتداء جوهرة الخبال³.

يرى ابن انبوجة أن خصمه لا دليل له على هذا القول عقلا و لا
شرعاً بل أنكره بهواه، دون خشية الله من أن ينطبق عليه قوله تعالى : ﴿ وَلَا
تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾⁴ ، مع العلم ، يقول المؤلف، أنه قد

1 - المصدر نفسه.

2 - يقصد بذلك ما يعتقد التجانيون من أن النبي يكون حاضرا عندما يكونون مجتمعين
لتلاوة جوهرة الكمال، و هو صلاة الفاتح لما أغلق، كما نعلم. و استخفافا بالتجانية سماها جوهرة
الخبال.

3 - سيدي محمد بن محمد الصغير بن انبوجة العلوي التيشيتي، الجيش الكفيل بأخذ الثأر،

م.س، ص 56.

4 - سورة ص، 26.

ثبت أن أرواح الأنبياء مطلقة السراح، مستشهدا في ذلك بما ورد في إرشاد السالك للشيخ محمد الكنتي، من أن والده الشيخ المختار كان «كثير الرؤية له صلى الله عليه وسلم، يقظة وناماً بل كان صلى الله عليه وسلم كثير الورود عليه، و معه الشيخان أو الأربعة الخلفاء أو مع غيرهم من جملة أصحابه¹» وأضاف في نفس السياق، أنه قد ثبت أن بعض الأولياء كسيدي عبد القادر الجيلي يتصرف بعد الموت تصرف الأحياء كما في شرح ابن بادس لابن الحاج، فإذا جاز هذا للأولياء، يفيد ابن انبوجة، فما الدليل على منعه للنبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء²؟ يلاحظ أيضاً في هذا الصدد أن مؤلف الجيش غضب كثيراً و استاء للتعبير المخل بالأدب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي استعمله خصمه عندما استبدل عبارة جوهرة الكمال، وهي الصلاة المنسوبة للرسول صلى الله عليه وسلم، بعبارة جوهرة الخبال استهزاء بهذا الإعتقاد.

من جهة أخرى لم نعثر من خلال ما اطلعنا عليه من مصادر ووثائق

1 - سيدي محمد بن محمد الصغير بن انبوجة العلوي التيشيتي، الجيش الكفيل بأخذ

الثار...، م، س، ص 56.

2 - المصدر نفسه، ص 56.

في تاريخ الطريقة التجانية، ولو مرة واحدة على قول صريح يفيد بأفضلية الشيخ التجاني على ولي الله الخضر، كما يؤكد ذلك إديجة في الأبيات التالية :

و فضلوا شيخهم على الخضر و كونه شيخا لموسى لم يضر
و الخلف في الخضر هل نبي أو مرسل أو صالح ولي.
وهو على كل يكون أفضلا ممن عليه أقبلوا مفضلا¹.

يفيد ابن انبوجة في رده على مضمون هذه الأبيات أن مثل هذا التفضيل لم يبلغه عن الشيخ التجاني، و لا عمن يعتمد عليه من أصحابه. أما بخصوص إشكالية الخضر هل رسول أو نبي، فمقطوع بفضل قطعا، يفيد صاحب الجيش، على الصحابة، فضلا عن غيرهم، وأما على أنه ولي، فلا يوجد نص أو إجماع حسب نفس المصدر، في تفضيله على ولي معين كما يزعم إديجة في تفضيله على الشيخ التجاني².

نعم يضيف صاحب الجيش إذا تعلق الأمر بحالة معينة معروفة وواضحة منسوبة لشيخ معين كما هو الشأن بالنسبة للشيخ عبد القادر

1 - المصدر نفسه، ص 59.

2 - المصدر نفسه، ص 59-60.

الجيلي¹ في قوله : «قدمي هذه على رقبة كل ولي»، فإن الجواب على ذلك هو ما قاله الشيخ التجاني عندما سمع هذه القولة، إذ يذكرون عنه أنه لما سمع هذا الكلام، وكان مضطجعا، جلس و جمع بين قدميه و قال: «سيدي عبد القادر قالها في عصره و أنا أقول: قدماي هاتان على رقبة كل ولي من لدن خلق الله آدم إلى النفخ في الصور»².

هذا القول المنسوب للشيخ سيدي احمد التجاني يؤيده ابن انبوجة بكل قوة، و يرى أنه لا سبيل لتكذيبه لمقامه العالي عند الله، و يستدل في هذا برأي عبد الوهاب الشعراني الذي يدعو إلى تصديق المريدين و التسليم للشيوخ بما يخبرون به من مشاهدات، و عدم الإلتفات لرواية أي كان إن لم يكن عدلا³. و لم يترك صاحب الجيش الفرصة تمر دون أن يؤكد على خطأ المؤلفين و المفسرين للجزء الأخير من قولة سيدي احمد التجاني، و من بينهم إديجة و بالتحديد «من لدن خلق الله آدم إلى النفخ في الصور»، التي يرى فيها البعض أن سيدي احمد التجاني جعل قدميه حتى على رقاب الصحابة، و هذا ما ينفيه ابن انبوجة بشدة باعتبار أن صاحب

1 - الجيلي، أو الجيلاني، هو الأصح نسبة إلى جيلان و هي البلدة التي ولد فيها الشيخ عبد القادر، أما الجيلالي فهو تحريف للجيلاني حسبما نعتقد.

2 - سيدي محمد بن محمد الصغير: ابن انبوجة العلوي التيشيتي، الجيش الكفيل بأخذ الثار...، م، س، ص 60.

3 - المصدر نفسه ص، 60 صاحب الجيش الكفيل بأخذ الثار.

القول يتحدث عن الأولياء مثله المخصوصين بالمعارف والأسرار،¹ مع التأكيد في نفس الوقت على أفضلية الصحابة بدليل حديث «إن الله فضل أصحابي على سائر العالمين ما عدا النبيين والمرسلين»²، وقد اتهم إيديجة الكمليي بشكل جلي التجانيين بتفضيل زمنهم وزمن شيخهم على زمن الصحابة والأزمنة التالية بعدهم، كما يشهد على ذلك هذا البيت الشعري المنسوب له :

و فضلوا محجوب صحبه على قرن الصحابة و قرن من تلا³

بل كفر الشيخ سيدي احمد التجاني صراحة بقوله :

و الكفر في تفضيل هذا القرن لقوله خير القرون قرني⁴.

1 - الواقع أن ابن انبوجة صاحب الجيش الكفيل بأخذ الثار ومعه كبار الفقهاء التجانيين، يقولون بإمكان اختصاص أولياء الله بمعارف وأسرار لم يكن الصحابة على علم بها رغم مكانتهم العظيمة المشهود لهم بها، أنظر الجيش الكفيل بأخذ الثار...، ص 61

2 - المصدر نفسه، ص 62.

3 - المصدر نفسه، ص 62

4 - المصدر نفسه، ص 63. وقد حاول التجانيون إضفاء المصادقية على هذا القول بأكثر

من استشهاد. أنظر على سبيل المثال :

- محمد بن المشري، الجامع لما افترق من درر العلوم، م.س، ج I، ص 18-19.

- عمر بن محمد الحوسي، رسالة إلى أحمد البكاي، محفوظة في : =

هذه الاتهامات ينفيها ابن انبوجة عن التجانية جملة و تفضيلا، و في نفس الوقت يستدرك، موضحا أن الشيخ التجاني قد صدر عنه فعلا قوله : «ليس لأحد من الرجال أن يدخل كافة أصحابه الجنة بلا حساب و لا عقاب إلا أنا وحدي¹»، لأن الرسول صلى الله عليه و سلم، يضيف ابن انبوجة أخبره بذلك، و هذا و نحوه حسب نفس المصدر، من التحدث بالنعيم، و هو أمر وارد عند كثير من الأولياء، و لا يتناقض مع أفضلية الصحابة. و ليدعم هذا الرأي، أفاد صاحب الجيش بأن سيدي أحمد التجاني لم يكن وحيدا في القول بهذه المزية، فقد قال سيدي محمد بن ناصر الدرعي قبله : «المتعشم تعمشا ما في دينه، متعلقا بحزبنا، و كان من جملة

- B.N.P.MO.F A, Man: n° 5716, ff° 182 à 185. ==

- و قد أورد صاحب "رماح حزب الرحيم" إفادات في الموضوع ملخصه أن الحاتمي تبرأ من ادعاء الختمية الكبرى بعدما طلبها لمدة طويلة مع علمه أن أحدا لم يحصل عليها ممن طلبها قبله، و أنها (الختمية الكبرى) تكون لولي في آخر الزمان. و مما يؤكد هذا القول يضيف عمر بن سعيد الفوتي في رماحه، أن العارف بالله الشيخ المختار الكنتي قال في كتابه الطرائف أن القرن الثاني عشر من الهجرة المحمدية يشاكل قوله صلى الله عليه و سلم من وجوه أحدها أن فيه خاتم الأولياء كما في قوله صلى الله عليه و سلم خاتم الأنبياء، و هذا ما يؤكد في نظر فقهاء التجانية حقيقة ختمية شيخهم الذي صادف الزمان المشار إليه... أنظر :

سعيد بن عمر الفوتي، رماح حزب الرحيم على نحر حزب الرحيم، م.س ج II، ص 14.

1 - يرى فقهاء التجانية أن هذا الأمر غير مستحيل، لأن الله قادر على كل شيء من جهة، و لأن سيدي أحمد التجاني ربط تحقيق هذه المزية لأصحابه بالالتزام بحرفية تعاليم الطريقة التي تراعي روح مبادئ الكتاب و السنة، أنظر :

محمد بن المشري، الجامع لما افترق من درر العلوم، م.س، ج II، ص 200 و ما بعدها.

فقرائنا، خير من الحازم المتعلق بغيرنا...¹». من الأمور التي تنفرد بها الطريقة التجانية في تعاليمها، منع زيارة الأولياء و الشيوخ، أحياء كانوا أم أمواتا، على مريديها و أتباعها، لأسباب لا تتنافى مع روح الشريعة والمنطق السليم كما يرى ذلك فقهاء التجانية نقلا عن شيخهم، لكن خصومهم كإديجة يرون خلاف ذلك. وهذا ما عبر عنه في قوله :

و قد نهوا عن مطلق الزيارة و ندها لنا فيه بشارة².

و قد نعت صاحب الجيش هذا القول بالكذب و الافتراء، باعتبار أن الشيخ التجاني لم ينه عن مطلق الزيارة التي هي زيارة التبرك، بل حث عليها. أما الذي نهى عنه، حسب نفس المصدر لزيارة الأكابر هي زيارة التعلق لقضاء أغراض دنيوية و أخروية. وهذا المنع قال به الكثير من الأولياء، لما يمكن أن تؤدي زيارة التعلق بصاحبها من شرك و خروج عن السنة، و هذا يدخل في تقديم درء المفسد على جلب المصالح³، و أورد ابن انبوجة قول ابن حجر في الموضوع : «من يريد التبرك يجوز له

1 - سيدي محمد بن محمد الصغير بن انبوجة العلوي التيشيتي، الجيش الكفيل بأخذ الثار، م.س، ص 62-63.

2 - المصدر نفسه، ص 69.

3 - المصدر نفسه.

الأخذ عن مشايخ متعددين، و من يريد السلوك و التربية يحرم عليه الخروج عن شيخه¹...» كما استشهد بأقوال آخرين كالشريشي و ابن حجر و محمد الكنتي و غيرهم.

موضوع آخر في الطريقة التجانية، هو من الصعوبة و التعقيد بمكان، من حيث فهمه، ثم قبوله أو رفضه وقد تشترك طرق أخرى فيه من حيث الاعتقاد و التصور. و هذا الموضوع هو الكتمان، بمعنى أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يبلغ كل العلوم و الأسرار قبل وفاته. و بما أن الرسل تستمر حياتهم في القبور كما يقول بذلك غير واحد من الفقهاء و الصوفية، فإن كبار الأولياء يستمدون بعض الأسرار من النبي² صلى الله عليه وسلم، وخصوصا سيدي احمد التجاني الذي يعتبره أصحابه ختما للأولياء³. هذا الاعتقاد رفضه الكثير من الفقهاء و رجال الدين، و في مقدمتهم

1 - المصدر نفسه.

2 - بخصوص هذا الموضوع يستشهد الشيخ محيي الدين ابن عربي بحديث صحيح ورد فيه : «يقول أبو هريرة رضي الله عنه : حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم و عاءين، فأما أحدهما فبثنته، و أما الآخر فلو بثته قطع البلعوم». أنظر :

علي شويديكيفيتش، الولاية و النبوة عند الشيخ الأكبر محيي الدين ابن عربي، ترجمه من الفرنسية و قدم له الدكتور أحمد الطيب، دار القبة الزرقاء للنشر و الخدمات الثقافية، مراكش 1999 , Gallimard 1986 Edition أما الحديث المذكور فهو وارد في صحيح الإمام البخاري¹، كتاب العلم باب 42، في نفس الصفحة من مقدمة المترجم، هامش 3.

3 - محمد اكنسوس، الجواب المسكت، م.س، ص 24.

إدبيجة، فعبر عن موقفه بخصوص هذا الموضوع مبدّعا التجانيين في
الأبيات الآتية :

ونسبة الكتمان للنبي نفذ من منكر البدعي.
فورده صين عن الصحابة فيما ادعى وخص بالإصابة.
وذلك ينفي ما على الرسول إلا البلاغ محكم النزول.
واليوم أكملت لكم والمكمل دين المخاطبين أو من يرسل¹.

كان رد صاحب "الجيش الكفيل بأخذ الثأر" على هذه الإنتقادات، هو
تفنيد ما قاله خصمه، مؤكدا أن كتمان الرسول صلى الله عليه وسلم لبعض
الأسرار شيء ثابت، إذ من المعلوم قطعاً، في رأيه، أن الرسول صلى الله
عليه وسلم، لم يؤمر بتبليغ كل ما علمه لكل أحد، ولا يتناقض هذا بضيف
ابن انبوجة مع قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ
رَبِّكَ﴾²، كما دعم رأيه في الموضوع، بما ورد في فقه الأعيان للشيخ
سيدي المختار الكنتي الذي أورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال:

1 - سيدي محمد بن محمد الصغير بن انبوجة العلوي التشيتي، الجيش الكفيل بأخذ
الثأر...م.س، ص 72.

2 - سورة المائدة، 67.

« أخذت ليلة أسري بي من ربي ثلاثة علوم : علم أخذ علي العهد أن أبلغه للخاص و العام، وعلم أخذ علي العهد أن لا أبلغه إلا لخواص أصحابي، الذين يقدرون على حمله، و علم علم أنه لا يقدر على حمله غيري، فأخذ علي العهد أن لا أخبر به أحدا»¹.

و لعل الذي حمل إديجة على تبديع شيخ التجانية بخصوص الكتمان، يقول ابن انبوجة، هو ما بلغه من قول الشيخ التجاني لما سئل هل كان النبي صلى الله عليه و سلم عالما بفضل صلاة الفاتح لما أغلق ؟ فقال: نعم، كان عالما به ، قالوا : ولم يذكره لأصحابه ؟ قال: لعلمه صلى الله عليه وسلم بتأخير وقته و عدم وجود من يظهره الله على يديه في ذلك الوقت².

إنه جواب مقنع إلى أبعد حد، يفيد صاحب الجيش الذي استدرك قائلا إن استدلال إديجة على نفي الورد التجاني المنسوب للرسول صلى الله عليه و سلم بقوله تعالى : ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾³ غير مصيب، لأن معنى الإكمال هنا أنه لم ينزل بعدها حلال و لا حرام⁴، لم ينحصر

1 - سيدي محمد بن محمد الصغير بن انبوجة العلوي التيشيتي، الجيش الكفيل بأخذ الثأر...، م.س، ص 72.

2 - المصدر نفسه، ص 72.

3 - سورة المائدة. 3.

4 - سيدي محمد بن محمد الصغير بن انبوجة العلوي التيشيتي، الجيش الكفيل بأخذ الثأر...، م.س، ص 73.

انتقاد محمد اديجة الكليلي للشيخ التجاني في الجانب العقدي الديني
فحسب، بل تعداه إلى الجانب اللغوي، بخصوص اشتقاق كلمة الأسقم
ومعناها. وقد وردت هذه الكلمة في إحدى عبارات جوهرة الكمال¹
المنسوبة للرسول صلى الله عليه وسلم وهي تعني في السياق الذي
وردت فيه المستقيم، المعتدل في الاستقامة بلا اعوجاج في رأي التجانيين،
وهو ما جر عليهم سيلا من الاعتراضات باعتبار أن مصدر اشتقاقه هو
استقامة وليس أسقم، وبيت إديجة الشعري الذي يعبر عن هذا الاعتراض
هو :

و لم يجر إطلاق لفظ مفهوم نقصا على النبي مثل الأسقم².

1 - لإبراز السياق الذي وردت فيه كلمة الأسقم، نسوق في هذا الهامش نص صلاة جوهرة
الكمال رغم طوله : «اللهم صل وسلم على عين الرحمة الربانية والياقوتة المتحققة الحائطة بمركز
الفهوم والمعاني ونور الأكوان المتكونة، الأدمي صاحب الحق الرباني، البرق الأسطع بمزون
الرياح المائلة لكل متعرض من البحور والأواني، ونورك اللامع الذي ملأت به كونك الحائط بامكنة
المكان، اللهم صل وسلم على عين الحق التي تتجلى منها عروس الحقائق، عين المعارف، الأقوم
صراطك التام الأسقم. اللهم صل وسلم على طلعة الحق بالحق الكنز الأعظم، إفاضتك منك إليك
إحاطة النور المطلسم صلى على الله عليه وعلى آله صلاة تعرفنا بها إياه» انظر :

- علي حرازم برادة، جواهر المعاني...م.س، ج II، ص 216.

- محمد بن المشري، الجامع لما افترق من العلوم...م.س، ج I، ص 203 وما بعدها.

2 - سيدي محمد بن محمد الصغير بن انبوجة العلوي التيشيتي، الجيش الكفيل بأخذ
الثأر...م.س، ص 74.

فالتجاني في رأي صاحب هذا القول ارتكب خطأين، الأول لغوي والثاني ما يترتب عن هذا الخطأ من تنقيص لشخص الرسول صلى الله عليه وسلم. لم يقبل ابن انبوجة هذا الإعتراض لعدة أسباب، أولها نسبة جوهرة الكمال بكاملها للرسول صلى الله عليه وسلم. ثانيا كون ما يصدر عن الأقطاب والعارفين بالله يجب تصديقه. ثالثا ما قرره أهل الصناعة النحوية من إمكان إجراء المزيد فيه مجرى الأصل والعكس، وغاية الأمر يضيف المؤلف أن يقال أن هذا القياس غير معلوم في العربية، فيكون الجواب على هذا أن الشيخ لا يلزمه الجري على ما عرف من الإصطلاح، ما دام أن اللغة اصطلاحية وأن لكل واحد أن يجري فيها على اصطلاح نفسه¹.

و من المسائل الأكثر خطورة في اتهامات محمد إديجة الكملي للشيخ التجاني ولأتباعه من خلال تعاليم الطريقة، ما يقولون به من تفضيل لأورادهم على القرآن الكريم، خصوصا صلاة الفاتح لما أغلق. يقول إديجة في هذا الصدد :

1 - نفسه، ص 74-75. لقد دافع أبرز فقهاء التجانية عن صحة لفظ الأسقم من خلال السياق الذي ورد فيه، وفي مقدمتهم الفقيه سكيرج. والشيخ عمر بن قدور الجزائري أنظر :

- أحمد سكيرج، الرحلة الحبيبة الوهرانية الجامعة للطوائف العرفانية، المطبعة الحجرية، فاس 1329، ص 95 وما بعدها.

- عمر بن قدور الجزائري، الإبداء والإعادة في مسلك سائق السعادة، الجزائر، 1928، ص

و أفرطوا في حشرة التجاني حتى ادعوا فضلا على القرآن¹.

يرى ابن انبوجة في إطار رده، أن صاحب هذا القول، لم يبين ماذا يقصد بالحشرة، فإن كان مراده بها حضور يوم الجمعة للذكر، من قبل المريدين، فلم يسمع أحد يضيف المؤلف، أن الشيخ فضل هذه الحشرة على القرآن². أما إذا كان يقصد قول الشيخ التجاني، يضيف ابن انبوجة، أن صلاة الفاتح لما أغلق تعدل ستة آلاف من القرآن فإن نفس الشيخ يرى أن لا معارضة بين هذا وبين ما ورد في فضل القرآن والكلمة الشريفة باعتبار أن فضل القرآن عام أريد به العموم، أما صلاة الفاتح فقد أريد بها الخصوص. ويضيف صاحب الجيش مخاطبا الخصم، والمنصف، أن سيدي أحمد التجاني لم يكن وحيدا في هذا المنحى، فأبو حامد الغزالي كما ذكر الفاسي في شرحه لعدة الحصن الحصين، أفاد أن «قراءة القرآن

1 - سيدي محمد بن محمد الصغير بن انبوجة العلوي التيشيتي، الجيش الكفيل بأخذ الثار...، م.س، ص 77.

2 - روي عن الشيخ أحمد التجاني قوله : إن صلاة الفاتح لما أغلق تعدل ستة آلاف من القرآن، لكن دون أخذ هذا المعنى على ظاهره. فالقرآن الذي هو كلام الله يجب على تاليه أن يراعي قواعد أدبية معينة تحميه من سوء الأدب الذي يمكن أن يقع فيه مع الله، كل من لا إمام له بهذه القواعد. وهذا ما لا يتأتى لعامة الناس. ولذلك يرى التجانيون من خلال تعاليم شيخهم أن تلاوة الأذكار لمثل هؤلاء الناس أفضل لهم من تلاوة القرآن أنظر :

الجيش الكفيل بأخذ الثار...، م.س، ص 77 و ما بعدها.

أفضل للمخلق كلهم إلا للذاهب إلى الله تعالى في جميع أحوال بدايته و في بعض أحوال نهايته، فإن القرآن هو المشتغل على صنوف المعرفة، فما دام العبد مفتقرا إلى تهذيب الأخلاق، وتفصيل المعارف، فمداومة الذكر أولى، فإن القرآن يجاذب خاطره، و يسرح به في رياض الجنة، و المرید الذاهب إلى الله تعالى، لا ينبغي له أن يلتفت إلى الجنة و رياضها، بل يجعل همه هما واحدا حتى يدرك درجة الفناء¹...

و بناء على هذه الاستدلالات، فتلاوة القرآن، يؤكد ابن انبوجة، أفضل على الجملة وليس على التفصيل، كما أن الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم لمثل أهل هذا الوقت أسلم من تلاوة القرآن².

رفع الصوت في الذكر هو أحد المواضع التي تطرق إليها إديجة في شعره، و بدع من خلالها الشيخ التجاني و طريقته، و مما قاله في ذلك:

ورفعوا أصواتهم في الناد بالذكر و الدعاء عن عناد³.

1 - المصدر نفسه، ص 77.

2 - المصدر نفسه، ص 80.

3- المصدر نفسه، ص 88.

و الإعتدا في (لا يحب المعتدين) معناه رفع الصوت عند المهتدين¹.
و قال سيدي الوري اربعوا على أنفسكم و قال جل و علا.
يخاطب (ادعوا ربكم تضرعا و خفية) أخف الدعاء تورعا².

إلى أن يقول :

و كان مالك يقول أمجا نين هم إذ ليل جهلهم دجا³.

عقب ابن انبوجة على هذه الانتقادات ، بما يفيد بطلان كلام خصمه ،
مستندا في ذلك على ما أورده الحافظ السيوطي في نتيجة الفكر من فتاويه
من قوله صلى الله عليه و سلم «أكثرُوا ذكر الله حتى يقولون مجنون»⁴
وأضاف صاحب الجيش أن السيوطي بعد أن ساق غير هذا الحديث من
أحاديث الجهر ، خلص إلى القول أنه لا كراهة البتة في الجهر بالذكر ، بل فيه
ما يدل على استحبابه.

أما اعتراض إديجة بحديث «المسير بالقرآن كالمسير

1 - المصدر نفسه ، ص 91.

2 - المصدر نفسه ، ص 91.

3 - المصدر نفسه ، ص 92.

4 - المصدر نفسه ، ص 88.

بالصدقة¹»، ويضيف المؤلف فالجواب عنه، رأي النووي الذي وفق بين السر و الجهر، عندما أفاد أن الإخفاء (السر) أفضل، حيث خيف الرياء، أو تأذى به مصلون أو نيام، والجهر أفضل في غير ذلك، لأنه يوقظ قلب القارئ و يجمع همه إلى الفكر، و يطرد النوم و يزيد في النشاط، واستعرض صاحب الجيش بعد ذلك مجموعة أخرى من الإستشهادات لتفنيد أقوال خصمه².

و قد تعجب ابن انبوجة، لما ذهب إليه خصمه من حصر الإعتداء في الآية الكريمة³ في رفع الصوت، و كأن المفسرين حصروا معنى هذه الآية في هذا المعنى، لذلك فهو يرفض هذا التفسير الملفق و المغرض لهذه الآية، بدليل أن أغلب المفسرين متفقون على أن معنى الإعتداء في الدعاء بسؤال منازل الأنبياء، أو تكلف الفصاحة في الدعاء، كما أورد ابن انبوجة ما ذهب إليه السيوطي في الفتاوي من أن الراجح في تفسير الإعتداء أنه تجاوز المأمورية و اختراع دعوة لا أصل لها في الشرع، و هو نفس التفسير الذي قال به، يضيف صاحب الجيش، كل من صاحب الكشاف والبخاري والثعالبي وغيرهم⁴. أما بالنسبة لحديث «اربعوا على أنفسكم»،

1 - المصدر نفسه، ص 88.

2 - المصدر نفسه، ص 89 و ما بعدها.

3 - يقصد قوله تعالى «لا يحب المعتدين» الوارد في منظومة إديجة.

4 - سيدي محمد بن محمد بن انبوجة العلوي التيشيتي، الجيش الكفيل بأخذ الثار...، ص 91.

الذي قرنه إديجة¹ بقوله تعالى : ﴿ادعوا ربكم تضرعا وخفية﴾ ، فيرى ابن انبوجة أن هذا الحديث فسرّه غير واحد من العلماء ، بما يفيد : ارفقوا واقصروا عن الصياح ، وهو دليل لنا لا له ، إذ لا يؤمر بالرفق في الصوت إلا من جاوز الحد و مجاوزة الحد في الصوت إنما تكون بالصياح ، و التجانية لا تقول به² .

ما قاله مالك في أصحاب الرقص و السماع ، صحيح و الطائفة التجانية ليس من شأنها الرقص و السماع ، يؤكد ابن انبوجة ، و إن أشاع هذا عن التجانيين بعضهم ، فلا يقتضي ذلك تحميل المسؤولية للشيخ التجاني³ مستحضرا قوله تعالى : ﴿و لا تزر وازرة وزر أخرى﴾⁴ هذا مع العلم ، يضيف نفس المصدر ، أن الطائفة التجانية كغيرها من الطوائف ، فيهم المفضول و الفاضل و العالم و الجاهل و الناقص و الكامل⁵ .

بعد هذا العرض الموجز الذي حاولنا من خلاله إبراز أهم أفكار الجيش الكفيل بأخذ الثأر ، التي هدف المؤلف من خلالها إلى الرد على إديجة ، المنكر على شيخهم وطريقته ، نخلص إلى القول بأن ابن انبوجة لم

1 - كتب صاحب الوسيط في تراجم أدباء شنقيط هذا الإسم بدون تاء «إديج» .

2 - المصدر نفسه ص ، 91 .

3 - المصدر نفسه .

4 - سورة الزمر ، 7 .

5 - سيدي محمد بن محمد الصغير بن انبوجة العلوي التيشيتي ، الجيش الكفيل بأخذ

الثأر...، م، س، ص 93 .

يكن متفائلاً بإقناع خصمه عن الرجوع عن غيه، رغم كل ما قدمه من حجج واستشهادات بدليل قوله : «غير أنك لو قرأت التوراة والإنجيل والزبور والفرقان و الكتب السماوية على المنكر ما رجع عن إنكاره و الله يعصمنا مما ابتلاه به¹».

هذا الموقف المغرض، من قبل إديجة في حق التجانيين، كما تبين لنا، لم ينل من اعتزاز صاحب الجيش، بالطريقة و شيخها، و مما يدل على هذا الإعتزاز و الإفتخار، ما استشهد به من أبيات شعرية لأحدهم، ليزيد من نكد خصمه و غيظه، فقدم لذلك بقوله، و لله در الأديب سيدي عبد الله بن احمد دام الذي قال :

من كان في مذهب التجاني ممتد - ريا فإنني لكامل الشيخ معتقد
من ينظر الكتب التي أفاد بها - ينظر كلام محق كله رشد
أما الذين تعاطوا ورده فلقد - أعى على العد حصرا منهم العدد²

و قد نعت ابن انبوجة، ناظم هذه الأبيات بإمام المنصفين للشيخ التجاني، لما أهله الله من الإنصاف، الذي هو من شيم الكرام و الأشراف.

1 - المصدر نفسه، ص 86.

2 - المصدر نفسه، ص 93.

و قد ختم ابن انبوجة هذا الباب الذي خصصه للرد على إديجة الكمليلي بعدة تنبيهات، أهمها التنبيه الثالث الذي أبان من خلال مضمونه عن تواضع العلماء، و علو همته و حصافة رأيه، و بعد نظره، فحذر في هذا التنبيه بأن لا يغتر مغتر بما كتبه في شأن الفقيه محمد إديجة، فإنه «أحوجنا إلى ذلك بهتك الحريم و تطاوله على بنيان هذا الشيخ العظيم، و الله أعلم بنيته، و استغفر الله إن كان محقا في رده»¹. و يضيف مؤلف الجيش أنه سطر هذا التنبيه حتى لا يغتر جاهل بما ألف فيجعله ذريعة لاستطالة لسانه على العلماء و العاملين المنكرين بحق الذين يتكلمون عن علم حماية لدين الله، و انتصارا لسنة نبيه، إذ لولا إنكار الأئمة الأعلام على أكابر الأولياء العظام لا دعى التصوف سفهاء العوام².

و قبل طي صفحة ابن انبوجة مؤلف الجيش الكفيل بأخذ الثأر، نذكر مرة أخرى بأنه عزز هذا التأليف بنظم قصيدة لنفس الغاية سماها سرية الجيش، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، و قال عنها أحمد بن الأمين الشنقيطي بأنها تزيد على أربعمئة بيت، و مما قاله في هذه المنظومة ردا على إديجة.

و زاد في استحكام ذلك الصمم صدوره من قلب غافل أصم

1 - المصدر نفسه، ص 95.

2 - المصدر نفسه، ص 95.

إذ كل قول يتحلى بحـلا كسوة قلبه الذي منه جلا
و هل ترون يا عباد الله في الجو ناعقا كهذا اللاهي.
إذ قام ينكر على من لم يـره و لم يحقق عن ثقة خبره¹.

و أفاد صاحب الوسيط بنفس المناسبة أن إديجة، رجع ربما عما كان
يقول. و قد استحسن هذه القصيدة تجاني آخر من بلاد شنقيط، انبرى
بدوره للرد على إديجة شعرا كما سنرى لاحقا، و يتعلق الأمر بمحمد بن
عبد الله العلوي المعروف بالخليفة و بحسان الطريقة. و مما قاله في مدح
سرية جيش ابن انبوجة :

أحمد الله غير ذي تقصير أن أراني محمد بن الصغير
باعث الجيش و السرية في نصرة شيخ الهدى التجاني الكبير
يالها من سرية و خميس تبرأ الزور أيما تتبير²

بهذا نكون قد عرضنا بشكل مركز ما يكفي من المعلومات للتعريف

1 - أحمد بن الأمين الشنقيطي، الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، م.س، ص 89-90.

2 - سيدي عبد الله بن سيدي محمد بن محمد الصغير بن انبوجة العلوي التيشيتي، ضالة

الأديب، م.س، ص 153.

بدور محمد بن محمد الصغير بن انبوجة في الدفاع عن الطريقة التجانية
وشيخها.

و سنعمل فيما يلي على التعريف ببعض التجانيين ممن كان لهم
إسهام في الذب عن الطريقة ببلاد شنقيط، وهم يردون شعرا على إديجة،
لكن دون أن يبرزوا بالمستوى الذي ظهر به صاحب الجيش الكفيل و من
بين هؤلاء :

3 - محمد بن عبد الله العلوي (ت1264) :

هذا الفقيه التجاني الشنقيطي، هو المعروف بحسان الطريقة¹،
وبمحمد الخليفة لأنه خلف شيخه محمد الحافظ الشنقيطي في نشر الطريقة
ببلاد شنقيط و ما خلفها، وإلى شرقها حتى شمال نيجيريا، ويذكر عنه
صاحب روض شمائل أهل الحقيقة² أنه ذب عن الطريقة و نصرها، و نافع
عن أهلها، له القدم الراسخ في علمي الشريعة و الحقيقة، و له أشعار

1 - سماه التجانيون بهذا الاسم ، تشبيها بحسان بن ثابت شاعر الرسول صلى الله عليه
وسلم ، في دفاعه عن الطريقة التجانية، و مما قاله في هذا الصدد :

و إني لحسان الطريقة و أهلها أنود أبا جهل النكير و أزجر

أنظر : - أحمد الأمين الشنقيطي، الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، م.س، ص، 31.

- سيدي عبد الله بن سيدي محمد بن محمد الصغير بن انبوجة العلوي التيشيتي، ضالة
الأديب، م.س، ص 39.

2 - أحمد بن محمد بن العباس العلوي الشنقيطي، روض شمائل أهل الحقيقة في التعريف
بأكابر الطريقة، م.س، ص 14.

وتأليف في الطريقة، إلا أن نفس المؤلف لم يقدم في كتابه شيئاً من هذه الأشعار في ذب و نصرة محمد بن عبد الله العلوي للطريقة. و مع أن الحظ لم يسعفنا في العثور على مؤلف له خاص به بموضوع الدفاع عن التجانية و شيخها، فإننا مع ذلك تمكنا من اقتناص بعض المعلومات تخص هذا الجانب من هنا و هناك.

عندما كان أحمد بن الأمين بصدد الترجمة لمحمد بن عبد الله العلوي في كتابه الوسيط تعرض بشكل سريع لموضوع نصرته للطريقة التجانية و شيخها، في حين توسع في جوانب أخرى و أرجع سبب قيامه للذب عن التجانية إلى كون نابغة قطره و جرير عصره ببلاد شنقيط، الشهير بإديجة هجا كثيراً من فطاحل المنطقة، و لم ينج من هجوه الشيخ سيدي احمد التجاني، الذي اخترقت تعاليمه كل الآفاق، و لا مريدوه. و عندما علم محمد ابن عبد الله العلوي بخبر انتقاد هذا المنكر لم يتوان في الرد على خصمه. و يفيد صاحب الوسيط أن الرأي العام الشنقيطي لم يكن متفقاً حول من تفوق عن الآخر في مساجلاتهما الشعرية، إذ منهم من يقول إن النصر كان لمحمد العلوي، و منهم من يقول إن الخصمين تعادلا، و لم يقل أحد بانتصار إديجة¹.

لم يتضمن كتاب الوسيط أكثر من أربعة أبيات شعرية تشهد على رد

1 - أحمد بن الأمين الشنقيطي، الوسيط في تراجم أدياء شنقيط، م.س، ص 31.

محمد العلوي على هجو إديجة بمعدل بيتين من كل قصيدة، مع توسعه في ذكر أشعار له قالها في أغراض أخرى. فهل يعزى هذا الشح إلى عجز أحمد ابن الأمين عن تقديم أكثر مما استشهد به، أم الضرورة المنهجية هي التي فرضت عليه هذا الإقتضاب، وأيا كان الأمر، فالبيتان الأولان المأخوذان من القصيدة الأولى يقولان :

إديج إن صار كالعصفور صال على باز حديد شبا منقاره قـرم
أو كالضفادع في أحشاء ذي زبد نقت فصال عليها سالخ الرقم¹

أما بيتا القصيدة الثانية فقد ورد فيهما:

1 - نفسه، ص 31، مع ملاحظة أن هذين البيتين أوردهما في نفس الموضوع، محمد بن العباس العلوي الشنجي في مخطوطه الذي يحمل عنوان الغضب اليماني في الرد عن شيخها سيدي أحمد التجاني، مخطوط الخزنة العامة رقم 2135/2 د في مجموع من ص 102 إلى 173، أوردهما مع بعض التغيير، و نسبهما لوالده، و البيتان هما :

إديج إذا صال كالعصفور على صقر حديد سبا منقاره لحم
أو كالضفادع في أحشاء ذي زبد نعت فثار إليها سالخ الرقم

فهل يتعلق الأمر بانتحال أم أن محمد بن العباس العلوي استعملها كمدخل فقط دون الإشارة إلى قائلهما. أنظر ص 77 من المخطوط المذكور.

وإني لحسان الطريقة وأهلها أزود¹ أبا جهل النكير وأزجر
أقيس ذراعا كلما قاس أصبعا أخب إذا يعي عليهم وأحضر²

وقد أفاد أحمد بن الأمين الشنقيطي في النهاية أن أشعارا كثيرة
جرت بين محمد العلوي وإديجة، لم تكتب له العناية بها، ونقل عن العربي
ابن السايح أنه أخبره بأن الشاعر محمد العلوي كان له باع طويل في العلوم
وفي مدح شيخه محمد الحافظ.

تحدث صاحب ضالة الأديب بدوره عن محمد العلوي هذا، وسماه
محمد بن سيدينا، وعرف به محقق هذا الكتاب تعريف مختصرا ومفيدا،
ذكر خلاله أنه يعرف بـ «بدي» أيضا³ كما أشار نفس المصدر إلى
مراسلات جرت بينه وبين ابن أنبوجة مؤلف الجيش الكفيل بأخذ الثأر ممن
سل على الشيخ التجاني سيف الإنكار⁴. وعن شعره المدافع عن الطريقة
التجانية اكتفى بإيراد بيت شعره المشهور الذي يصف نفسه فيه

1 - أزود عند محقق ضالة الأديب، م.س، ص 39 ولعل هذا هو الصواب.

2 - أحمد بن الأمين الشنقيطي، م.س ص 31.

3 - سيدي عبد الله بن سيدي محمد بن محمد الصغير بن أنبوجة العلوي التيشيتي، ضالة

الأديب، م.س، ص 153 هامش 1.

4 - نفسه، ص 27.

بأنه حسان الطريقة و أهلها، مشيرا في نفس الوقت إلى أنه بعد وفاة الشيخ محمد الحافظ الذي كان ألزم أتباعه بالإعراض عن إديجة، كان محمد بن سيدينا¹ شاعر قومه و أحد الذين انبروا للرد على إديجة².

و لعل هذا الإخلاص للطريقة التجانية، و حبه لكل من أحبها هو الذي جعله ينظم قصيدة في مدح محمد بن الصغير بن انبوجة صاحب الجيش، منوها به و مكبرا فيه غيرته على الشيخ التجاني و طريقته، و مهنئا إياه على سريته المكونة من أربعمئة بيت، كما تحدثنا عنها سابقا، كلها نقد و تقرير لإديجة بالإضافة إلى جيشه، و نكتفي بالذكر بمطلع قصيدة محمد بن سيدينا في إجلال صاحب السرية (الجيش)، مع الإشارة إلى أننا قدمنا أبياتا منها في مكان سابق.

أحمد الله غير ذي تقصير قد أراني محمد بن الصغير
باعث الجيش و السرية في نصره شيخ الهدى التجاني الكبير³

1 - الذي هو محمد بن عبد الله العلوي.

2 - سيدي عبد الله بن سيدي محمد بن محمد الصغير بن انبوجة العلوي التيشيتي، ضالة

الأديب. م، س ص 39.

3 - نفسه، ص 39، ثم ص 153.

هذا التقدير كان متبادلا بين الطرفين، إذ نجد ابن انبوجة يخصه بالذكر الحسن في جيشه، و يستشهد بمقتطفات من شعره الذاب عن المنكرين لأولياء الله، و الذي استهدف ناظمه اتباع إدييعة على ما يبدو، يقول ابن انبوجة: «و الله تعالى يحفظ كبير إخوتنا سيدي محمد بن سيدي عبد الله العلوي و يؤيده حيث يقول في من رجع لفتنة المنكرين :

وارث إن كنت راثيا لأناس فتنوا ليس فيهم من رشيد
أصبحوا بعد نورهم و هداهم حسبنا الله في الضلال البعيد
مثل القوم إذا تولوا سفاها عن طريق معبد معهود
مثل ضمآن سار حتى إذا ما كان من منهل قريب الورود¹

4 - محنض باب بن اعبيد الديماني :

وصفه أحمد بن الأمين الشنقيطي بعلامة شنقيط و سيف الله القاطع²، إليه يرجع العلماء إذا اختلفوا، و له في النحو و الشعر أنظام

1 - سيدي محمد بن محمد الصغير بن انبوجة العلوي التيشيتي، الجيش الكفيل بأخذ الثار، م.س، ص 97.

2 - أحمد بن الأمين الشنقيطي، الوسيط...، م.س، ص 236، 237.

كثيرة، وأفاد نفس المصدر أن ابن اعبيد الديماني وقعت بينه وبين إديجة
الكملي مساجلات، ولما هجا التجانيين، قال فيه وفي أمثاله منظومة
دفاعا عن الطريقة، مما ورد فيها :

نهوا عن الطريق من أرادها وأنكروا العالهم أورادها
أليست الطريق ذكر الله والنهي عنه منكر يأناه
وأنكروا الجمع والإجماعا للذكر وهو جائز إجماعا¹.
..إلخ..

5 - سيدي عبد الله بن احمد دام.

تجاني الطريقة أقر بعمله جميع معاصريه، و أذعن له من أهل قطره
حاضره و بادية، حسب قول صاحب الوسيط الذي أورد له أشعارا من
بينهما داليتة التي هجا فيها إديجة بسبب موقفه لمعادي للتجانيين، يقول
مطلع هذه القصيدة².

صاح لا تسع أن تلم بناد يتعاطون غيبة العباد
عد عن ذاك و ليكن لكل شغل بالذي فيك من خفي و باد

1 - المصدر نفسه، ص 237-238.

2 - المصدر نفسه، ص 288.

اكيف لا يغنم السلامة مني رائح في عبادة الله غاد

إلى أن قال :

من كان في مذهب التجاني ممتريا فإنني لكامل الشيخ معتقد¹.

كما أشار أحمد بن الأمين الشنقيطي إلى أسماء تجانية أخرى من بلاد شنقيط عاصرت إديجة الكمليلي، و اختلفت معه في الموقف المعادي الذي اتخذه من التجانية و التجانيين، دون أن يمكننا من معلومات ضافية بخصوص كل واحد من هذه الأسماء مثل باب بن أحمد بيب² و محمد الصغير بن انبوجة³ صاحب الجيش الذي فصلنا القول بشأنه سابقا، و مولود بن احمد الجواد⁴.

و نختتم هذا المحور الخاص بتصدي تجانيي شنقيط لخصمهم إديجة شعرا و نثرا بالإشارة إلى مساهمة محمد بن العباس العلوي الشنجيطي في واجب الذب عن حمى الطريقة التجانية، و هي المساهمة التي أشار إليها

1 - المصدر نفسه، ص 289.

2 - نفسه، ص 36.

3 - نفسه، ص 89.

4 - نفسه، ص 190 و 214.

ابنه أحمد في مخطوط الغضب اليماني و التي يخاطب فيها أبوه إدييجه
قائلا:

و ساقط نال من عرضي فقلت له قل كيف شئت فليس الشتم من شيم
عرضت عنه و لو أني عرضت له سقيته حمة الأفعامن الكلم
أجمته بلجام الحلم فارتعدت و قد ترد جياذ الخيل باللجم¹

و في قصيدة أخرى لنفس الشخص، و من أجل الدفع بإدييجه على
ما يبدو إلى المزيد من الغيظ و الخيبة، رفع بالشيخ التجاني إلى أعلى
مقامات التبجيل و الإحترام بقوله :

ما أنجبت خود من الغواني في كل ما مضى من الزمان
كمثل أم أحمد التجاني عائشة الطاهرة الأحضان
فما الحوائية فخر كما لها بشيخنا إمام العلماء².

6 - أحمد بن محمد بن العباس العلوي الشنجيطي :

هذا الفقيه العلامة من تجانيي بلاد شنقيط، سبق أن عرفنا به في

1 - أحمد بن محمد بن العباس الشنجيطي، الغضب اليماني...، م.س، ص 76 «أ»، ثم 77 «أ».

2 - نفسه، ص 57 «ب».

الفصل المتعلق بانتشار تعاليم الطريقة التجانية في المغرب، و على الخصوص في أقصى جنوبه ببلاد شنقيط، و هو الذي كانت له أسفار لشمال البلاد بهدف زيارة ضريح شيخ الطريقة و الإلتقاء بكبار التجانيين و الأخذ عنهم، و في مقدمتهم الفقيه أكنسوس.

ألف هذا العالم عدة كتب للتعريف بالطريقة التجانية و الدفاع عنها، و من أشهرها «روض شمائل أهل الحقيقة في التعريف بأكابر الطريقة»، ثم «الغضب اليماني في الرد عن شيخنا سيدي أحمد التجاني» الذي سبقت الإشارة إليهما.

هذا الكتاب الأخير خصصه للدفاع عن الشيخ التجاني و طريقته، لكن ليس للرد على إيديجة الكمليلي كما فعل مجموعة من المخلصين للطريقة التجانية من أبناء منطقته كما علمنا، و لكن ليتصدى لدحض أطروحة الشيخ البكاي، على غرار ما قام به شيخه الفقيه محمد أكنسوس في «الجواب المسكت». و سوف لن نطيل الكلام عن هذا الكتاب كما فعلنا في ذلك مع الكتب السابقة، لسبب واضح و هو أن مؤلف الغضب اليماني يكاد ينقل حرفيا العبارات و الأفكار التي رد بها كنسوس على صاحبه في جوابه المسكت مع اقتباسه من حين لآخر و استعارته لجمل و عبارات تختلف طولا و قصرا لبعض ما جاء في كتاب «الجيش الكفيل بأخذ الثأر ممن سل على الشيخ التجاني سيف الإنكار»، كما سنبين ذلك.

و يمكن رد سبب تكرار الغضب اليماني لجل ما ورد في الجواب

المسكت، إلى كون كل من المؤلفين أجابا في رديهما على نفس النص المنسوب للشيخ البكاي في رسالته التي خاطب فيها الفقيه أكنسوس لحثه على الدخول في الطريقة التجانية¹. و أيا كان الأمر فإن هذا العمل يعد إسهاما من قبله في الذب عن الطريقة، و يبرز من جهة أخرى أهمية الروابط التي كانت تجمع بين تجاني شمال المغرب و جنوبه، و يفسر بشكل جلي أن الهموم و الإنشغالات كانت واحدة. و هكذا فإن نفس الخصم الإيديولوجي الذي تم التصدي له من بعيد في أقصى شمال المغرب، كان لابد من التصدي له في أقصى جنوبه، انطلاقا من نفس البيئة التي ولد فيها البكاي وترعرع إن أول ملاحظة تثير الإنتباه في مضمون مخطوط الغضب اليماني هو تعمد المؤلف و على غرار أكنسوس، عدم توريط الشيخ البكاي وتسفيهه بشكل سافر لأهميته العلمية و لنفوذه في المنطقة في ما ورد في رسالته، و هو موقف ينم عن قدر عال من اللباقة و الدبلوماسية، و يفسر الحذر الكبير الذي كان يتسلح به كبار الصوفية عند مخاطبة أمثالهم، هذا مع التذكير بأن مضمون الرسالة المعالج في الجواب المسكت من جهة و في الغضب اليماني من جهة أخرى، هو موجه للشيخ البكاي، لأن تطور مظاهر العلاقات بين الطريقة القادرية المختارية الكنتية و الطريقة التجانية

1 - رسالة سيدي أحمد البكاي لأكنسوس في الطريقة التجانية، مخطوط الخزانة العامة،

الرباط، رقم 1071 د.و قد سبق الإشارة إليها.

بالسودان الغربي، خلال النصف الثاني من القرن 19 يؤكد هذا الطرح.
استهل المؤلف كلامه بمخاطبة القارئ بأنه وقف على ورقات تنسب
للشيخ أحمد البكاي بن الشيخ محمد بن الشيخ المختار¹ و حاشاه منها
يضيف نفس المصدر، بل مكذوب عليه بها، و مضمونها تحذير و تنفير عن
التجانية، بل تبديع أو تكفير، فلما تصفحها، يقول أحمد العلوي الشنجيطي
عزم على الرد عليها².

بعد ذلك نقل عبارات من الجيش الكفيل بأخذ الثأر ممن سل على
التجاني سيف الإنكار بحذاقها، ليتحدث عن هذا العزم الذي وقع له
و عبر عنه سيدي محمد بن محمد الصغير بقوله³ : «و أما أنا فانتفضت
لضيق عطني انتصارا لجانب الأولياء، لا مجادلة لعموم الأغبياء، بل
منافحة عن سبيل هي من أحسن السبل، و لمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما
عليهم من سبيل⁴ » إلى أن يقول، نقلا دائما عن صاحب
الجيش «و إذا تمهد هذا فاعلم أيها الناظر أن لكل شيء

1 - يلاحظ أن أحمد العلوي الشنجيطي لم يرد بدوره، و كما فعل أكنسوس، توريط أحمد
البكاي في موقفه العدائي ضد التجانية، إنه نوع من التآدب المبالغ فيه، في رأينا.

2 - أحمد بن محمد بن العباس العلوي الشنجيطي، الغضب اليماني...، م.س، ص 52 «أ».

3 - هو ابن انبوجة مؤلف الجيش الكفيل بأخذ الثأر.

4 - أحمد بن محمد بن العباس العلوي الشنجيطي، الغضب اليماني...، م.س، ص 52 «أ».

- سيدي محمد بن محمد الصغير بن انبوجة، الجيش الكفيل بأخذ الثأر...، م.س، ص 5.

ميزانا يظهر به الحق من الباطل¹...

بعد هذه المقدمة دخل في صلب الموضوع لمحاورة البكاي أو الذي تقمص شخصية البكاي، فسلك في ذلك نفس المنهج الذي سلكه الفقيه محمد أكنسوس في الجواب المسكت، من التدرج في الرد على الرسالة قضية قضية، وفكرة فكرة حتى نهايتها، داحضا إياها بالحجة والدليل كما فعل أكنسوس. و نقدم فيما يلي جدولاً لأهم القضايا المنسوبة للبكاي ورد مؤلف الغضب اليماني عليها، مع إحالة القارئ في نفس الوقت على الجواب المسكت.

1 - أحمد بن محمد بن العباس العلوي الشنجيطي، الغضب اليماني...، م.س، ص 54 «ب».

- سيدي محمد بن محمد الصغير بن انبوجة العلوي التيشيتي، الجيش الكفيل بأخذ

الثار...، م.س، ص 49.

جدول بأهم ردود أحمد العلوي الشنقيطي على رسالة
أحمد البكاي من خلال الغضب اليماني

القضايا المتضمنة في رسالة البكاي.	المصدر	ردود أحمد العلوي عليها.	المصدر	مكان الرد في الجواب المسكت.
1- تنبيه البكاي لأهمية الشيخ عبد القادر الجيلي و الحث على الدخول في طريقته لأنه لا مثيل له من الأشياخ.	الغضب اليماني ص 55 «ب».	لا يجحد الشيخ عبد القادر إلا معاند أما أفضليته على غيرهم و فضل أصحابه على غيره، فلم أر من نص على ذلك.	الغضب اليماني ص 55 «ب».	ص 53 و ما بعدها.
2- طريقته أفضل	نفس المصدر	لم نقف على	نفس المصدر	14_13.

	ص 56 «أ» وما بعدها	من نص على ذلك.	ص 56 «ب».	=الطرق.
ص 27.	نفس المصدر ص 57 «أ» وما بعدها	هذا صحيح لكن ليس أولى بها من غيره. فسيدي احمد التجاني يرفع نسبه إلى مولانا محمد الملقب بالنفس الزكية، وقد أكد له الرسول (عليه السلام) هذا الشرف.	نفس المصدر ص 57 «أ»	3- هو (الشيخ عبد القادر) من آل النبي.
ص 52_53.	نفس	هذه دعوى	نفس	4- لم يبق من==

	المصدر ص 58 «ب» و ما بعدها.	ما أقام عليها ببرهان ولا أبان عليها ببيان، بل هذا تعجيز وتضييق لرحمة الله.	المصدر ص 58 «ب»	=الطريق طريق موصل إلا طريق الشيخ عبد القادر الجيلي.
صفحات 53- 59_62_66.	نفس المصدر ص 60 «ب» وما بعدها.	لسنا و الحمد لله ممن يسرع إلى الملام ويقول ماح نفسه يقرأك السلام، قال تعالى: ﴿ولا تقف ما ليس لك به علم ¹ ﴾.	نفس المصدر ص 60 «ب».	5- لا يوجد على وجه الأرض اليوم واصل مرب إلا أن يكون من تلامذة الشيخ عبد القادر... وخصوصا الشيخان الوالدان.

ربما انفرد صاحب الغضب اليمني بهذا الردّ دون أكنسوس.	نفسه ص 61 «أ» وما بعدها	هذا من العجب بمكان لأن عليين فسرّها أكثر من واحد بأنّها اسم لأعلى الجنة كما في المرادي والأشموني وغيرها.	نفس المصدر ص 61 «أ»	6- إني سمعت أن بعضهم يرغب في طريق التجاني من أجل الحصول على الغنى والمال وأن يكون يوم القيامة في عليين، مع العلم أن عليين كتاب وليست مدينة في الجنة
—	الغضب اليمني ص 67 «أ» وما بعدها.	هذا كذب وبهتان، فقد مزقه أولاً ثم لما أمره النبي (ﷺ) بجمعه جمعه، وقد ذكر سيدي =	الغضب اليمني ص 67 «أ».	7- وقد رأيت في كتاب التجانيين أن شيخهم نهاهم عن ذلك الكتاب ومزقه ثم كتبوه بعد ذلك.

		= زروق وصاحب لطائف المنن أن الشيخ الشاذلي لم يرتب كلمة من حربه الكبير إلا بإذن من رسول الله (ﷺ).		
ص 16-15- 21-17.	ص 67 «ب» وما بعدها	كيف يمكن تصديق هذا الإدعاء والشيوخ الذين أخذ عنهم الشيخ التجاني في المشرق والمغرب معروفون بأسمائهم. وأما قوله طلبا	ص 67 «ب»	8-التجاني لم يدع تربية وإنما ادعاه لها أصحابه طلبا للدنيا باسمه وجاهه.

		للدنيا باسمه وجاهه فمن الكلام الذي لا جواب له، فجوابه السكوت عنه.		
صفحات 46- 47_48_49.	المصدر نفسه، ص 69 «أ» وما بعدها	إن كان يعني بها التربية المصطلحة عند القوم فلم أر أحدا تكلم عليها مثله، فانظر جوابه عن الفرق بين العلوم والأسرار والأنوار والفتوحات والمواهب والفيوضات... وانظر قوله العلم الرياضي يحتاج إلى =	نفس المصدر ص 69 «أ»	9- لم أر له كلاما في التربية ولا عملا بها.

		أمور... وانظر شرحه تطهر بماء الغيب... إلخ...		
—	المصدر نفسه، ص 69 «ب» وما بعدها.	بهذا الكلام نعلم أن الكتاب مزور على سيدي البكاي لأن مثل ذلك السيد الجليل لا يدع القاعدة المشهورة العلماء مصدقون فيما نقلوا، مبحوث معهم فيما قالوا...	نفسه المصدر ص 69 «ب»	10- وقد ألحقوا له كلاما في آخر الكتاب لبعض العلماء ليس للتجاني.

11- إن زمانه (التجاني) و زماننا هذا لا يصلح لعلوم الحقائق.	نفس المصدر ص 70 «أ»	جره هذا الإعترض على الإعترض على والده و جده لأنهما ألفا في علم الحقائق وأيضا لم نقف على من نص على أن نشر الحقائق يخص زمانا دون زمان.	المصدر نفسه، ص 70 «أ» و ما بعدها.	ص 18- 19.
12- ما رأيتهم كتبوا له كرامات من كرامات الأولياء.	الغضب اليمني ص 71 «ب».	سبحان الله سبحان الله كيف يسلب العبد عقله إذا أراد امتحانه... إني لا أستوفي ما لسيدنا وشيخنا ومولانا ==	الغضب اليمني ص 71 «ب» و ما بعدها.	ص 15

		أحمد التجاني من المأثور والآيات والمناقب والمكرمات.		==
ص 32 إلى 34.	المصدر نفسه ص 77 «أ» وما بعدها.	فهل فوق هذا جراءة و احتقار للمسلمين، لم يراع في التجانيين حرمة الإيمان فكفروهم و جعل خيرا منهم عبدة الأوتان.	المصدر نفسه ص 77 «أ»	13- أخذ التجانيون طريق سفاهة و حماقة لا وجود لها في الجن و لا في الإنس ولا عند اليهود و النصارى و الصابئة.
ص 50 و ما بعدها ثم ص 60 و 71.	نفس المصدر ص 78 «ب» و ما بعدها ==	لم ينظر في جنة المريد و هو كتاب لوالده، سطر فيه وظائف	نفسه ص 78 «ب».	14- لم يقل الشيوخ بمنع زيارة شيوخ آخرين.

		الشيخ و من بينها عدم ترك أصحابه يزورون شيخا آخر لأن ذلك يضر المريدين، وكذلك ما نص عليه جده في الكوكب الوضاء، فلا نراه أنكر على شيخنا مسألة إلا وهي مسطرة في كتبهم محررة عندهم فضلا عن غيرهم.		
ص 23_22 68_24 ==	نفس المصدر ص 84 «أ» وما بعدها.	عليك أن تعلم أولا أن أكابر الاولياء نصوا	المصدر نفسه ص 84 «أ»	15- أنتم ادعيتم لا مثيل لشيخكم في الاشياخ.

		على أن للأولياء ختما هو أفضلهم وممدهم جميعا وهو الوارث للنبي صلى الله عليه وسلم الوراثة التامة، وهذا يستند على قرائن منها رواية محيي الدين ابن عربي ورواية جداك الشيخ المختار الكنيتي.		==
--	--	---	--	----

كانت هذه باختصار هي أهم الأفكار الواردة في مضمون الغضب
اليمني والتي شكلت ردا على رسالة البكاي التي حاولت نسف الطريقة
التجانية من أساسها، ورغم أن أحمد العلوي الشنجي اعتمد في تأليفه
هذا بالدرجة الأولى على ما ورد في الجواب المسكت، و بنسبة أقل على

الجيش الكفيل بأخذ الثأر، فإنه مع ذلك حاول أن يظهر بعض اجتهاداته الخاصة في الموضوع في أكثر من مناسبة. بالإضافة إلى أنه قرب الرأي العام الشنقيطي من السجال الفكري الذي كان قائما بين الشيخ البكاي والفقهاء أكنسوس. فعمله هذا رغم كل ما قلنا عنه يعتبر إسهاما إيجابيا عزز رصيد الدابيين عن الطريقة التجانية بالمغرب من أقصاه إلى أقصاه.

ونختم الحديث عن هذا المؤلف، بما ختم به كتابه، عندما استأذن

القارئ في إيراد كلام لصاحب الجيش ختم به هو أيضا كتابه :

– قال الشافعي : من استغضب و لم يغضب فهو حمار ¹.

– ما جزاء من أراد بك سوءا ².

– و أقول لمن لام في قلة أدبي على رسلك، فقد سب أبي، و قال في

شيخنا الأكبر، ما هو في ذلك أكبر، فطورا يقول فجر، و تارة يقول كفر ³.

7- محمد بن الأمين الشنقيطي (ت 1331 = 1913).

نقل هذه السلسلة من العلماء الشناقطة الذين سخروا درايتهم و

علمهم و محبتهم للرسول صلى الله عليه و سلم، و لمن أحبه فــــي

1 - أحمد بن محمد بن العباس العلوي الشنقيطي، الغضب اليماني...، م.س، ص 86 «أ». و قد

نقل هذا الكلام باعترافه من كتاب الجيش الكفيل بأخذ الثأر...، م.س.

2 - نفسه.

3 - نفسه، ص 86 «ب».

الدفاع عن حمى الطريقة التجانية و شيخها، بالعالم و الأديب التجاني الطريقة أحمد بن الأمين الشنقيطي الذي خلف وراءه إنتاجا فكريا ثريا، يأتي في مقدمته كتاب الوسيط، الذي دافع فيه عن مغربية بلاد شنقيط. أما الكتابان اللذان تصدى فيهما لخصوم التجانية فهما درء النبهاني عن حرم الشيخ سيدي احمد التجاني¹، و الرد المحكم في صحة الأسقم²، و نكتفي بالقول بأن أهمية هذين الكتابين بادية من عناوينهما، لعدم تمكننا في الوقت الراهن من الحصول عليهما.

من الرجال المهمة الذين دافعوا بإنتاجهم الفكري عن الطريقة التجانية، بشمال المغرب خلال القرن 19، علاوة على الفقيه أكنسوس، نذكر العربي بن إدريس العلمي اللحياني، و محمد بن محمد بن عبد السلام

1 - ذكره صاحب دليل مؤرخ المغرب الأقصى، م.س، ج I، ص 207.

2 - ذكره الأستاذ الفاضل، سيدي إبراهيم هان (المالي الجنسية)، المحال حاليا على التقاعد، و هو أحد كبار فقهاء التجانية في الوقت الحاضر بعد سيدي إدريس العراقي، و قد ذكر لي اسم هذا الكتاب في منزله بفاس في إحدى زيارتي له خلال سنوات البحث، و اعترف بالمناسبة انه أسدى لي خدمة كبيرة عندما وضع رهن إشارتي معرفته و خزانته ووقته، فالله وحده القادر على منحه أو فر الجزاء، و قد تأكد لي ما قاله بعد اطلاعي على كتاب الإبداء و الإعادة في مسلك سائق السعادة لمؤلفه عمر بن قدور الجزائري-الجزائر 1928. و سواء تعلق الأمر بالكتاب الأول (درء النبهاني)، أو الكتاب الثاني (الرد المحكم في صحة الأسقم)، فإن أحمد بن الأمين الشنقيطي رد فيهما على موقف يوسف بن اسماعيل النبهاني من سيدي احمد التجاني بخصوص كلمة الأسقم الواردة في سياق جوهرة الكمال و التي رأى استعمالها غير صحيح في السياق المذكور و يوسف النبهاني هو مؤلف : جامع كرامات الأولياء.

كنون. و سنعمل في الصفحات التالية على إيراد أهم القضايا التي دافعا عنها من خلال تأليفهما.

8 - محمد العربي بن ادريس العلمي اللحياني (كان حيا سنة 1320/1902)

يعرف أيضا بسيدي محمد العربي المساوي¹ نسبة إلى موساوة، بلدة بناحية مكناس التي بنى بها زاوية تجانية يوجد قبره بها. كان معاصرا لمحمد العربي بن السائح الذي كان يحض الناس على زيارته. وأشهر مؤلفاته رسالة الترغيب و الترهيب التي ألفها سنة 1299 هـ/ 1882²، وأرجوزة منحة الإخوان في الطريقة التجانية التي أنجزها في سادس قعدة الحرام عام 1319³. وقد أورد عنه تلميذه محمد الحسن بن عمر مزور معلومات ضافية في نهاية رسالة الترغيب و الترهيب التي كلفه شيخه بطبعها، فتحدث عن أخذه وورعه و كراماته وعلمه، وعن شيوخه وكثرة تأليفه منها على الخصوص، إضافة لما سبق، بيان «الضاد المعجمة

1 - أحمد اسكيرج، الإيمان الصحيح في الرد على مؤلف الجواب الصريح، تونس 1358، ص 115.

2 - أبو عبد الله محمد العربي العلمي اللحياني، رسالة الترغيب و الترهيب، طبع على الحجر سنة 1320.

3 - طبعت على الحجر بفاس سنة 1320 هـ و توجد في مجلد واحد مع رسالة الترغيب و الترهيب.

والتاء الفوقية المثناة، في نحو كراسة سماها «القول النافع
والجواب القامع»، كما أشار محمد مزور إلى أن شيخه كان حيا في السنة
التي كلفه فيها بطبع رسالة الترغيب و هي سنة 1320 / 1902، وكان
سلطان الوقت آنذاك يضيف نفس المصدر، هو مولاي عبد العزيز¹.

ما يهمنا من إنتاج محمد العربي العلمي اللحياني هنا هو كتابه الذي
يدافع فيه عن الطريقة التجانية، وهو الذي يحمل عنوان : رسالة
الترغيب والترهيب، يقع في جزئين يضمن حوالي 375 ص من الحجم
المتوسط. وقد بين في مقدمة الكتاب أنه وضع رسالة
الترغيب والترهيب «تذكرة للبعيد والقريب و تبصرة لمن يقف عليها ممن لا
علم له من المغترين وردعا لهم و نصرة لإخواننا المريدين و غيره على
شيخنا القطب المكتوم والبرزخ الأكبر والخليفة المعلوم مولانا أحمد بن
مولانا محمد التجاني²...».

لا يرد المؤلف من خلال هذا الكتاب على خصم أم منتقد معين، فهو
بذلك يخاطب كل من له سوء اعتقاد في الشيخ أو سوء فهم لتعاليم الطريقة،
سالكا في تحليله منطق الإقناع والإفحام بإيراد كم هائل من الحجج
والأدلة المستقاة من الكتاب و السنة، غير أن الجزء الأول من رسالته هو

1 - أبو عبد الله محمد العربي بن إدريس اللحياني رسالة الترغيب و الترهيب، م.س، الصفحة
الآخيرة من التذييل على الرسالة.

2- المصدر نفسه، ص 2.

الذي يعد تأليفاً له حقيقة صفة المنافحة عن الطريقة بما يضم من محاور تحقق في معظمها هذا الهدف، بينما الجزء الثاني يتناول مواضيع لها علاقة بالتعاليم الصوفية و آدابها بشكل عام كشرائط الصحة و الأخوة و الزهد و التوكل، و معنى الإستقامة، ووجوب محبة الرسول صلى الله عليه و سلم و حكم الصلاة و التسليم عليه و غير ذلك، و هي تقدم خدمة بشكل غير مباشر لموضوع الدفاع عن الطريقة التجانية بدون شك.

و هكذا نجد أن الجزء الأول من رسالة الترغيب و الترهيب يتضمن عدة مباحث خصصها المؤلف للذب عن الطريقة، و نذكر منها على الخصوص :

- فصل في حقيقة الولي و الرد على أهل الزيغ و العناد¹.
- فصل في شروط الولي على سبيل الإختصار و الذب عن دائرة الولاية و الإنتصار².
- فصل في التنفير و التخويف و التحذير من الإنكار على ولي من أولياء الله³.

- فصل : لا ينكر على هذا السيد الكريم أعني شيخنا مولانا أحمد

1 - المصدر نفسه، ص 2.

2 - نفسه، ص 4 و ما بعدها.

3 - نفسه، ص 6.

رضي الله عنه ما أخبر به من أنه أخذ هذا الورد عن النبي صلى الله عليه وسلم، يقظة منه إليه مشافهة¹.

- فصل في الرد على من ينكر جهلا و عنادا و تحاملا و جحودا على الأولياء رؤية رسول الله صلى الله عليه وسلم يقظة².

- فصل في تنبيه الجهلة الغافلين و زجرهم عما وقعوا فيه من الخسران المبين³.

- فصل : حول إنكاركم على من انتسب إلى التصوف و الفقر و تحاملكم عليهم على وجه التعنت و المكر و تسميتكم من انتسب إلى ذلك مبتدعا⁴.

- فصل : و أما ما يعكر به المستنكف المتحامل الجهول على شيخنا في منعه الزيارة لأصحابه فهو كله فضول⁵.

- فصل : في الرد على من منع الرقص بالصفة التي هي مراد الأقدمين بالتعبير و إقامة الحجة عليه و على حزب النكير المصممين على

1 - نفس المصدر، ص 70.

2 - نفسه، ص 71.

3 - نفسه، ص 80.

4 - نفسه، ص 82.

5 - نفسه، ص 92.

التنفير¹.

- فصل في الكلام على المنكث على من يبسمل في الفريضة، وهم أصحابنا دون تفصيل².

- فصل في ذكر بعض ما حل بمن تسلط على أولياء الله تعالى بالهوى ووقع فيهم بما يفضي به إلى سقر³.

- فصل : في نقص ما اختلقه بعض المتقفين على شيخنا الوارث المحمدي⁴.

- فصل : لا خفاء أن من ينهى عن الذكر و الصلاة على النبي صلى الله عليه و سلم قد ارتكب بدعة محرمة⁵.

فصل : في التحذير و التهديد و الإنذار لبعض أولاد الصالحين وبعض آل النبي المختار⁶.

- فصل : لا شك أن سبب الإنكار هو الحجاب عن مقام المنكر عليه⁷.

1 - نفس المصدر، ص 100.

2 - المصدر نفسه، ص 112، استدلل المؤلف على أن البدء بالبسملة لا يبطل الصلاة، لكن تركها مبطل للصلاة. و استشهد بأقوال مالك و الشافعي و غيرهما.

3 - المصدر نفسه، ص 118 و ما بعدها.

4 - المصدر نفسه، ص 124.

5 - المصدر نفسه، ص 134.

6 - المصدر نفسه، ص 139 و ما بعدها.

7 - المصدر نفسه، ص 159 و ما بعدها.

- فصل : في إقامة الحجة و الدليل و البرهان على من زعم أن شيخنا قال بتفضيل الذكر على القرآن¹.

- فصل : في نصح من تساهل من بعض المتقدمين جهلا بالشروط المشروطة فيه عند شيخنا رضي الله عنه².

كانت هذه باختصار هي أهم القضايا التي فصل المؤلف القول فيها في الجزء الأول من رسالته الذي خصصه للدفاع عن الطريقة مستغلا الفرصة في نفس الوقت للتذكير بأهم أنكارها و أورادها و فضائلها³ وأهمية شيخها الذي أخذ مباشرة عن الرسول صلى الله عليه و سلم، ومقدما نبذة عن فضل الياقوتة الفريدة و أسرارها⁴.

1 - نفسه، ص 169 و ما بعدها. نعم ورد في أكثر من مرجع تجاني نقلا عن جواهر المعاني و الجامع لما افترق من العلوم أن تلاوة صلاة الفاتح مرة واحدة تعدل 6000 (سنة آلاف) ختمة من القرآن، لكن دون أخذ هذا المعنى على ظاهره، و قد سبق أن تعرضنا لتوضيح ذلك في مكان سابق.

2 - نفسه، ص 175 و ما بعدها.

و الواقع أن تساهل بعض المتقدمين في مراعاة شروط ممارسة أوراد الطريقة و تعاليمها، إما جهلا، أو تساهلا لمصلحة شخصية، هو الذي أساء لسمعة الطريقة و لشيخها، و نسوق كمثال على ذلك ما يروجه بعض فقهاء الطريقة من أن الشيخ التجاني روى أن رسول الله صلى الله عليه و سلم أخبره بأن كل من دخل في طريقه سيدخل الجنة بلا حساب و لا عقاب، ناسين أو متناسين أن الشيخ التجاني ربط ذلك بضرورة الخوف من مكر الله. و حتى يكون العبد في مأمن من مكر الله يجب عليه أن يمثل لأوامر الشريعة الإسلامية، و هو ما تطمح تعاليم الطريقة إلى تبليغه لمريديها.

3 - نفس المصدر، ص 16 و ما بعدها.

4 - المصدر نفسه، ص 24 و ما بعدها.

كما لا يفوتنا أن نشير إلى أن أرجوزة المؤلف المشتملة على ما يقرب من ألفي بيت، تحت عنوان منحة الإخوان الموجودة في بداية نفس المجلد مع رسالة الترغيب و الترهيب، و التي تطرق فيها صاحبها إلى كل تعاليم الطريقة التجانية من أنكار و أوراد، و مزاياها، لم تخل من سمات الدفاع عن الشيخ التجاني و مذهبه ضد خصومه، كما هو واضح في بعض أبيات الأرجوزة، عندما يقول :

و ليعلم السعيد أن الإنتقاد على الأولياء جحود و عناد.
بل أصل شرك من أشرك بربه سبحانه و هلك¹.

إلى أن يقول في نهاية الأرجوزة متحدثا عن مضمونها :

ضمنتها فصول كل فصيل مشتمل على المنى و السؤل.
مرشد للمنصف و العفيف مرغم للمنكر و العسيف².

إذا كان محمد العربي العلمي اللحياني يخاطب المنكرين و الخصوم بشكل عام من خلال رسالته، فإن محمد كنون يتوجه من خلال ما كتبه إلى

1 - أبو عبد الله محمد بن العربي اللحياني، أرجوزة منحة الإخوان، م.س، ص 13.

2 - المصدر نفسه، ص 80.

خصم للطريقة، محدد و معروف هو محمد بن عبد الكبير الكتاني.

9- محمد بن عبد السلام كنون (ت1326/1908)

ذكر عنه أحد أقاربه المتأخرين الذي حقق له مخطوط «الصواعق المرسلة إلى من أنكر الجهر في الفريضة بالبسملة»¹ أنه خلف أكثر من ستة و أربعين تأليفا في التفسير و الحديث و الفقه و التصوف، أتى على ذكر كل أسمائها عندما كان يصدد التعريف بالمؤلف في مقدمة التحقيق². خمسة من هذه التآليف تتعلق بالطريقة التجانية و هي :

- حل الأقفال لقراءة جوهرة الكمال.
- شرح ياقوتة الحقائق في التعريف بسيد الخلائق.
- رفع العتاب عمن منع الزيارة من الأصحاب³.
- الدر المنظوم في نصرة القطب المكتوم⁴.
- النطق المفهوم في حل مشكلات الدر المنظوم⁵.

1 - محمد بن محمد بن عبد السلام كنون، الصواعق المرسلة إلى من أنكر الجهر في الفريضة بالبسملة، تحقيق محمد الرازي كنون (مرقون على الحاسوب). بدون ذكر مكان التحقيق و تاريخه.

2 - نفسه، ص 2-3-4.

3 - مخطوط رقم 2028/3 د، ضمن مجموع، الخزانة العامة، الرباط.

4 - مخطوط رقم 1991/2 د، ضمن مجموع، الخزانة العامة، الرباط.

5 - مخطوط رقم 2135/6 د، ضمن مجموع، الخزانة العامة، الرباط.

و سنركز في هذا المحور على التأليف الذي تصدى فيه محمد كنون لادعاءات محمد بن عبد الكبير الكتاني الذي ادعى أنه هو الختم المحمدي مما جعله يدخل في صراع مع التجانيين¹، لاعتقادهم الراسخ بأن شيخهم هو صاحب هذا المقام، ويحمل هذا التأليف عنوان: «الدر المنظوم في نصرة القطب المکتوم».

يتكون هذا المخطوط من حوالي ست و أربعين صفحة من الحجم المتوسط، مكتوبة بخط جميل و أسلوب سهل القراءة. ذكر صاحبه في آخره أنه انتهى من تأليفه صحوة يوم الإثنين في شهر رجب سنة 1318 / 1900، و قد قدم الكثير من التفاصيل، من خلال هذا الكتاب، في إبطال ختمية الكتاني و مشيخته، على حد تعبير صاحب الإعلام، ليثبت أن الشيخ التجاني هو الختم المحمدي الذي لا يأتي بعده ختم آخر كما لا يأتي بعده شيخ، إلا إذا كان من أتباعه، و الكتاني ليس من أتباعه، فلزم بطلان كل ما ادعاه يضيف نفس المصدر²، هذه الإفادة التي تضمنها كتاب العباس بن إبراهيم، تتطابق تماما مع محتوى الدر المنظوم الذي سنعمل فيما على إبراز أهم ما ورد فيه بخصوص رده على طروحات شيخ الطريقة الكتانية.

– الدر المنظوم :

استهل المؤلف كتابه بعد البسملة و الصلاة على النبي صلى الله

1 – العباس بن إبراهيم، الإعلام بمن حل مراكش و أغمت من الإعلام، م.س، ج 7، ص 168.

2 – نفسه، ص 168.

عليه و سلم ، بما يفيد أن إقدامه على هذا العمل أتى تلبية لرغبة الإخوان «فإنك أيها الأخ الصادق أرسلت تسأل عما شوش به البعض على إخواننا التجانيين من أن شرط الإنتفاع بالشيخ كونه حياً¹...». لكنه ذكر في خاتمة هذا الكتاب أسباباً أخرى أهمها :

– ما ورد في حديث: من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله بلجام من نار.
– قول الله تعالى² : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ³...﴾
والآية... و قوله تعالى : ﴿وَلَمَن انتَصِرْ بَعْدَ ظَلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ⁴﴾ .

– الخروج من وعيد قوله صلى الله عليه و سلم : «الساكت عن الحق كالتكلم بالباطل».

– كون كاتم الشهادة كشاهد الزور، وأن من طعن في نسبك لا بد أن تطعن في صدره.

كل ذلك من أجل الذب عن حرمة الشيخ سيدي احمد التجاني خاصة والذب عن الشيوخ الأموات والأحياء عامة لأن الخصم «ادعى عفا الله عنا

1 – محمد بن محمد بن عبد السلام كنون، الدر المنظوم في نصرة القطب المكنوم، م.س،

ص1.

2 – المصدر نفسه، ص 43.

3 – سورة البقرة، 159.

4 – سورة الشورى، 41.

وعنه نفى الإنتفاع بالأموات و انفراده بالمشيخة من بين الأحياء¹.

و معلوم أن الخصم هنا هو الشيخ محمد بن عبد الكبير الكتاني، الذي لم يكتف بادعاء مقامي الختمية و القطبانية لنفسه، بل ذهب إلى حد نفى التربية و السلوك على يد الشيوخ الأموات، ناسفا بذلك أهم مرتكزات الطريقة التجانية².

أفاد الشيخ محمد كنون، في دره، و هو يرد على خصمه، داحضا أقواله بأنه قد صح الوصول من جماعة من الأكابر على أيدي الأولياء الأموات من غير منازع، و لا مكابر، لأن انتفاع الحي بالميت، و حصول المدد له منه شهير، و سبق القول في ذلك صاحب مرآة المحاسن و غيره، مضيفا أن أبا يزيد البسطامي كان يستفيض من روحانية جعفر الصادق، رغم أنه لم يدركه³ و استشهد المؤلف أيضا باستفاضة شيوخ آخرين من روحانية من سبقوهم في الولاية و الصلاح و الإلتحاق بالرفيق الأعلى، ناقلا

1 - محمد بن محمد بن عبد السلام كنون، الدر المنظوم في نصرة القطب المكتوم، م.س،

ص 44.

2 - محمد بن عبد الكبير الكتاني، الكمال المتلالي و الإستدلال العوالي في حاجة أهل التفريط و التغالي و أن فيضان الربوبية المحمدية لا ينقطع بل متتالي، المطبعة الحجرية، فاس 1919، ص 48.

3 - محمد بن عبد السلام كنون، الدر المنظوم في نصرة القطب المكتوم، م.س، ص 1.

في ذلك عن الشيخ محمد العربي بن السايح¹ أن همه الشيخ الكامل، أي نور إيمانه بالله، هي التي تربي المريد وترقيه من حالة إلى حالة، وأولياء كل قرن يستمدون من نور النبي صلى الله عليه وسلم، لذلك، يرى محمد كنون أن اشتراط الحياة في الشيخ المربي ليس ضروريا مدعما رأيه في نفس الوقت بما ورد في رحلة أبي سالم العياشي من أن شيخه الشيخ حسن بن علي ذكر في مسائل طرق المشايخ و عدها أربعين، من بينها الطريق التي تسمى الأوسية، و التي ينسب أصحابها إلى روحانية بعض الأنبياء أو المشايخ كأخذ سيدنا أويس عن روحانية النبي² صلى الله عليه وسلم.

تأسيسا على ما سبق، يخلص محمد كنون إلى أن الأولياء الكبار لا ينسحب عليهم حكم الموت بل هم في حكم الأحياء، مما يمكن معه القول إن التربية على أيديهم ممكنة. و بالإضافة إلى هذه الأحكام التي يشترك فيها سيدي احمد التجاني مع باقي شيوخ التصوف و أولياء الله، فإنه يمتاز عنهم في اعتقاد محمد كنون و باقي التجانيين بعدة مزايا، أهمها :

- وصوله مقام الختمية الذي لن يصله أحد بعده.

- طريقته ناسخة لجميع الطرق كما أن شريعته صلى الله عليه وسلم ناسخة لغيرها من الشرائع و لا ينسخها شيء.

1 - نفس المصدر، ص 2.

2 - نفسه.

- أخذه ورد الطريقة مباشرة من الرسول صلى الله عليه وسلم¹ .
- تأكده من نسبه الشريف بواسطة الرسول صلى الله عليه وسلم.
لقد استطاع مؤلف الدر المنظوم أن يجمع عددا كبيرا من النصوص التي تؤيد وجهة نظره، القائلة بإمكان الإنتفاع بتربية الشيخ والسلوك على يديه حيا كان أو ميتا لإفحام خصمه. غير أن الشيخ كنون، وعلى غرار من سبقه من فقهاء التجانية و حواريينها، عندما يضفي على أهم مضامين تعاليم الطريقة نوعا من القدسية بنسبتها للرسول² صلى الله عليه وسلم، فإنه بذلك يغلق كل باب للحوار، ولا يترك أي مجال لإعمال العقل، إلا أنه لم يكن الوحيد، لا هو ولا خصمه الكتاني في التمسك والدفاع عن مثل هذه الإعتقادات المذهبية في مجال التصوف.

فالرسول صلى الله عليه وسلم إذن هو مرتب أورد الشيخ التجاني، يفيد صاحب الدر المنظوم وهو الذي أمره بتلقيها للخاص والعام، وقال له أصحابك أصحابي وفقراؤك فقرائي، كما أورد الشيخ كنون قول سيدي أحمد التجاني «أخبرني صلى الله عليه وسلم بأني أنا القطب المكتوم منه إلي مشافهة، يقظة لا مناما ولا عطر بعد عروس³»،

1 - نفس المصدر، ص 5.

2 - سيفعل محمد بن عبد الكبير الكتاني نفس الشيء في الكمال المتلالي، وفي غيره.

3 - محمد بن عبد السلام كنون، الدر المنظوم في نصرة القطب المكتوم، م.س، ص 37.

وقوله أيضا «روحه صلى الله عليه وسلم تمت الأنبياء والمرسلين وروحي تمت الأقطاب والعارفين، وهذه حقيقة الختمية بالمعنى الأخص¹...»
هذه المقولات لا تختلف مع إفادة المؤلف بأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان في عالم الأرواح نبيا عالما بنبوته بخلاف غيره من الأنبياء فإنهم لم يعملوا بنبوتهم إلا حين البعث². و نفس الشيء ينطبق على خاتم الولاية بالنسبة للأولياء³.

بعد هذه السلسلة من الاستشهادات التي جعلت مؤلف الدر المنظوم يطمئن إلى تكامل تصوره ووجهة طرحه ومشروعية دفاعه، انتقل للهجوم على خصمه و تسفيهه جملة وتفصيلا، وهذه بعض النماذج التي تشهد على ذلك :

ليت شعري يقول محمد كنون، من هو الميت أهذا الولي الكامل، الختم

1 - نفس المصدر، ص 38.

2 - نفسه، ص 36.

3 - لا يفوتنا التنبيه هنا إلى أن صاحب الدر المنظوم، وعلى غرار مؤلفين تجانيين آخرين ممن كتبوا عن تعاليم الطريقة التجانية و شيخها لم يأت بشيء جديد فيما أورده حول نسبة بعض أوارد الطريقة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم و مشافهة هذا الأخير يقظة لسيدي احمد التجاني، ما دام أن كل هذه المعلومات توجد في المصادر الأصلية كجواهر المعاني و الجامع لما افترق. و بما أنها أصبحت محفوظة و معروفة عند عامة التجانية و خاصتهم، فإنها أصبحت من الأمور البديهية التي لا تدعو الحاجة إلى ذكر مصادرها في نظر البعض.

الواصل أم ذاك المدعي الكاذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم،
الغار لعباد الله الذين يستجبلهم إلى طريقه التي ابتدعها و اختلقها. كلا
والله، بل هو الميت حقيقة لموت قلبه بالكذب و ادعاء ما ليس له¹. و مما
يؤكد كذبه ودعواه يضيف نفس المصدر، كونه لا شيخ له تهذب على يده و
لم يتقدم له أن أخذ طريقا من طرق المشايخ². و هذا ما يحمل على القول
يفيد المؤلف، أن هذا المتهور يريد من ادعائه الشهرة وجمع حطام الدنيا³،
لذلك سوف لن ينجو من سوء العاقبة، لأن تاريخ التصوف يخبرنا بأن
الكثير ممن تظاهروا بالمشيخة شئت الله أمرهم وخرب زواياهم، «وعما
قريب يقع مثل ذلك لهذا المدعي⁴ وفريقه تحقيقا للوعد النبوي وإظهارا
لمصادق ما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم سيدنا

1 - محمد بن عبد السلام كنون، الدر المنظوم في نصرة القطب المكتوم، م.س، ص 9-10.

2 - نفسه، ص 11.

لكن يناقض هذا القول ما أورده صاحب الاعلام من كون محمد بن عبد الكبير الكتاني أجازة
عدة شيوخ في مقدمتهم والده والشيخ ماء العينين و محمد حسين العمري الهندي، والقاضي
حسين ابن محسن السبعي الانصاري... كما أخذ الطريقة الدرقاوية عن علي بن احمد المستاري
خليفة محمد ابن الطيب الدرقاوي... أنظر: الإعلام بمن حل مراکش و أغمات من الاعلام، مصدر
سابق، ج 7 ص 156.

3 - محمد بن عبد السلام كنون، الدر المنظوم... م.س، ص 11-12.

4 - كانت نهاية محمد بن عبد الكبير الكتاني، سيئة فعلا، و قد يعتقد التجانيون أن سبب ذلك
هو حطه من قيمة سيدي احمد التجاني.

الشيخ رضي الله عنه من أن الطرق كلها تتلاشى و تضمحل و لا تبقى إلا طريقته رضي الله عنه لمكان الختمية المختصة به¹...».

لقد وجد صاحبنا في بعض أقوال الشيخ زروق مادة أسعفته في إغلاظ القول لخصمه وإدانتته. فقول زروق الذي اعتمده ينص على أن من رأى مدعيا للمشيخة متلبسا بعلامات توجب عليه الحذر منه. أولها موالاة السلاطين بالكلية أو معاداتهم بالكلية، لأنه في الأول منهم، وفي الثاني مشغول بما لا يعني و علامة ذلك مبالغته في الثناء أو عكسه، و الحق هو أن تتم لهم الدعوة بالصلاح و التسديد لاحتياج المسلمين إليهم من غير موالاة و لا معادة²، إن العلامات تنطبق تماما على الشيخ محمد بن عبد الكبير، الكتاني، في رأي الشيخ محمد كنون باعتباره متشيعا، ليست له أهلية، كاذبا مريدا للثروة و الجاه³، و قد اتضح كذب وجشع الكتاني، و بدا واضحا للعيان باستتباعه للناس بمن فيهم التجانيون، يضيف نفس المصدر، معللا ذلك بأن «البزولة الميتة، يعني الثدي الميت لا ترضع، يعني أنه لا ينفع إلا صحبة الحي، يعني نفسه دون

1 - محمد بن عبد السلام كنون، الدر المنظوم...م.س، ص 14.

هذا التبشير وارد في جواهر المعاني، و نقل عنه كل من كتب عن التجانية خلال القرنين

التاسع عشر و العشرين.

2 - نفس المصدر ص 26-27.

3 - نفسه، ص 27.

الميت، يعنيسيدنا الشيخ¹ .»

و هنا يتساءل مؤلف الدر المنظوم بمرارة عن من هو الميت حقيقة، أهو الشيخ التجاني الذي وقع الإنتفاع به حيا و ميتا، أم هذا المدعي الفتان؟ إنه غش يجيب نفس المصدر، لعباد الله و شيطنة. و من كذب الكتاني وأقرانه تبعا لنفس المؤلف، حتى يتم له الإستتباع و الجاه كما يريد، ادعائه الختمية وهو يعلم أنها لغيره²، متجاهلا بذلك قوله تعالى³ ﴿فَنَجْعَلُ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾⁴.

خلص الشيخ محمد كنون في آخر سلسلة انتقاداته للشيخ الكتاني، إضافة لما سبق، إلى التأكيد على أفضلية شيخه و دونية خصمه مستحضرا في ذلك قوله تعالى⁵: ﴿أَفَمَنْ أُسِّسَ بَنِيَانُهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ

1 - المصدر نفسه.

2 - فصل صاحب الإعلام القول في الختمية، فذكر أن مقام الختمية الذي ادعاه محمد بن عبد الكبير الكتاني يعد من مقام الولايات الكبرى كالقبطانية و الفوثنانية، و ادعى هذا المقام غير واحد في مقدمتهم الحكيم الترميذي صاحب نواذر الأصول، و ابن عربي و سيدي محمد وفا و الصفي القشاشي، و سيدي احمد التجاني...إلي أن يقول و لا يوجد دليل بعينه لمعرفة أيهم أصدق كشفا و أيهم أحق بهذا المقام. أنظر:

العباس بن ابراهيم، الإعلام بمن حل مراكش و أغمات من الأعلام...، م.س، ج 7 ص

155-168.

3 - محمد بن عبد السلام كنون، الدر المنظوم...، م.س، ص 49.

4 - سورة آل عمران، 61.

5 - محمد بن عبد السلام كنون، الدر المنظوم...، م.س، ص 43.

و رضوان خير أم من أسس بنيانه على شفى جرف هار فانهار به في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين¹. و مذكرا بأن شروطا ثلاثة إن توفرت كليا أو جزئيا في شيخ من الأسياء دلت على حقيقة مشيخته. وهذه الشروط هي العلم البصيرة و التجربة. لأن الشيخ الواصل بالعلم يربي وبالبصيرة يرقى، وبالتجربة يحقق، و لا يخفى، حسب تعبير الشيخ كنون، انتفاء كل هذه الشروط في المدعي المذكور.

كانت هذه باختصار أهم الأفكار التي تضمنها مخطوط الدر المنظوم للرد على تناول الشيخ الكتاني على الطريقة التجانية، و نشير بالمناسبة إلى أن محمد كنون، ذيل كتابه هذا، بكتيب آخر سماه النطق المفهوم في حل مشكلات الدر المنظوم²، و قد خصصه حسب قوله لشرح ما استشكل على القراء من معلومات واردة في الدر المنظوم.

و بتقديمنا لأبرز مضامين الدر المنظوم، نكون قد تمكنا من عرض أهم ما كتبه التجانيون في الذب عن تعاليم الطريقة و شيخها خلال القرن 19، وهو عمل، نهض له شيوخ الطريقة كرجل واحد في كل أنحاء المغرب، من البحر الأبيض المتوسط حتى نهر السنغال، غير أن ما ألفه التجانيون لم ينحصر في الدفاع عن الطريقة فحسب، بل شمل جوانب أخرى من الطريقة وهو ما سنتطرق إليه في المبحث الموالي.

1 - سورة التوبة، الآية: 109.

2 - سبقت الإشارة إليه.

10 إبراهيم الرياحي التونسي :

لقد كان من أكثر المدافعين عن الطريقة التجانية انطلاقا من بلاده تونس.

II- مؤلفات التعريف بالطريقة و أكابيرها.

نواصل تحت هذا العنوان التطرق لغرض آخر من أغراض كتابات الجيل الثاني، وهو التعريف بالطريقة وأكابيرها. وسيقتصر عملنا في هذا الصدد على إلقاء نظرة مقتضبة على أهم هذه الكتب وأشهرها، دون الغوص في تفاصيل محتوياتها، لسبب واضح، وهو أن التعريف بالطريقة ورجالاتها تم التعرض إليه في فصول سابقة من هذا البحث، مع إثارة الإلتباه إلى أن هذه الكتب لا تضيف شيئا عما أورده كل من علي حرازم برادة في جواهر المعاني، و محمد بن المشري في الجامع لما افترق من درر العلوم، بخصوص تعاليم الطريقة و شيخها. لكن هذا لا يعني أن هذه الكتب كانت عديمة الفائدة ومفتقرة لكل أصالة، فهي على العكس من ذلك أدت أدوارا رائدة في نشر الطريقة و التعريف بها داخل المغرب و خارجه، سواء في شكلها المخطوط أو المطبوع، بعد أن حققت رواجاً و ذيوفا بين الأنصار والخصوم، مع مر السنين وتعاقب الأجيال وتطور وسائل الطباعة.

و سنعمل على إبراز أهمية كل تأليف من هذه المؤلفات بشكل منفصل في هذا المبحث، حتى نتمكن من إيلاء العناية الضرورية لتلك التي لاحظنا أنها بقيت تحت الظل في الفصول السابقة.

1- ابن باب بن أحمد بيب الشنقيطي العلوي التجاني (ت1266هـ/1850م)¹.

إسمه أحمد التجاني و كنيته ابن باب، و بهذه الكنية اشتهر كما يذكر ذلك صاحب البغية، و قد سماه والده باسم الشيخ تبركا به². و قد سبق أن أشرنا في مكان سابق إلى الإتصالات الروحية و الواقعية التي جرت بين ابن باب التجاني الشنقيطي، و بين محمد العربي بن السائح و كان ابن باب التجاني هذا قد تعلق بالطريقة التجانية منذ صغره فأخذها عن أبيه، و شد الحال عدة مرات إلى فاس و مكناس و مدن مغربية أخرى، كما قاده الشوق وحب الشيخ التجاني إلى الإقامة مدة بتماسين و عين ماضي ليستأنس ويتبرك بالبيئة التي ترعرع فيها شيخ الطريقة و خلال إقامته بهذه الديار نظم خريدته المعروفة بمنية المريد³.

و قد شكل هذا التأليف المشتتل على حوالي أربعمئة بيت، عملا فريدا

1 - أحمد بن محمد بن العباس العلوي الشنقيطي، روض شمائل، أهل الحقيقة م.س، ص21.

2 - محمد العربي بن السائح، بغية المستفيد لشرح منية المريد، م.س، ص99.

3 - سبق التعريف بها.

من نوعه في وقته. وقد تطرق من خلال نظمته إلى كل جوانب الطريقة وتعاليمها فابتدأ بالتعريف بالشيخ وأسرته ومختلف مراحل حياته من دراسة وأسفار وبحث عن الشيوخ إلى أن كلفه الرسول صلى الله عليه وسلم بتلقين أورداد الطريقة التي لقنها له، لمن رغب فيها، داعياً إياه إلى ترك أورداد الشيوخ الآخرين وطرقهم:

وقال دع كل شيوخك وذر أنا مربيك وشيخك الأبر¹.
وقال أنت وارثي وحسبي وولدي حقاً بغير عتب².

من الأغراض الأخرى في الطريقة التجانية التي تعرض لها المؤلف في نفس القصيدة صفة المقدم، ووقت الورد وأركانها وشروطه وما يلحق بها، ثم وقت الوظيفة وبيان فضلها وأركانها، وكذا حضرة يوم الجمعة التي نصح بالمداومة عليها :

وتركها يفيئت خيراً جما إلا لعذر عارض الما

1 - القائل هو الرسول صلى الله عليه وسلم.

2 - ابن باب التجاني العلوي الشنقيطي، منية المريد، م.س، ص 5.

- محمد العربي بن السائح، بغية المستفيد...، م.س، ص 174.

يكفيك في الفضل حضور المصطفى صلى عليه ربنا وشرفا¹.

كما أنه لم يفت الناظم التعريف ببعض كبار الطريقة في نظمه :

و كم من مرید نال فوق منيته	من الولاية لأجل صحبته
كحب طه المصطفى ابن العربي ²	من نال من مولاه أعلى الرتب.
و كخديمه الرضى على	حرازم ³ ذي المنصب العلي.
و كالفقيه العالم ابن المشري	صاحب شيخنا رفيع الذكر.
و العلوي الوارث الرباني ⁴	سيدنا الحافظ ذي العرفان ⁵ .

1- ابن باب التجاني العلوي الشنقيطي، منية المرید، م.س، ص 19.

- محمد العربي بن السائح، م.س، ص 396.

2 - المراد بابن العربي هنا، العارف بالله، سيدي محمد بن العربي الدمراوي التازي الذي كان يتوسط بين الرسول صلى الله عليه وسلم و سيدي احمد التجاني حسب ما هو وارد في الأدبيات التجانية التي نقلت كلها عن جواهر المعاني و الجامع لما افترق من درر العلوم. و قد سبق أن عرفنا بهذا العارف بالله في فصل سابق. انظر : بغية المستفيد، م.س، ص 255.

3 - علي حرازم برادة جامع جواهر المعاني.

4 - المراد به محمد الحافظ العلوي الشنقيطي الذي عينه الشيخ سيدي أحمد التجاني خليفة للتجانية ببلاد شنقيط. و قد سبق أن تطرقنا لذلك في المبحث الخاص بانتشار الطريقة في أقصى جنوب المغرب ببلاد شنقيط.

5 - ابن باب التجاني العلوي الشنقيطي، منية المرید، م.س، ص 8

و قد خصص المؤلف خاتمة منيته لشد انتباه القارئ و المهتم إلى فضل «الياقوتة الفريدة»¹ و «جوهرة الكمال» في مدح سيد الرجال².

و قد أكد على أهمية هذا التأليف أكثر من علم من أعلام الطريقة التجانية، في مقدمتهم أحمد بن العباس العلوي الشنقيطي الذي ذكر في روض شمائل أهل الحقيقة أن المؤلف قضى له بمنيته عدة حاجات «قضى الله حاجتنا و حاجته يوم لا ينفع مال و لا بنون»³

و خص ابن باب بتنويه مماثل من قبل محمد العربي بن السائح الذي قال بخصوص منية المريد : «و لما سرحت في رياض كلماتها المونقة النظر و أجلت بين حياض معانيها الغدقة طرف الفكر، علمت علم اليقين أنها المنية التي كنت أتطلب، و البغية التي كنت منذ زمان أترصد...فقرت بها و لله الحمد مني كل عين...»⁴.

هذا الإعجاب بمنية المريد، و اهتمام محمد العربي بن السائح بها لإحاطته بكل ما يتعلق بتعاليم الطريقة، هو الذي جعله يفرد لها تأليفا خاصا عقب فيه على كل مضامينه.

1 - هي صلاة الفاتح لما أغلق.

2 - سبق التعريف بها و بالإحالة على نصها في جواهر المعاني و الجامع لما افترق و هي إملاء الرسول صلى الله عليه و سلم على الشيخ التجاني كما يرى ذلك كبار التجانيين.

3 - أحمد بن العباس العلوي الشنقيطي، روض شمائل أهل الحقيقة، م.س، ص 21.

4 - محمد العربي بن السائح، بغية المستفيد، م.س، ص 6.

2 - محمد العربي بن السائح :

يمثل أحد أبرز رجالات الطريقة التجانية خلال النصف الثاني من القرن 19 سبق أن عرفنا به في فصل سابق، و سنركز هذه المرة على تأليف له تحت عنوان بغية المستفيد لشرح منية المرید الذي يقع في حوالي أربعمئة صفحة (400)¹.

و عن سبب تأليفه لهذا الكتاب، يذكران بعض السادات الأجلاء، ممن لا يسعه رفض طلبه، لما هو عليه من حسن المؤاخاة في الله تعالى، ألح عليه مرات عديدة، في وضع تعليق على المنية «يكون كالتتمات والتكمالات لكلماتها الجامعة المفيدة و التحصيلات لجملها النافعة و أقوالها الراجحة السديدة... فحداني ذلك على أن لبيت بعد الإستخارة دعوته و أسعفت بعد الاستعصام بحول الله وقوته رغبته و طلبته²...».

و مما تجدر الإشارة إليه أن المؤلف مهد لشرح المنية و التعليق عليها، بمقدمة طويلة، تطرق فيها لنشأة التصوف و مزايله، ثم لسبب تسمية الطريقة التجانية بالمحمدية و الأحمدية و الإبراهيمية و الحنفية، أخذت من الكتاب ما يزيد عن خمسة و ثمانين صفحة (85)، و قد ناقش ضمن هذه

1 - النسخة التي بحوزتنا منشورة سنة 1973 عن دار الفكر للطباعة و النشر.

2 - محمد العربي بن السائح، بغية المستفيد، م.س، ص 6.

المقدمة سبعة مطالب.

المطلب الأول : في بيان منشأ علوم الطريق، و بعض ما اختص به أهله من أسرار الأذواق و التحقيق.

المطلب الثاني : في بعض ما يشير إلى حقيقة الأدب على وجه الإجمال، و بيان منشئه و مكانته في طريق أهل الكمال.

المطلب الثالث : في الإشارة إلى نبذة من أداب الحضرة العلية، و بعض ما اتصف به من ذلك أهل المراتب السنية.

المطلب الرابع : في بعض ما يختص بالمريد من أدب الصحبة والأخوة.

المطلب الخامس : في بيان فضيلة حسن الإستماع.

المطلب السادس : في بيان اختلاف أولياء الله تعالى في الطرائق والمذاهب و الإشارة إلى أن منشأ ذلك هو تبيان الأذواق و المشارب.

المطلب السابع : في وجه تسمية هذه الطريقة السنية بالأحمدية والمحمدية والإبراهيمية الحنفية¹.

أما باقي محتوى كتاب بغية المستفيد، فقد خصصه صاحبه لشرح مضامين منية المريد و التعليق عليهما بشكل مسهب، بحيث لا يمكن

1 - نفس المصدر، ص 8 - 9.

للمتتبع أن يجد بيتا واحدا من منظومة المنية لم يعلق عليه ابن السائح الذي عمد إلى شرح الخريدة إما بيتا بيتا، أو مجموعة، مجموعة من الأبيات حسب ما يقتضيه السياق. ونظرا للمجهود الكبير الذي بذله في هذا العمل لطول الخريدة ولإضنابه أحيانا في بعض الشروح، فقد أتت أبيات المنية، في تأليف البغية مشته، تسبح أجزاءها في خضم المعلومات والتعليق التي زادت توضحها بعناية المؤلف. وقد أثمر هذا الإنجاز في شكله العام تاريخا مفيدا لنشأة الطريقة التجانية ورجالاتها الأوائل، وسجلا حيا لتعاليم الطريقة وأدبياتها، مع ما رافق ذلك من كلام عن الروح والمقامات والأنوار والتوحيد. مصادره في كل ذلك، الكتاب والسنة بشكل عام، ثم كتاب جواهر المعاني والجامع لما افترق، وروايات شيوخه في الطريقة الأحياء منهم والأموات.

و نقدم فيما يلي ثلاثة نماذج من أبيات المنية، كما أوردها ابن السائح في بغيته، قصد التنوير فقط : بيتان من بداية الكتاب وبيتان من وسطه، ثم بيتان من آخره.

قال ابن باب العلوي نسبه	المغربي المالكي مذهبه ¹
الحمد للجاعل الأولياء	ورثة الكمل الأنبياء ² .

1 - المصدر نفسه، ص 98.

2 - نفسه، ص 102.

من وسط الكتاب :

ومنهُ رؤية النبي الهادي وهي لديهم غاية المراد
وعنه لا يغيب لمح بصر يقظة فيآله من منظر¹.

من آخر الكتاب :

والحشر أسأله رب الناس في زمرة الشيخ أبي العباس
أنا ووالدي مع الأحباب لكي يجيرنا من الحساب².

وقد ختم المؤلف كتابه بالتوجه إلى الله ، راجيا منه أن يجعل عمله هذا
من أقوى الأسباب إلى ولوج حضرة وصوله³.

بالإضافة إلى ابن باب التجاني الشنقيطي ، صاحب منية المريد التي
ألف فيها ابن السائح بغيته ، يوجد شنقيطيان آخران اهتمتا بتأليف كتب في
نشر تعاليم الطريقة ورجالاتها ، وهما ابن انبوجة صاحب كتاب ميزاب
الرحمة الربانية في التعريف بالطريقة التجانية ، وأحمد العلوي الشنقيطي

1 - نفس المصدر، ص 209.

2- نفسه، ص 382-383.

3 - نفسه، ص 395.

مؤلف روض شمائل أهل الحقيقة في التعريف بأكابر الطريقة.

3 -عبيدة بن محمد الصغير ابن انبوجة الشنقيطي التيشيتي (ت1264/1848)

هو مؤلف كتاب ميزاب الرحمة الربانية¹ و هو أخ صاحب الجيش الكفيل بأخذ الثار ممن سل على الشيخ التجاني سيف الأنكار، وقد وردت ترجمة مؤلف الميزاب، في كتاب روض شمائل أهل الحقيقة الذي أفاد أيضا أن الفقيه أكنسوس خاطب ابن انبوجة هذا قائلا : «يا آل انبوجة ما زالت بدوركم تنير جيرانا للأنوار طلابا²».

استهل ابن انبوجة ميزابه بحث التجانيين على الإقبال على التأليف في الطريقة و تعاليمها، على وجه التربية بها على الحقيقة،³ و معترفا بأن أخاه سيدي محمد صاحب الجيش الكبير في الرد على جموع النكير⁴، كان شيخه

1 - سيدي عبيدة بن سيدي محمد الصغير بن انبوجة الشنقيطي التيشيتي، ميزاب الرحمة الربانية في التربية بالطريقة التجانية، مصر . (د.ت) و قد ذكر محقق ضالة الأديب، م.س، ص 12، هامش 5 أنه طبع في القاهرة في مطلع القرن العشرين.

2 - أحمد بن محمد بن العباس العلوي الشنقيطي، روض شمائل أهل الحقيقة، م.س، ص 22.

3 - سيدي عبيدة بن سيدي محمد الصغير بن انبوجة الشنقيطي التيشيتي، ميزاب الرحمة الربانية...، م.س، ص 2.

4 - هو نفس الكتاب الذي يحمل عنوان الجيش الكفيل بأخذ الثار.

و قدوته في التأليف، و بفضل همته أمكنه ترتيب خطة ميزاب الرحمة
الربانية¹.

بتفحص هذا الكتاب و الاطلاع عليه يتضح للقارئ أن صاحبه ركز فيه
على التعريف بالشيخ التجاني و تعاليم طريقته من أذكار و أوراد، و ما
يناله تاليها من الفضل و الثواب، و ما يتميز به من خصوصيات، و يمكن
أخذ فكرة عن محتوى هذا الكتاب من خلال البرنامج الذي سطره له
صاحبه، وهو كالآتي :

مقدمة تناول فيها ثلاث نقاط تتعلق كلها بالتعريف بالشيخ : سيرته،
أخلاقه، و أوراده، و خمسة أبواب.

الباب الأول : في فضل الأدب عند أهل الخبرة.

الباب الثاني : في كون هذه الطريقة طريقة شكر و نكر فضل الله
و بيان حقيقته.

الباب الثالث : في ذكر وضع طريقة الشكر السننية على كافة المقامات
الدينية و الإحسانية و الإيمانية.

الباب الرابع : في ذكر أطراف من النعم ترشد إلى تبصر الفكر ليكون
المريد على بينة من ربه في العجز على القيام بوظيفة الشكر².

1 - المصدر نفسه، ص 5.

2 - نفسه، ص 6.

الباب الخامس : في كيفية التربية بهذه الطريقة على ثلاث طرائق.
لقد حرر ابن انبوجة كتابه هذا الذي يقع في حوالي ثلاثمائة صفحة
بأسلوب عربي عز نظيره، معتمدا في توثيقه على الكتاب و السنة و جماعة
من الفقهاء و المحدثين و الصوفية، مع ملاحظة أن كل ما يتعلق بالطريقة
التجانية و تعاليمها، أذكارا و أورادا و أقوالا منسوبة للشيخ، اعتمد فيها
المؤلف على مصدري التجانية الأساسيين : جواهر المعاني و الجامع لما
افترق من درر العلوم.

4 - أحمد بن محمد بن العباس العلوي الشنجيطي¹.

تطرق هذا الفقيه في كتابه : روض شمائل أهل الحقيقة في التعريف
بأكابر الطريقة، كما يدل على ذلك عنوان الكتاب لتسليط الضوء على
رجال الطريقة أكثر من تعاليمها، و لم يترجم إلا لحوالي أربعين الأكثر
شهرة، و يستمد هذا الكتاب أهميته البالغة من كون صاحبه كان له سبق
في هذا النوع من التأليف في النصف الثاني من القرن 19²، مما يفسر كثرة
الإقبال عليه رغم أنه لا زال مخطوطا.

لقد وجد تجانيو شمال المغرب و جنوبه في هذا التأليف ضالته،

1 - سبق التعريف به و الإحالة عليه أكثر من مرة، خصوصا في المحور الخاص بالتأليف
الذابة عن الطريقة.

2 - ذكر المؤلف أن تاريخ السنة التي ألف فيها كتابه هذا (ص 27) هو عام 1284هـ.

لأنه يترجم لصفوة من أعلام الطريقة في المغرب و السودان الغربي، و قد اعتمده كل من ترجم للتجانيين في بداية القرن العشرين على الخصوص كأحمد اسكيرج، في كشف الحجاب و رفع النقاب، وكذا محمد الحجوجي في إتحاف أهل المراتب العرفانية.

و قد ذكر أحمد العلوي الشنجيطي في مقدمة كتابه هذا أن بعض إخوانه الصادقين طلبوا منه أن يؤلف كتابا يذكر له فيه أكابر أهل الطريقة المشهورين الواصلين، فأعرض مرارا عنه، ثم قبل في النهاية «و لما أردت إسعافه بمرغوبه قصدت خطابه بمطلوبه مستمدا من الشيخ التجاني رضي الله عنه في المعاني و مستندا على رسول الله صلي الله عليه و سلم في المباني¹...». يتكون هذا الكتاب الذي لازال مخطوطا، فيما نعلم، من حوالي ثمانية و عشرين صفحة من الحجم الكبير، مكتوب بخط عربي جميل وبأسلوب سلس. و لقد كان هذا الكتاب خير عون لنا كباحث، خصوصا بالنسبة لأعلام شنقيط و السودان الغربي.

قطبان تجانيان آخران بشمال المغرب، ممن اشتغلوا بالتأليف للتعريف بتعاليم الطريقة و رجالاتها خلال القرن 19، علاوة على محمد العربي بن السائح، هما الفقيه محمد أكنسوس، و الفقيه محمد كنون، و قد سبق أن تعرفنا على الأول من خلال كتابه الجواب المسكت، و تعرفنا على

1 - أحمد بن محمد بن العباس العلوي الشنجيطي، روض شمائل أهل الحقيقة، م، س، ص 1.

الثاني بواسطة مؤلفه الدر المنظوم في نصرة القطب المکتوم، و نعود لهما ثانية لكن مع كتب أخرى.

5 - محمد أكنسوس : الحل الزنجفورية :

كتابه الذي يهمننا هنا هو الذي يحمل عنوان المسائل الزنجفورية في الأجوبة الطيفورية¹. وقد تعرض المؤلف قبل بداية أجوبته لذكر السبب الذي دفعه إلى ذلك فأفاد أن الفقيه سيدي الحسن بن طيفور، لما طالع كتاب جواهر المعاني، في مناقب الشيخ التجاني استشكل له منه مسائل فكتب له يطلب الجواب عنها، لذلك يقول أكنسوس : «فكتبنا له هذه الفوائد التي عثرنا عليها من كلام ساداتنا أركان الملة رضي الله عنهم وعزونا كل مسألة إلى محلها ليراجعها من شاء²...»

في بداية نص الإجابة يشكر المؤلف مراسله على اهتمامه بهذا المجال و يحيي فيه روح البحث و التنقيب في هذا الميدان الذي أصبح شبه مجهول من قبل الجميع، فلا دليل لمن يطلبها و يريد التفقه فيها «بل لا

1 - هذا هو العنوان الذي يحمله مخطوط الخزانة العامة، رقم 2028/1 د. أما النسخة المطبوعة بدار الرشاد بالدار البيضاء (د.ت) فتحمل عنوان الحل الزنجفورية في أجوبة الأسئلة الطيفورية.

2 - محمد أكنسوس ، الحل الزنجفورية في أجوبة الأسئلة الطيفورية، م.س، مقدمة الكتاب المستقلة عن نص الأجوبة.

تجد إلا متعاصيا للحق مطاوعا للهوى متظاهرا بالوفاق و أنت بالعدوة الدنيا
و هو بالعدوة القصوى...»¹.

بعد ذلك صرح أكنسوس لمخاطبه، بأنه قبل ورود هذه الأسئلة عليه ،
كان يتمنى في قرارة نفسه أن يجد محاورا له و منادما على شراب الحقائق
وعطشه فلما وردت عليه هذه الأسئلة، فرح لها، و علم أن في هذا الشأن
بقية فوجد لذلك لذة ما بعدها لذة، كاد يطير لها من الطرب، و هي التي
استفزته لكتابة الجواب.

أما محتوى الأسئلة المطروحة عليه، فقد أشار مخاطبا صاحبه إلى
أنها ترجع في أصولها إلى ثلاثة :

- أسئلة تتعلق بحضرة الألوهية .

- أسئلة تتعلق بالحقيقة المحمدية.

- أسئلة تتعلق بغيرهما.

وقبل أن يدخل في صلب الموضوع ليجيب مسائله مباشرة، مهد
لذلك بمقدمة ضمنها عشرة تنبيهات امتدت على أربعة و عشرين صفحة من
مجموع صفحات الكتاب التي بلغت خمسة و تسعين نذكر منها على
الخصوص :

التنبيه الأول² : حذر فيه صاحبه من خطر إفشاء شيء من الحقائق

1 - نفس المصدر، ص 3.

2 - نفسه، ص 6.

و علوم الأسرار بالنسبة لمن أطلعه الله على شيء منها، مستدلاً في ذلك بأقوال محيي الدين ابن عربي في الفتوحات.

التنبيه الثالث¹ : أعلم أن علوم الحقائق أمور خفية المدارك بعيدة الغور كأنها ليست من هذا العالم الظاهر، يصعب فهمها بالعقل كما تفهم أمور الدنيا.

التنبيه الرابع² : قال العارفون، أبعد الناس من إدراك الحقائق أهل الظاهر أي غالبهم، ولذلك قال الشيخ زروق رضي الله عنه عظوهم ولا تخالطوهم فإن نفوسهم عالية عليهم.

التنبيه التاسع³ : أعلم أن العارفين رضي الله عنهم ليس لهم قدرة على التعبير عما يجدون من الأذواق في التوحيد وأوصاف الألوهية.

التنبيه العاشر⁴ : كل من قلد شيخاً ودخل في عهده وبيعته التي هي بيعة الله وعهده تجب عليه متابعتة في السر والجهر والأقوال والأفعال.

1 - نفس المصدر، ص 8.

2 - نفسه، ص 9.

3 - نفسه، ص 20.

4 - نفسه، ص 22.

أما الأجوبة في حد ذاتها، فقد قسم الفقيه أكنسوس مضامينها إلى ثلاثة مطالب، و كل مطلب قسمه إلى مباحث.

المطلب الأول تعرض فيه لموضوع الحضرة المقدسة و قسمه إلى ثلاثة مباحث، و عالج في المطلب الثاني ماهية الحقيقة المحمدية داخل مبحث واحد، أما أطول مطلب فهو المطلب الثالث و الأخير و الذي شرح من خلاله عبر تسعة مباحث كل القضايا و المفاهيم التي عجز سائله ابن طيفور عن فهمها، و فيما يلي أهم المفاهيم التي عمد أكنسوس إلى تبسيطها لسائله.

المبحث الأول¹ : هل الفرد الجامع هو القطب ؟

المبحث الثالث² : معنى قول الشيخ التجاني : الكائنات ليست بحادثة.

المبحث الرابع³ : معنى قول الشيخ التجاني : الأزل هو الذي فيه وجه الحق جل و علا وحده لا نسبة فيه لشيء سواه.

المبحث السادس⁴ : معنى قول الشيخ : الكافر لا يسبح و تسبح أعضاؤه من غير شعور.

1 - نفس المصدر، ص 65.

2 - نفسه، ص 69.

3 - نفسه، ص 69.

4 - نفسه، ص 71.

المبحث الثامن¹ : معنى العدم لا يفتقر إلى صانع.

المبحث العاشر² : جوهرة الكمال : هل حقاً من إملأ الرسول صلى

الله عليه و سلم، ثم مدى صحة كلمة الأسقم الواردة فيها.

و يلاحظ أن الهدف الذي يريد أكنسوس الوصول إليه من خلال تحليلاته و طروحاته في هذه الأجوبة هو إثبات الختمية و القطبانية للشيخ التجاني و تصدره لجميع الأولياء مما أهله لرؤية الرسول الذي شافهه يقظة و أملى عليه ورد طريقته التي أمره بتلقيها للخاص و العام من الناس، والهدف دائماً هو دعم الطريقة و ضمان انتشار تعاليمها على أوسع نطاق.

6 - محمد بن محمد بن عبد السلام كنون (ت1326 هـ):

ألف هذا الفقيه التجاني عدة كتب في الطريقة التجانية، منها ما خصه

1- نفس المصدر، ص 74 و ما بعدها.

2 - نفسه، ص 81 و ما بعدها، نعود مرة أخرى لكلمة الأسقم، فنقول بأنها وردت ضمن صلاة جوهرة الكمال التي قدمنا نصها سابقاً، و التي يرى التجانيون أن الرسول صلى الله عليه وسلم أملاها على شيخهم، و قد تعرض التجانيون لانتقادات كثيرة بخصوص صحة اشتقاق إسم التفضيل هذا من فعله الثلاثي «سقم». و يرد فقهاء التجانية على هذه الاعتراضات بأن هذه الكلمة نطق بها الرسول صلى الله عليه وسلم و لا تدخل لقواعد اللغة فيها. كما أوردوا في شأنها تأويلات و تفسيرات أخرى، و قد بسط القول في شأنها علاوة على أكنسوس في حله، فقهاء عدة مثل : أحمد سكيرج في الرحلة الوهرانية. م.س، و أحمد العلوي الشنجيطي في العضب اليماني، م.س، و محمد كنون في الدر المنظوم، م.س، و عمر بن قدور الجزائري م.س، و غير هؤلاء.

للدفاع عن الطريقة مثل كتاب «الدر المنظوم في نصرة القطب المکتوم» ، ومنها كتبه التي تدرج في محور التعريف بالطريقة و شرح تعاليمها مثل كتاب «النطق المفهوم في حل مشكلات الدر المنظوم» وكتاب « حل الاقفال لقراءة جوهرة الكمال» ، ثم مؤلف «رفع العتاب عن ترك الزيارة من الأصحاب» ، وهي الكتب التي سنعمل على التعريف بها وبمحتوياتها باختصار في التفريعات الآتية :

- النطق المفهوم في حل مشكلات الدر المنظوم¹ : يضم هذا الكتاب المؤلف سنة 1318/1900 عشرين صفحة من الحجم المتوسط ، مكتوب بخط جميل و أسلوب سلس ، تحدث عنه صاحبه في المقدمة ، فأفاد أن سبب تأليفه له يرد إلى خشيته من أن يستشكل القراء بعض ما ورد من مقالات في الدر المنظوم ،² خدمة لجناب الشيخ سيدي احمد التجاني وتشبثاً بأذنيه.

و يفهم مما ورد في هذا العمل أن الهدف الحقيقي الذي توخاه صاحبه من تأليفه هو إثبات أفضلية الشيخ سيدي احمد التجاني على جميع الشيوخ بمقام الختمية الذي وصل إليه ، و الذي تحدث عنه محيي الدين

1 - محمد بن محمد بن عبد السلام كنون ، النطق المفهوم في حل مشكلات الدر المنظوم ، مطبوع على الحجر ، رقم 6/2135 د ، الخزانة العامة الرباط من ص 318 إلى 337 ، ضمن مجموع.

2 - نفسه ، ص 1 ، و قد سبق تفصيل القول بشأن الدر المنظوم.

ابن عربي في الفتوحات المكية¹. و تدعيما لهذا الطرح أورد المؤلف ذلك الإعتقاد الذي تتناقله كل الكتب التجانية نقلا عن مؤلفي جواهر المعاني والجامع لما افترق من العلوم، و الذي يعقد مقارنة بين ختمية الرسول صلى الله عليه وسلم و ختمية الشيخ التجاني، فكما أن الرسول صلى الله عليه وسلم، يفيد الشيخ كنون، هو خاتم الأنبياء و المرسلين و ممد هم فسيدي احمد التجاني أيضا هو خاتم الأولياء و ممد هم والذي ينسب إليه (سيدي احمد التجاني) قوله : «منذ خلق الله الأرواح و الروح الشريف تمد أرواح الأنبياء و المرسلين و روعي تمد الأولياء و الصالحين»². و خدمة لنفس الغرض و هو رفعة مكانة هذا الشيخ على غيره، تعرض مؤلف النطق المفهوم لقولة الشيخ عبد القادر الجيلاني المشهورة : «**قدمي هذه على رقبة كل ولي لله**»³. و علق على هذا القول بأنه يهم زمان قائله، مضيفا أن الثلاثة التي اجتمعت في الشيخ الجيلاني و هي كثرة عبادته و علمه و شرفه اجتمعت كلها أيضا في الشيخ التجاني الذي زاد عليها رابعة و هو ما أورده غير واحد من أن صاحب مقام

1 - محمد أكنسوس ، الجواب المسكت...م.س، ص 24.

2 - محمد بن محمد بن عيد السلام كنون، النطق المفهوم في حل مشكلات الدر

المنظوم، م.س، ص 4.

3 - نفس المصدر، ص 19.

الختمية يكون في آخر الزمان¹، مبينا أن هذا يتماشى مع ما هو معروف، حسب الشيخ كنون، من أن الطرق كلها تتلاشى و تضمحل و لا يبقى إلا طريق الشيخ التجاني² قياسيا على ما أورده الشعراني في الميزان عن بعضهم أن المذاهب كلها تضمحل و لا يبقى إلا مذهب واحد، إما مذهب أبي حنيفة أو مذهب مالك³.

و خلاصة الخلاصات في عمل الشيخ كنون و الغاية من تأليفه له يجملها كلامه الذي يقول فيه: «و الحاصل أن ثبوت الختمية لسيدنا الشيخ رضي الله عنه بلغ عندنا معاشر التجانيين مبلغ التواتر المفيد للقطع و لا علينا في الغير⁴».

- حل الأقفال لقراء جوهرة الكمال⁵: ذكر مؤلفه أنه فرغ من إنجازه في شهر محرم عام 1305 / 1888، أي قبل تاريخ النطق المفهوم، و قد طبع على الحجر سنة 1320 / في حوالي 138 ص، علاوة على خمس

1 - نفس المصدر، ص 19.

2 - نفسه.

3 - نفسه، ص 20.

4 - نفسه، ص 8.

5 - محمد بن محمد بن عبد السلام كنون، حل الأقفال لقراءة جوهرة الكمال، مطبوع على

الحجر عام 1320، (في خزانة الباحث).

صفحات ضمت قول بعض المقرظين، هم : عبد الكريم بن العربي بنيس¹ ،
و الأديب إدريس بن علي المالكي البكري السناني² و الأديب علال بن
شقرون و أحمد بن الحاج العباسي.

يذكر المؤلف في مقدمة الكتاب أن الصلاة المسماة بجوهرة الكمال،
تلقاها الشيخ التجاني عن سيد الوجود، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم،
و لما لاحظ أنها في حاجة ماسة إلى شرح يحل ألفاظها و يوضح معانيها³ ،
ندب نفسه للقيام بهذه المهمة، مع اعترافه بأنه ليس أهلا لها «لأن التشبيه
بالمكارم رباح والتشبيث بأذيال النبي صلى الله عليه وسلم ثم بأذيال
القطب المكتوم فلاح⁴ ...»

و نظرا للمصدر المقدس لهذه الصلاة، يفيد الشيخ كنون، فإن من
داوم عليها سبع مرات عند النوم على طهارة كاملة و فراش طاهر يرى
النبي⁵ صلى الله عليه وسلم، و من فضائلها أيضا أن من قرأها سبعا

1 - نفس المصدر، ص 139.

2 - نفسه، ص 141.

3 - يمكن الإطلاع على شرح هذه الصلاة في الجزء II من جواهر المعاني و في الجزء I من
الجامع لما افترق من درر العلوم، كما سبقت الإشارة إلى ذلك. و قد يكون الفقيه كنون قد لجأ إلى هذا
الشرح قبل نشر كتاب جواهر المعاني

4 - محمد بن محمد بن عبد السلام كنون، حل الأقفال...، م.س، ص 2.

5 - نفسه، ص 3.

فأكثر حضره النبي صلى الله عليه وسلم في السابعة إلى أن يفرغ منها،
ومعه الخلفاء الأربع¹.

بعد هذه المقدمة التي ختمها بأربعة تنبيهات أخذت من الكتاب ثلاثة
عشرة صفحة، دخل في صلب الموضوع الذي هو شرح ألفاظ جوهرة
الكمال، وتوزع الشرح شكلا على النحو التالي من حيث الصفحات :

ص، 13 - 14	اللهم
29 - 14	صل وسلم
32 - 29	على عين الرحمة
34 - 29	الربانية
50 - 34	والياقوتة
54 - 50	المتحقة
73 - 54	الحائطة بمركز الفهوم والمعاني
81 - 73	صاحب الحق الرباني
83 - 81	و نورك اللامع الذي ملأت به كونك
	الحائط بأمكنة المكاني
	اللهم صل وسلم على عين الحق

1 - نفس المصدر، ص 5.

85 – 83	صاحب الحق الرباني
	البرق الأسطع بمزون الأرياح
98 – 97	المائلة لكل متعرض من
	البحرور والأواني
95 – 85	التي تتجلي منها عروش الحقائق
96 – 95	عين المعـارف
98 – 96	الأقـوم
103 – 98	صراطك التام الأسقم
108 – 103	اللهم صل و سلم على طلعة الحق بالحق
121 – 108	و الكنـز
125 – 121	الأعـظـم
126 – 125	إفاضتك منك إليـك
130 – 126	إحاطة النـور
131 – 130	المطلبـم
131 – 130	صلى الله عليه و على آله
ص 131 و ما بعدها	صلاة تعرفنا بها إياها

خاتمة هذا الكتاب تطرق فيها المؤلف لموضوع الختمية، وهو الموضوع الذي عالجـه أيضا في كتابه السابق، النطق المفهوم، و مرة

أخرى يلجأ إلى مقارنة ختمية الشيخ التجاني بختمية الرسول محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء والمرسلين ومدهم، وسيدي احمد التجاني خاتم الأولياء ومدهم، مضيفاً أن الختمية بالمعنى الأعم يشترك فيها أكابر الأقطاب حتى تختتم على الختم الأكبر، فلا مطمح فيها لمن بعده من غير أهل طريقته وأن الختمية بالمعنى الأخص خاصة بالخاتم الأكبر، لا مطمح فيها لمن بعده، وصاحبها هو سيدي احمد التجاني¹.

- رفع العتاب عن ترك الزيارة من الأصحاب²: عالج الفقيه كنون في هذا التأليف موضوعاً مطروحاً في كل من جواهر المعاني³ والجامع لما افترق⁴ ورماح حزب الرحيم على نحر حزب الرجيم⁵، وفي مراجع أخرى نقلت عن نفس المصادر. وعلى غرار ما ذهب إليه أسلافه فقد أورد أن الشيخ سيدي احمد التجاني منع أصحابه من زيارة الأولياء قصد تربيتهم

1 - استشهد المؤلف بالحديث الذي أورده ابن عربي ونصه: قال صلى الله عليه وسلم لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق بالمغرب..، وعلق ابن عربي على هذا الحديث بقوله: إنما كان بالمغرب لأنه محل الختم والكتم، أنظر: حل الأقفال...، م.س، ص 137.

2 - محمد بن محمد بن عبد السلام كنون، رفع العتاب عن ترك الزيارة من الأصحاب مطبوع على الحجر. (د،ت)، خزانة الباحث.

3 - علي حرازم برادة، م.س، ج I، ص 135 وما بعدها.

4 - محمد بن المشري، م.س، ج I، ص 61 وما بعدها.

5 - عمر بن سعيد الفوتي، م.س، ج ص 153.

وإرشادهم¹، مؤكداً في نفس الوقت أنه لم يمنع سوى زيارة الإستمداد والتبرك التي غالباً ما ترافقها الأغراض و المقاصد السيئة. ولم يمنع ما كان لله خالصاً، وقد سبق ابن تيمية سيدي احمد التجاني إلى منع زيارة الأولياء على عامة الناس لأنهم يجهلون آداب الزيارة. ومما يدل على أن سيدي احمد التجاني، حسب نفس المصدر لم يكن يقصد إهانة الأولياء ولا مقاطعتهم، الزيارات التي كان يقوم بها لبعضهم وحث أصحابه على احترامهم مطلقاً. ومن جهة أخرى يفيد فقيهننا بأنه يجب أن يعلم الجميع أن زيارة الأولياء في أصل الدين لا تخرج عن كونها فعلاً مندوباً وليس واجباً ولا مسنوناً.

III- مؤلفات في مدح الطريقة :

بهذا الصنف من المؤلفات نختم المبحث الخاص بمؤلفات الجيل الثاني

1 - تجدر الإشارة هنا إلى أن مسألة مشابهة فهمها غير التجانيين كما أسلفنا بشكل مخالف، جرت مشاكل كبيرة على الطريقة وفقهائها، ويتعلق الأمر بما نقل عن الشيخ التجاني قوله إن قراءة صلاة الفاتح لما أغلق تعدل 6000 ختمة من القرآن، وقد فسر فقهاء التجانية هذا القول على غير ظاهره، وذهبوا في ذلك إلا أن شيخهم سيدي احمد التجاني كان يرمي من وراء ذلك إلى إبعاد عامة الناس عن تلاوة القرآن لجهلهم بالآداب و المعرفة التي تمكنهم من قراءته قراءة صحيحة دون إساءة الأدب مع الله و الوقوع في المحذور .

انظر : - علي حرازم برادة، جواهر المعاني، م.س، ج I، ص 114.

- عمر بن قدور الجزائري، م.س، ص 249.

من رجالات الطريقة التجانية خلال القرن 19، مع التأكيد على استحالة الإحاطة بكل ما كتب في هذا الموضوع، ذلك أنه خلال القرن 19 ازداد عدد المنخرطين في الطريقة من كل شرائح المجتمع، داخل المغرب وخارجه فكثُر بذلك المحبون لجناح مؤسس الطريقة، و المادحون له، وكانت وسيلة التعبير عندهم في هذا المدح هي نظم القصائد في غالب الأحيان، منها الطويلة التي أتت في شكل كتب مستقلة، ومنها المتوسطة الطول والقصيرة، التي توجد متناثرة في هذا الكتاب أو ذاك من كتب الطريقة كما سنرى.

و سنعمل فيما يلي على إبراز أهم مظاهر هذا الإنتاج بشكل مختصر ومركز، مبتدئين بالمؤلف الذي خص كتابا مستقلا لهذا الغرض، ومولين إياه ما يستحق من الأهمية، ثم نمر فيما بعد إلى تقديم جدول توضيحي يجمع شتات أهم الأشعار التي قيلت في تمجيد الطريقة وشيخها.

1 - ديوان ترياق الفهوم :

أما المؤلف الذي وجدناه أكبر ثراء من حيث المضمون، في غرض المدح خلال القرن التاسع عشر، فهو الذي يحمل عنوان «ديوان ترياق الفهوم في شم رائحة مناقب القطب المكتوم»¹. مؤلف هذا الكتاب

1 - محمد بن السيد مختار التجاني الشنقيطي، ترياق الفهوم في شم رائحة مناقب القطب المكتوم، المطبعة الإسلامية بالأزهر، مصر 1354.

هو محمد بن المختار التجاني الشنقيطي¹، و تأتي أهمية هذا الكتاب من كونه يشتمل على ما يزيد عن مائة صفحة من الحجم المتوسط كلها إشادة و تمجيد بالطريقة و شيخها، سبعون من هذه الصفحات تضم قصائد من نظم محمد بن المختار التجاني، أما باقي الصفحات فتضم أشعاراً لتجانيين آخرين.

و أبرز قصائد محمد بن السيد المختار التجاني في هذا الكتاب تلك التي تمثل العناوين الآتية :

أ - كاسات التهاني لشرب حب سيدي احمد التجاني و التي مطلعها :

أنسمة ورد أم خزام تبديداً أم الروح من تلك المعاهد قد بدا
أم العارض الهطال لاح بطله على صفحات النور درا و عسجداً²

1 - توفي سنة 1299 بسودان وادي النيل، بعد أن قضى عمره في خدمة الطريقة التجانية في الحجاز و مصر و السودان التي دخل كثير من أهاليها في هذه الطريقة على يده نظراً للكرامات التي ظهرت عليه . و يذكر هذا الفقيه أن شيخه في الطريقة هو أحمد التجاني بن محمد بن إبراهيم الشنقيطي الذي انتفع بعلمه و ولايته في بلاده كثير من الخلق.

أنظر : محمد بن السيد المختار التجاني، غاية الأمان في مناقب و كرامات الشيخ سيدي احمد التجاني، دار العلم للجميع، (د.ت)، ص 104 و ما بعدها ثم ص 111. و هو مؤلف لنفس الشخص كما نلاحظ.

2 - محمد بن السيد المختار التجاني، ترياق الفهوم، م.س، ص 5.

ب - هذه رشفة محب من مآثر الختم فيضها روح روحانية باب
مدينة العلم :
وفي بدايتها يقول صاحبها :

و صلى الله مولانا دواما على المختار أحمد خير هاد
أرى مرآة وقتي بالرشاد تبدت للحضور و للبوادي¹

ج - أفضلية الشيخ التجاني و التي يقول مطلعها :

يقول راجي رحمة الغفار محمد بن السيد المختار
من آل شنقيط غريب الوطن المالكي الأشعري الحسني
معتصما بالمصطفى العدنان ولأذا بأحمد التجاني² .

و هو نفس الإحساس الذي عبر عنه في أبيات سابقة جاء فيها :

أرى السعد بالإقبال جاد به الوقت و سالمه ميمون حظ له ثبت

1 - نفس المصدر، ص 11.

2 - نفسه، ص 60 وما بعدها.

وقد جذبت أيدي العناية من يبيع لأحمدنا التجاني نفسا يرى سبت¹

و يلاحظ على مجموع هذه القصائد بشكل عام أن ناظمها غالبا ما يوطئ لمدح الشيخ التجاني و طريقته بالصلاة على الرسول صلى الله عليه و سلم، و ذكر محاسنه و سموه على كل المخلوقات من ذلك قوله :

وصل حبا و غنى بذكر سيد الوجود²

إلى أن يقول :

الحمد لله الذي قد شرفنا هذا الوجود بالنبى المصطفى
لولاه ما نار الوجود بالهدى صلى عليه أزلا و أبدا³

يضم هذا الكتاب كما سبقت الإشارة إلى ذلك، قصائد لتجانيين آخرين ارتأى المشرف على طبع كتاب ترياق الفهوم إدراج أشعارهما بهذا

1 - نفس المصدر، ص51.

2 - نفسه، ص 54.

3 - نفسه، ص60-61.

الكتاب، و يتعلق الأمر بالشيخ عبد الرحيم بن احمد بن حسن، ثم ابن بابا الشنقيطي صاحب منية المريد.

جاء إسهام الشيخ عبد الرحيم في مدح الشيخ التجاني، ثريا في هذا الملحق، إذ بلغ عدد قصائده عشرة كلها تغن بحب الرسول صلى الله عليه وسلم و شيخ الطريقة التجانية كما يتضح من مطلع هذه القصيدة :

يارب صل على محمد	طه الذي جاء بالبيان
يا أهل ودي بكم جنان	فيكم يتيه عن الجنان

إلى أن يقول :

يا نجل سالم المبررا	ياسيدي أحمد التجاني
يا ختم الأولياء طرا	يا مركز العز والحنان ¹

و يقول في قصيدة أخرى :

ياسيدي يا أبا العباس يا ثقتي	يا عدتي أنت موئلي و معتمدي
------------------------------	----------------------------

1 - نفس المصدر، ص 71.

يا أمان الخائف اللاجئ و موئله و مأمل المرتجى في القبل و البعد

إلى أن يقول :

و شيخنا اجعله عينا منك دائمة على المريدين بالأرواح و المدد
و اشم بفضلك أهل الورد قاطبة و ادراً بصولك أهل الزيغ والحسد¹

أما اسهام ابن بابا الشنقيطي في هذا الملحق، فهو أقل أهمية من
حيث الكم.

و من مدحه مخاطبا الشيخ التجاني في نفس الكتاب :

غناكم غنى للكل و الكل أنتم و والله ما في الكون إلا غناكم
عطاكم على قدر الأواني و لو أتى جميع الوجود لاكتفى من عطاكم
كساكم رسول الله إرثا و كم و كم و لي تمنى ما به قد كساكم²

باقي إنتاج شعر المديح في الطريقة و شيخها بشكل عام، صنفناه
وفق المحاور الآتية :

1 - نفس المصدر، ص 97.

2 - نفسه، ص 98.

2 - أشعار في مدح الشيخ و الطريقة :

نظرا لتعدد المادحين، و كثرة القصائد في هذا الغرض، فضلنا الإستعانة بجداول لإعطاء فكرة عن مضمون هذه الأشعار

المادحون	أبيات مختارة من أشعارهم	المصدر	ملاحظات و تعقيبات
1- محمد أكنسوس	و راجع أركان الجلالة أحمد أولئك في أوج المعالي هم الزهر بهم نصر الإسلام وازدان وازدهى ولازمهم في ظلهم ذلك النصر بهم نشر الله العلوم فأصبحت و قد طاب منها بعد طيبتها النشر	الجواب المسكت ص 4. كشف الحجاب ص 32.	
2- محمد العربي بن السائح.	واصل شراب خليفة الأمجاد ¹ واترك مقال أخي هوى وعناد صفراء تسطع في الكؤوس كأنها ² شمس تبدت في ذرى الأوطاد.	كشف الحجاب ص 314-315 316.	

1 - يقصد الشيخ سيدي احمد التجاني.

2 - يقصد الطريقة التجانية.

3- إبراهيم الرياحي.	مدد مدهم به الشيخ جودا إن جود التجاني في الكون هام كيف لا والإمام أحمد قطب ماله في المقام قطب مسام خاتم خصه الله بفضل و عطايا من المزايا عظام ¹	عمر الرياحي تعطير النواحي بترجمة الشيخ إبراهيم الرياحي ج I ص 30 ثم ص 62-63.
4- محمد قباذو الشريف التونسي.	أحمد سراك بليل شك عسعا أو ما ترى صبح اليقين تنفسا هذي المعالم من حمى فاس بدت كادت تطير من الجسوم الأنفسا أو ما علمت بأنه قد حلها ختم الولاية وابتغاهما مرمسا	كشف الحجاب ص 531.
5- الطالب اللبار.	شفاعة المصطفى دأبا تلازمه نعم تحصله من كل تشداد ==	- كشف الحجاب ص 348. يعتبر من فحول شعراء

1 - هذه الأبيات المنسوبة للرياحي التونسي نقلها كل من :

- احمد سكيرج، كشف الحجاب، م.س، ص 90-140، 145.

- محمد الحجوجي الحسني، م.س، ص 113.

الطريقة، وهذه الآبيات مختارة من قصيدة امتدت على ست صفحات.	- رفع النقاب ج 2 ص 183 و ما بعدها ثم ص 186.	عمت ضمانته أهيل خلته و ما اعتري منه منتمي بإبعاد هو التجاني المحمدي منقذنا من الردى المزدري بكل نقاد	
من قصيدة استغاث فيها بالشيخ، وهو في السجن.	كشف الحجاب ص 511.	يا صاح إن عظم البلا فانهض إلى باب الإله الواحد المنان و تشفعن بالمصطفى بحر الوفا سر الوجود و معدن العرفان و بقطب دائرة الولاية كلها شيخ المشايخ أحمد التجاني	6 عبد السلام الزموري.
	كشف الحجاب ص 324.	هي مثلي أتى بها نجل طه أحمد الخاتم شامخ الأفضال ¹ التجاني خاتم الأولياء المك توم شمس شعاعها متوالي عن نبي الهدى مباشرة دون شيوخ و مسند الأقوال.	7- عبد الكريم بنيس

1- المقصود بها، الطريقة التجانية.

8- سيدي عبيدة بن انبوجة الشنقيطي.	تنبه لأمداد يشاهد ربها عيانا محيا سيد الكون إذ تجلى له البيضة المرباة بالآلاف حسبه بخمسة آلاف و أفراخه الأعلى	- ميزاب الرحمة الربانية ص 41 و ما بعدها.	
9- سيدي محمد ابن سيدنا المعروف بحسان الطريقة.	حي دار لدى أبي سمغون واسقها من مصون ماء الشؤون قف بتلك الديار وابك و عفر بينها الخد قبل ريب المنون	- كشف الحجاب ص 465. رفع النقاب ج II ص 176.	من قصيدة طويلة.
10- محمد بن خليفة المدني ¹ .	عطفا يا بن محمد يا قودتي سل لي الإله العفو إن أجزاني كن للعبيد ايا بن مختار فمن دهش لقد أصبحت كالسكران	- كشف الحجاب ص 447. - رفع النقاب ج 4 ص 185.	القصيدة في رفع النقاب تبدأ من ص 168.
11 - احمد بن عاشور	يا ربنا بأحمد التجاني قنا الردى واعف بلا خسران	كشف الحجاب ص 384. =	من قصيدة طويلة.

1- تحدث عن هذا الفقيه التجاني و شعره صاحب دليل مؤرخ المغرب الأقصى، فذكر أنه مدح الشيخ التجاني في قصيدة من سبعمئة بيت ضمن كتاب تحت عنوان بشارة الجاني و مزيلة ترح العاني في مدح القطب الرباني، سيدنا و مولانا احمد التجاني ، انظر :
عبد السلام بن عبد القادر بن سودة، دليل مؤرخ المغرب الأقصى، ج II، ص 379.

		وأنصر عصابة الهدى على العدا و نجنا من كل من قد اعتدى.	= السمغوني.
	رفع النقاب ج 4 ص 46.	إذا ما جئت فاسا عن قريب فدونك باب احمد التجاني عليه عامل ثبت و نور زهى زاهد قطب الزمان.	12- عبد القادر ابن محمد السلوي ¹ .
من قصيدة طويلة.	نفس المصدر ص 89.	عمت مناقبه البلاد جميعا ² وسرت مسير الشمس في الأبراج من لي به يرضى بحبي شافعا فيمد مني الروح بالإسراج.	13- الفقيه احمد بن قاسم جسوس الرباطي.
	نفس المصدر ج II ص 250.	وفي غيب غيب كان قطبا معظما و خصصه المولى بختم ولايته و حل محل الصدق منه بصدقه و أطلعه عن سر كل بريته.	14- احمد السفياني

1 - ترجم له صاحب كشف الحجاب في ص 501.

2 - الحديث عن الشيخ سيدي احمد التجاني.

15- محمد بن عبد الوهاب ابن حمدوش المكناسي.	حديث أحباب قلبي فيه إيناسي بذكرهم أرتجي تطهير أدناسي عن غيرهم لا زال ذاهلا ناسي صاح اركب العزم و لا تخذل إلى اليأس واصحب أخوا العزم ذا جد إلى فاس... ¹	رفع النقاب ج 3، ص 135.	خمس محمد المكناسي بيتي الرياحي الشعريين.
16- الغالي السنتيسي المكناسي.	له أرجوزة جامعة لشروط الطريق التجانية	نفس المصدر ج 3، ص 297 وما بعدها	تمتد على حوالي سبع صفحات.
17- ابن الفضيل الارباوي ²	إن حب التجاني ينعش قلبي كيف لا وهو يانع غصن غرسه فاعذروني فلست أعدل عنه كل يوم حبي له فوق أمسه.	المصدر نفسه ج 4 ص 260.	

1- البيتان المنسوبان للرياحي يوجدان في :

- تعطير النواحي، م.س، ج I ص 62.

- كشف الحجاب، م.س، ص 138.

2 - من أربى من عماله جريفي، أنظر رفع النقاب، ج 4، ص 259.

18- عمر بن غنيج الجعالي.	أكرم بشيخي التجاني فهو أكرمه بقربه فارتقى على المعاريح إن التجاني وحق الله إن له سرا سرى في ذوي الهدى بتدريج.	نفس المصدر ص 167166.
--------------------------	---	----------------------

3- أشعار في مدح الزاوية التجانية الفاسية :

شكلت هذه المعلمة الروحية مصدر إلهام بالنسبة لكثير من التجانيين نظرا لخصائصها الفنية المعمارية و لاحتضانها لجثمان مؤسسها، و لكثرة الأذكار و الأوراد التي تتلى بها، إضافة إلى ما شكله من مصدر إشعاع ديني و روعي غطى كل أنحاء المغرب العربي و إفريقيا جنوب الصحراء، و كثيرا من بلدان العالم الإسلامي.

و نقدم فيما يلي جدولا يعكس أهم الأسماء التي كانت لها إسهامات في التغني بهذه الزاوية.

المادحون	أبيات مختارة من أشعارهم	المصدر	ملاحظات و تعقيبات
1- محمد العربي بن	أتيت إلى بآبكم فزعا و ليس لغيركم من فزع	كشف الحجاب ص 34 ثم ص	==

== السائح.	فمنوا بدفع الذي اشتكى ليسكن قلبي من ذا الجزع فأنتم أنتم أهل الوفا وحاشا لديكم يخيب الطمع	318 على الخصوص.	
2- محمد كنون	يا زائرا لحمى ذا الشيخ مبتهلا بشراك بشراك نلت ما ترجاه نور الهداية من فاضت معارفه فالعارفون استقوا من بحر معناه	نفس المصدر ص 33.	
3- أحمد الوداني الشنقيطي.	باب السعادة و الأمان و الظفر لداخلية جميع السؤل و الوطر وحاج من حج ذا المقام قد قضيت و صب فيه عليه الخير كالمطر	نفس المصدر ص 31.	
4- عبد الكريم بنيس ¹ .	هذا مزار الختم المفضال بحر المكارم شامخ الإجلال زر قبره متأدبا و اسأل به. مولاك نيل المبتغى في الحال	نفس المصدر ص 48.	

1- كان حيا سنة 1324 هـ، انظر كشف الحجاب م.س، ص 48.

5- محمد الغالي المكناسي السنتيسي.	هذا المزار فخذ للقلب مثواه وابشر بنيلك ما ترجو وتهواه وابسط يمينك و الأخرى قبالة من مقامه منزل المختار مأواه.	نفس المصدر ص 45.
6- الفقيه علال بن شقرون	مقام الخير مفتاح الفلاح وباب الرشيد ينبوع الصلاح مقام الخاتم المولى التجاني أبو العباس ذو الشريف الصراح	كشف الحجاب ص 35.
7- الأديب الفاطمي الصقلي ¹	زر ذا الضريح و صلّ في محرابه فقبول أعمال الوري أخرى به و اذكر به مولاك و اتل كتابه و اعمل بما قد نص في أعرابه.	نفس المصدر ص 31.
8- الأديب محمد غيلان الوزاني.	هذي مطالع أنوار السعادات أم ذي حدائق أزهار الكمالات أم ذي مرابع قوم لاح فضلهم شرقا و غربا على كل البريات.	نفس المصدر ص 28.

1- كان حيا سنة 1302 هـ، انظر كشف الحجاب. م.س، ص 31.

9- الطالب اللبار.	هذا ضريح كريم يشرق في القلب شمسا أساسه مستقيم في السعد ما شام نحسا	نفس المصدر ص 25.
10- أحمد السفياني.	بشرى لمن أم في المحراب بشراه إن كان محتسبا لله بشراه أقام وجهته لله خالصة وكان في سره ما يرتضي الله	نفس المصدر ص 32.

4 - أشعار في مدح أبناء الشيخ سيدي أحمد التجاني :

نتعرض لبعضها في الجدول الآتي، مع الإشارة إلى أن الشيخ التجاني لم يترك من الأبناء سوى ولدين، سيدي محمد الكبير، وأخيه سيدي محمد الحبيب¹.

1 - أحمد سكيرج، كشف الحجاب، م.س، ص 55.

المادحون	أبيات مختارة من أشعارهم	المصدر	ملاحظات و تعقيبات
1-ابن بابا الشنقيطي.	وترك الشيخ من الأولاد من بعده لرحمة العباد نجلين منهلين للوراد كلاهما كالكوكب الوقاد	منية المريد ص 6-7.	
2- الطالب اللبار	محمد ¹ منية القلب الحبيب لنا بحبه الفخر فيمن ساد وافتخر مخلف القطب و الغوث الذي انفردت علياه في الدهر و اعتلا على الكبرا.	كشف الحجاب ص 61.	من قصيدة طويلة تبتدئ في ص 58 وتنتهي في ص 63.
3- إبراهيم الرياحي.	يهنيك ياذا الطرس كف محمد ² و كفاك لثم الترب من أقدامه فإذا شملت النسك من إقباله و نما سرورك حين كشف لثامه فقل السلام عليك يا بن المصطفى يا بن الختام الغوث في أيامه.	- تعطير النواحي ج I، ص 35. - كشف الحجاب ص 65.	

1- يتعلق الأمر سيدي محمد الحبيب نجل سيدي احمد التجاني.

2 - المقصود سيدي محمد الكبير نجل سيدي احمد التجاني.

4- إدريس ابن علي السناني المعروف بالحنش.	بباكم يا محل الفضل و الفخر ينال أقصاه مبتغى الوطر إني تشفعت بالحبيب نجلكم ¹ فإنه لمنالي منكم وزري	كشف الحجاب ص 66.
5- ابن باب الشنقيطي	يا نجل خير نبي جاء مرتسلا ² و نجل خير ولي جاء منكما لا تسلمي لما أتت يدي بطرا من ترك واجب أو من فعل ما حرما	نفس المصدر ص 64.

5 - في مدح الشيخ علي حرازم برادة و كتابه جواهر

المعاني :

هذا الكتاب و مؤلفه غنيان عن التعريف، و قد أفردنا لهما ما يكفي من التحاليل و تسليط الأضواء في فصل سابق، نظرا لمكانة علي حرازم برادة عند مؤسس الطريقة، مما أهله لجمع محتويات هذا الكتاب الذي يضم في ثناياه السيرة الذاتية للشيخ التجاني و تعاليم طريقته، علاوة على

1 - سيدي محمد الحبيب.

2 - المخاطب هو سيدي محمد الحبيب.

قدسية بعض مضامينه¹. و منذ ذلك الوقت و إلى يومنا هذا، شكل هذا المؤلف، (إلى جانب الجامع لما افترق من درر العلوم لابن المشري)، و لا زال وثيقة ثمينة، و مصدرا ثريا لتأليف عدد لا يحصى من المراجع في مختلف الأغراض خدمة للطريقة. و هذا ما ساهم في التعريف بهذا الكتاب على أوسع نطاق داخل المغرب و خارجه، و جعل البعض يتغنى به وبصاحبه، كما يتبين ذلك من النماذج الآتية :

من بين الذين استحسنوا جواهر المعاني و حثوا على قراءته و العمل بما ورد فيه، ابن بابا الشنقيطي العلوي الذي يقول في منيته:

ثم إلى فاس مدينة الفخر ظعن في عام ثلاثة عشر
و بعد ذا بنحو شهرين أمر تلميذه الرضا عليا الأبر
بجمعه جواهر المعاني عن إذن سيد بني عدنان
و من يطالعه بإنصاف يرى أن خلال الشيخ ليست في الوري²

و قال مادح آخر هو الطاهر السوسي التمرتي اليفرنى :

1 - نذكر مرة أخرى بما يعتقدّه التجانيون بخصوص هذا الكتاب، من أن الرسول صلى الله عليه و سلم قال لسيدى احمد التجاني في شأنه «كتابي هو وأنا الفتة» و يضيفون أن شيخهم لم يأمر بتأليفه إلا بعد أن أمره الرسول بذلك، أنظر : كشف الحجاب، م.س، ص 71.

2 - ابن بابا الشنقيطي العلوي، منية المريد، م.س، ص 6.

- أحمد السكيرج، رفع الحجاب، م.س، ص 71.

أصاح إذا رمت المفاز فبادر لفهم الذي يملئ كتاب الجواهر
كتاب بدا في طالع السعود نوره فأرشد أرباب النهي و البصائر¹

أما الشيخ إبراهيم الرياحي الذي أخذ الطريقة عن علي حرازم برادة
عندما مر هذا الأخير بتونس في طريقه إلى الحجاز، فقد ذكر أنه عندما
اشتد به وجده، و لم يطق إخفاء شوقه إليه، أنشد قائلاً في حقه :

كرم الزمان و لم يكن بكريم و صفا فكان على الصفاء نديمي
و أفاض من نعم علي سوابغا لله يشكرها فمي و صميمي
عظمت على الشعر البليغ و ربما عجز الثناء عن الوفا بعظيم
و أجلها نظري إلى ابن حرازم و تمتعي من وجهه بنعيم²

و قبل أن يشرع إبراهيم الرياحي في ذكر أبيات هذه القصيدة
الطويلة، مهد لها بما يدل على مدى الإحترام الذي يكنه لشيخه علي حرازم
برادة فحلاه بالشيخ العالم الهمام رأس العارفين بلا نزاع و قطب
الواصلين بلا دفاع³.

1 - أحمد اسكيرج، رفع النقاب، م.س، ج I ص 160..

- أحمد اسكيرج، كشف الحجاب، ص 74.

2 - نفسه، ص 90. =

هذه إذن بشكل موجز هي أهم المحاور الأربعة التي تطرقت لمدح الطريقة التجانية و تعاليمها ومؤسستها وأبرز شيوخها من خلال الأشعار التي تضمنها كل محور.

إن غزارة الإنتاج الفكري التجاني طيلة القرن 19 و مطلع القرن 20، مع شساعة موضوع بحثنا، تفرض علينا إقصاء الكثير من المعطيات في هذا الإنتاج ، للضرورة المنهجية، مع صرف جهدنا إلى الإهتمام بالمهم والأهم.

و إذا كان المبحثان السابقان من هذا الفصل قد تطرقا إلى مؤلفات الجيل الأول المعاصر للشيخ المؤسس، و الجيل الثاني بعد وفاة الشيخ إلى نهاية القرن 19، فإن الفصل التالي سنتعرض فيه للتعريف بأهم مؤلفات الجيل الثالث خلال النصف الأول من القرن 20.

= 3 - عمر الرياحي، تعطير النواحي، م.س ج I، ص 11-12

الفصل الثالث

مؤلفات الجيل الثالث
خلال النصف الأول من القرن العشرين

الفصل الثالث

مؤلفات الجيل الثالث خلال النصف الأول

من القرن العشرين

رغم أن موضوع بحثنا في إطاره الزمني لا يتعدى نهاية القرن التاسع عشر، فإن أهمية المعلومات المتوفرة فرضت علينا القيام بمجرد لأهم مظاهر الإنتاج الفكري التجاني خلال النصف الأول من القرن العشرين، وهو الإنتاج الذي ازداد أهمية في عهد الجيل الثالث، مع تزايد أنصار الطريقة و أعدائها من جهة، و مع تعدد المطابع كما و كيفاً بالمغرب خلال نفس الفترة.

أما أغراض هذا الإنتاج فلم تتغير بشكل عام، فانفتاح النخبة المغربية المثقفة على المشرق العربي و نهضته، و احتكاك المغرب بأوروبا بالرغم منه، و اطلاع أهل الحل و العقد فيه على ما وصل إليه النصرارى من تقدم في مختلف المجالات العلمية، جعل الكثير من المفكرين، فقهاء و مثقفين متأثرين بالفكر الغربي، من المغرب، و من خارجه، يعمدون إلى الإبتعاد عن تمجيد الذات و محاولة البحث عن مواطن العطب و الخلل فيها، في أفق العثور على مخرج يمكنهم من استعادة الحصانة المفقودة. و يجنبهم استعمار الأمم المسيحية لبلدانهم المريضة.

و مما لا شك فيه أن النخبة المفكرة حملت قسماً مهماً من مسؤولية

الإنحطاط و الظلامية للمتصوفة بشكل عام، و التجانية بشكل خاص، مما جعلها تتعرض من جديد لسيل من الإنتقادات خلال النصف الأول من القرن العشرين، و هي الإنتقادات التي تصدى لها ثلة من ألمع التجانيين من المغرب و خارجه، مع ملاحظة أن جوهر الإنتقادات، ظل هو هو، و المتجلي في تكفير الشيخ التجاني و تكذيب ما ادعاه، في نظر منتقديه، من مشافهة الرسول يقظة، و أخذه أذكار و أوراد طريقته منه صلى الله عليه و سلم و دخول أصحابه الجنة، تبعاً لذلك بدون حساب، كما كفروه أيضاً بسبب ما نسب إليه من قول بأفضلية صلاة الفاتح على القرآن، و نسبة الكتمان للرسول صلى الله عليه و سلم، و تصدره لكل الشيوخ قبل زمانه و بعده. و كل ذلك بفضل مرتبة القطبية و الختمية التي رأى فيها خصوم الطريقة خروجاً عن الدين الإسلامي و السنة النبوية.

و في الوقت نفسه زاد الإنتاج غزارة في الأغراض الأخرى، فظهرت مؤلفات في نشر تعاليم التجانية و التعريف برجالاتها، و في فقه الطريقة و بيان شروط و أحكام و أرادها، و أخرى في مدح الطريقة. و نظراً للطابع الإستثنائي لهذا المحور ، الذي رمينا من ورائه إلى إطلاع القارئ على جزء من سيرورة هذا الفكر خلال هذا القرن حتى تكتمل لديه الصورة، فإن مضامينها سيميزها الإقتضاب.

I - مؤلفات منافحة عن الطريقة :

في البداية لابد من الإشارة إلى تنوع جنسيات أصحاب الردود على خصوم التجانية وإن كان قاسمهم المشترك هو العلم العربي، أما مؤلفاتهم، فإما أنها كانت تخاطب أشخاصا معينين أو تتوجه للمنتقدين بشكل عام وإذا كان لنا من نظرة فاحصة لهذه المؤلفات من حيث تميزها وإصدار حكم عن خصوصيتها، فإننا لن نتردد في القول بأن الجنوح للواقعية هو الذي طبعها، خصوصا ما يتعلق بإنتاج الفقهاء أحمد اسكيرج في هذا المحور و محمد النظيفي في محور آخر. ويمكن تقسيم مؤلفات الدفاع عن الطريقة التجانية لهذا الجيل إلى قسمين أساسيين : مؤلفات الرد على أشخاص معينين و مؤلفات الرد بشكل عام.

1- مؤلفات الرد على أشخاص معينين خلال النصف الأول من القرن 20.

ظهر خصم لدوز للطريقة التجانية من أصل مغربي شنقيطي، سار على درب إديجة هو الشيخ محمد الخضر بن عبد الله بن مايابى الجكني الشنقيطي. ذكر عن نفسه في أول صفحة للكتاب¹ الذي أنجزه لنسف

1- محمد الخضر بن سيدي عبد الله بن مايابى الجكني الشنقيطي، مشتهى الخارف الجاني =

أسس الطريقة أنه مفتي المالكية بالمدينة المنورة، واشتهر هذا المؤلف بلقب ابن مايابى.

وقد توخى من كتابه الذي بلغ ما يقرب من أربعمئة صفحة من الحجم الكبير إثبات لا سنية هذه الطريقة وشد انتباه الخاص و العام إلى ما سماه بزلاقات التجاني، موثقاً كلامه بكل ما يلزم من آيات قرآنية وأحاديث نبوية، مؤسساً لذلك بقوله تعالى: ¹ ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ² مِنْ رَبِّكَ﴾ ثم قوله عز وجل ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾³ ثم قوله تعالى: ⁴ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ⁵﴾. ويمكن خطر هذا الكتاب على التجانية في كون صاحبه وجد من يساند مشروعه مادياً ومعنوياً من أطراف مصرية، فالشيخ محمد دلموك نفق على طبعه، و شيوخ من الأزهر مثل الشيخ بخيت و الشيخ محمد حسنين

= في رد زلاقات التجاني الجاني، مطبعة دار الكتاب العربية المصرية (د.ت) مع الإشارة إلى أن مؤلفه ذكر في نهاية الكتاب (ص394) أنه انتهى من تبييضه يوم الإثنين 21 محرم 1344هـ [1925م].

1 - نفس المصدر ، ص 13.

2 - سورة المائدة، الآية: 67.

3 - محمد الخضر بن سيدي عبد الله بن مايابى الجكني الشنقيطي، م.س ، ص 30.

4 - المصدر نفسه، ص 5-6.

5 - سورة البقرة، الآية: 159.

حسن مخلوف والشيخ الزنكلوني ساندوه معنويا¹. تصدى للرد على ابن مايابي، من المغرب كل من أحمد سكيرج، صاحب المؤلفات الكثيرة في الطريقة، والسلطان مولاي عبد الحفيظ. ونبدا بمؤلف سكيرج في الموضوع، و يحمل عنوان «السر الرباني»² في رد ترهات ابن مايابي العاني». و مما جاء في هذا الكتاب على لسان مؤلفه أنه حبيب للكثير ممن يدعون العلم ويخوضون فيه التسارع إلى التضليل والتكفير على حسب داعيتهم، فمنهم من ضلل الخلفاء الأربعة و تابعيهم وسب الأئمة، و منهم من كفر الأشعري و فسق الجنيد. و في طالعة هؤلاء القوم المنتقدين على الصوفية السالكين أقوم سبيل بين الهادين والمهتدين أفسق الفساق³. «و يأبى الله إلا أن يكون ابن مايابي الشنجيطي وراء المنكرين على القطب سيدنا و مولانا التجاني رضي الله عنه، يولول ويشدخ رأسه و يلطم خده ينادي بالويل والثبور⁴...»، مثله في ذلك،

1 - حسين حسن الطماوي، المورد الرحماني في رد حصول الاماني، طبع على نفقة عبد الكريم العطار، ناشر لواء الطريقة التجانية في جميع الانحاء (د.ت)، و لا مكان، ص 2.

2 - أحمد سكيرج، السر الرباني في رد ترهات بن مايابي العاني التي تبجح بها في تأليفه مشتهى الخارف الجاني، في جزئين، مطبعة العرفان الدار البيضاء، الجزء الاول 1356 و الجزء الثاني سنة 1357.

3 - المقصود ابن مايابي.

4 - أحمد سكيرج، السر الرباني في رد ترهات ابن مايابي العاني ...، م، س، ج I، ص 5.

حسب رأي المؤلف مثل سابقه و ابن إقليمه إديجة.
و قبل أن يعمد الفقيه أحمد سكيرج إلى الرد على ابن مايابي بالحجة والدليل ، مفندا أقواله ، و داحضا أطروحته ، صب عليه جام غضبه ، فعلاوة على ما سبق نقرأ له من ضمن ما سطر :

- «استطال بلسانه على أهل الحق واعتاد بوقاحته سب الخلق¹» .
- «و هو في بضاعته المزجاة فارغ المزايدة إذا طلبت منه الزيادة²» .

- «فهو جاهل مجرى، و هو في الحقيقة الجاحد المفترى أقبح من فرعون في الرستدلال على باطله في تجهيل كليم الله موسى عليه السلام³» .

ثم أفاد المؤلف أنه طالع كتاب ابن مايابي ، فلم يسمع منه إلا جعجة ولم ير طحيئا⁴ . وأنه مع عدم إدائه العلم ، فقد صمم على تشريح أقوال هذا المنتقد ووضعها على بساط التعديل و التجريح ، ليتسنى له إطلاع من لا يعلم على ترهاته ، و يجعله يقتنع بأن ابن مايابي هو الخارف الجاني ،

1 - نفس المصدر ، ص 6.

2- نفسه .

3- نفسه ، ص 7-8.

4 - نفسه ، ص 9.

ومشتهاه نفث سحر شيطاني،¹ و نقدم فيما يلي أبرز القضايا التي رد فيها أحمد سكيرج على خصمه، في الجزء الأول من السر الرباني :

– إكمال الشريعة الغراء تم بعد وفاة الرسول صلى الله عليه و سلم وليس بعد حجة الوداع.²

– إمكانية رؤية المتصوفة للرسول صلى الله عليه و سلم، و مكالمته و الأخذ عنه مناما.³

– مسألة أخذ التجاني عن الرسول صلى الله عليه و سلم يقظة و لسي مناما، و ما ترتب عن ذلك من نسبة الكتم⁴ للرسول صلى الله عليه وسلم (في نظر خصوم أحمد التجاني).

– أحمد التجاني بريء الذمة لتصريحه أكثر من مرة : إذا سمعتم عني شيئاً فزنوه بميزان الشرع، فما وافق فخذوه و ما خالف فاتركوه.⁵

– تعقيب سكيرج على قول ابن مایابی أنه ألف كتابه للذب عن جانب النبي⁶ صلى الله عليه و سلم.

1 – نفس المصدر، ص 12.

2 – نفسه، ص 16-17.

3 – نفسه، ص 18-19.

4 – نفسه، ص 20-21.

5 – نفسه، ص 23-24.

6 – نفسه، ص 27.

- تعقيبه على تسمية الكتاب، مشتهى الخارف الجاني في رد زلقات التجاني¹.

- تعقيبه على قول ابن مايابى أن دعوى الولاية للنفس أو للغير من أعظم موجبات سوء الخاتمة².

- رده على قول خصمه بأن الذب عن السنة الغراء وإخماد نار أهل البدع، أجره من أعظم الأجور³. ثم تصدى بعد ذلك إلى تفنيد تأويل ابن مايابى لبعض الأحاديث، و من بينها :

- عن ابن عباس (ر)، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال ما ظهر أهل بدعة إلا أظهر الله فيهم حجة على لسان من شاء من خلقه⁴.

- عن أسامة ابن زيد (ر) عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال: "يحمل هذا من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغانين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين"⁵.

وفي الجزء الثاني من السر الرباني، واصل أحمد سكيرج محاورته

1 - نفس المصدر ، ص 28-29.

2 - نفسه، ص 33.

3 - نفسه، ص 35.

4 - نفسه، ص 39.

5 - نفسه، ص 43.

لمؤلف مشتهى الخارف الجاني ، مركزا فيه بالأساس على رفض ما ألصق بالشيخ التجاني من نسبة الكتم للرسول صلى الله عليه و سلم، بخصوص الأوراد التي تلقاها عنه صلى الله عليه و سلم، و التي لم يسبق لأحد من الصحابة أن سمعها منه صلى الله عليه و سلم. و قد فصل الفقيه سكيرج القول في هذا الموضوع الذي أخذ منه كل صفحات الكتاب تقريبا التي تعدت الخمسين¹.

الشخصية الثانية من (المغاربة) التي دافعت عن الطريقة التجانية ضد مؤلف الخارف الجاني، هو السلطان المولى عبد الحفيظ الذي عادى في بادئ أمره الصوفية عندما كان في الحكم. و يرد أحمد اسكيرج سبب هذه العداوة إلى ابن مايابى نفسه الذي بذل كل ما في وسعه للإلتقاء بالسلطان فتحقق له ذلك،² و كانت فرصة مواتية له لاطلاع مولاي عبد الحفيظ على تأليفه الذي يكفر فيه الشيخ التجاني، و إقناعه بضرورة العمل على محاربة التصوف عامة و التجانية خاصة. و بما أن المولى عبد الحفيظ كان تجانيا فإن أول شيء قام به هو انقطاعه عن الطريقة ليسلط غضبه بعد ذلك على كل الطرق الصوفية.

و من مظاهر محاربته لها تأليفه لكتاب «كشف النقاب عن اعتقاد

1 - نفس المصدر، ج II.

2 - نفسه، ج I، ص 10.

طوائف الإبتداع»¹، ثم ما لبث السلطان بعد مراجعة نفسه أن تراجع عن موقفه، و تظن لدسائس و خبث ابن مايابى و تصدى للرد عليه بتأليفين الأول يسمى «نحر الجزور»، و الثاني يحمل عنوان «زجر المعتدي على الجنا ب الأحمدى»، و قد ذكر سكيرج أن السلطان أطلععه عليهما، و رجا من الله أن يبرز الوجود، لينتفع بهما الخاصة و العامة².

أما الكتاب الذي ألفه مولاي عبد الحفيظ ليرد فيه الإعتبار للتجانية والتجانيين، و الذي تم طبعه و نشره، بالفعل، فهو مؤلف الجامعة العرفانية³ كما ظهرت لنفس السلطان أشعار في مدح هذه الطريقة، سندر ج أبياتا منها في المكان المناسب لها من هذا المحور.

ومن بين الذين ألفوا للرد على ابن مايابى من غير المغاربة، دفاعا عن التجانية نذكر حسين حسن الطماوي⁴، و محمد مناشو⁵، و الشيخ مرزوق

1 - عبد الحفيظ سلطان المغرب، كشف القناع عن اعتقاد طوائف الإبتداع، فاس 1327.

2 - أحمد سكيرج، السر الرباني. م.س، ج I. ص 10.

3 - عبد الحفيظ سلطان المغرب، الجامعة العرفانية الوفية بشروط و جل فضائل أهل الطريقة التجانية، تونس 1930.

4 - له كتابان في الرد على ابن مايابى :

أ - هدم مشتهى الخارف الجاني من الأساس، القاهرة (د.ت).

ب - المورد الرحماني في رد حصول الأمانى - القاهرة، (د.ت).

5 - محمد مناشو، مجموع قمع التعصب و أهواء أعداء التجاني بالمشرق و المغرب، تونس

1926.

ابن الحسن الأنصاري الأمدرماني في بائيته البديعة الشكل¹، و محمد الكولخي².

حوالي سنة 1357/1938 برز منتقدون مغاربة آخرون للطريقة كالعلامة محمد بن الحسن الحجوي الذي كان أبوه تجاني الطريقة، و تقي الدين الهلالي الذي كان على علاقة وطيدة بالفقيه أحمد سكيرج، محبا للطريقة التجانية بشكل مفرط، و منتقدون غير مغاربة مثل السلفي الجزائري عبد الحميد بن باديس³ (1889-1940)، الغني عن كل تعريف، و المشهور بتضلعه في العلوم الإسلامية و سعة فكره و حبه لبلاده، وعمله على تخليص أبناء وطنه من استبداد المستعمر و السلطات الحاكمة، برفع مستواهم الفكري، و محاربة ذوي الأفكار البالية، و من بينهم المتصوفة الذين عمد الكثير منهم في نظره إلى تشويه رسالة التصوف السامية. و هذا ما أفضى به حتما إلى مواجهة التجانيين و اعتبارهم مسيئين للإسلام ومجترئين على الله و لقولهم بأفضلية سيدي أحمد التجاني على غيره من الشيوخ، بل ذهب ابن باديس إلى حد تكفيرهم

1 - ذكره أحمد سكيرج في السر الرباني، م.س، ج I، ص 56.

2 - محمد بن عبد الله الكولخي، الجيوش الطلع بالمرفهات القطع إلى ابن مايابى أخ التتلع،

فاس (د،ت).

- Merad (A.), Ben Badis, in les Africains, Paris, 1977, Tome II, - 3
pp103 et s.

لاعتقادهم بأن تلاوة صلاة الفاتح أفضل من تلاوة القرآن و بأنها من كلام الله ، و لإيمانهم بأن من تعلق بحبل الطريقة التجانية دخل الجنة بغير حساب و لا عقاب، و بذلك فإن هذه الطريقة أصبحت في تقديره وسيلة لهدم الإسلام¹ و قد وردت هذه المعلومات ضمن رسالة نشرها ابن باديس في مجلته «الشهاب»² تحت عنوان : «الجواب الصريح في بيان مضادة الطريقة التجانية للإسلام الصحيح»³.

وتبعاً لما أورده صاحب الإيمان الصحيح، فإن العلامة محمد الحجوجي وزير المعارف المغربية⁴ آنذاك هو الذي كان سبباً مباشراً في حمل ابن باديس على اتخاذ هذا الموقف المعادي للتجانية، بنشره على أعمدة مجلة

1 - أحمد سكيرج، الإيمان الصحيح في الرد على مؤلف الجواب الصريح، مطبعة النهضة، تونس 1357، ص 10-11.

2 - عبد الحميد بن باديس، مجلة الشهاب، الجزء السابع من المجلد الرابع عشر، شهر رجب 1357، نقلاً عن الإيمان الصحيح، م.س، ص 8.

نقرأ في غلاف هذه المجلة (الشهاب) أنها :

تصدر بقسنطينة غرة كل شهر قمري، مبدأنا في الإصلاح الديني والديني :

لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها (مالك بن أنس).

الحق والعدل والمؤاخاة في إعطاء جميع الحقوق للذين قاموا بجميع الواجبات. أنظر :

- Les Africains, op.cité , Tome II, P. 119.

3 - أحمد اسكيرج، الإيمان الصحيح، م.س، ص 8.

4 - نفسه، ص 8 ثم ص 10.

الرسالة المصرية أعداد 266-267-268، جواباً له على سؤال ألقى عليه، وهو في شكل مقال تحت عنوان: «معضلات العصر»، اقتحم فيه لجنة الإنكار على التجانيين¹، فنال هذا الجواب إعجاب المصلح الجزائري ابن باديس الذي علق عليه بإسهاب في جوابه الصريح المشار إليه آنفاً². وعندما أطلع الفقيه أحمد سكيرج على كل من «معضلات العصر»، «والجواب الصريح»، ألمه مضمونهما، وعلى الأخص ما صدر عن العلامة محمد الحجوي الذي كانت تربطه به علاقات خاصة³ نظراً لمكانته العلمية، ولانتساب أبيه للطريقة التجانية. فالشيخ سكيرج وإن التمس بعض الأعذار للحجوي، بسبب ما دخل التجانية من الخرافات على يد بعض الجهال، كان في الوقت نفسه يتمنى لو بقي هذا العالم المصلح على تبجيله واحترامه لطريقة أبيه وفاء لروحه، وتكريماً للشيخ المؤسس، وسعيًا وراء قطع الطريق على المبغضين مثل ابن باديس الذي نعته بالفقيه سكيرج بكل أنواع الخزي والعار، من خلال كتاب «الإيمان الصحيح في الرد على مؤلف

1 - نفس المصدر، ص 5 و ص 8.

2 - نفسه.

3 - تظهر هذه العلاقة في تشطير الفقيه سكيرج لقصيدة العلامة محمد الحجوي التي تحمل عنوان، نصيحة الصبيان، في سائر الأوطان، أنظر عبد العزيز التمساني خلق، حياة القاضي سكيرج وأثره، م.س، ص 49 و ص 56.

الجواب الصريح¹ ، الذي حرره خصيصا لتفنيد أقوال خصمه ، وضمنه ستة مباحث وهذه أبيات من قصيدة له تبين مدى سخطه على ابن باديس من جهة وتفهمه لموقف الحجوي من جهة ثانية.

إذا العالم الحجوي استطاع تخلصا
بفرط حجاه من عضال المشاكل
فما لابن باديس سوى الضرب في القفا
فهلا قفاه في النوى في النوافل
لقد أيد الحجوي التجاني في الذي
به حاجج الجاهل غير مخاتل
رأى منهج الشيخ التجاني منزها
عن التراهاات بين عال و نازل²

إلى أن يقول :

و أما ابن باديس فقد طار في الهوى
بغير جناح جانحا للرزائل

1 - أحمد سكيرج الإيمان الصحيح ، م.س ، ص 22 ، ثم ص 33 و ما بعدها

2 - نفس المصدر ، ص 15.

تتبع عورات الأفاضل أين ما

رآهم و لم يسلك سبيل الأفاضل¹

يرى غلق أبواب الزوايا ديانة

و فتح المقاهي من ألد المناهل

و لو كان ذا جهل بسيط عذرتة

و لكنه في الحق أجـهـل جـاهـل².

و من التجانيين الذين ردوا على ابن باديس، نذكر، محمد الحافظ

المصري الذي رأى في ادعاءاته باطلا مذكرا إياه بأن الطريقة و شيخها

وأتباعه بريئون من كل ما يخالف كتاب الله و سنة رسوله³، ثم الشيخ بن

بسام التجاني من زاوية تيماسين التابعة لعمالة قسنطينة⁴.

من جهة أخرى يلاحظ أن جريدة الوداد التي كانت تصدر بسلا لم

تسكت عما صدر عن الفقيه الحجوي من انتقاد للتجانيين، ففي عددها

الخامس عشر من سنتها الثانية عابت عليه موقفه هذا بقولها «و قد كان في

وسع علامتنا أن لا يتعرض لمثل هذا و هو بالمكانة التي هو بها في نظر

1 - نفس المصدر، ص 16.

2 - نفسه، ص 17.

3 - نفسه، ص 7.

4 - نفسه، ص 8.

أحبابه العالم المصلح، فكان من حقه أن لا يخوض في هذه المعامع ليسلم مما أباح فيه عرضه للمعترضين عليه حتى من المنتصر له المتزلف إليه ابن باديس الحقود على الطريقة التجانية المحمدية¹ .

هذا النص على قصره يسمح بالقول أن الجريدة السلاوية كانت مخترقة من قبل التجانيين، كما يبعث على الاعتقاد أن الطريقة التجانية المدعومة بثلة من صفوة فقهاء البلاد و علمائها وأعيانها، إضافة إلى الإنتشار الواسع الذي حققته في أقطار إسلامية أخرى، كان يصعب على أي كان اقتلاع جذورها. وفي مصر تصدى محمد الحافظ المصري التجاني لما كتبه الحجوي على أعمدة نفس مجلة الرسالة في العدد 270، فرد عليه رداً محكماً².

المغربي الآخر الذي تنكر للتجانية و ارتد عنها، هو محمد بن عبد القادر الهلالي الملقب بتقي الدين³ الذي ذكر في كتابه الهدية الهادية⁴ أنه خرج من الطريقة التجانية عن اقتناع بعد لقائه بعبد الحي الكتاني الساخط على كل الطرق، ثم محمد بن العربي العلوي الذي كان السبب المباشر في

1 - نفس المصدر، ص 19. و يبدو السنة المشار إليها هي سنة 1357.

2 - نفسه، ص 9.

3 - نفسه، ص 123.

4 - محمد تقي الدين الهلالي، الهدية الهادية إلى الطائفة التجانية، 1977 (دون ذكر مكان

الطبع)

إقناعه باتخاذ قرار رده مخابرا إياه أنه هو نفسه كان تجانيا فعاد إلى الصواب بعد أن ظهر له بطلانها¹.

و كان الفقيه أحمد سكيرج من بين من رد على الهلالي، لكن برفق على ما يبدو نظرا للعلاقة الحميمة التي كانت تجمع بينهما. فقد كان أخا له في الطريقة و معلما لابنه عبد الكريم و لأخيه عبد السلام، و يذكر سكيرج أنه شعر به منذ أن ظهرت عليه بوادر الإنقطاع الأولى و هو بالمغرب، فحذره من ذلك، غير أنه بعد سفره إلى مصر لإتمام دراسته واصل إنكاره على التجانيين و غلوهم في التعلق بطريقتهم، و عندما راسل الهلالي أستاذه سكيرج من العراق، أجابه هذا الأخير ودعا له بأن يوفقه الله لما فيه الخير، لأن قلبه حسب تعبيره لم يسامح فيه²، مرجحا أن يكون إنكاره لغرض المحافظة على نفسه و أهله في الإقامة بالحرم الشريف³. و بعد هذا الإنكار، بعث الهلالي إلى أستاذه سكيرج قصيدة يقول مطلعها :

فاعلموا أنني على العهد باق حافظ و دكم ليوم التلاقي

1 - نفس المصدر، ص 14 إلى 17.

2 - أحمد سكيرج، الإيمان الصحيح، م.س، ص 124.

3 - لأن الهلالي أقام في آخر المطاف بالحرم الشريف.

ليس يسلمين أن تكونوا بغرب و أنا قاطن بأرض العراق¹

إلى أن يقول :

و حبوت ما كان يجمعنا من مذهب و طريقة بطلاق
و اتبعت النبي لا ابتغي منه بديلا من سافل أوراق².

و أجابه الفقيه أحمد سكيرج بقصيدة طويلة اخترنا منها هذه الأبيات:

يا هلالى إني أجاريك فى الذـ ظم الذى جئتني به فى اتساق
و إذ انتقد المقال فقولى كله جيد لدى الإنفاق
غير أن الأهواء مختلفات باختلاف الأدواء و الأنواق³

إلى أن يقول :

1 - أحمد سكيرج، الإيمان الصحيح...، م.س، ص 124.

2 - نفس المصدر .

3 - نفسه، ص 126.

إيه يابن الهلال أصبحت فينا تدعي ما ادعاه أهل الشقاق¹.

ومما يشد الإنتباه ، هنا أن الفقيه سكيرج ، بدا وكأنه لم يصدق ما صدر من تلميذه الهلالي ، فتعقيبه هذا على هذا الأخير و عتابه عليه أتى متأخرا بحوالي عشر سنوات ، فلولا موقف ابن باديس الذي استند إلى مرجعية الحجوي و الهلالي² الذي أغضبه ، و مراسلة بعض الغيورين على التجانية له بضرورة الرد على الخصوم مذكرين إياه بموقف الهلالي³ ، لما خاطبه بشكل مباشر و محتشم. أما الذي تصدى لمحمد تقي الدين الهلالي بشكل ممنهج ، فهو أبو طاهر المغربي من خلال رسالته المسماة إفحام الخصم الملذ في الدفاع عن الشيخ الممد⁴ ، مع ملاحظة أن العربي المشرفي أنجز تأليفا في ذم التجانية في شخص محمد أكنسوس دون أن يجد من يرد عليه على ما يبدو⁵.

لايسع المكان و لا الزمان لذكر كل ما كتبه الفقيه أحمد سكيرج في

1 - نفس المصدر.

2 - نفسه ، ص 123.

3 - نفسه ، ص 10.

4 - أبو طاهر المغربي ، إفحام الخصم الملذ في الدفاع عن الشيخ الممد ، تونس 1347.

5 - العربي المشرفي ، الحسام في قطع لسان الشاب العجرفي الناطق بخرافات الجعسوس

سيء الظن أكنسوس ، مخطوط رقم 2276 ك ، الخزانة العامة الرباط.

الذب عن الطريقة التجانية ضد منتقديها. لكن ما يشد الانتباه في هذا الموضوع علاوة على ما سبق، هو التأليف الذي يخبرنا فيه عن المعركة التي خسرها علماء القرويين ضد خصومهم التجانيين، إلى جانب تأليف أخرى لا تقل أهمية تصدى فيها للرد على أبرز من هاجم الصوفية عموماً و التجانية على الخصوص. وندرج في ما يلي عناوين بعض هذه التأليف كما أوردها الباحث عبد العزيز التمسamani خلق في أحد أعداد مجلة دار النيابة .

- الحق المبين في انتصار التجانيين على علماء القرويين¹.
- تجريد أسئلة الشيخ سيدي محمد الكتاني².
- قرّة العين في الجواب على أسئلة مؤلف خبيثة الكون³.
- الحجارة المقتية، لكسر مرآة المساويئ الوقتية في الرد على ابن المؤقت⁴.
- السحر البالي ، الموجه للعارف التادلي⁵.

1- عبد العزيز التمسamani خلق، حياة أحمد سكيرج و آثاره، مرجع سابق، ص 57.

2 - نفس المصدر، ص 57.

3 - نفسه، ص 53، و خبيثة الكون من تأليف محمد بن عبد الكبير الكتاني، و يشتمل على عدة أسئلة جعلها صاحبها ديناً في عنق التجانيين إلى أن يجيبوا عنها حسب نفس المصدر.

4 - نفسه، ص 51.

5 - نفسه، ص 51.

- القطوف الدانية بشرح الجامعة العرفانية¹.

- الفيوضات العرفانية في الرد على الإفريقي مؤلف الأنوار

الرحمانية².

كخلاصة لهذا المحور يكمن القول إنه رغم دفاعه المستميت عن التجانية و شيخها ضد المنكرين، فإن الفقيه سكيرج، مع ذلك يعترف بأن بعض الإخوان التجانيين شوهاوا سمعة الطريقة بما ينسبونه من خرافات للشيخ المؤسس ولخاصة أصحابه و محبيه من كرامات منتحلة وفضائل محتملة، مما لا أصل له في الطريقة، و ذلك لكي يتأتى لهم أكل أموال الناس بالباطل³.

2 - مؤلفات الرد ذات الخطاب العام :

يأتي الفقيه أحمد سكيرج في مقدمة التجانيين الذي اهتموا بالدفاع عن الطريقة من أجل توعية الخاص و العام، و إظهار حقيقة الأمر للجميع

1 - نفس المصدر، ص 54. و هو عبارة عن رجز للسلطان المولى عبد الحفيظ في شروط وفضائل الطريقة التجانية، نظمها حسب نفس المصدر بغرناطة سنة 1340 / 1922. و طبع بتونس عام 1930 في 44 ص.

2 - عبد العزيز التمساني خلوق، حياة أحمد سكيرج و آثاره، م.س، ص 53. و هي رسالة في الدفاع عن الطريقة التجانية في 134 ص، طبقا لنفس المصدر، لم نهتم بالأنوار الرحمانية لأنه تأليف متأخر جدا في الزمن، بالنسبة للمرحلة التي ندرسها في هذا البحث.

3 - أحمد سكيرج، الإيمان الصحيح، م.س، ص 121.

بواسطة التأليف الرفيعة المستوى. ويمكن القول إن هذا الفقيه يستحق احتلال هذه الرتبة بين كل رجالات التجانية من جيله كيفاً وكما لكثرة ما أنتجه في هذا الباب. وهذه بعض أسماء كتبه ذات الخطاب العام في الدفاع عن الطريقة.

أ - نصيحة الإخوان في سائر الأوطان¹ : وهو كتاب في شكل أرجوزة تضم خمسة عشر مقصداً تطرق فيها لكل المواضيع التي شكلت نقط خلاف مع الخصوم.

ب - سبيل الرشاد في المحاوراة بين ذوي الإنتقاد والإعتقاد² : وهو كتاب تضمن محاوراة بين منتقدي الطريقة التجانية و تعاليمها عامة و بين أنصارها الذين ينوب عنهم سكيرج ، فاستحضر ضمن هذا المؤلف في شكل أسئلة واعتراضات كل القضايا التي يعتبرها خصوم الطريقة خروجاً عن السنة وابتعاداً عن مبادئ الإسلام ليجيب عنها واحدة بعد أخرى ، موثقاً آراءه بحجج من الكتاب و السنة.

ج - تنبيه الإخوان على أن الطريقة التجانية لا يلقتها إلا من له إذن صحيح طول الزمان و لا يصح تلقينها عمن يلقي غيرها من الطرق

1 - طبعة حجرية ، فاس 1321 هـ.

2 - أحمد سكيرج ، سبيل الرشاد في المحاوراة بين ذوي الإنتقاد والإعتقاد، المطبعة الجديدة - فاس 1358.

كيف ما كان¹.

د - الكوكب الوهاج لتوضيح المنهاج².

هـ - زوال الحيرة بقطع البرهان بالجواب عما نشرته جريدة الزهرة

تحت عنوان «أين حماة القرآن؟»³.

و - نهج الهداية في معنى الختمية التي تظاهر بها الشيخ التجاني⁴.

ز - جناية المنتسب العاني بما نسب بالكذب للتجاني جزآن⁵.

هناك مؤلفون آخرون غير أحمد سكيرج، ممن دافعوا عن الطريقة

بشكل عام من خلال كتاباتهم من بينهم :

- محمد بن عبد الله الرباطي الذي كتب «الصراط المستقيم»

في الرد على ما نسب للصلاة التجانية بأن صلاة الفاتح أفضل من القرآن

الكريم⁶.

1 - أحمد سكيرج، تنبيه الإخوان على أن الطريقة التجانية لا يلقتها إلا من كان له إذن صحيح طول الزمان ولا يصح تلقينها ممن يلقي غيرها من الطرق كيف ما كان. مطبعة النهضة، تونس 1921.

2 - تونس 1928.

3 - فاس 1358.

4 - عبد العزيز التسماني خلوق، حياة القاضي أحمد سكيرج و آثاره، م.س، ص 53.

5 - نفسه.

6 - القاهرة 1955، وهو منشور ضمن الدرر السنية كما سيأتي .

- محمد بن عبد الله بن حسن الشافعي الطصفاوي
التجاني صاحب كتاب «الفتح الرباني فيما يحتاج إليه المرید
التجاني»¹. وأهم ما فيه الباب الثاني الذي يتطرق لبعض الأجوبة رادا
بذلك على المعترضين على الطريقة التجانية². بعد هذه النظرة الإجمالية
على بعض ما كتب من مؤلفات في الدفاع عن الطريقة التجانية، ننتقل إلى
محور آخر لإلقاء نظرة على نوع آخر من مؤلفات تجاني الجيل الثالث
خلال النصف الأول من القرن العشرين.

II - مؤلفات في نشر الطريقة و التعريف برجالاتها :

نقتصر في هذا المحور على التعرض لأهم المؤلفين وأبرزهم، ممن
واصلوا التعريف بأصحاب الشيخ وأحبابه من كبار رجالات الطريقة
التجانية من جهة، ونشر تعاليمها من جهة أخرى، وقد ساعد التطور الذي
عرفته المطابع خلال القرن العشرين وتعددتها بالمغرب وكذا دعم
المحسنين والمحبين المادي على تكاثر الكتب المؤلفة عن التجانية بشكل
عام، ويتصدر الفقيه أحمد سكيرج بطبيعة الحال قائمة هؤلاء المؤلفين.

1 - دار الكتاب، الدار البيضاء، (د.ت).

2 - نفسه من ص 8 إلى ص 30.

1 - أحمد سكيرج :

قدم هذا الفقيه التجاني خدمة كبيرة للقراء عامة و المهتمين بالتجانية خاصة، عندما ألف كشف الحجاب¹ و ضمنه سيرة الشيخ أحمد التجاني وخلفائه وأصحابه وأبرز الذين أخذوا عنه مباشرة أو بواسطة، ثم عمد في مرحلة ثانية إلى تأليف أرجوزة «جنة الجاني بتراجم بعض أصحاب الشيخ التجاني»² وهي أقل أهمية من كتاب رفع النقاب الذي كف على إنجازها فيما بعد و تضمن أربعة أجزاء³. و لا نريد إعطاء مزيد من المعلومات حول كشف الحجاب و رفع النقاب على الخصوص لشهرتهما أولا، و لاعتمادنا عليهما بشكل أساسي في فصول سابقة ثانيا.

و من مؤلفات أحمد سكيرج الأخرى التي نعتبرها مساهمة في التعريف بالطريقة :

1- طبع في المطبعة الحجرية بفاس لأول مرة عام 1325، في 498 ص، أنظر دليل مؤرخ المغرب الأقصى، ج I، ص 268. ثم طبع بعد ذلك في مطابع حديثة عدة مرات في المشرق والمغرب.

2- ترجم فيه لثلاثة عشرة من أصحاب الشيخ التجاني في قصيدة من 360 بيتا. و يبدو أنه لم ينشر، أنظر : عبد العزيز التمساني خلوق، حياة القاضي أحمد سكيرج، م.س.

3- طبع الجزء الأول و الثاني المهدية المهدية بتطوان في حياة المؤلف (د.ت)، و طبع الجزآن الثالث و الرابع بمطبعة الأمانة بالرباط، الأول سنة 1971 و الثاني سنة 1975 كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

- الجوهر المنظوم من كلام القطب المكتوم¹.
- يواقيت المعاني في مذهب الشيخ التجاني².
- رسالة الثناء الأحمدي التجاني، وهي عبارة عن عشرة صفحات³
كجواب على رسالة تلقاها من الشيخ فتح الله البناني الذي يبدو أنه من
طريقة صوفية أخرى.

2 - محمد بن عبد الواحد النظيفي السوسي⁴ (ت 1367/ 1948) : له عدة مؤلفات في الطريقة، و نخص بالذكر منها شرح الدرة
الخريدة على الياقوتة الفريدة⁵، و هو كتاب ضخيم من أربعة أجزاء يضم
الخريدة و شرحها، تعرض فيه لذكر مؤسس الطريقة التجانية و بعض

1 - جمع فيه ما بلغه من اللطائف و الحكم من كلام الشيخ التجاني. و هو مرتب على حروف
المعجم. كتبه سنة 1328. و هو غير منشور حسب ما أفاد به التسماني خلو، م.س، ص 55.
2 - منظومة في مذهب التجاني من 500 (خمسمائة) بيت، أنظر التسماني خلو، م.س،
ص 55.

3 - رسالة الثناء الأحمدي التجاني على مظهر الفتح مولانا الشيخ فتح الله البناني، المطبعة
الوطنية، الرباط 1349.

4 - ترجم له صاحب دليل مؤرخ المغرب الأقصى في الجزء الثاني، ص 395.
5 - ذكر صاحب دليل مؤرخ المغرب الأقصى، (ج II، ص 395) أن للنظيفي ديوانا في
الطريقة التجانية طبع على الحجر بفاس عام 1325. و نعتقد أن ما أشار إليه ابن سودة في دليله، هو
كتاب الخريدة. و النسخة التي نتوفر عليها من الدرة في أربعة أجزاء ضمت حوالي 1000 (ألف
صفحة) من الحجم الكبير. دار الفكر، 1984.

رجالاتها وأورادها وتعاليمها وفضل أذكراها وسنيتها. كما تطرق للتحريفات التي عرفتھا تعاليمها من قبل بعض الجهال المنتسبين للطريقة مما أساء لسمعة الشيخ و طريقته.

و قد تضمن هذا الكتاب دروسا مفيدة في الفقه و التفسير و الحديث جعلها لحملة لتأطير آرائه حول مختلف القضايا الشائكة في تعاليم الطريقة التجانية، مما جعل هذا التأليف عملا علميا جادا، لكن دون أي تنازل من صاحبه عن مرتكزات الطريقة الأساسية. مما أدى به إلى الإصطدام بعلماء القرويين الذين أفتوا بحرق كتبه التي ذكر في بعضها أن صلاة الفاتح من كلام الله القديم¹.

و مما يميز هذا الكتاب أيضا أن صاحبه هو صاحب الخريدة وصاحب شرحها في نفس الوقت، مقارنة مع منية المريد التي نظمها ابن بابا الشنقيطي و شرحها العربي بن السائح في بغيته.

3 - محمد بن محمد الحجوجي² (ت 1370/1950) : ذكر

عنه صاحب دليل مؤرخ المغرب الأقصى أنه فاسي الأصل، استقر بدمنات واتخذها مقرا له، كما تطرق لذكر أهم كتاب له و الذي سماه بإتحاف أهل

1 - سبقت الإشارة إلى ذلك. و للتذكير يمكن الرجوع إلى عبد العزيز التسماني خلو،

م.س، ص 57.

2 - ترجم له صاحب دليل مؤرخ المغرب الأقصى في الجزء I، ص 244.

المراتب العلية بذكر الطريقة التجانية.¹ و يبدو أن هذا العنوان تعرض لبعض التشويه من قبل الطابع أو من جهة أخرى، لأن عنوانه الصحيح كما ذكره سيدي إدريس العراقي مقدم الزاوية التجانية بفاس سابقا، هو إتحاف أهل المراتب العرفانية بذكر بعض رجال الطريقة التجانية²، و هو العنوان نفسه الذي يحمله الجزء الأول من هذا الكتاب من أصل ثمانية أجزاء.

و الواقع أن محمد الحجوجي قد ضرب الرقم القياسي في ذكر رجالات الطريقة و التعريف بهم بشكل مفصل يسمح بتسجيل الكثير من العناصر و المعلومات الجديدة مقارنة مع ما أورده أحمد سكيرج حول نفس التراجم علاوة على تلك التي انفرد بالترجمة لها في إتحافه. و مما يؤكد طابع التعمق و التحري الذي طبع تأليفه هذا، تخصيصه جزءا كاملا لترجمة الفقيه محمد أكنسوس، و جزءا آخر لسيدي العربي بن السائح³. من كتب الحجوجي الأخرى التي تعرض لذكرها إدريس العراقي في يواقيته و المتعلقة بموضوعنا :

– حديقة الأنوار البهية في جمع القصائد الشعرية : عرف من خلال

هذا الكتاب بالطريقة و شيخها و بعض أصحابه و محبيه⁴.

1 – نفس المصدر.

2 – إدريس العراقي، اليواقيت العرفانية. م، س، ص 65.

3 – نفسه.

4 – ذكره إدريس العراقي في اليواقيت، م، س، ص 57.

- نخبة الإتحاف في ذكر بغض من نحوا في الشيخ التجاني جميل الأوصاف¹. وقد اختصر في هذا الكتاب ما جمع في أجزاء أهل المراتب العرفانية الثمانية.

- فتح الملك العلام في تراجم علماء الطريقة التجانية الاعلام ، و هو في جزئين².

- إجازته الكبرى في الطريقة التجانية لإدريس العراقي⁴ التي ضمنها عددا كبيرا من تراجم التجانيين و مؤلفاتهم بتاريخ 16 شعبان 1367 / 1948.

4 - محمد علوان الجوسقي :

ألف هذا الفقيه التجاني رسالة تحمل عنوان : النفحة القدسية في السيرة الأحمدية التجانية، و ذكر أن فراغه منها كان سنة 1329 / 1911. ويوجد محتوى هذه الرسالة في نفس كتاب الفتح الرباني⁵ ، و قد تطرق

1 - نفس المصدر، ص 65 .

2 - نفسه.

3 - نفسه.

4 - نفسه.

5 - محمد علوان الجوسقي، النفحة القدسية في السيرة الاحمدية التجانية، ضمن كتاب الفتح الرباني فيما يحتاج إليه المرید التجاني لمحمد الشافعي الطصفاوي، دار الكتاب الدار البيضاء، (د.ت)، ص 99 إلى 119.

في هذا العمل للتعريف بالشيخ التجاني وذكر كراماته و علمه وأوراده
والفضائل المترتبة على تاليها، و ما ضمن الرسول صلى الله عليه و سلم
لأصحاب شيخ الطريقة من ضمانات توصلهم إلى جنات الخلد.

5 - الأحسن بن محمد البعقلي :

من تأليفه في الطريقة التجانية بعض الرسائل التي تضمنها كتيب
لأحد التجانيين يدعى أمين محمد الفطواكي، سماه : التربية في
الطريقة التجانية في ضمن الأجوبة البعقلية. و قد تضمن هذا الكتاب عدة
رسائل للبعقلي، حث فيها الناس في مختلف أنحاء المغرب على التمسك
بالطريقة التجانية باعتبارها طريقة الرسول صلى الله عليه و سلم الذي
لقنها لابنه سيدي أحمد التجاني، و خصوصا رسالته إلى جميع الفقراء
التجانيين في جميع البلدان (بدون تاريخ)¹ و رسالته إلى بعض فقراء
الطريقة بالمغرب في قرية آملن بتاريخ ربيع الأول 1346²، و من كتب
البعقلي في الطريقة:

- ترياق القلوب الذي ذكر عنه عبد الحي الكتاني، و هو غير تجاني
أنه لم يؤلف مثله في الردود³.

1 - نفس المصدر، ص 24.

2 - نفسه، ص 85 و ما بعدها.

3 - نفسه، ص 24.

- منية الأحباب فيما وجب على الأصحاب¹.

6 - محمد الزهري الغمراوي :

هذا الصوفي من تجانيي القطر المصري ينسب له كتاب يحمل عنوان أحزاب و أوراد القطب الرباني و العارف الصمداني سيدي أحمد التجاني². وهو الذي اعتنى ، حسب تعبيره بضبطه و تصحيحه و تحسين وضعه وتنقيحه و طبعه. و قد هدف من وراء هذا المجهود المساهمة في نشر تعاليم الطريقة و التعريف بها.

III - مؤلفات في فقه الطريقة و بيان شروط

وأحكام أورادها :

1- أحمد سكيرج :

لا يوجد غرض من أغراض تأليف الطريقة التجانية إلا و للعلامة أحمد سكيرج فيه النصيب الأوفر، و هذا ما جعله في هذا الموضوع الخاص بفقه الطريقة وفك ألغاز تعاليمها و توضيح أورادها شروطا و أحكاما، يكون

1 - نفس المصدر، ص 82 .

2 - دار إحياء الكتب العربية، 1340 هـ...

قوي الحضور في الإشارة إلى أن مؤلفاته التي سنتعرف على عناوينها فيما يلي لا تمثل سوى جزء يسير من كتبه بخصوص هذا الغرض :

أ - النفحة العنبرية في الأجوبة السكيرجية¹ : يدور

مضمونها حول جوابه عن رسالة تلقاها من أحد التجانيين بالسودان المصري اسمه عبد العزيز الدباغ بن محمد بن عبد الماجد ، و الذي سأله من خلال رسالته عن مسائل تتعلق بما إذا كانت ذات مولانا حسية أو معنوية ، وهل وجود الله تعالى بالإمكان العام أو الخاص ، كما سأله عن معنى قول الشيخ الأكبر الحاتمي سبحان من أظهر الأشياء و هو عينها² ، وعن معنى قول الشيخ التجاني طريقتنا تنسخ الطرق ، و من أخذها وتمسك بها لا يلتفت لغيرها و إن التفت لغيرها مات كافرا³ بالإضافة إلى أسئلة أخرى أجاب عنها الفقيه سكيرج في كتاب النفحة هذا.

ب - طرق المنفعة بالأجوبة على الأسئلة الأربعة⁴ : ألفه

صاحبه للإجابة على أربعة أسئلة وجهها إليه من الإسكندرية بمصر المسمى محمد سعيد بن علي⁵ و جماعة من التجانيين الذاكرين معه ،

1 - مطبعة الصدق الخيرية ، بجوار الأزهر بمصر ، عام 1352.

2 - نفسه ، ص 114 و ما بعدها.

3 - نفسه ، ص 125 و ما بعدها.

4 - مطبعة عليه بشارع فرنسا ، 1927/1345.

5 - نفسه ، ص 3-4.

وتدور مواضيع هذه الأسئلة و الإجابة عنها بشكل عام حول عدم عصمة الشيخ التجاني من الخطأ ، و توضيح ما نسب إلى نفس الشيخ من قول بأن عصاة أهل البيت يسلك بهم مسلك أهل بدر، و هل يجوز للمريد التجاني أن يدخن التبغ وغير ذلك.

ج - بلوغ الأمانى بالإجازة لمريد الورد التجاني¹ : إجازة من ست صفحات ذكر فيها المؤلف شيوخه الذين أجازوه في الطريقة التجانية، وحررها كنموذج للإجازة التي صار يمنحها بدوره لمن رغب فيها.

د - الرحلة الحبيبية الوهرانية² : عدد صفحات هذه الرحلة مائة وأربعون من الحجم المتوسط، كتبها صاحبها لتدوين وقائع رحلته إلى القطر الجزائري خلال سنة 1329/1911، و هي الرحلة التي مكنته من زيارة وهران و تلمسان و مستغانم و مدينة أبي العباس، فكانت فرصة بالنسبة له لتمتين الروابط مع تجانيي تلك المناطق، و لتدعيم نفوذ التجانية و توسيع دائرة إشعاعها، و توضيح ما أشكل على الناس من بعض تعاليمها. يشهد على هذا القول الشروح المستفيضة التي تضمنتها هذه الرحلة للكلمات و عبارات جوهرة الكمال.

هـ - تيجان الغواني في شرح جواهر المعاني³ .

1 - المطبعة الاهلية، درب الفاسي الرباط، (د.ت).

2 - الرحلة الحبيبية الوهرانية الجامعة للطائف العرفانية، مطبوعة على الحجر بفاس. (د.ت).

3 - ذكره عبد العزيز التسماني خلو، م.س، ص 54، و يبدو أنه مخطوط.

و - الإغتباط في الجواب عن الأسئلة الواردة من

الأغواط¹: وهو جواب عن إثني عشر سؤالاً بعث بها إليه السيد علّال بن أحمد التجاني بالأغواط، في الشيخ التجاني وطريقته، يقع في 26 صفحة.

ز - زهر الأفانين في الجواب عن الأسئلة الثلاثين²: وهو

جواب عن ثلاثين سؤالاً وجهها إليه السيد عبد العزيز بن عبد الماجد السوداني في الطريقة التجانية وغيرها، يقع في 126 ص.

ح - الجواهر المنتشرة في الأجوبة عن الأسئلة الإحدى

عشرة³: أجاب فيه المؤلف عن أسئلة تتعلق بالتصوف عامة والطريقة التجانية خاصة، بعث بها إليه الفقيه سيدي أحمد بن الحسين الدويراني قائد ديويران بناحية مراکش.

ط - اليواقيت الأحمديّة العرفانية واللطائف الربانية⁴: يضم

هذا الكتاب حوالي 130 صفحة، عالج كاتبه من خلاله الكثير من

1 - نفس المصدر، ص 56.

2 - نفسه، ص 53، لا زال مخطوطاً.

3 - نفسه، ص 53، لا زال مخطوطاً.

4 - اليواقيت الأحمديّة العرفانية و اللطائف الربانية في الأجوبة عن بعض الأسئلة في الطريقة التجانية، طبع على الحجر بفاس عام 1318. وقد قام بجمع مواد هذا الكتاب، المقدم محمد مغارة التطواني، انطلاقاً من الأجوبة التي كان يتلقاها عن الأسئلة التي كان يوجهها للفقيه أحمد سكيرج. أنظر عبد العزيز التسماني خلوّق، م.س، ص 51.

القضايا التي تتعلق بفقہ الطريقة التجانية، كموقف هذه الأخيرة من زيارة الأولياء، و عمن جعل في صندوق بعض الأضرحة شيئاً من النقود، و هل يجوز تقبيل يد العلماء و المتصوفة من غير أصحاب الطريقة التجانية، و هل تسمح هذه الطريقة بحضور بعض مواسم الأولياء، بالإضافة إلى أسئلة أخرى حول شروط الأوراد و أحكامها، و قضايا تتعلق بالحقيقة المحمدية، و حقيقة الإسم الأعظم، و مواضيع أخرى و هي مواد عالجاها في مقدمة و أربعة فصول و خاتمة.

2 - محمد النظيفي السوسي :

قدمنا له في مكان سابق شرح الدرة الخريدة علي الياقوتة الفريدة التي سنعود إليها بعد قليل. و من كتبه الأخرى التي تندرج داخل هذا المحور، كتاب : الطب الفائح و الورد السانح في صلاة الفاتح¹ ، و قد تعرض فيه لتمجيد صلاة الفاتح و إبراز فضائلها و أحكامها و أسرارها. و نظراً لأهميتها فقد كررها مع صيغها ثلاثمائة و خمسة عشرة (315) مرة، عدد الصحابة الذين جاهدوا في معركة بدر، و رتب عدد هذه الصلوات على حروف المعجم² فشغلت ما يزيد عن 220 ص من الحجم المتوسط.

1 - مطبعة المشهد الحسيني، القاهرة، (د.ت).

2 - نفسه، ص 8.

أما شرح الذرة الخريدة على الياقوتة الفريدة¹ فقد تضمن علاوة على مواضيع أخرى، الكثير من الجوانب الفقهية العامة والخاصة بالطريقة التجانية والتي أبان من خلالها على قدرة عالية من الموضوعية والعقلانية مثل :

- تبصرة الإخوان في هية العمال و السلطان² .
- النهي عن الترهّب و العزوبة و التجرد عن أسباب المعيشة³ .
- طلب الحرفة و الترغيب فيها⁴ .
- النهي عن الغش و الخداع في البيع و الشراء⁵ .
- اتخاذ الزوايا لاصطياد الدنيا و المعاش⁶ .
- زوايا وقتنا متخذة للتجارة⁷ .

1 - محمد بن عبد الواحد النظيفي السوسي، الذرة الخريدة شرح الياقوتة الفريدة، دار الفكر 1984. (جزآن).

2 - نفس المصدر، ج II، ص 17.

3 - نفسه، ص 36.

4 - نفسه.

5 - نفسه، ص 45.

6 - نفسه، ص 82.

7 - نفسه.

3- الحسين الإفراني¹ (ت1328/1910)

من كتبه التي تهم محورنا إثنان :

أ - الخواتم الذهبية في الأجوبة القشاشية² : وقد ضمنه صاحبه أجوبته على مسائل وردت عليه من بعض الخاصة من الإخوان، تتعلق بفقهِ الطريقة وأحكام وشروط أورادها، والإستفسار عن ما إذا كان الفقيه محمد بلقاسم المكناسي (بصري) أخذ مباشرة عن الشيخ³ أم لا، وموقف الشيخ التجاني وكبار رجالات الطريقة من السماع⁴، ومن سماع الغناء بالأوتار والمزامير، والضرب بالعود والرقص⁵، ولم يترك الفقيه الأفراني الفرصة تمر دون أن يؤكد على قطبانية الشيخ التجاني وختميته⁶ وفضله على كل الأولياء مذكرا في نفس الوقت بأهم من كتبوا عن الشيخ وطريقته نثرا وشعرا.

1 - ترجم له المختار السوسي في الجزء الرابع من المعسول (ص26 وما بعدها)، كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

2 - ذكر مؤلفه في آخره أنه فرغ من العمل فيه في شهر جمادى I، عام 1324، ولا زال هذا الكتاب مخطوطا حسب ما نعلم، يقع في 237 ص .

3 - الحسن الإفراني، الخواتم الذهبية في الأجوبة القشاشية، م.س، ص 2.

4 - نفسه، ص 15.

5 - نفسه، ص 29-30-31.

6 - نفسه، ص 70 وما بعدها.

ب - تزيق القلوب من أدواء الغفلة و الذنوب¹ : يتكون من جزئين تعدت صفحاتها، سبعمائة (700)، وقد عالج فيها صاحبه عدة قضايا، منها المتعلقة بالفقه الإسلامي عامة و منها ما يتعلق بفقه الطريقة التجانية والإجابة عن كثير من الأسئلة المتعلقة بتعاليمها وأورادها وشيخها، فأتى الجزء الأول مكونا من ثلاث مقدمات تحدثت عن بداية السالك و آداب الذكر و فوائده و أربعة أبواب ركزت على المقاصد و أوراد الطريقة اللازمة و غير اللازمة بينما تطرق الجزء الثاني في أبوابه الثلاثة إلى ذكر قصائد بعض الكتاب في مدح الطريقة و شيخها و التأكيد على فضل صلاة الفاتح و غيرها من الصلوات لصدورها عن الرسول صلى الله عليه و سلم الذي لقنها للشيخ التجاني.

4 - محمد سعد بن عبد الله الرباطي : له تأليفان :

أ- الصراط المستقيم في الرد على مانسب للسادة التجانية بأن صلاة الفاتح أفضل من القرآن الكريم : و قد عرفنا به وبالمؤلف سابقا.

ب - الدرر السنية في شروط و أحكام أوراد الطريقة التجانية² : تضمن هذا التأليف سبعة فصول ركز أهمها على شروط

1 - لا زال مخطوطا في جزئين. و ذكر صاحبه أنه فرغ من تأليفه في شهر رجب عام 316.

2 - مجموع ضمن كتاب واحد مع الصراط المستقيم في الرد على ما نسب للسادة التجانية=

الطريقة التجانية و أحكام أورادها اللازمة و غير اللازمة و فضائل صلاة
الفتاح و جوهرة الكمال، مع التنبيه إلى الأمور التي ترفع الإذن.

5 - محمد الشافعي الطصفاوي التجاني¹ :

نعود مرة أخرى إلى كتابه الفتح الرباني فيما يحتاج إليه المريد
التجاني الذي وظفنا بعض محتوياته في أغراض سابقة لنتتقي منه هذه
المرة ما يوافق هذا المحور، فوجدنا في ثلاثة أبواب منه ضالتنا :

- الباب الرابع : ذكر شروط الطريقة الأحمدية التجانية² .

- الباب الخامس : في ذكر ألفاظ الورد و الوظيفة و ذكر هيلة

الجمعة و شروطها و أوقاتها و ما يتعلق بها من الأحكام³ .

- الباب السادس : في ذكر شرح ألفاظ الوظيفة و معنى الإستغفار⁴ .

6 - أحمد التاجي بن محمد الشنقيطي؛ له تأليفان:

أ - الفتوحات الربانية في الطريقة التجانية⁵ : ومنه تعمدنا

= = بأن صلاة الفاتح أفضل من القرآن الكريم، مكتبة القاهرة 1955 يضم حوالي 146 ص.

1 - سبق التعريف، به و بمؤلفه الفتح الرباني.

2 - نفسه، ص 35 و ما بعدها.

3 - نفسه، ص 49 و ما بعدها.

4 - نفسه، ص 54 و ما بعدها.

5 - يوجد هذا التأليف ضمن كتاب الفتح الرباني فيما يحتاج إليه لمريد التجاني، م.س. ص 99

الإشارة للباب الثاني المخصص لشروط الطريقة الأحمدية الإبراهيمية
الحنيفية التجانية

ب - السر الأبهر في أوراد القطب الأكبر¹ : تحدث فيه
صاحبه عن شروط الدخول في الطريقة، من شروط صحة وشروط
كمال، وعن أركان الورد ووقته وكيفية قراءة الوظيفة وكيفية ذكر
الجمعة وغير ذلك.

7 - محمد الحافظ المصري التجاني (ت1397/1978)

له تأليف كثيرة في التصوف عامة² والطريقة التجانية خاصة، ومن
كتبه التي تدرج في هذا المحور : قصد السبيل في الطريقة التجانية³ : وهو
كتيب من الحجم الصغير، رمى من ورائه إلى توعية المريدين والمهتمين
وتعريفهم بحقيقة الطريقة وأصلها وشروطها وأحكامها والأذكار اللازمة
فيها، وكذا كيفية قراءة الأوراد ليختم بإعطاء لمحة عن نسب الشيخ وسنده
وكيفية وصوله.

1- يوجد هذا التأليف أيضا ضمن كتاب الفتح الرباني فيما يحتاج إليه المريد التجاني. م.س،
من ص 119 إلى 125.

2 - نذكر له على سبيل المثال كتابه : أهل الحق العارفون بالله السادة الصوفية، م.س.

3 - طبع بالزاوية التجانية الكبرى بالقاهرة سنة 1948.

IV- مؤلفات في مدح الطريقة :

1 - أحمد سكيرج :

يأتي الفقيه أحمد سكيرج في المقدمة، فقد نظم عددا من القصائد في الشيخ يصعب حصرها، منها ما هو منشور، ومنها ما لا زال مخطوطا، ناهيك عن القصائد المنسوبة لهذا الناظم أو ذاك في نفس الموضوع والتي حرص على جمعها، و نقدم فيما يلي بعض النماذج من أعمال سكيرج في هذا الغرض.

1 - النفحات الربانية في الامداح التجانية¹ : أورد مؤلف هذا

الكتاب في المقدمة أنه كتبه استجابة لرغبة أحد الأحاب الذي طلب منه أن يدون كل ما جرى على لسانه من القصائد في مدح جناب سيده الأقدس وما مدحه به بعض أصحابه ذوي الرتب العالية و الشيم الغالية². و قد رتب الفقيه سكيرج هذه القصائد على حروف المعجم، ولكثرتها وتنوعها فقد امتدت على حوالي 118، ص، منها ما يخاطب الشيخ سيدي احمد التجاني، ومنها ما يخاطب الصفوة من أصحابه، ومنها ما يتغنى بالزوايا و جمالها في فاس و مدن مغربية أخرى. و عن الحافز الحقيقي لهذا العمل

1- النفحات الربانية في الامداح التجانية المرتبة على حروف المعجم ترتيب العقد المنظم، فرغ صاحبه من تأليفه سنة 1333. طبع على الحجر بفاس ص 3.

2 - نفسه، ص 3.

كله، يقول الفقيه سكيرج :

لما علمت أنني عجزت عن مدح النبي
أتيت أمدح ابنه و مدحه من أدبي

و يقول أيضا :

و صف النبي المجتبي لست أفي بمدحه
فجئت أمدح ابنه و مدحه من مدحه¹

و حتى نمكن القارئ من أخذ فكرة أشمل عن أهمية هذا الكتاب، رأينا
من المفيد استعمال الجدول الآتي :

غرض القصيدة	المصدر	الحرف على المعجم	تعقيبات
مدح الشيخ سيدي احمد التجاني	النفحات الربانية في الأمداح التجانية ص 4 و ما بعدها.	حرف الهمزة	

1 - نفس المصدر، ص 1.

مدح الشيخ سيدي احمد التجاني.	نفس المصدر، ص 13 و ما بعدها.	حرف الباء.	
مدح سيدي محمد العربي بن السائح.	نفس المصدر، ص 21 و ما بعدها.	حرف الباء	بمناسبة زيارة ضريحه برباط الفتح.
مدح الشيخ سيدي احمد التجاني.	نفس المصدر، ص 23 و ما بعدها.	التاء المثناة.	
مدح العارف بالله أحمد العدلاوي	نفس المصدر، ص 26 و ما بعدها.	التاء المثناة.	
مدح السيدة عائشة زوجة محمد العربي ابن السائح.	نفس المصدر، ص 28.	التاء المثناة	بمناسبة زيارة ضريح ابن السائح بالرباط
مدح الشيخ سيدي احمد التجاني.	نفس المصدر، ص 29.	التاء المثناة.	

مدح الشيخ سيدي أحمد التجاني.	نفس المصدر، ص 29 وما بعدها.	حرف الجيم.	
مدح الشيخ و طريقته.	نفس المصدر، ص 33 وما بعدها.	حرف الحاء.	
التغني بالطريقة بمناسبة ختم كتاب الرماح بالزاوية الفاسية.	نفس المصدر، ص 34 وما بعدها.	حرف الحاء	ختمه بسرد الحاج عبد الكريم بنيس.
مدح الطريقة و الشيخ على شاكلة دالية البصيري.	نفس المصدر، ص 41 وما بعدها.	حرف الدال.	أمره بذلك العارف بالله أحمد العبد لاوي
مدح الشيخ أحمد التجاني.	نفس المصدر ، ص 47 وما بعدها.	حرف الدال.	نظمها في زاوية الشيخ قبالة ضريحه.
مدح نجل الشيخ سيدي البشير.	نفس المصدر، ص 48 وما بعدها.	حرف الدال.	

	حرف الدال.	نفس المصدر، ص 49.	مدح الزاوية التجانية بسلا.
ذكر سكيرج أنها من أوائل نظمه ووقعت موقع القبول من الشيخ في المنام فدعا له بالفتح.	حرف الدال	نفس المصدر، ص 50 و ما بعدها.	مدح الشيخ سيدي احمد التجاني
	حرف الدال.	نفس المصدر، ص 54 و ما بعدها.	مدح الشيخ و نجله سيدي محمد الحبيب.
	حرف الراء.	نفس المصدر، ص 57 و ما بعدها.	مدح الشيخ و طريقتة.
	حرف الراء.	نفس المصدر، ص 62 و ما بعدها.	التغني بالروضة التي دفن فيها سيدي محمود التونسي.
بمناسبة وجوده =	حرف الراء.	نفس المصدر،	مدح الشيخ

بالزاوية التجانية بطنجة.		ص 63 وما بعدها.	= سيدي احمد التجاني.
	حرف الزاي	نفس المصدر، ص 65 وما بعدها.	مدح عكازة الشيخ التجاني
-بمناسبة زيارته لزاوية تطوان - حين نزل بالزاوية التجانية بطنجة	حرف الميم	نفس المصدر، ص 77 وما بعدها.	مدح الشيخ و الطريقة.
	حرف النون	المصدر نفسه، ص 80 وما بعدها	مدح الشيخ سيدي أحمد التجاني
	” ”	المصدر نفسه، ص 87 وما بعدها	مدح نجل الشيخ سيدي محمد الحبيب

مدح خليفة الشيخ الحاج علي التماسيني.	نفس المصدر، ص 90 و ما بعدها.	حرف النون.	
مدح الشيخ و الطريقة.	نفس المصدر، ص 93 و ما بعدها.	حرف النون	نظمها بالزاوية التجانية بتلمسان.
في التغني بمناسبة ختم سرد كتاب الجامع لما افترق من درر العلوم لابن المشري.	نفس المصدر، ص 96 و ما بعدها.	حرف العين	سرده العلامة عبد الكريم بنيس.
مدح الشيخ سيدي احمد التجاني.	نفس المصدر، ص 104 و ما بعدها.	حرف القاف.	
مدح الشيخ و الطريقة.	نفس المصدر، ص 106 و ما بعدها.	حرف القاف.	نظمها و هو على ظهر السفينة بمناسبة رحلته إلى الجزائر.

	حرف الشين	نفس المصدر، ص 111 و ما بعدها.	مدح الشيخ و الطريقة.
	حرف الواو.	نفس المصدر، ص 113 و ما بعدها.	مدح محمد ابن العربي الدمراوي التازي.
	حرف الياء.	نفس المصدر، ص 116 و ما بعدها.	مدح الفقيه علي حرازم برادة.
	حرف الياء.	نفس المصدر، ص 117 و ما بعدها.	مدح الشيخ سيدي احمد التجاني.

و للفقيه أحمد سكيرج ديوان شعري آخر في التغني بالطريقة
وشيخها وهو :

ب - الشطحات السكيرجية¹: استهل المؤلف كتابه بهذين البيتين:

هذا كتاب حقه أن يشتري
من بائعيه بما حوت أيدي الوري
فابذل قصارى الجهد في تحصيله
و اعمل بما فيه تنل أعلى الذرى².

و قد تضمن هذا التأليف خمسة و أربعين قصيدة، و كل قصيدة
سماها شطحا، و حتى لا يتهمه غيره بما اتهم به الحلاج و أمثاله، نبه بقوله
إلى أن هذه الشطحات ذوقية، فقدمها لذوي المعرفة، مصرحا بأن لا إله إلا
الله و أن محمدا رسول الله، و متبرئا من كل ما لا يليق بالمولى المنزه عن
الشريك و الشبيه،³ و هذه عناوين بعض شطحات المؤلف.

1- مطبعة الصدق الخيرية بجوار الأزهر، مصر 1352 أشرف على طبعه المقدم محمد

سعيد علي أفندي المالكي التجاني.

2 - نفس المصدر، ص 1.

3 - نفسه، ص 3.

- شطح عارف من بحر البسمة غارف¹ .
 - شطح على جانب سطح سريع الزلق بمن صعد إليه بقلق و لم يكن على الحقيقة بالشريعة تعلق² .
 - شطح حبر بإفشاء سر³ .
 - شطح في جب من صاحب حب⁴ .
 - شطح شيخ مرشد بين مريد معتقد و بين مريد منتقد⁵ .
 - شطح قاض عزمه ماض ، طاش عقله فتم فصله⁶ .
- لا تنحصر أشعار الفقيه أحمد سكيرج المدحية للشيخ و الطريقة والتصوف في هذين الكتابين فحسب. بل له قصائد أخرى متناثرة في كتبه مثل كشف الحجاب و رفع النقاب.
- ج - كشف الحجاب :** تضمن عدة قصائد له ، مع ملاحظة أن بعضا منها يتكرر في هذا الكتاب أو ذاك من كتب المؤلف ، و نظرا لكثرتها،

1 - نفس المصدر، ص 5.

2 - نفسه، ص 7.

3 - نفسه، ص 8.

4 - نفسه، ص 10.

5 - نفسه، ص 20.

6 - نفسه، ص 35.

فسنحيل على وجودها في صفحات الكتاب فقط¹.

د - رفع النقاب بعد كشف الحجاب : تضمنت أجزاء هذا الكتاب

أيضا عدة قصائد مدحية،² وضمنها ما هو معاد، سبق إدراجه في مراجع له أخرى ، و من المؤلفات المدحية الأخرى المنسوبة للقاضي أحمد سكيرج :

هـ - نسيمات الأحرار في نظم الأشعار³ : وهو ديوان يتضمن

مواضيع في مدح الحضرة النبوية و الشيخ التجاني، و استجازة بعض شيوخه.

و - الفتح الرباني فيما مدح به الشيخ التجاني⁴ .

1 - أحمد سكيرج، كشف الحجاب عمن تلاقى مع الشيخ التجاني من الأصحاب، بيروت 1988 م، الصفحات : 3-6-7-10-11-22-23-30-43-49-57-67-90-97-125-130-131-204-213-234-270.

2 - أحمد سكيرج، رفع النقاب بعد كشف الحجاب، م.س، ج I، الصفحات : 5-6-7-8-71-104-105-121-126-150-162-176-178-202-244-257.

ج II، الصفحات : 1-2-160-228-235-248-258.

ج III، الصفحات : 5-37-280-284-292.

ج IV، الصفحات : 2-4-79-122-245-259-269.

3 - ذكر عبد العزيز التسماني خلوق، م.س، ص 55.

4 - ذكره إدريس العراقي في يواقيته، م.س ص 57.

ز - حياة القلب الفاني بمدح القطب التجاني¹ : جمع فيه ما بلغه من اللطائف و الحكم من كلام الشيخ التجاني، و ضمنه مدحا ينم عن حب المؤلف لشيخه.

2 - سلطان المغرب المولى عبد الحفيظ².

من المادحين للطريقة و شيخها سلطان المغرب هذا الذي أورد له الفقيه سكيرج في رفع النقاب عدة قصائد في الموضوع، مفيدا أن السلطان أنشأها بعد رجوعه إلى الطريقة التجانية، بعدما سبق له أن عادى التصوف و ألف تأليفاً للتشهير به، ناعتا المتصوفة بالخروج عن السنة³.

بلغ عدد الأبيات الشعرية في رفع النقاب المنسوبة للمولى عبد الحفيظ حوالي مائة و تسعة و خمسين بيتا (159)، و منها اخترنا هذه الأبيات :

و إياك و الإنكار فهو حماقة

و ذو الطعن في نهج التجاني مخادع⁴

1 - ذكره عبد العزيز التمساني خلو، م.س، ص55. و أورد أن صاحبه كتبه عام

1328هـ.

2 - أحمد سكيرج، رفع النقاب، م.س ج II، ص 5 و ما بعدها.

3 - عبد الحفيظ سلطان المغرب، كشف النقاب عن اعتقاد طوائف الإبتداع، فاس 1327.

4 - أحمد سكيرج، رفع النقاب، م.س، ص 6-7.

وإني وإن كنت المسيء الذي اعتدى
وحارب جهرا ها أنا اليوم طائع
فإن تمنحوا المهموم قربا ورأفة
فمحمدة من بعض ما أنت جامع
وإن تعفوا عن ظلم بدا منه بعدما
قد ارتفعت عن وجه ليلي البراقع¹.

فهل صدر هذا التراجع من مولاي عبد الحفيظ بعد أن فقد ملكه ؟ لا
ندري وإن كنا نرجح هذا الإحتمال لأن القصيدة غير مؤرخة.

3 - المؤرخ عبد الرحمان بن زيدان (ت1878/1946).²

وصفه الفقيه سكيرج بالفاضل الجليل أديب العصر، الشاعر المفلق الذي لا
نظير له في المغرب ولا في المشرق، مداح الحضرة المحمدية،

1 - نفس المصدر، ص 7.

2 - عبد الرحمان بن زيدان، إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، الدار البيضاء
1990، ج I، ص 10 وقد تعرض ابن زيدان للتعريف بعدد غير قليل من التجانيين. فقد ترجم، على
سبيل المثال لا الحصر لبلقاسم بصري في الجزء الثاني من إتحافه (ص79)، و ترجم في الجزء
الثالث (119) للكامل بن عبد الله بن الطاهر، وفي الجزء الرابع (ص189) لمحمد بن الطاهر وفي
الخامس (ص274) لمحمد أكنسوس، وللعربي بن السائح (ص429) من نفس الجزء.

ومفتاح أقفال كنوز الأسرار الصمدية نقيب الشرفاء العلويين بمكناسة الزيتون¹. و ابن زيدان هذا كان تجاني الطريقة، و ترجم في إتحاف أعلام الناس لعدة رجالات تجانيين بمكناس، و هو من بين الذين قرظوا كتاب كشف الحجاب، و من خلاله مدح الطريقة، و من جملة ما قاله في قصيدة رائية له :

بلى إن ذا كشف الحجاب بدا لنا
و أبدى ذوي العرفان و الفضل و الخير
كتاب عديم المثل و تر ببابه
غدا غرة و الله في جبهة الدهر
كتاب حوى و الله كل يتيممة
فدونكه فهو الحلال من السحر
سكيرج ذاك الأريحي الذي عنت
لسطوته الأعلام في النثر و الشعر²

إلى أن يقول :

1 - أحمد سكيرج، كشف الحجاب، م.س، ص 549.

2 - نفسه، ص 549.

و دام مدى الأزمان يهدي إلى الهدى
منوطا بيسر في هناء و في بشر
بجاه رسول الله صلى إلهنا
عليه و آل مع صحابته الغر
و بالشيخ أحمد التجاني إمامنا
و أستاذ أهل الفتح في البدو و الحضر¹

4 - عبد الكريم بن العربي بنيس²:

قرظ كتاب كشف الحجاب، و تعرض بالمناسبة لمدح الشيخ
و الطريقة ضمن قصيدة له تقول بعض أبياتها :

كتاب حوى علما غزيرا كلجة
تفيض و سمط لليونانيت و الدر³
كتاب به التعريف و المدح و الثنا
لأصحاب غوث جاء بالفتح و النصر

1 - نفس المصدر، ص 550.

2 - نفسه.

3 - نفسه.

إلى أن يقول :

وذاك وحيد العصر أحمد نجلنا

سكيرج بدر ضاء في غرة الدهر¹

5 - محمد سكيرج أخ المؤلف أحمد سكيرج² :

قرظ بدوره كتابي أخيه كشف الحجاب و رفع النقاب و من خلال هذا
القرظ تغنى بالتصوف عامة و الطريقة خاصة³ .
و من تقرظه لكشف الحجاب في طبعته الثالثة اخترنا له هذه الأبيات :

نرى كشف الحجاب يعاد طبعاً

لشدة حاجة الراغبين

إليه تشوق قد طال عهداً

فثالث طبعه للهاتفينا⁴

1- نفس المصدر، ص 551.

2 - نفسه، ص 552.

3 - نفسه.

- رفع النقاب بعد كشف الحجاب، م.س، ج 4، ص 271-272.

4 - أحمد سكيرج، كشف الحجاب، م.س، ص 552.

و يقول في تقريره للجزء الرابع و الأخير من رفع النقاب :

رياض حسن به الأحباب قد نزلوا
فيه شمائلهم تبقى إذا رحلوا
عنها النقاب أميط يالها شرفا
فكم بها اعتدلت قلوب من عدلوا¹

كانت هذه باختصار شديد هي أهم مؤلفات الجيل الثالث خلال النصف الأول من القرن العشرين التي هدفنا من ورائها إلى تكميل الصورة للقارئ فقط عن تسلسل الإنتاج الفكري التجاني الذي لم يتوقف إلى يومنا هذا.

و بهذا المبحث نكون قد أتينا على كل ما يتعلق بتطور تاريخ الطريقة التجانية بالمغرب منذ قيامها بفاس و انتشارها بكل أنحاء المغرب، مدنه، وبواديها، و ما رافق ذلك من إنتاج فكري لرجالها عبر ثلاثة أجيال :

- جيل عاصر الشيخ و أخذ عنه مباشرة، و جيل ثان أخذ عن الشيخ المؤسس بواسطة واحدة، و الجيلان معا عاشا خلال القرن التاسع عشر . أما الجيل الثالث الذي أخذ الطريقة بوسائط ، فهو الذي عاصر رجالاته نهاية القرن التاسع عشر و النصف الأول من القرن العشرين.

1 - أحمد سكيرج، رفع النقاب....، م.س، ج 4 ص 271.

و رغم ما بذلناه من جهد في ترتيب المادة العلمية لتحرير الفصول السابقة، فإننا لا ندعي أننا وفيينا كل المواضيع حقها، إنها مساهمة متواضعة في التعريف بهذه الطريقة التي كان لها إسهام لا ينكر في الحفاظ على هوية المغرب الإسلامية و صيانة قيمه الحضارية من كل عبث، ناهيك عن الدور الذي ستقوم به في تمتين روابط المغرب بأشقائه في السودان الغربي عبر تعاليمها، وهذا ما يشكل الشق الثاني من بحثنا، وهو ما سنتطرق إليه في الأبواب و الفصول القادمة بحول الله.

الباب الرابع

قيام الزاوية التجانية
بالسودان الغربي

الفصل الأول

الظروف الممهدة لقيام الزاوية التجانية

بالسودان الغربي

رأينا في فصول سابقة كيف قامت الزاوية التجانية بفاس وكيف انتشرت تعاليمها في كل أنحاء المغرب، من المحيط الأطلسي غربا إلى عين ماضي و تماسين وتوات شرقا، ومن البحر المتوسط شمالا إلى أقصى جنوب البلاد بشنقيط. ثم ما لبث أن تعدى إشعاع هذه الطريقة نهر السنغال ليعم كل بلاد السودان الغربي، ويشمل كل بلاد السنغال وبلاد مالي الحالية والجزء الشمالي من غينيا وشمال نيجيريا. ومن هناك امتد إلى باقي إفريقيا السودان المسلمة جنوبا وإلى شرق القارة، ثم إلى القارة الآسيوية. فكيف تم هذا الانتشار في بلاد السودان الغربي؟¹ موضوع دراستنا، وعلى يد من تم؟ وما هي الظروف التي ساعدت على القيام بهذه المهمة ابتداء من عشرينيات القرن التاسع عشر؟

1- هي ما يصطلح عليه أيضا بإفريقيا الغربية، ويسمى بالسودان الغربي تمييزا له عن السودان الشرقي بوادي النيل، ويحد السودان الغربي نظريا المحيط الأطلسي غربا وبحيرة تشاد شرقا كما يحده من جهة الشمال الضفة الجنوبية للصحراء الكبرى، و نطاق السافانا من جهة الجنوب، انظر :

- Wane (y), de Halawar à Degembéré ou l'itinéraire islamique de Shaykh Umar Tall, Bulletin de l'I.F.A.N, T 31, serie B,n° 2, 1969 p.445.

I- التعريف بالحاج عمر الفوتي مؤسس الزاوية التجانية بالسودان الغربي

1 - نشأته و دراسته :

ولد الحاج عمر بن سعيد الفوتي التكروري الأصل حوالي سنة 1796 بقرية حلوار Halawar بالسينغال¹. و تحيط الإستغراقية المحلية ولادته وطفولته و كذا أسرته بهالة من التقديس و جملة من الخوارق من ذلك ازديانه ليلة اليوم الأول من شهر رمضان الأبرك، في جو ممطر بشكل طوفاني، ورغم أن أمه اضطرت لولادته في بيت تخترقه مياه المطر بسهولة طيلة الليل فإن جسديهما لم تصبهما ولو قطرة واحدة من الماء². كما أن ولادته - حسب نفس المصدر - أتت قبل الأوان، و ككل الموهوبين ظهرت عليه استعدادات خاصة تدل على أنه طفل ليس كباقي الأطفال ذكاء وسهولة في الحفظ و الفهم، مما جعله يعارض أول أستاذ له في حلوار، فاضطر والده بطلب من الأستاذ لأخذه و الإهتمام بتربيته في منزله.

1 - عبد الله عبد الرزاق إبراهيم، المسلمون و الإستعمار الأوربي لإفريقيا، عالم المعرفة، عدد 139، بوليوز 1989، ص 80.

- Jawando Bokum (Demba), El Haj Umar Tall, bandes n° 44- 2
45-46 déposées au département de littérature et civilisation africaine de l'I.F.A.N, Université Cheikh Anta Diop, cité par Madina Ly Tall, op . cité, pp.76-77 et n°77.

فهو الطفل الذي لا ينشغل إلا بما هو جدي، لا يلعب مع أقرانه و لا يصيح بل كان يبقى مستغرقا في تأملاته، مما جعل فقهاء البلدة يصرحون لأبيه سعيد بأن هذا الولد هو بدون شك القديس الذي كان قد بشره به أحد الصلحاء المدعو إيمان بوبكار كان Eliman Boubkar Kan¹ قبل ولادته.

وإذا ما أردنا أن نعدد كل خصال الطفل الحميدة مع أبويه، وسمات الصلاح و الورع التي غمرتهم به أدبيات الروايات الشفوية و المكتوبة، فإن المجال لن يسع هنا لاستيفاء كل ما قيل، و نكتفي بهذا القدر على سبيل التمثيل فقط، مثيرين الإنتباه في نفس الوقت إلى كون الكرامات و الخوارق المنسوبة للشيخ عمر كثيرة، و سنتعرف على أهمها في هذا الفصل و في الفصول القادمة، مع التأكيد على علو كعب الرجل في علمي الظاهر والباطن، و تقواه وورعه، و تكلمه بنور الله، و أي شخصية كانت على هذه الشاكلة لابد أن تحاك حولها الأساطير لكثرة إقناعه و إفحامه في ما هو ميداني وواقعي، ناهيك عن ما هو روحي.

من جهة أخرى تجمع العديد من المصادر على أن أباه إيمان سعيد Said Eliman حارب إلى جانب الثوار في ثورة الطورودبي²

- Ly Tall (M), op,cité, p. 78.-1

- Ducoudary (E.)El Haj Omar, le prophète armé ; Abidjan, 1983, – 2
p.7

Torodbee التي قادها الإمام عبد القادر¹، وبرز فيها و كابد المحن التي عرفتھا البلاد من جراء الهجومات الأجنبية، كما تحدثنا نفس المصادر عن المشاكل الجمة التي اعترضته من جراء الموقف المعادي الذي عبر عنه سكان حلوار Halawar وعندما حاول إيمان سعيد بناء مسجد في أرضه، تؤدي فيه الصلوات الخمس بعيدا عن صخب الحياة و ضوضائها.

في هذا الجو الحافل بالرموز المعبرة عن التضحية في سبيل حرية البلاد و الوفاء و المقدسات و المثل العليا، و في أحضان أسرة متعلمة أحبت العلم و أهله، و اختارت الإسلام عقيدة لها و قاومت الوثنية، ترعرع و نشأ عمر، فحفظ القرآن، و اطلع على شروحه و معانيه تحت إشراف أخيه ألفا أحمدو² Alfa Ahmadu و درس اللغة العربية و علوم القرآن بعناية والده و زوج أخته³، و درس الصحيحين.

و سعيًا وراء المزيد من المعرفة و أخذ العلم من أفواه الرجال، ترك بلدته حلوار ليتنقل أولا بين مدن فوتاتورو⁴ Futa toro، قبل أن يشد الرحال إلى ولاية جنوب بلاد شنقيط التي كانت له بها إقامة طويلة، أخذ

1 - سنعرف به لاحقا.

- LY Tall (M.), op.cité, p.78. - 2

- Robinson (D), op.cité, p.78. - 3

4 - يوجد هذا الإقليم بالضفة الجنوبية لنهر السنغال، (أنظر الخريطة).

خلالها على الكثير من علمائها¹، و تعرف بتاكانت Tagant على الكثير من شيوخ التجانية. ثم سافر لقضاء مدة أطول في فوتاجالون² Futa Jallon مارس خلالها التدريس.

و من الأعلام الذين يعتز الحاج عمر بالأخذ عنهم و التلمذ عليهم والتأثر بهم في هذه الفترة، علاوة على أبيه و زوج أخته لامين ساخو Lamine Sakho، مولود فال³، و عبد الكريم الناقل⁴ اللذان مهذا له الطريق لولوج أبراب التصوف و خصوصا الطريقة التجانية، و كذا العالم المصري جلال الدين السيوطي (ت 1505م) من خلال نسخه لمخطوط له. و مما لا شك فيه أن الفترة قضاها بعيدا عن وطنه وسعت أفق مداركه⁵ كما أن التدريس شحذ عزيمته على بناء شخصيته ووعيه بأهمية العلم ظاهره وباطنه. و هكذا يمكن القول أنه قبل رحيله إلى المشرق العربي، كان قد دخل مرحلة السباب، و هو حافظ لكتاب الله العزيز متمكن من تعاليم الدين

1 - Iy Tall (M.), op. cité.p, 79.

2 - يوجد هذا الإقليم في غينيا إلى جنوب من أعالي نهري السنغال و النيجر.

3 - Marty (p.), L'islam en Mauritanie et au Sénégal, Paris,

1916, p. 246.

4 - عمر بن سعيد الفوتي، رماح حزب الرحيم على نحور حزب الرحيم، م.س، ج I، ص

191.

5 - B.N.P, MO, FA, Man. 5519, F°97. -

الإسلامي و من قواعد اللغة العربية، و على اطلاع كامل بأهم المذاهب الإسلامية، خصوصا المذهب المالكي، نتيجة لتعلمه على أساتذة إما مغاربة أو أخذوا عن مغاربة، من بلاد شنقيط، متشبعين بأحكام مذهب مالك وتعاليمه، و هو المذهب الذي وصل إشعاعه إلى الأصقاع الشنقيطية من فاس و مراكش و الرباط و مكناس و غيرها من المدن المغربية، مثل ما وصل إلى نفس المنطقة التجانية التي أعجب صاحبنا بقواعدها الصوفية منذ البداية¹، و مما دفع به إلى أخذ أورادها عن شيخه و أستاذه عبد الكريم الناقل الفوتاجلوني الذي توطدت به علاقته لكثرة ملازمته له إما في بلاد شنقيط بمناسبة التقائهما هناك لأخذ العلم و التصوف²، و إما في فوتاجلون Futajallon بلد الناقل الأصلي، حيث كان الحاج عمر يشد الرحال خدمة للإسلام و علومه، فكان عبد الكريم الناقل كل الحب و التقدير لتلميذه نظرا لنجابته و ورعه، و ظهور استعدادات فكرية استثنائية عليه، جعلته يقر العزم على السير بعيدا مع مريده كما سنرى.

و يبدو أن كثرة تردد عبد الكريم الناقل على بلاد شنقيط جعلته يلتقي بشيوخ التجانية هناك، فقرر أخذ ورد هذه الطريقة عن أشهر مقدم لها آنذاك بالمنطقة، وهو الشيخ مولود فال الآخذ بدوره عن محمد الحافظ

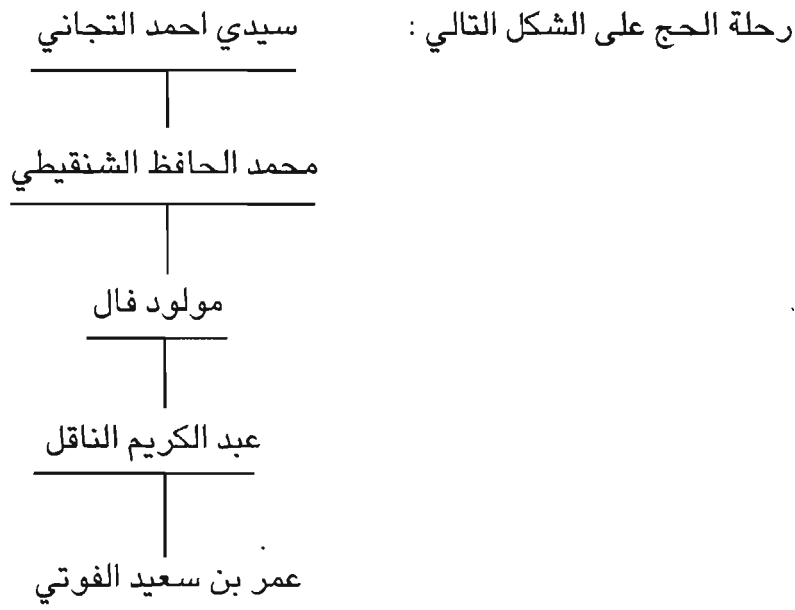
1 - عمر بن سعيد الفوتي، رماح حزب الرحيم...، م.س ج I، ص 191.

- أحمد بن الأمين الشنقيطي، الوسيط...، م.س، ص 30، 241-242.

2 - Ly Tall (M.), op.cité, p. 80.

الشنقيطي الذي التقى مباشرة بالشيخ سيدي أحمد التجاني بفاس، فأخذ عنه الأوراد و التقديم في إعطائها كما سبق تفصيل ذلك في فصل سابق. و الواقع أن مولود فال قد قام بعدة أسفار إلى ما وراء نهر السنغال لنشر الطريقة التجانية لأول مرة ببلاد التكرور¹ (فوتاتورو)، وربما انتقل حتى بلاد فوتاجلون لنفس الغرض، مما يعني أن إشعاع الطريقة كان قد وصل إلى جزء من بلاد السودان الغربي، قبل المجهود الذي سيبدله الحاج عمر الفوتي لنشر تعاليم الطريقة على نطاق أوسع في إفريقيا جنوب الصحراء.

و تبعا لما سبق يكون سند الحاج عمر الفوتي في الطريقة التجانية قبل



و هذا مما ينهض دليلا على تنوع مظاهر الإسهامات الحضارية والإسلامية المغربية في الصحراء و السودان الغربي.

2 - رحلته إلى الحجاز و أخذه الطريقة عن محمد بن الغالي بوطالب المغربي الأصل :

في حوالي 1825¹ أقر عمر بن سعيد الفوتي العزم على زيارة بلاد المشرق و حج بيت الله الحرام. فما هي الأسباب الحقيقية التي جعلته يقدم على هذا الأمر؟ و في أية ظروف؟

إن الإجابة على هذه الأسئلة هي التي سوف تجعلنا نقف على أهمية الرجل الذي تمكن بعد سفره إلى المشرق و عودته منه مرورا ببلاد السودان الأوسط، من إنشاء دولة إسلامية تجانبة على أساس الجهاد المقدس بين نهري النيجر و السنغال خلال النصف الثاني من القرن التاسع

1 - هو التاريخ الذي قدمته مادينالي طال Madina Ly Tall في دراستها (ص83)، وذكرت في شأنه أنها استقرت عليه بعد أن أكدته لها عدة روايات شفوية. غير أن باحثة أخرى كانت قد استقرت على سنة 1826، و هي كلودين كيريش، في دراسته لها خلال سنة 1908. انظر :

Gerresch- Dékai (C.), Tadhkirat al Mustarchidin wa Falah a-t-Talibin, op. cité.p. 524.

أما من جهتنا فنرجح تاريخ 1825 لأن صاحبه من أسرة الحاج عمر و اعتمدت على عمل ميداني.

عشر. سببان رئيسيان في تصورنا دفعا الفقيه عمر إلى القيام برحلة الحج.
أ - حب العلم و المعرفة و استكمال الخبرة في مختلف أصناف العلوم
الإسلامية الظاهر منها و الباطن.

ب - زيارة قبر الرسول صلى الله عليه و سلم.
فالذي يشد الرحال من طلبة غرب إفريقيا و فقهاؤها إلى بلاد الحجاز
لا بد له من المرور بمصر، و زيارة الأماكن المقدسة ببلاد الشام، و هذه
كلها أقطار عربية إسلامية تضم قمم علماء المسلمين و أئمتهم، الأحياء
منهم و الأموات، على المستويين العلمي و الروحي، خصوصا و أن فقيها
لقطر إسلامي، ينظر أهاليه للحياة نظرة إجلال و تقديس. و يبذل
الميسورون منهم الغالي و النفيس للحصول على لقب الحاج، إما إيمانا
و احتسابا و قياما بأحد أركان الإسلام الخمسة، و إما لتوظيف ذلك اللقب
لأغراض دنيوية و سياسية، و إما للجمع بين الغرضين. يشهد على هذا
القول رحلات ملوك السودان الغربي إلى الحج في العصر الوسيط على
عهود ملوك مالي¹ و سنغاي²، و كثرة الأموال و كميات الذهب التي كانوا

1 - علي إبراهيم طرخان، دولة مالي الإسلامية، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب،
1973، ص 79.

- عبد القادر زبادية، مملكة سنغاي في عهد الأسقيين، المركز الوطني للنشر و التوزيع،
الجزائر (د.ت).

2 - عبد القادر زبادية، مملكة سنغاي...، ص 36-37.

ينفقونها في الطريق إلى الحج ذهاباً وإياباً¹.

سبب آخر لا يقل أهمية عن السببين السابقين، قد يكون وراء عزم صاحبنا على تنفيذ قرار الرحلة إلى المشرق و ينحصر في الأوضاع الاجتماعية و السياسية المتردية في بلاد التكرور مسقط رأسه. و هذا العامل تجعله جل الدراسات التي تطرقت للموضوع في صدارة الأسباب التي كانت وراء ثورة الحاج عمر بن سعيد الفوتي على الأوضاع² بأعالي نهري النيجر السنغال.

و نحن من جهتنا و إن كنا لا نقلل من أهمية هذا العامل، كما سنبرهن على ذلك، فإننا نميل إلى ترجيح العاملين الفكري و الروحي، في تحفيزه على القيام بهذه الرحلة، و من نفس المنطلق، و تأسيساً على طبيعة تكوين الشيخ عمر الفكري، و سمو أخلاقه و زهده في زخرف الدنيا و حطامها، وانطباعات الرأي العام الذي عاصره و كان شاهداً على الكثير من تصرفاته النبيلة، فإننا لا نشاطر رأي أولئك الذين رأوا في رحلته خارج بلاده لمدة تزيد عن عقد من الزمن، و ما رافق ذلك من استعداد مادي و معنوي خطة

1 - علي إبراهيم طرхан، م.س، ص 80 و ما بعدها.

2 - يأتي في مقدمة هذه الدراسات :

-Ly Tall (M.), op. cité.

Robinson (D.), op. cité.

- -Dumont (Fernand), L'Anti- sultan ou Al Hajj Omar Tall dFouta, combattant de la Foi, Paris, 1974.

مدروسة للإستيلاء على الحكم في السودان الغربي بعد العودة، موظفا في ذلك أحد أخطر الأسلحة نجاعة، المتمثل في الإيديولوجية المرتكزة على الطريقة التجانية. و حتى إذا كان هذا الاحتمال واردا من باب الافتراض، أي استعمال السلطة الروحية مطية للوصول إلى السلطة الزمنية، و كانت النية حسنة، و إصلاح المجتمع الاسلامي و تطهيره من الأمراض التي أصابته، و إعادة بنائه على قواعد سليمة من العدل القرآني و المحبة و الإخاء، هي الأهداف المتوخاة من مشروع الحاج عمر الفوتي الكبير ، فإننا لا نرى ضررا أن يقيم مثل هذا المصلح مدينته الفاضلة بالوسيلة التي اختارها.

من المؤشرات التي ارتكزنا عليها للقول بأسبقية العاملين الفكري والروحي على أي عامل آخر في اقتناعه بالرحلة إلى الحجاز تعطشه الكبير إلى الإستزادة من العلوم، مع ذكائه الخارق و سهولة استيعابه، و عكوفه على القراءة ليل نهار لأشهر المؤلفات و الدواوين الإسلامية في العلوم الشرعية و الصوفية على الخصوص.

و إذا كانت استعداداته الفكرية على هذا الشكل الذي لا يمل من المزيد و يطمح إلى استكشاف آفاق علمية جديدة، من أجل إشباع فضوله و نهمه للدخول في المغامرة و تحمل الغربة، فإن صاحبنا بعد إدراكه بأنه لم يعد في وسع علماء بلاد شنقيط، و فوتاتور و فوتاجلون، و صوفيتها أن يزودوه بأكثر مما حصل عليه من علوم، ووعيا منه بأن بلاد المشرق العربي المصدرة أصلا لكل أصناف المعرفة الإسلامية إلى الغرب

الإسلامي، هي قبلة العلم والعلماء فكرا وروحا، لم ير بدا من تنفيذ قرار الرحلة إلى الديار المقدسة.

ومن المحتمل أن يكون أستاذه و شيخه في التصوف عبد الكريم قد تظن لهذه الرغبة الجامحة لدى تلميذه، في التطلع إلى ما هو أسمى، مما جعله يشجعه على زيارة بلاد المشرق، بل و يقترح عليه بعد ذلك مرافقته في السفر¹، و يدعم وجهة هذا الرأي الصلاحية المحدودة لعبد الكريم الناقل من إعطاء الأوراد، كما يفهم من كلام تلميذه عمر : «...أعلم أن سيدي عبد الكريم ما قضى الله سبحانه و تعالى على يديه إلا الأوراد اللازمة للطريقة، و هي الورد و الوظيفة و ذكر عصر يوم الجمعة، و أما الأذكار الخاصة فما وجدت منها على يديه إلا حزب السيفي²...» و يرتبط هذا التقنين بمرتبة عبد الكريم الناقل بصفته مقدما فقط، لا يجوز له معها تعدي الحدود.

فصلوات الطريقة و أذكراها غير الضرورية لا تلقن إلا لمن قطع أشواطاً في التعبد بتعاليمها و الإخلاص لها و الإلتزام بشروطها، كما أن الترخيص فيها لا يتم إلا على يد المجازين في ذلك، و هذا ما لم يكن قد وصل إليه عبد الكريم الناقل الذي باقتراحه مرافقة مريده إلى الحج، كان

- 1 - Ly Tall (M),op. cité, p. 82.

- 2 - عمر بن سعيد الفوتي، رماح حزب الرحيم...، م.س، ج I، ص 192.

ربما يهدف إلى الحصول على إجازات جديدة في إعطاء أورد أكثر خصوصية في الوقت الذي كان يعلم فيه كل من الأستاذ و تلميذه بوجود بعض فطاحلة التجانية من فقهاء و شيوخ على قيد الحياة، ممن أخذوا مباشرة عن الشيخ التجاني في المغرب مثل عبد الوهاب بن الأحمر و الطيب السفياي، و محمد بلقاسم بصري، و محمد أكنسوس و غيرهم، و في الحجاز مثل محمد الغالي بوطالب (خليفة الشيخ المؤسس هناك)، على الخصوص، الذي يبدو أن إسمه كان كثير التداول في الصحراء الوسطى وبلاد السودان الغربي¹، مما يعني أن التجانية كطريقة لم تكن مجهولة تماما في فزان و آهير² و بلاد سكوطو و منحني نهر النيجر على امتداد تمبكتو و ماسينا حتى فوتاجلون و السنغال، قبل أن تنتشر على أوسع نطاق و بشكل مكثف على يد الحاج عمر الفوتي انطلاقا من ثلاثينيات القرن التاسع عشر ربما قبل ذلك.

و بناء على ما سبق يمكن القول أن الفضل في إشعاع التجانية الأول يرجع إلى عمل محمد الغالي بوطالب، انطلاقا من بلاد الحجاز التي كان يؤمها مسلمو السودان الغربي لأداء فريضة الحج. و بما أن التعريف بالطريقة التجانية و نشر تعاليمها بين الحجاج في نهاية حج كل سنة،

1 - عمر بن سعيد الفوتي، رماح حزب الرحيم...، م. س.، ج I، ص 192.

- Ly Tall(M.),op. cité, p.84.

2 - عمر بن سعيد الفوتي، حزب الرحيم...، م. س.، ج I، ص 192.

كان يشكل إحدى مهام محمد الغالي، فإنه من الراجح جدا أن يكون بعض حجاج مسلمي الصحراء الوسطى و بلدان النيجر الأوسط قد انخرطوا في التجانية على يد خليفتها بالحجاز، فنقلوا بذلك أخبارها إلى بلدانهم عند عودتهم، وأصبح إسم هذا الخليفة يتردد على الألسن. انطلاقا من كل هذه القناعات، و نظرا لكون عمر بن سعيد الفتوي لم يكن الرجل الذي يكتفي بالحد الأدنى في التحصيل، اتفق هذا الأخير مع أستاذه عبد الكريم الناقل على شد الرحال معا إلى الديار المقدسة.

انطلقا معاً من فوتاتورو Futatotoro و الأقاليم المجاورة، بنية زيارة الجماعات الإسلامية هناك و التزود بالوسائل الضرورية لمثل هذا السفر، لكن في الطريق أصاب عبد الكريم الناقل مرض¹، فعاد إلى منزله بفوتاجلون قصد العلاج، في الوقت الذي التحق فيه تلميذه بعائلته على الضفة الجنوبية لنهر السنغال حيث يوجد أفراد أسرته بحلول Halawar.

و بعد مدة استعد عمر بن سعيد من جديد للسفر بعد أن أقنع أسرته بذلك، و قبل أهم شرط لها، القاضي بمصاحبة أخيه علي معه، و بعد أن

1 - ترى مادي نالي طال Madina Ly Tall، في كتابها المشار إليه أنفا (ص82) أن الذي مرض هو عمر، و هذا ما يجانب الحقيقة بشكل لا لبس على شهادة الحاج عمر نفسه الذي ذكر أن أستاذه عبد الكريم هو الذي أصابه المرض. أنظر: عمر بن سعيد الفتوي، رماح حزب الرحيم...، م.س، ج I، ص 192.

حصل على مساعدات مادية من تجار و أعيان سان لوي¹ Saint Louis المسلمين ، توجه صحبة أخيه إلى فوتاجلون للإلتقاء مجددا بأستاذه عبد الكريم الذي انتظره طويلا قبل أن يسافر إلى ماسينا² الدولة الأرستقراطية الإسلامية الفتية على ضفاف نهر النيجر إلى الجنوب من تمبكتو، تاركا له رسالة يحثه فيها على الإلتحاق به.

و كان المغرب أول قطر فكر عمر بن سعيد الفوتي في السفر إليه، خارج بلاد السودان الغربي، و هو في طريقه إلى مكة حتى يتأتى له زيارة ضريح مؤسس الطريقة التجانية الموجودة بمدينة فاس. و قد عبر عن هاته الرغبة في تأليفه الذي يحمل عنوان تذكرة الغافلين بقوله : «...خرجنا من أوطاننا قاصدين حج بيت الله ، عازمين على سلوك طريق فاس لأنه طريقنا و أقرب إلى بلوغ مرادنا من غيره، و ما يسر الله لنا ذلك الطريق لموانع حصلت لنا فيه³...».

لم يفصح عمر بن سعيد عن طبيعة هذه الموانع. قد تكون مرتبطة بالمرض المفاجئ الذي ألم به و بافتراق أستاذه و رفيقه في الطريق عنه.

1 - Ly Tall (M.), op. cité, p . 82.

2 - عمر بن سعيد الفوتي، رماح حزب الرحيم...، م.س ج I، ص 192.

3 - Gerresch Deskais (c.), Tadhkirat al ghafilin, ou un aspect pacifique peu connu de la vie d'Al Haj Umar : Introduction historique, édition critique du texte arabe et traduction annotée, Bulletin de l'I.F.A.N, serie B, N° , 1977, P.898.

وقد يكون مردها إلى انعدام الأمن في الطريق التي كان ينوي سلوكها في اتجاه المغرب، وقد تكون هذه الأسباب مجتمعة هي التي شكلت الموانع التي تحدث عنها، مع وجوب لفت الإنتباه بخصوص هذا الموضوع إلى أننا لم نتمكن من معرفة متى صدر هذا التصريح عن صاحبه، هل عندما كان في بداية السفر رفقة أستاذه وقبل أن يصاب بمرضه، أم بعد شفائه¹ واستعداده للرحيل رفقة أخيه علي في اتجاه فوتاجلون بنية ضم الشيخ عبد الكريم الناقل إلى رفقتهم؟

غير أنه مهما كانت حقيقة هذا الأمر، فإن الشيء المؤكد في هذا النص هو رغبة عمر الأكيدة في زيارة فاس، وتأسفه على عدم تمكنه من ذلك، وكراهيته لطريق السودان التي وجد نفسه مجبرا على السير فيها، وذلك «لكون أكثر أهل ذلك الطريق كفارا»² حسب تعبيره، وفي هذا ما يدل على حبه للمغرب وتعلقه بمقدساته وشوقه لزيارته لاقتناعه بأن ذلك من شأنه أن يحقق الكثير من أمنياته. ولشدة حنين هذا الرجل لفاس، نجد من الكتاب العرب من يرى أن الحاج عمر زار فعلا هاته المدينة ودرس على مشايخ التجانية بها³. وهو أمر ضعيف الإحتمال، لم يشر إليه أي مصدر

1 - هذا في حالة ما إذا كان عمر أصيب بدوره بمرض.

2 - Gerresch Dekais (c.), Tadhkirat Al ghafilin, op . cité, p .898.

3 - نعيم قداح، إفريقيا الغربية في ظل الإسلام، الجزائر 1975، ص 119، وفي نفس الصفحة جعل المؤلف ولادة عمر خلال سنة 1897، عوض 1797، وقد يرجع هذا الخطأ إلى المطبعة أو السهو.

من المصادر التجانية و غير التجانية التي رجعنا إليها، و لم يتحدث عنه الحاج عمر نفسه في أي مؤلف من المؤلفات الكثيرة التي أنتجها.

و حتى نبقى في صلب الموضوع، نعود لمواصلة الحديث عن انطلاق رحلة صاحبنا، فبعد أن وصل إلى فوتاجلون رفقة أخيه، و اطلع على فحوى الرسالة التي تركها له أستاذه، انتقل للتنفيذ بسرعة، فسلك على مضض نفس الطريق التي سار عليها عبد الكريم الناقل من فوتاجلون إلى ماسينا، رفقة أخيه لكثرة التجمعات الإثنية و الوثنية التي مر بها على طول نهر النيجر، و هذا ما عبر عن اشمئزازه منه في تذكرته المشار إليها آنفا.

لكن ما أن وصل عمر الفوتي إلى ماسينا حتى علم بخبر وفاة أستاذه فتألم لذلك غاية الألم، كما يستشف ذلك من هذا النص «...ثم سافر¹ إلى أرض ماشين² بنية انتظاري... و خرجت على إثره لألحقه، فما قدر الله بيننا و لكن بلغني إنسان في أرض ماشن رسالته و قال لي إن الشيخ عبد الكريم قال لي قل للشيخ عمر بن سعيد إنني أسلم عليه، و قل له منذ فارقت ما تجدد لي يوم إلا و محبته تزداد في قلبي...»³.

لا تخبرنا المصادر المتوفرة بأي شيء عن المدة الزمنية التي قضاها

1 - الضمير يعود على عبد الكريم الناقل.

2 - المقصود هو بلاد ماسينا.

3 - عمر بن سعيد الفوتي، رماح حزب الرحيم...، م.س، ج I ص 192.

عبد الكريم الناقل بماسينا قبل وفاته، و التي يبدو أنها كانت كافية للتعريف بنفسه و للتحديث للأوساط الدينية، على الأقل من الماسينيين على أهمية عمر، و طول باع علمه، و هذا ما سهل الإقامة على هذا الأخير في حمد الله عاصمة البلاد، حيث صار له أصدقاء و معجبون به من كبار أطر الدولة لدرجة أن شيخو أحمداو، ملك البلاد نفسه رأى فيه نورا سخره الله للعب دور كبير في خدمة الإسلام، و هو شيء ألب عليه حاشية هذا السلطان من العلماء و المستشارين، فسعوا إلى إيقاع العداوة بينهما كي يتخلصوا من هذا المنافس الخطير، مما دفع عمر إلى جعل حد لإقامته بماسينا، و العدول عن مواصلة الطريق في هذه البلاد إلى تمبكتو، لأنه سبيل محفوف بالمخاطر بسبب الحرب القائمة بين هذين البلدين، فضلا عوض ذلك مواصلة سفره عبر الطريق التي تربط كونك Kong ببلاد الهاوسا إلى الجنوب من ماسينا¹.

و رغم أننا نجهل التاريخ المضبوط و المحدد لكل مرحلة من مراحل سفره الطويل، فإنه يمكن القول أنه وصل إلى بلاد الهاوسا في شهر نونبر من سنة 1826، بناء على ما أورده المستكشف الإنجليزي هوك كلابيرتون Hugh Clapperton الذي كان يوجد بالمنطقة² بنفس

1 - Ly Tall (M.), op. cité , p .84. -

2 - Abu N-Nasr, (J), op.cité , 107 et n°.1. -

- Gerresch Deskais (c.), Tadhkirat al ghafilin, op.cité, p . 891?

التاريخ في إطار مهمة علمية استطلاعية لمعرفة القارة الإفريقية التي ظلت مجهولة عن الأوربيين إلى حدود القرن التاسع عشر.

و رغم بعد المسافة الفاصلة بين ماسينا و سكوطو Sokoto عاصمة الدولة الإسلامية آنذاك ببلاد الهاوسا (شمال نيجيريا حالياً)، فإنه يبدو أن سمعة عمر بن سعيد الفوتي الطيبة قد سبقت صاحبها إلى هذا القطر ، يشهد على ذلك الاستقبال الحسن و الحفاوة المنقطعة النظير اللذان استقبله بهما محمد بلو ملك البلاد منذ وفاة والده سنة 1817¹. وكذا كثرة الهدايا التي غمره بها و التي تصدرها امراً تان صاحبته إلى الحجاز، الأولى تسمى عائشة أم أحمد الكبير ولي عهده فيما بعد، أما الثانية وإسمها مريم² فستنجب للشيخ ولدين، محمد الحبيب و محمد المختار³.

لم يكن الوضع العام في سوكو طو على أحسن حال مما هو عليه في ماسينا و تمبكتو، ذلك أنه في الوقت الذي وطأت فيه قدما عمر الفوتي بلاد

1 - محمد بلو بن عثمان فودي، إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور، تحقيق بهيجة الشاذلي، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، الرباط 1996، ص 9.

2 - تجدر الإشارة هنا إلى أن مريم هي ابنة السلطان محمد بلو أما عائشة فهي بنت أحد رجال الدين ب سوكو طو. أنظر :

3 - Robinson (D.).op. cité , p.104. - 3

- Ibid, pp. 104 -105.

- Dumont (F.), l'Anti - Sultan, op .pp. 53-54.

الهاوسا، علم أن الحرب تدور رحاها بين سكوطو و بورنو الدولتين الإسلاميتين تهرق رخيصة، و أرواحهم تزهق بأعداد كبيرة في كل يوم منذ مدة دون بزوغ أي أمل بقرب عودة السلم بين الطرفين، أمام هذه الوضعية فكر عمر الفوتي في التوسط بين الجانبين لحقن دماء المسلمين، ثم ما لبث أن تخلص عن هذه الفكرة.

و لفهم موقف الرجل الذي يبدو ان متناقضين، نتركه يتكلم بنفسه :
«...أوصلنا بفضل¹ بلاد حوس و اجتمعنا بأمرها و بعض علمائها، وكبرائها ووجدنا بينهم و بين أمير برنو في ذلك العام اختلافا شنيعا بالغاً غاية الشناعة، و أحزننا و الله ذلك الإختلاف حزنا شديدا و ما قدرنا على أن نكلم أمير بلاد حوس في ذلك الإختلاف و لا في السعي في الإصلاح بينهم شيئا مع حسن ظننا به و رجائنا، على أننا لو كلمناه في ذلك لساعدنا لأنه لنعم الرجل من رجال الله و أيضا لمحبه فينا و إكرامه إيانا، و لكننا خفنا من طلب ذلك ليلا يعوقنا الدخول فيه عن بلوغ مقصودنا. و المشتاق إلى بيت الله الحرام و إلى سيد الكونين وأصحابه الكرام و إلى إخوانه من الأنبياء والمرسلين العظام معذور²...»

1 - الضمير يعود على الله.

- Gerredch Dekais (c.), Tadhkirat al ghafilin, op . cité, p.898. - 2

و هكذا يتضح أن سبب تراجع الفقيه عمر الفوتي عن وساطته هو الخوف من أن يفوته وقت الحج لسنة 1827، فأجل مسعاه إلى حين عودته من الديار المقدسة، و قبل مواصلة طريقه إلى بلاد الحجاز ، و رغم ظروف الحرب التي تعرفها المنطقة، و انشغال الحكام و الرعية في بلاد الهاوسا بمشاكلها، فإننا لا نبالغ إن قدرنا مدة إقامته بحوالي ستة أشهر أو أكثر، باعتبار كثرة الأحداث و الأنشطة المنسوبة له.

فقد اجتمع بأمير الهاوسا محمد بلو كما اجتمع بعض علماء البلاد وكبرائها، ثم تنقل فترة إلى بلدة جوائد و gwandu إلى الجنوب من سكوطو للقيام بزيارة ود و صداقة للأمير عبد الله بن فودي أخ السلطان الحاكم،¹ علاوة على زواجه بامرأتين نيجيرتين و قيامه بأنشطة دينية وفكرية خلال نفس الإقامة².

أما مدة إقامته التي قدرناها بحوالي ستة أشهر، فقد اعتمدنا في حسابها على احتمال وصوله إلى سكوطو في شهر نونبر 1826 على الأقل، و قيامه بمناسك أول حجة له في شهر يونيو 1827، مقدرين في نفس الوقت مدة سفره من شمال نيجيريا إلى مكة بحوالي شهرين أو ثلاثة أشهر³.

1 - Ly Tall (M.), op. cité, p.85. -

- Robinson (D),op. cité, p. 105.

-Ibid. - 2

3 - Gerresch Deskais (c.), Tadhkirat al .ghafilin, op .cité, p. 819. -

استأنف عمر الفوتي سفره انطلاقاً من كشنه (كاتسينا) بأقصى شمال نيجيريا المتاخمة للحدود مع بلاد النيجر، و توجه رأساً إلى إقليم أهير القريب من جنوبي الجزائر و طرابلس . و هناك علم بخبر أدخل عليه البهجة و السرور، كما يعبر عن ذلك في رماحه بقوله : «...ثم وصلنا أرض التوارق أهير سمعت أن سيدي محمد بمحض فضله وجمعني معه في مكة المشرفة¹...».

لا نعلم أي شيء عن مراحل سفره، و لا عن محطات توقفه ووسائل نقله من أهير إلى بلاد الحجاز ، ذلك أن الجوانب المتعلقة بالتاريخ والجغرافية و الإقتصاد في علاقته بالمجتمع، تعرف غياباً يكاد يكون كاملاً في مختلف مؤلفاته التي ركزت على الفكر الصوفي بشكل أساسي، و حتى الأشخاص الذين رافقوه، على ما يبدو، لم يدونوا شيئاً ، بل حتى الروايات الشفوية التي اعتنى بجمعها أكثر من باحث خلال القرن العشرين، حول عمر الفوتي، كعلم إسلامي بارز من أعلام السودان الغربي و رحلاته وفكره و ملاحمه، لم تفد بما يشفي الغليل في الجانب السوسيو اقتصادي. و هذا ما يجعلنا ننتقل مع فقيهننا، مباشرة من أهير إلى شبه الجزيرة العربية، لتتبع تحركاته، و معرفة نوع الاتصالات التي قام بها هناك، ونتائج هذه الاتصالات و الأهداف التي وصل إليها.

1 - عمر بن سعيد الفوتيو رماح حزب الرحيم...، م، س، ج، I، ص 192.

حقق الله رغبته في الإلتقاء بمحمد الغالي بمكة، و تم هذا اللقاء بينهما بعد العصر في مقام إبراهيم عليه السلام، و ذكر عمر الفوتي أن مضيفه وشيخه فرح به فرحا كبيرا و أكرمه لما تفرس فيه من الصدق، و قدم إليه بنفس المناسبة كتاب جواهر المعاني¹، قصد الإطلاع عليه، و ظل مقيما معه حتى الفراغ من أداء مناسك الحج، ليشدا الرحال معا إلى المدينة المنورة التي دخلها في فاتح محرم².

بعد ذلك حصلت أمور بالغة الأهمية للتلميذ مع أستاذه و شيخه الجديد سيتأسس عليها كل مسار مستقبلي في التصوف حالا و استقبالا، كما يتضح من هذا النص «...وجاورت معه تلك السنة في المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة و السلام و سلمت له نفسي و مالي و ألقيت إليه القيادة و بقيت أخدمه قدر ثلاث سنين وجددت الأخذ عنه، و لقنني الأذكار اللازمة و نظموني في سلك أهل الطريقة و اكتسبت منه الأنوار على وجه الشريعة والحقيقة³....».

1 - عمر بن سعيد الفوتيو رماح حزب الرحيم...، م، س، ج، ا، ص 192.

2 - نفسه، غير أن الحاج عمر لم يذكر السنة. و من المرجح أن تكون هذه السنة هي 1243هـ، باعتبار أنه لم يحصل على إجازة شيخه (محمد الغالي) إلا بعد أن خدمه، و لازمه مدة ثلاث سنوات، و هي الإجازة التي تحمل تاريخ 22 من ذي الحجة عام مرشدا التي تساوي 1245 «بحساب الجمل». انظر: عمر بن سعيد الفوتيو رماح حزب الرحيم...، م، س، ج، ا، ص 193 ثم 195.

3 - نفسه، ص 192-193.

ليس كل هذا ما حصل عليه صاحبنا من شيخه محمد الغالي، بل كانت حصيلته العلمية و الروحية منه أكبر من ذلك بكثير، غير أنه قبل الكشف عن بعض تفاصيل ذلك، نود الإشارة إلى شيء يرتبط في اعتقادنا بمشروع الحاج عمر في شموليته و غاياته، فهو الذي يعرف ما ينتظره من دور إصلاحي في بلاده بعد عودته إليها، لما يوجد فيها من اعتقادات وثنية، ومن أشباه فقهاء و متصوفة يساندون الأنظمة الفاسدة أكثر مما يعملون على الإصلاح عن طريق محاولة الإطاحة بها.

نظرا لكل ما سبق عمل - و هو يتنقل بين مكة و المدينة - على استغلال الفرصة لزيارة بلاد الشام و مصر و لاستكمال معرفته في مختلف العلوم الإسلامية، و أخذ ما يكفي من المدد الروحي¹، حتى صار بحرا زاخرا من العلوم، و شيخا عارفا بالله، بإمكانه مقارعة الخصوم بالحجة و الدليل وإفحام الماكرين² من أصحاب أسئلة الكيد و التضليل من المشرق العربي و السودان الغربي.

ووعيا منه بأن الجانب الإيديولوجي في تكوينه الروحي المرتكز على التصوف المؤطر بالطريقة التجانية هو الذي سيعول عليه كسلاح للدعوة والإصلاح، و هو يخاطب عامة الناس و النخبة من الحكام و غير الحكام في

- Tyam (M.A), la vie d'Ed Hadj Omar, Qacida en poular, traduction Henri Gaden, Paris, Institut d'éthnologie, 1935, p.11.

- Robinson (D.),op. cité, pp 97-98. - 2

بلاده، فإننا نجد في كتابه رماح حزب الرحيم، و على لسانه من المعلومات، ما يبعث على الاعتقاد أنه استعد لهذه المعركة إديولوجيا، بما لا مزيد عنه من الخبرة و الذكاء و بعد النظر، بحصوله على كل ما يريد من سند معنوي روحي من أستاذه و شيخه محمد الغالي الذي كان بدوره متحمسا لروية تعاليم الطريقة يعم إشعاعها إفريقيا جنوب الصحراء. و هذا ما كان له أبلغ الأثر في نجاح مهنته فيما بعد ، و مما لا شك فيه، في اعتقادنا أن عون الله كان حاضرا معه في كل هذه الترتيبات و الخطوات.

فما هي الأشياء المهمة التي تكمن الحاج عمر من الحصول عليها على يد شيخه بالحجاز لتتويج رحلته و تحصين ذاته و التي ضمنها كتابه رماح...الذي تم تداوله على أوسع نطاق في السودان الغربي، فانتشرت من خلاله صفات شخصيته الروحية الصلاحية و علومه اللدنية، بتزكية من أكبر سلطة روحية بالديار المقدسة و شهادة العديد من الشخصيات البارزة.

لقد كان السبب الرئيسي في تكرم محمد الغالي على مريده، ومساعدته على وصول مبتغاه و التذلل الكامل له، و الطاعة العمياء لكل أوامره، مما كان سببا في وقوع محبته في قلبه «...فاتخذوني (يقول الحاج عمر) صاحباً و رمى الناس عنه جانباً و اصطفاني خادماً و صاحباً، و صرت له مؤنسا و طالبا و رميت عني كل ما كنت من المعارف و الحقائق جامعاً و كاسباً...و مع هذا فلا أطلب منه شيئاً من أسرار الطريقة إلا

وزجرني حتى أكون من الطلب تائباً إلى أن سخر الله و ساعدني عل نيل ما كنت فيه راغباً¹....».

و مما يدل على أن الحاج عمر، و هو ملازم للخليفة محمد الغالي بمكة و المدينة، كان على اطلاع واسع بعلوم الدين، سعيه إلى حصوله منه و من شيخه سيدي احمد التجاني على شهادة لها دعم روحي و معنوي حاسم، على مستقبل رصيده الصوفي، و ذلك عندما طلب منه محمد الغالي في شهر رمضان من السنة الأولى للقاء به و هما في المسجد النبوي، بعد المغرب، أن يشهد له بذلك²، و بما أن محمد الغالي شهد سيدي احمد التجاني الذي شهد له بأنه رآه، فقد صار الحاج عمر الفوتي بدوره، كأنه رأى الشيخ التجاني.

و يرد سبب إصرار شيخنا الفوتي على هذا الأمر، ما قرأه من أن الشيخ سيدي أحمد التجاني، ذهب و قت بدايته، لزيارة العارف بالله مولاي الطيب الوزاني نزيل وزان «فلما اجتمع به شيخنا³، قال له سمعت أن لك مزية عظيمة، فقال له ما هي، فقال له من رآك يدخل الجنة، قال نعم، إلا أن المزية ليست لي فقال له شيخنا لمن هي قال الشيخ الثعالبي،

1 - عمر بن سعيد الفوتي، رماح حزب الرحيم...، م، س، ج I، ص 196.

2 - نفسه، ص 193.

3 - الكلام لعمر الفوتي.

لأن من رآه ومن رأى من رآه و من رأى من رآه إلى تسعة أو ثمانية أو
إثني عشر إنسانا يدخل الجنة، وأنا رأيت من رأى من رآه، وقال شيخنا
أشهد لي أنني رأيتك فقال له شهدت لك أنت رأيتني¹...»
يذكر مؤلف الرماح أن رواية السبعة هذه أوردها صاحب الأجوبة
الناصرية، واليوسي في محاضراته²، وقد فرح الحاج عمر بالحصول على
هذا الفضل الذي جعل منه حلقة من سلسلة ذهبية و نعمة تفتح أبواب الجنة
لمن أكرمه الله بها، و انشرح لذلك غاية الإنشراح، كيف لا و هو يحتل الرتبة
السادسة حسب تعبيره³ في السند المذكور و الذي وضع عمود له كالآتي :

1 - عمر بن سعيد الفوتي، رماح حزب الرحيم...، م.س، ج I، ص 193.

2 - نفسه.

3 - نفسه.

عبد الرحمان الثعالبي

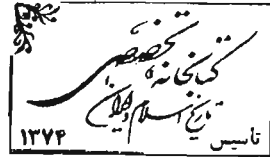
من رأى من رآه

مولاي الطيب الوزاني

أحمد التجاني

محمد الغالي

عمر بن سعيد الفوتي



و مما جعله أكثر اطمئنانا على هذه الوضعية أنه رأى الشيخ التجاني في المنام، و بيده حلة من نور، و أخبره أن من رأى هذه الحلة دخل الجنة، و ألبسه إياها¹، ثم عزز الحاج عمر هذه الرؤيا بعدة أدلة إضافية قدمها كبرهان على محبة الشيخ التجاني له محبة تامة، أكدها له الرسول صلى الله عليه و سلم نفسه إما إحياء من خلال التجاوب الروحي في حالة

1 - عمر بن سعيد الفوتي، رماح حزب الرحيم. س.، ج ١، ص 193.

النوم، أو من خلال أشخاص لهم المقامات العليا في التقرب من الله¹،
شهدوا له بمكانته العظمى عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، تبعاً
لمشاهدات وقعت لهم، أو من خلال حياته اليومية سيرته الذاتية التي راعى
فيهما ما يرضي الله ورسوله، من ذلك مثلاً ما يقول عن نفسه من أنه ما
خالط السلاطين قط ولا أحب أن يخالطهم خوفاً من الوقوع فيما نهى عنه
رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديثه «خير الأمراء الذين يأتون
العلماء وشر العلماء الذين يأتون الأمراء، العلماء أمناء الرسل
على عباد الله ما لم يخالطوا السلاطين فإذا فعلوا ذلك فقد
خانوا الرسل فاحذروهم واعتزلوهم»².

و استرشاداً بهدي الرسول و التعلق بمحبته، قام كذلك بالأمر
بالمعروف و النهي عن المنكر عملاً بالحديث الشريف «من أمر
بالمعروف ونهى عن المنكر فهو خليفة الله في أرضه و خليفة
رسول الله صلى الله عليه وسلم و خليفة كتابه»³.

1 - عمر بن سعيد الفوتي، رماح حزب الرحيم، س. ج. 1، ص 196 إلى 199.

2 - نفسه، ص 197. ذكر المؤلف أن هذا الحديث أورده صاحب تبیین المحارم مروياً عن

أنس.

3 - نفسه، ص 127، و الحديث في السراج المنير في تفسير الطبراني، مروى عن الحسن

عن النبي صلى الله عليه وسلم، حسب ما أورده مؤلف الرماح في نفس الصفحة.

نستنتج من كل هذه الإستشهادات، و من هذا المجهود الكبير الذي بذله الفقيه عمر في التوثيق، أن مسألة تصدره للمشايخ في التصوف والترخيص له في إعطاء الأوراد و التربية الروحية في السودان الغربي، وتطهير مجتمعاتها من الشرك و الوثنية إعلاء لكلمة الله، هي أمور تم البث فيها من أعلى مستويات التشريع. و هذا ما يعني في منظور الحاج عمر أن الفضل في كل ما وصل إليه يرجع إلى العناية الربانية و إلى محبة كل من الرسول صلى الله عليه و سلم و الشيخ التجاني له أما محمد الغالي فهو منفذ فقط، مع الإعتراف له بفضل الكبير عليه في نفس الوقت. و هذه المسألة مهمة جدا لما سترتب عنها من قضايا و نتائج في مسيرة الحاج عمر العلمية و الروحية و الإصلاحية نتيجة للصلاحيات الكبرى التي يعتقد أنه يتمتع بها كقائد روحي و زمني، منه تستمد كل السلطات التشريعية والتنفيذية بتفويض من الله و رسوله.

و إذا كان لنا من وقفة تأملية في هذه النقطة قبل الإنتقال إلى شيء آخر، فإن ما يثير الإنتباه في مسيرة الحاج عمر بالديار المقدسة بالحجاز، بخصوص الأدبيات التي دونها حول نفسه و حول ملازمته لمحمد الغالي، ووضع نفسه رهن إشارته يفعل به ما يشاء قصد الحصول على إجازة في الطريقة التجانية و تعيينه خليفة لها بإفريقيا جنوب الصحراء، هو رغبته في تجاوزه و التقليل من أهميته. و هذا بهدف التجرد و التحرر من كل سلطة

روحية و بالتلي تشريعية، خارجة عن المشرعين و الممدین الأصليين : الله
والرسول صلى الله عليه و سلم و سيدي أحمد التجاني.

و هذا ما لا يتنافى مع سيرة مثله الأعلى في التصوف، سيدي أحمد
التجاني ، نفسه قبل تصدره للمشیخة عندما تخلى عن طرق كل الشيوخ
الذين أخذ عنهم، و اكتفى بالأوراد التي أمره الرسول صلى الله عليه سلم
بتلقينها للناس لا غير، مخبرا إياه تبعا لذلك، بأن لا منة لأحد عليه.

و من جهة أخرى، و بناء على ماسبق يجب أن لا نستغرب إذا ما
وجدنا تجاني السودان الغربي يجعلون من شيخهم الحاج عمر وريثا
للشيخ أحمد التجاني في كل فضائله بما في ذلك ضمانه دخول الجنة لكل
أتباعه. و قد لعب اقتناع الناس بامتلاكه لمثل هذا الفضل دورا كبيرا في
إقبالهم الكبير عليه و انخراطهم في طريقتة و جيوشه التي حقق بها
انتصارات باهرة كما سيأتي.

بعد حجته الثانية، تفيد الأخبار أنه غادر بلاد الحجاز بنية العودة إليها
لنيل المزيد من الرقيات. و يبدو أن هذا التغيب الموقت عن الحرمين
الشريفين كان بإذن شيخه محمد الغالي، فشد الرحال إلى أرض الشام
وبلاد الكنانة لينهل منهما ما هو في حاجة إليه من العلم و العرفان، فزار في
الأولى بيت المقدس و غيره من الأماكن المقدسة بالخليل و حول بحيرة
طبرية، و تبعا لنفس المصدر، يظهر أن إقامته هناك لم تكن بالقصيرة،
باعتبار شعبيته الكبيرة وسط السكان و نجاحه في شفاء ابن السلطان الذي

كان مصابا بالجنون فاستحق بذلك مكافأة من أبيه¹.

و في طريق عودته إلى الحجاز، عرج على القاهرة، وأقام بها مدة، حتى صار معروفا في الأوساط العلمية و الدينية بسبب أنشطته الفكرية المتواصلة خصوصا الصوفية منها، و بسبب ذبوع أخباره في المشرق العربي كداعية مخلص للطريقة التجانية. لكن هذه الشهرة المتنامية جلبت له في القاهرة الكثير من المتاعب على يد من رأوا فيه منافسا خطيرا لهم من الفقهاء و المتصوفة الذين استدرجوه لحضور مناظرة علمية بجامعة الأزهر²، كان هدفهم الحقيقي من ورائها إرباكه و تعجيزه و تسفيهه حتى يسقط في أعين الجميع، لكنهم لم يفلحوا في ذلك بسبب تضلع خصمهم وقدرته على الإجابة على كل الأسئلة الموجهة إليه، بكل وثوقية و ثقة في النفس³.

و أمام فشلهم الذريع عمدوا إلى شتمه و تحقيره من جراء لونه الأسود، في كلام طويل منسوب لرواية شفوية، لكن رده على موقفهم هذا حسب نفس الرواية أتى أكثر سخرية وواقعية، خاليا من الإنفعال

1 - Ly Tall (M.), op. cité, p .88.

2 - Ibid, p .88.

3 - من الدارسين من يشك في زيارة الحاج عمر لجامعة الأزهر، و اعتبار كل ما قيل في شأنها من باب التنذر و التفكه و دغدغة عواطف رعايا السودان الغربي من المسلمين.

-Robinson (D.) , op. cité , pp.97-98

انظر : .

والتعصب، عندما أجابهم بما يفيد أن الغمد لا يمكن أن يحط من قيمة الكنز الذي يوجد داخله¹.

غادر الحاج عمر القاهرة في اتجاه الحجاز، بعد أن قضى بها حوالي ستة أشهر من سنة 1829، حسب تقديرات الأبيات المحلية بالسودان الغربي، دون أن نعرف أسماء هذه الأشهر بالضبط، ما دام أننا نجهل تاريخ خروجه من الحجاز في اتجاه الشام. غير أن الشيء المؤكد، هو أنه موجودا بالديار المقدسة قبل بداية موسم الحج الذي جرت مراسيمه في شهر يونيو من نفس السنة. و من المعلوم أن هذه السنة (1244-1245 = 1829) أدى فيها مناسك حجة السنة الثالثة والأخيرة²، ليغادر مكة والمدينة بصفة نهائية، لكن ليس قبل أن يقطف ما لازال في حاجة إليه من الثمار، و ما جاء من أجله من معارف و إجازات في الطريقة لها بالغ الأهمية و الإعتبار على يد شيخه محمد الغالي الذي أسعفه في الحصول على كل ما يريد بأمر من الشيخ التجاني نفسه، فصار هذا الأخير بفضل هذا الأمر كأنه شيخه.

و يتضح هذا المعنى من كلام الحاج عمر الذي نسوقه في النص التالي³: «...فأخذ بيدي بعد ما صلينا العشاء في المسجد النبوي

1 - Ly Tall (M.), op, cité, p.88.-

2 - Gerresch Deskais (C.), Tadkhirat al Ghafiline, op. cité, p. 891.-

3 - عمر بن سعيد الفتوي، رماح حزب الرحيم...، م.س، ج I، ص 194.

حتى أوقفني بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم تجاه القبر الشريف، وأوصل إلي ما أمره الشيخ وبلغ إلى ما حمله قدوتنا بإبلاغه إلى... ولهذا إن شئت قلت أنني أخذتها عن الشيخ التجاني نفسه... إلا أن الفضل للواسطة جزاه الله عنا خيرا....».

إن تأكيد الحاج عمر على اهتمام سيدي أحمد التجاني به في هذا النص واعتبار نفسه كأنه أخذ عنه له ما يبرره في نظرنا، بهدف التقليل من أهمية أخذه الأول عن محمد الغالي، كما مر بنا في نص سابق، وهذا ما ينسجم مع ما يريد إبلاغه للناس من مريدين وقراء وغيرهم، من أنه يستمد مرجعيته الصوفية في الحقيقة من الشيخ مؤسس الطريقة.

وقد أنهى الحاج عمر هذه الرحلة العلمية والروحية إلى بلاد المشرق، وهو على أهبة الاستعداد للعودة إلى بلاده بالوصول على التتويج الذي كان يطمح إليه والذي جعل منه شيخا للطريقة التجانية وفتيها عارفا بالله في السودان الغربي، لا نظير له، وموضوع هذا التتويج ينحصر في الإجازة التي أجازها بها محمد الغالي¹، والتي تأذن بإعطاء كل أوراد الطريقة وأذكارها لمن يريدها، وفي لقب الخليفة حسب قوله، غير

1 - تحمل هذه الإجازة تاريخ 22 ذي الحجة 1245. ويوجد نصها كاملا في ص

194-195 من الجزء الأول من رماح حزب الرحيم...م.س.

أن هذا اللقب الأخير غير منصوص عليه في الإجازة المذكورة، و لا ندري لماذا استثنى محمد الغالي هذا اللقب من إجازته مثلما استثنى منها حزب البحر.

و لتجاوز هذه الإشكالية، أفاد الحاج عمر أنه حصل من شيخه على لقب الخليفة مشافهة¹. و هو الموضوع الذي جعله عنوانا للفصل التاسع والعشرين من رماحه. أما حزب البحر فقد ذكر أنه تلقى الإذن فيه من مصدر آخر لم يذكر إسمه²، مع الإشارة إلى أننا لا نسعى هنا إلى البحث عن تكذيب أو تصديق طرف من الأطراف بقدر ما نسعى إلى نقل المعلومات و الأخبار المتوفرة بأمانة كما هي مدونة في مصادرها، و للقارئ أن يصدر الحكم الذي يراه مناسبا.

و نظرا لما هذه الإجازة و للقب الخليفة من قيمة مادية و روحية، فإن صاحبهما لا يمل من الحديث عنهما و ذكر مزاياها، موليا عناية خاصة لمصطلح الخليفة حتى لا يبقى أحد جاهلا بأهميته و بالبون الشاسع الموجود بينه و بين المقدم حسب رأيه، فالمقدم حسب رأيه في تعريفه «من أمره الشيخ أو من أذن له بالإذن و هكذا إلى أن يرث الله الأرض و من عليها، بتلقين الأذكار اللازمة مع بعض الأذكار

1 - عمر بن سعيد الفتوي، رماح حزب الرحيم...، م.س، ج I، ص 195.

2 - نفسه، ص 195.

التي يختص بها الخواص ومن له حد ينتهي إليه¹. لكن الخليفة شيء آخر، لتمتعه بصلاحيات أعلى، فهو: «نائب عن الشيخ مطلقاً، فلذلك كان المقدمون و تلاميذهم من جملة رعية الخليفة تجب عليهم طاعة الخليفة، لأن وجوب الإمتثال للخليفة وحرمة مخالفته تجب على جميع أهل الطريقة يستوي فيه من لقنه الخليفة و من لقنه غيره لمرتبة الخلافة، فاعلم هذا و اعمل عليه ترشد²...». إنه الشعور بالاعتزاز و الفخر بهذا المقام، الذي ليس بعده إلا مقام الشيخ أحمد التجاني، و هذا ما يريد الشيخ أن يعلمه الجميع، حتى يعرفوا قدره.

و تحقيقاً لهذه الغاية أورد دليلين آخرين يشهدان له على أن محمد الغالي أنعم عليه حقيقة بلقب الخليفة رغم عدم إدماجه في إجازته السالفة الذكر، الدليل الأول ما قاله له هذا الأخير عندما كانا معا في المسجد النبوي «كنا نقدم الناس و نجعلهم مقدمين في إعطاء الورد و أما أنت ف خليفة من خلفاء الشيخ لا من المقدمين³...» أما الدليل الثاني، فهو جواب محمد الغالي في وقت لاحق على سؤال من مريده⁴ عندما

1 - عمر بن سعيد الفوتي، رماح حزب الرحيم...، م.س، ج I، ص 195.

2 - نفسه، ص 195-196.

3 - نفسه، ص 196.

4 - المقصود به عمر الفوتي.

أكد عليه مرة أخرى في مشاهدة¹، هل هو حقيقة خليفة من خلفاء الشيخ لا من مقدميه «فقال لي : نعم أنت خليفة أنت خليفة²».

على هذه الصورة أنهى الحاج عمر بالمشرق العربي مهمته، و حقق رغبته، و نال مبتغاه بحصوله على لقبين هامين، لقب الحاج بعد أن حج ثلاث مرات، و لقب خليفة الشيخ التجاني بالسودان الغربي، بمباركة هذا الأخير و الرسول صلى الله عليه و سلم لكل خطواته، و موافقتهم، كما علمنا، لكل مطالبه، و هما لقبان لم يسبق لأحد من قبله أن يجمع بينهما في إفريقيا الغربية، و هذا ما جعله مدعما بقوة ربانية لا تصد، و ذخيرة لا تنفذ، سيظهر أثر مفعولهما الإيجابي في مختلف مراحل حركة الحاج عمر الإصلاحية في أعالي نهري النيجر و السنغال بعد رحلة العودة.

3 - رحلة العودة إلى السودان الغربي.

لا تسمح المعلومات المتوفرة في كتاب الرماح، و هو أهم كتب الحاج أو في غيره، حسب ما نعلم، بمعرفة ما يشفي الغليل عن كل تفاصيل هذه العودة و أهم مراحلها. و مما يزيد الأمور تعتيما أن المعروف منها يشكو من فقر كبير في التأريخ و الضبط الزمني.

1 - في رؤيا (منام).

2 - عمر بن سعيد الفوتي، رماح حزب الرحيم...، م، س، ج I، ص 196.

و مع ذلك فإن هذا الرصيد، على قلته، من العناصر الإخبارية، إما من مؤلفات صاحبنا نفسها أو من مصادر شفوية و مكتوبة، يسمح بتقديم لمحة تاريخية عن رحلة العودة من الديار المقدسة إلى أعالي نهر السنغال عبر السودان الغربي، و هي رحلة زادت تجربة ووسعت مداركه من جراء المدة الطويلة التي استغرقتها، و التي تقارب عقدا من الزمن. لكن مروره هذه المرة بالمنطقة يتم و هو بتلقين، لقب الحاج و لقب خليفة التجانية المأذون فيه من قبل الرسول صلى الله عليه و سلم و الشيخ سيدي احمد التجاني و محمد الغالي، بالإضافة إلى النجاح الذي حالفه في جامعة الأزهر بأجوبته المقنعة و المفحمة.

من جهة أخرى نعلم أن هاته الأقاليم التي سيمر بها لم تكن غربية عنه، فقد سبق له أن أقام في كل دولة منها مدة من الزمن، و تعرف على أوضاعها العامة و أثرت أحوال بعضها فيها، فهل تغيرت أوضاع هذه الدول عند العودة أم ظلت على ما كانت عليه؟ من خلال محاولتنا الإجابة على هذه التساؤلات، سنعمل في نفس الوقت على التطرق لأهم الأنشطة و اللقاءات التي كانت له في مختلف الممالك التي مر بها، سواء مع الحكام لإقرار الصلح بينهم، أو لعرض خدماته و خبرته على بعضهم، أو مع الفقهاء والمتصوفة و الطلبة الذين اجتمع بهم، و ما ترتب عن ذلك من ارتياح أو سخط و سوء تفاهم و توتر في العلاقات، عرض الحاج عمر في كثير من الأحيان للخطر.

غير أنه كيف ما كانت المشاكل التي عانى منها، و المحن التي مربها،
ذهابا وإيابا عبر هذه المنطقة التي فرض عليه السفر عبرها، فإن ما راكمه
من خبرة و تجارب على أرضها سياسيا و اقتصاديا و اجتماعيا
وإديولوجيا، بسبب احتكاكه بمجتمعاتها و قياداتها، و تمثله لأنظمة حكمها،
و نقط ضعفها و قوتها، أنساه كل تلك الآلام، و فتح له عوالم كان يجهلها
وأسرارها كان في أمس الحاجة للإطلاع عليها، خصوصا ما يتعلق بتسيير
شؤون الدولة، في علاقاتها مع مختلف شرائح المجتمع، و ما يتطلب ذلك
من معرفة جيدة بالشريعة الإسلامية و الأحكام السلطانية حتى يتسنى
للأمير أن يسوس رعيته في ظل نظام دولة إسلامية بالشكل الصحيح.

و مما زاد من أهمية هذه التجربة أن أحوال معظم هذه البلدان العامة
التي أقام بها و استفاد منها، تشبه إلى حد كبير أوضاع بلاده من حيث
فساد الأنظمة السياسية، و اختلاط التعاليم الإسلامية بالإعتقادات الوثنية.
يرتبط بهذا أيضا أن هناك من الدارسين من يربط نجاح الحاج عمر في
إنشاء دولته على أساس الجهاد و إحياء السنة، و استغلال التذمر
الإجتماعي بنجاح قيام دولة سكوتو¹ Sokoto في شمال نيجيريا على

1 - أغلب الدراسات التي اهتمت بالموضوع ركزت على الجانب الإجتماعي و تدمير السكان من
طغيان الحكام، إلى جانب تركيز هذه الدراسات على أهمية تجربة إمارة سكوتو الإسلامية شمال
نيجيريا في نجاح مهمة الحاج عمر الفوتي، من بين هذه الدراسات نذكر على الخصوص :
- Froelich (J.C), les musulmans d'Afrique Noire, édition de l'orante,
Paris, 1962.
-Dumont (F.), op. cité. = =

نفس الأسس و المبادئ، و هي الدولة التي احتك بها الحاج عمر الفوتي ولازم أميرها محمد بلو مدة طويلة، فإلى أي حد يصح هذا الرأي؟ سنحاول الإجابة على هذا السؤال لاحقا لنفس المجال قبل ذلك لتسليط مزيد من الضوء على ظروف رحلة عودة الحاج عمر.

أ- أخبار الحاج عمر في برنو : وصل الحاج عمر إلى برنو عن طريق فزان جنوب غرب القطر الليبي خلال سنة 1831. و أقام هناك مدة من الزمن لا يستهان بها، سمحت له بعقد لقاءات مع عدة شخصيات حكومية من فقهاء و متصوفة و طلبة، و تمكن خلالها من التعريف بنفسه ونشر طريقته على نطاق واسع، مما أقلق الكثير من المتصوفة القادرين على الخصوص. غير أن أعداء هؤلاء الأخيرين له و باقي الأوساط العلمية الأخرى بالبلاد كان أقل خطورة عليه من الأذى الذي لحق من سلطان البلاد الكانمي، عندما ذهب هذا الأخير إلى حد تهديده بالقتل كما صرح بذلك الحاج عمر نفسه : «...لما رجعنا من الحرمين حتى بلغنا أرض برونو وقع بيني وبين سلطانها خلاف شديد و سعى في قتلي غدرا وأرسل بعض غلمانه ليلا إلى بيتي ليفتكوا بي...»¹.

و إذا كان صاحب هذا النص لا يذكر سبب سعي الكانمي إلى قتله،

= = - Ly Tall (M.), op. cité.

- Robinson (D.), op. cité.

1 - عمر بن سعيد الفوتي، رماح حزب الرحيم...م،س، ج I ص 201.

فإن مصادر أخرى تفيد ببعض ما يبرر إقدام سلطان برنو على ذلك، رابطة موقفه هذا باحتمال ضلوع الحاج عمر في مهمة تجسسية لصالح الحكام الأتراك بليبيا انطلاقاً من برنو¹. و لتوضيح الصورة أكثر، ترى نفس المصادر أن الكانمي كان له اهتمام كبير بواحات فزان المحيطة بمرزوقو التي تابع فيها دراسته لعدة سنوات، و حنين يهزه إلى فترة شبابه بها²، يضاف إلى هذا أنه عندما ضعفت سلطنة الباش العثماني بطرابلس استغل المحاربون من أولاد سليمان هذه الفرصة فثاروا و استولوا على فزان بقيادة زعيمهم عبد الجليل الذي كان وجهاً معروفاً في برنو نظراً للسند الذي قدمه للكانمي من أجل الوصول إلى الحكم ما بين 1818 و 1820.

هذه الوضعية التي تخدم مصالح الكانمي لم تدم طويلاً. فبعد أن تمكن العثمانيون من توطيد نفوذهم من جديد في طرابلس سنة 1835، تمكنوا من قتل عبد الجليل و استرجاع مرزوق سنة 1842، و هذا ما استاء له حكام كوكاوا Kukawa، لما تسبب فيه من ضعف نفوذهم بالمنطقة التي شكلت منقذ برنو الأساسي عبر حقب طويلة من أجل بيع العبيد

1 - Robinson (D.), op. cité, p. 101.

2 - أبو بكر عثمان الحضيريو عثمان بن عمر الحضيرى و دوره في الحياة الثقافية في فزان خلال القرن 13 هـ/ 19م، ضمن سلسلة الدراسات التاريخية 16. أعمال المؤتمر الأول للوثائق والمخطوطات في ليبيا، واقعها و آفاق العمل حولها، زليطن سنة 1988 كلية الآداب و التربية، ص 1345 هامش «ب».

وشرء الأسلحة¹.

هذه الفترة من تأزم العلاقات بين الإيالة العثمانية بطرابلس ليبيا وحكام برنو، تزامنت مع مرور الحاج عمر بفزان الذي ترك أثرا طيبا في مرزوق و تمكن من نشر تعاليم الطريقة التجانية بين سكانها، و يأتي في مقدمة الذين أخذوها قاضي المدينة محمد الجوهرى². لكن نجاح صاحبنا وتألقه في مرزوق جعل مهمته صعبة في برنو، بسبب تشكك الكانمي في نواياه كما سبق، يضاف إلى هذا ما رآه فيه من منافسة خطيرة له ببلاده بصفته فقيها مرموقا مثله، مع وجود امتياز للحاج عمر، الذي كانت شهرته تسبقه حيث ما حل و ارتحل.

1 - يؤكد هذا الخبر رسالة من محمد الجوهرى بن القاضي أحمد قاضي مرزوق موجهة إلى الحاج عمر و هو آنذاك مقيم في سوطوكو بتاريخ 2 أبريل 1836. أنظر :
B.N.P, MO, FA, Man. 5693, F 7 V.

2 - Robinson (D.), op. cité, p; 100.

و مما يثير الإنتباه بخصوص الجنوب الليبي (فزان) ازدهار العلوم الإسلامية به، فعلاوة على مرزوق المشار إليها آنف، يخبرنا المصدر نفسه أن سبها أيضا شكلت مركزا علميا خلال القرن 19 و الذي يرجع في تأسيسه إلى المغربي إبراهيم التناعمي الملقب بأبي راسد و القادم من الساقية الحمراء إلى هذه البلدة (سبها) في أواخر القرن الثامن الهجري (14 و) و هو في طريقه إلى الأراضي المقدسة لاداء فريضة الحج. بل نجد أن عددا من السلاطين الذين حكموا فزان ما بين 1550 و 1818 م من أصل مغربي و يعرفون بأولاد محمد الفاسي، أنظر :

أبو بكر عثمان الحضيري، م.س، ص 1341-1342 ثم 1344 هامش 6.

- B.N.P, MO, FA Man. 5693, FF . 1-2.

و مما يؤيد هذا الطرح استشاطه سلطان برنو غضبا، للمبادرة التي أقام عليها الحاج عمر إنجازا للوعد الذي قطعه على نفسه و هو في طريقه إلى الديار المقدسة، بخصوص وساطته لإيقاف الحرب المندلعة بين سكوطو و برنو عند العودة، وانحصرت هذه الوساطة تجنباً لاتهامه بالميل لهذا الطرف أو ذاك، على ما يبدو، في نظمه لقصيدة، و هو في الطريق صوب بحيرة تشاد، يحث فيها الجانبين على إسكات طبول الحرب، حقنا لدماء المسلمين و تحكيما لكتاب الله و سنة رسوله في فض النزاعات بينهما. و هي القصيدة التي رأى الكانمي في بعض مضامينها ما يشكل نوعا من اللوم الموجه له، و مع ما ينتج عن ذلك من تصدر للشيخ عمر و سطوع نجمه بالمنطقة و فرض نوع من الوصاية على حكامها، يقول مطلع هذه القصيدة التي تحمل عنوان : تذكرة الغافلين عن قبح اختلاف المؤمنين والمشتعلة على مائتي بيت :

وقال باسم الله فوتي عمر الكدوي بن سعيد ما افتخر
الحمد لله الذي قد أوجبا إصلاح ذات البين ثم هذبا
نفس الذي يصلح بين الناس فصار طاهرا من الأدناس¹

-Gerresch Deskais (C.), Tadhkirat al ghafilin, op. cité, p. 908. – 1

يظهر بجلاء من هذه الأبيات أن الحاج عمر بقيامه بهذه المهمة جعل من نفسه مصلحا و هاديا للجميع ، أكثر طهارة من غيره ، أمرا بالمعروف و ناهيا عن المنكر ، فهو بذلك صاحب معروف ، و الذي يسعى في الحرب صاحب منكر. و هذا ما كان يزيد من اشمئزاز الكانمي و كرهه له ، و يجعله يشعر بالدونية أمامه ، رغم أن محتوى القصيدة موجه إلى السلطانين المتحاربين معا ، سلطان بورنو و سلطان سكوطو.

و الواقع أن الأبيات التي توجه اللوم و التوبيخ بشكل غير مباشر للمسؤولين الرئيسيين على هذه الحرب كثيرة في هذه المنظومة الطويلة ، نقدم للإستشهاد بعضها منها فقط :

حرمة المومن أعلى و أجل و حرمة الكعبة عند الله جل
إذ هدم ذي الدنيا و كعبة أخف من قتل مومن بباطل فخف¹.

ثم قوله :

قد جاء في المائدة التحذير عن قتل ذي الإيمان و التنفير
إذ شبه الجبار قتل الواحد بقتل كل الناس حتى الساجد²

-Ibid, p. 912. – 1

-Ibid, p. 914.- 2

ثم قوله :

اعلم بأن كل فعل العسكر فعل أميرهم غدا في المحشر
إن كان ألف ألف قد قتل فإن قتلهم عليه قد حمل¹

ثم قوله :

لأن من يأمر بالقتال هو المحاسب على الجميع
فياله من هائل فظيع²

ثم قوله :

أقول صون الدين و المروءة في الصلح ثم غاية الفتوة.
اصطحا قبل زهاب العمر و سابقا هذا الوزر³
و ختم قصيدته بهذين البيتين :

و الحمد لله الذي ألهمني نصح عباده كما علمني
نختم بالصلاة و السلام على الذي كمل بالختام⁴

من جهة أخرى أورد الحاج عمر في مقدمة هذه القصيدة جملة من
الإستشهادات المستمدة من الكتاب و السنة التي ألهمته القيام بهذه المهمة.

-bid, p. 916. - 1

-Ibid. - 2

-Ibid, p. 926. - 3

-bid. - 4

فبرهن بذلك على طول باعه كعالم، و جعل صدر الكانمي في نفس الوقت يضيق و قلبه ينقبض، لما رآه من خطر عليه، و هذا ما يفسر لجوءه إلى محاولة اغتيال ضيفه كما سبق¹.

أما الإستشهادات التي أوردها لتبرير عمله من منطلق أن الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر واجب من واجبات الإسلام فكثيرة، منها الآيات القرآنية الآتية :

- ﴿و لتكن منكم أمة يدعون إلى الخير و يأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر و أولئك هم المفلحون﴾².

- ﴿و المومنون و المومنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر و يقيمون الصلاة﴾³.

- ﴿لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داوود و عيسى ابن مريم ذلك بما عصوا و كانوا يعتدون، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه﴾⁴. و من هذه الإستشهادات ما اعتمد فيها على الأحاديث النبوية و هذه بعض منها:

1 - عمر بن سعيد الفوتي، رماح حزب الرحيم...م.س، ج I، ص 201.

2 - Gerresch Deskais (C.), Tadhkirat al ghafilin, op. cité , p - 2

(سورة آل عمران، 104). 902.

3 - (سورة التوبة 71) Ibid -.

4 - (سورة المائدة 77-87). Ibid , p. 904 -.

- «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، وإن لم يستطع فبلسانه وإن لم يستطع فبقلبه و ذلك أضعف الإيمان» (رواه مسلم وغيره) ¹.

- « ما من قوم عملوا بالمعاصي و فيهم من يقدر عليهم، فلم يفعل إلا يوشك أن يعذبهم الله بعذاب من عنده ² » .

- « يا أيها الناس مروا بالمعروف و انهوا عن المنكر قبل أن تدعوا الله فلا يستجاب لكم قبل أن تستغفروه فلا يغفر لكم ³ .. » (رواه الأصبهاني).

هذا الموقف المطبوع بالحيلة و الحذر قبل الكانمي تجاه الشيخ عمر ، كما تحدث عنه بعض المصادر تأكد أيضا عندما لجأ الأول إلى إصدار أوامره بتتبع كل تحركات الثاني عن كثب، لمعرفة نواياه الحقيقية من خلال الأفكار التي كانت تصدر عنه في مختلف لقاءاته العلمية و الدعوة التي كان يهدف من ورائها إلى نشر تعاليم الطريقة التجانية على الخصوص، و قد مكنه عمله الجاد في هذا الموضوع من أن يجمع حوله جماعة من المريدين و المحبين و المتعاطفين ممن اختاروا التجانية طريقة ⁴.

-Ibid. – 1

-Ibid. – 2

-Ibid. – 3

-Robinson (D.), op. cité, p. 100.- 4

و ذهب في إطار فكره الإصلاحى إلى حد انتقاد بعض ممارسات رجال الدين المحليين، و العزوف عن الصلاة في المساجد معهم، و تكوين جماعة من المسلمين تابعة له¹. و بما أن سلطان البلاد كانت تصله أخبار هذا الداعية أولا بأول، فإن القطرة التي أفاضت الكأس، على ما يبدو، بخصوص القرار الملائم الذي يتوجب اتخاذ في حقه، تكمن في انخراط أحد أفراد الأسرة الحاكمة² في الطريقة التجانية، وانبهاره بالحاج عمر كشخصية تدعو إلى التجديد و الإصلاح، و نظرا لما يمكن أن يشكله مثل هذا التحول من خطر على نظام الحكم نفسه، فإن الكانمي أصدر أوامره بتحجيم أنشطة ضيفه أولا، ثم لجأ إلى محاولة اغتياله فيما بعد، مما جعل الحاج عمر يعجل بالرحيل عن البلاد.

و مما يتعارض مع صورة العداء هذا، في علاقة الكانمي بالشيخ عمر الفوتي، ما تقدمه مصادر أخرى من أخبار تفيد أن سلطان برنوربط علاقات جيدة مع داعية التجانية كما تشهد على ذلك الهدايا الثمينة التي قدمها له قبل رحيله، و ضمنها امرأة إسمها مارياتو Mariatu، صارت زوجة له و أنجبت له من أولاده مكي و عجيبو³ Agibou. غير أنه

-Ibib, p. 101. – 1

-Ibid, p . 100.– 2

-Tyam (M.A), la vie d'El Haj Omar, op.cité, p . 17. – 3

يمكن التوفيق بين موقفي العداء و الود هذين من قبل سلطان برنو نحو خصمه ، من منظور أن الكانمي عندما علم بقرار الحاج عمر بالرحيل عن البلاد ، و سعيًا وراء تلميع صورته اتجاهه و جبر خاطره ، لجأ إلى مجاملته بإغداق العطاء عليه ، في وقت تأكد فيه من حلول وقت استراحة البلاد والعباد من خطره ، عشية رحيله في اتجاه سكوطو Sokoto .

ب - أخبار الحاج عمر في سكوطو¹ : مهما كانت انطباعات الحاج عمر عن إقامته في سكوطو ، و كيف ما كان استأؤه من موقف سلطان برنو منه ، فإنه قد حقق الأهم ، عندما توقف في زرع بذور تعاليم التجانية بها ، بما ترك هناك من مريدين و مقدمين للطريقة ، سيعملون بدورهم على توسيع دائرة نفوذها في كل مرافق البلاد الإقتصادية و السياسية و الإجتماعية ، لكن كيف ستكون ظروف إقامته بسكوطو ، المرحلة التالية ، في طريق عودته صوب موطنه الأصلي ، بفوتاتورو على ضفاف نهر السنغال؟.

تسمح المصادر المتوفرة ، سواء المنسوبة للحاج عمر نفسه أو لغيره بإفادتنا بعناصر إخبارية أكثر تفصيلا ووضوحا عن إقامته بسكوطو ، وتبعث على الاعتقاد بشكل عام أن مهمته بهذا البلد كانت الأكثر إيجابية على الإطلاق رغم ما لقيه هناك أيضا من مضايقات ، مقارنة مع تجربته

1 - ترد هذه الكلمة مكتوبة في مختلف المصادر على عدة أشكال منها : سكوطو - سوكتو

-سكوتو- سكت... إلخ...

في برنو Bornou سابقا أو مع تجاربه في ماسينا و سيكو Ségou لاحقا.

وصل الحاج إلى سكوطو سنة 1831، في عهد سلطانها محمد بلو¹، ابن السلطان عثمان بن فودي، والذي كان وصل إلى حكم البلاد منذ حوالي خمس عشرة سنة قضى جلها في مقاومة استفزازات شعوب الهوسا، ومحاربة مملكة بورنو و مواجهة منافسة عمه عبد الله بالإضافة إلى المشاكل التي كانت تخلقها لها الإمارات الشمالية مثل كوبير Gobir، وكاتسينا، وكبي² وكذا مناوشات الطوارق³. وقد ساعده على التغلب على هذه الصعاب مجموعة القلاع التي أنشأها حول سكوطو. غير أنه ابتداء من سنة 1832 عرفت المنطقة فترة من السلم امتدت حتى سنة 1835⁴.

1 - تحدث صاحب تاريخ سكت Sokoto عن وصول الحاج عمر إلى هذه المدينة عائدا من المشرق من دون ذكر أي تاريخ لهذا الوصول، وأفاد أن الحاج عمر «ترك عياله في كنو Kano واتاه في سكت Sokoto وأمر له (السلطان محمد بل) بخمس مائة ألف من الودع.... أنظر : الحاج سعيد، تاريخ سكت، ضمن تذكرة النسيان، تحقيق هوداس، باريس، 1901، ص 191. أما المصادر التي تحدثت عن وصول الحاج عمر إلى سكت (سوكوتو Sikoto) بشمال نيجيريا سنة 1831 فيأتي في مقدمتها :

- Ly Tall (M.), op. cité .

- Robison (D.), op. cité, pp 101-102.

2 - الحاج سعيد، تاريخ سكت، م.س ص 189 و ما بعدها.

3 - نفسه.

4 - Robinson (D.), op. cité.

و قد استغل أحمد البكاي شيخ الطريقة القادرية الناطق باسم الفقهاء الكنتيين المقيمين بأروان و تمبكتو¹ ، التابعين نظريا لدولة ماسينا، ظروف السلم هاته ليقوم بزيارة محمد بلو في سكوطو قصد تجديد الروابط التي كانت تربط حكام هذه الإمارة منذ عهد محمد بن فودي أب محمد بلو بأبيه سيدي محمد و جده سيدي المختار منذ نهاية القرن 18 و الربع الأول من القرن 19 ، كما استغل هذه الزيارة للتباحث مع محمد بلو حول شؤون الدين و الجهاد باعتبارهما سليلي عالمين مرموقين بالسودان الغربي و حول الشؤون السياسية و الإجتماعية ، نظرا لما كانت تتعرض له القوافل التجارية في هذا المجال الواصل بين تمبكتو و سكوطو من تهديد و نهب على يد الطوارق على الخصوص في بعض الفترات ، فركزت المحادثات بينهما بدون شك على ضرورة القيام ، كل من جهته ، بما أن من شأنه أن يعيد الأمن و الطمأنينة للأقاليم المذكورة حتى تعود التجارة لازدهارها².

و قد أبدى أحمد البكاي بالمناسبة تعاطفا كبيرا مع محمد بلو ، و نزولا عند رغبته حول الغنى و الفقر ، كما أنشأ قصيدة تبرز أهمية الجهاد و تعدد فضائله³ ، و بما أن سلطان سكوطو كان في أمس الحاجة لهذا الدعم

-Ibid, p.102. – 1

-B.N.P, MO, FA Man .5599, FF. 10 à 28 – 2

-Ibid. – 3

المعنوي، فإن البكاي وجد عنده من حسن المعاملة ما أثلج صدره¹. ولم يكدر عليه صفو العيش خلال هذه الإقامة سوى وصول الحاج عمر إلى سكوتو و ترحيب محمد بلو به. فكيف ستتطور العلاقة بين أحمد البكاي القادري الطريقة، و الحاج عمر الفوتي التجاني بالطريقة، و هما في ضيافة نفس الأمير؟ إن محاولة الإجابة على هذا السؤال، انطلاقاً من المصادر المتوفرة، و بغض النظر عن مدى مصداقية مضامينها، ستقودنا حتماً إلى التطرق لأهم الأعمال و المنجزات التي قام بها الحاج عمر خلال إقامته الطويلة بسكوتو، و الروابط المتينة التي جمعتها بسلطانها الذي بلغت ثقته فيه حدوداً يصعب تصديقها كما سنرى.

إن التقاء أحمد البكاي بالحاج عمر الفوتي في سكوتو في فترة السلم المشار إليها شيء مؤكد بناء على ما ورد في رسالة من الأول إلى الثاني، تعود لسنة 1862 يقول فيها الشيخ البكاي عمر الفوتي «لقد لاحظت بعينيك المعاملة التي خصني بها محمد بلو²».

1 - و مما يؤكد هذه العلاقات الطيبة قصائد المدح المتبادلة بين أحمد البكاي من جهة و سلطان سكت محمد بلو و بعض أفراد أسرته من جهة أخرى، أنظر :

مخطوط رقم 147ع، الورقة 99 إلى 108. خزانة علال الفاسي، طريق زعير الرباط.

و بين هذه القصائد يرحب فيها محمد بلو بالحاج عمر و بأحمد البكاي في نفس الوقت، مما يثبت التقاء الشيخين في بلاد سلطان سكت بالفعل، أنظر نفس المصدر، الورقة 99.

-B.N.P, MO, F.A , Man. 5259, FF. 64 à 68 - 2

أما تفاصيل هذا اللقاء، فلم يتحدث أي واحد منهما في ما خلفاه من مؤلفات، و لذلك كل ما يتوفر من معلومات بخصوص هذا الموضوع، تم جمعه في وقت متأخر عن طريق الرواية الشفوية التي أعطت الإنتصار والإمتياز للحاج عمر في كل شيء بسكوطو، محققا بذلك نصرا كبيرا على خصمه البكاي. وهكذا تفيد هذه الروايات أن محمد بلو، احتراماً لأحمد البكاي، توجه للقاءه خارج أسوار المدينة، و طلب منه التوجه معه إلى داخل قاعدة حكمه لتتبرك به و أسكنه في نفس الجناح الذي يسكن به¹، و قد حدث هذا في نفس الوقت الذي كان يوجد فيه الحاج عمر في ضيافة هذا السلطان². وبعد مدة قصيرة من إقامة الشيخ عمر الفوتي بسكت Sokoto، طلب البكاي مقابلة هذا الأخير ليعرض عليه جوانب الضعف التي تشكو منها تعاليم الطريقة التجانية سعياً لإفساد سمعتها و تعطيل انتشارها.

و قد جرت المقابلة بالفعل بين الجانبين، كان أهم ما جرى فيها هو موقف البكاي الشخصي كفقيه من الطريقة التجانية التي اعتبرها تياراً صوفياً ممهداً للدين الإسلامي. و تبعاً لنفس الروايات فإن الحاج عمر الذي استمع في مخاطبه بإمعان حتى أنهى تدخله، عقب على ذلك بطرح بعض

- 1 Hampâté (Bâ Amadou et Daget (Jacques), de Macina, Paris, 1962, pp. 243-44.

- 2 مخطوط خزانة علال الفاسي، م.س، ورقة 99.

الأسئلة عليه، لم يستطع البكاي الإجابة عنها بشكل مقنع و مفهم كما كان ينتظر نتيجتها، كانت معركة إديولوجية بين القادرية و التجانية. و أمام هذه الهزيمة قرر البكاي مغادرة سكوطو¹ تجنباً للقاء خصمه مرة ثانية، حسب نفس المصادر. و استرشادا بهذه الرويات التي لا نستطيع دحض كل ما جاء فيها، فإنه يمكن الإطمئنان إلى أن سنة 1835 هي التي وقعت فيها المناظرة العلمية بين الكنتي و الفوتي، باعتبار أن نجم الشيخ عمر زاد سطوعاً ابتداءً من هذا التاريخ، و تعددت خدماته للسلطان محمد بلو الذي زاد تعلقاً به. ففي غضون هذه السنة نفسها، تحالفت قوات متكونة من كوبر Gobir وكشن² و الطوارق ضد محمد بلو الذي نظر بإعجاب لمبادرة الحاج عمر الفوتي إلى الإنخراط من أجل القتال في صفوف جيش سكوطو، نصرة لسلطانها و تدعيماً لحركة الجهاد التي يقودها خدمة للإسلام³. و قد ساهم بحظ وافر في الانتصار الذي حققه بلو على أعدائه⁴ في وقعة كاوكوكي Gawakuké، في شهر مارس من سنة 1836⁵.

1 - Hampâté (B.A.) et Daget (J.), op. cité, p. 244.

2 - هي المعروفة بكاتسينا KATSINA في العهد الإستعماري و الواقعة شمال كنو Kano، أنظر الخريطة.

3 - الحاج سعيد، تاريخ سكت، م.س، ص 192 و ما بعدها.

4 - الحاج سعيد، تاريخ سكت، م.س.ص 192 و ما بعدها، و قد رد المؤلف سبب هذه الانتصارات إلى بركة الحاج عمر و الكرامات التي ظهرت عليه.

5 - Robinson (D.), op, cité, p. 104.

و مكافأة له حسب ما يبدو على هذه التضحية أهدى الحاج عمر إحدى بناته، وهي مريم¹ التي أنجبت له حبيب و المختار قبل وفاتها سنة 1838، مما زاد تمتين العلاقات بين الطرفين، وإخلاص واحد منهما للآخر كما نلاحظ ذلك من خلال سلطان سكوطو إلى أولياء الأمور بفوتاتورو و التي يوصيهم فيها خيرا بالشيخ الفوتي الذي كان في طريقه إليهم².

إن تقدير محمد بلو للحاج عمر و كرم ضيافته له ببلاده نظرا لمؤهلات ضيفه المتعددة الوجوه و لورعه و علو كعبه في شتى العلوم، و للسند الذي قدمه له في عدة مناسبات، فات الحدود المعقولة. فعلاوة على تزويجه بإحدى فلذات كبده، نجده يطلق يديه في سوكو طو ليفعل ما يرغب فيها، خلافا للمضايقات و التهديدات التي تعرض لها في برنو³. وهكذا فبعد أن احترقت شهرته الآفاق في هذه البلاد، و كثر أتباعه، نشط في خدمة الطريقة التجانية، و صار يدعو مريديه، و من بينهم بعض كبار الدولة بسوكوطو إلى الإلتزام بمبادئ تعاليمها بالشكل الصحيح كتلك التي تدعو التجانيين إلى عدم زيارة الأولياء الأحياء منهم و الأموات، بل ذهب في ذلك إلى حد انتقاد محمد بلو نفسه بسبب زيارته المتكررة لقبر والده عثمان

1 - الحاج سعيد، تاريخ سكت، م.س، ص 198.

2 - Amar (Samb) "la vie d'El Hadj Omar par Cheich Moussa Ka-mara", B.I.F;A.N,B (1973),pp. 796 à 798.

3 - Robison (D.),op. cité, p .105.

ابن فودي¹. ونظرا لهذا التسامح غير المؤلف خصوصا بين القادرية والتجانية، واعتبارا لإسلام سلطان برنو كل أموره لضييفه و الإذعان إلى كل ما يأمر به، فإن هناك من روج أخبارا تفيد انخراط سلطان برنو نفسه في الطريقة التجانية، متخليا بذلك عن قدريته أو جامعا بين الطريقتين².

أما تمجيده للطريقة التجانية وشيوخها والإعتراف بفضائلها ونصح الناس على أتباعها، فهو أمر أثبتته الحاج عمر في رماحه، وأورد نص رسالة بلو المتضمنة لموقفه الإيجابي جدا من الطريقة التي يدعو ضييفه³ رعيته إلى التعبد بها، وتجنبنا للطول والملل، سنكتفي بالإستشهاد ببعض ما ورد في هذه الرسالة فقط.

حرر محمد بلو هذه الرسالة بناء على ما شاهده في رؤيا عندما كان والعالم العامل الولي الفاضل، أمير المومنين محمد بلو رحمه الله كتبها وأرانيها⁴. تحمل هذه الرسالة تاريخ ليلة السبت رابع عشر ربيع الأول سنة 1251 [1835]، وهي الليلة التي رأى فيها صاحبها وهو نائم، خاتم الأولياء سيدي أحمد التجاني قدم إلى بلاده، فهرع الناس إليه،

- Ly Tall (M.), op. cité, pp 118-119. - 1

-Robinson (D.), op. cité, p . 105.

- Ibid. - 2

3 - المراد به الحاج عمر.

4 - عمر بن سعيد الفوتي، رماح حزب الرحيم...، م.س ج I، ص 202.

و لما اقترب محمد بلو منه وجد عنده «الفالح السيد الرابع عمر بن سعيد قائدا وهو يقول له إن أهل هذا القطر لا يستفيدون علما إلى علمهم...»¹.

و مما يشد الإنتباه في هذا الخبر الوارد في نفس الرسالة ، وقوف الحاج عمر عنده، قبل مواصلة تدوين ما تبقى منها، ليبين لنا أن كلمة «قائد» الواردة في هذا السياق تعني في سكوطو نائب السلطان لأنه يقود الناس إلى الأمور الواجب اتباعها، و ينهاهم عن القضايا التي يجب تركها. وهذه المهمة من اختصاص الخليفة في نظره، و بذلك يبدو واضحا أن الحاج عمر بتأويله هذا لبعض ما ورد في مضمون رؤيا مضيئه، جعل من نفسه خليفة روحيا و زمنيا للمنطقة بتزكية من الشيخ المؤسس للطريقة التجانية.

و مما زاد من قيمة هذه التزكية، صدور الرؤيا المتضمنة لها عن سلطان البلاد نفسه، هذا السلطان الذي شافه الشيخ التجاني في نفس الرؤيا، و طبقا لنفس الرسالة التي ورد على لسانه «فقلت للشيخ بعدما سلمت عليه اعلم أنني من أحبابك و إنما أحببتك لله تعالى لا لسبب و لا لعلة²...». فهل يريد الحاج عمر من خلال هذا الكلام أن يقنعنا أن بلو صار من التجانيين³ ؟ مع العلم أنه من المسلم به أن يحب المرء شيئا و يبجله

1 - نفسه، ص 202.

2 - نفسه.

3 - تؤكد الباحثة المالية، ماديثالي طال Madina Ly Tall أن التجانية حققت بالفعل اختراقات على يد الحاج عمر في صفوف كبار الشخصيات النافذة في سكوتو، أنظر: Ly Tall (M.), op. cité, p . 119.

بسبب علمه و حبه للرسول صلى الله عليه و سلم من غير أن يلتزم
بأذكاره و أوراده.

و من الأمور الملفتة للنظر في هذه الرسالة و التي لا يمكن للباحث أن
يسلم بها بسهولة، ما ورد في نهايتها من كون محمد بلو، عندما كان
راجعا إلى حال سبيله في نفس الرؤيا، و عندما كان بصدد تنفيذ هذه
المهمة انتبه من نومه. و هنا يتدخل الشيخ عمر مرة أخرى معقبا على هذا
الخبر الذي أنهى به الرسالة ليفيدنا بأن سلطان برنو «ملأ إناء كبيرا بحب
الفجل و أتى به إلي و قال لي خذ ما أمرني شيخك له لأنك خليفته
ونائبه¹...».

إن استنطاق مضمون هذه الرسالة، مع تعليق الحاج عمر الفوتي عليها
و تأويل مقولاتها بالشكل الذي يخدم قضيته، هو الذي جعل بعض
الباحثين في تاريخ متأخر يجعلون منه شخصا طامعا في عرش سكوتو
بعد وفاة بلو² سنة 1837. لكن عندما تصدى عتيق لهذه المحاولة، معلنا
أنه من أحق بالحكم من غيره بصفته ابن الشيخ عثمان الفودي و أخ
الهالك³، قرر الحاج عمر الرحيل عن نيجيريا تجنباً لنشوب أزمة حكم بها⁴،

1 - نفسه، ص 203.

2 - الحاج سعيد، تاريخ سكت، م، س، ص 198.

3 - نفسه، ص 199 =

إلا أن هذا الأمر في نظرنا يبدو مجانباً للصواب، لأنه من جهة لا يتطابق مع ما عرف عن الحاج عمر من ورع و تقوى ووفاء و إخلاص لمن أحسن إليه، و هذا ما يجعلنا نشك في سعيه إلى إيقاظ الفتنة في البلاد. و من جهة ثانية، تفيد عناصر مصدرية أخرى، أنه خلافاً لما أوردته بعض الآراء عن طمعه في عرش سكوطو، Sokoto فهو على العكس من ذلك طلب من الجيش أن لا يتدخل في مشكلة الوراثة، و قدم كل العون و السند للسلطان الجديد عندما قاتل إلى جانبه¹ في بعض الحملات العسكرية ضد أعدائه، فضلاً عن الرسالة التي حررها بلو، كما سبق، فضلاً عن الرسالة التي حررها بلو، كما سبق، والتي يتأسف فيها عن مغادرة الحاج عمر لنجيريا مشبهاً فراقه بالموت².

يدعم هذا الرأي أيضاً الحاج عمر استعمل سكوتو كمحطة عبور فقط في طريق عودته إلى بلاده لتحقيق التغيير الذي يهيء له بها. و من المحتمل أن يكون بعض أتباعه قد سبقوه إلى فوتاتورو Futatoro وفوتاجالون Futajallon لإعلان قرب وصوله و إعداد الشروط الملائمة

- Hampâté (B.A) et Daget (J.), L'Empire peul de Macina, op, - 4 =
cité pp 245-246;

1 - الحاج سعيد، تاريخ سكت، م، س، ص 200 وما بعدها.

2 - Amar (S.), op. cité, pp. 796 à 798. -

بذلك، يشهد على ذلك مجيء أخيه محمد ألفا أحمدو¹ حتى سكوطو والتحاقه به بحثا عنه بعد أن تأخر وصوله كثيرا إلى أرض آبائه وأجداده. ومن المؤكد أن ألفا أحمدو أتى للبحث عن أخيه في إطار مهمة كلفته بها أطراف تنتظر حلول الحاج عمر بالبلاد بفارغ الصبر.

و لما طالت إقامة أحمدو بدوره بسكوتو لانشغال أخيه بالفترة الإنتقالية في الحكم بعد وفاة محمد بلو، وإعداد ما يلزم إعداده للعودة بعد الفترة الطويلة التي قضاها بهذه البلاد، توصل الحاج عمر بعدة رسائل من فوتاتورو تحثه على التعجيل بالعودة. و نكتفي بالإشارة إلى رسالتين من تلك الرسائل الموجهة إليه خلال سنة 1838، و التي يذكر أصحابها أن تأخره يجعلهم يعانون، كما أن حضوره بينهم سيمكنهم من معرفة ماشاهده و تعلمه في الديار المقدسة².

من المؤشرات الأخرى أيضا التي تدل على انعدام وجود أية نية عند الحاج عمر للإستيلاء على الحكم في نيجيريا أنه غادر سكوطو سنة 1839 بمحض إرادته، و في الوقت الذي اختاره لنفسه، معززا مكرما، محملا بالهدايا التي يصعب تحديد أهميتها و مكوناتها نظرا لكثرة عددها، على أن

1 - أفاد دافيد روبانسون أن وصول أخ الحاج عمر إلى سكوتو كان سنة 1838، انظر:

- Robinson (D.), op. cité, p. 105.

-BNP, MO, FA, Man. 5693, F°4 et 5681, FF°4-5. - 2

ما يميز قافلته و هو في طريقه إلى ماسينا كثرة العبيد بها، جزء مهم منهم حصل عليه من نصيبه في قسمه غنائم الحرب، و الجزء الآخر قدم له في شكل هدايا¹.

هذه الفاننة كما تصفها بعض المصادر عبارة عن مدينة متنقلة لما كانت تضمنه من أعداد كبيرة من الرجال و النساء و الدواب من خيول وبغال تحمل الحريم و الشيوخ و الأعيان و الأمتعة²، يضاف إلى كل هذا استمرار العلاقات الطيبة بينه و بين حكام سكوتو إلى ما بعد رحيله في اتجاه الغرب، كما أننا لم نعثر من خلال بحثنا على أية وثيقة تشير من قريب أو بعيد إلى حدوث تدهور في العلاقات بين الطرفين.

و يمكن القول أخيراً أن المدة الطويلة التي قضاها الحاج عمر بشمال نجيريا، و التي تتعدى عقداً من الزمن مع ما وفره له بلو من ظروف مكنته من إعداد بعض مقومات حركته الإصلاحية بما يلزم من رجال و مال و خبرة في شؤون السياسة، و تأليف كتب للتعريف بمذهبه، و اقضاء مؤلفات إسلامية أخرى من إنتاج آل فودي، علاوة على ما حمله من مصنفات في بلاد الحجاز. و هكذا عندما كان في طريقه إلى موطنه الأصلي عبر ماسينا، كان الحاج عمر يتوفر على رصيد لا يستهان به من القوة المادية و المعنوية، ساعده على فرض احترامه على الخاص و العام بالبلدان التي كان يمر بها.

- Robinson (D.), OP. cité, p. 106. – 1

- I bid. – 2

ج - أخبار الحاج عمر في ماسينا وسيكو

وصل الحاج عمر إلى مملكة ماسينا الإسلامية في غضون سنة 1839 على عهد السلطان شيخو أحمدو¹ (ت 1845) الفولاني الأصل الذي كان يحكم البلاد انطلاقاً من قاعدتها حمد الله². وكانت إقامته بها قصيرة مقارنة مع المدة التي قضاها في كل من برنو وسوكوتو، إذ لم تتعد سنة على أبعد تقدير، وقضى أقل من عام في سيكو Segou قبل أن يصل إلى فوتاجلون في نهاية سنة 1840. ويمكن رد تعجيله بالرحيل عن هذين البلدين إلى عدة عوامل أهمها:

1 - رغبته الأكيدة في العودة إلى بلاده تلبية لرغبة العديد من مراسيله.

2 - وعيه بنجاح رحلته وتحقيقها لكل الأهداف المتوخاة منها.

1 - تمكن شيخو أحمدو هذا Seku Amadou من تأسيس أول إمارة إسلامية ثيوقراطية فولانية في ماسينا Macina منذ سنة 1818، وهذا السلطان هو المعروف بشيخو أحمدو I. وبعد وفاته سنة 1845 خلفه في الحكم ابنه أحمدو شيخو II Amadou Seku الذي حكم البلاد حتى توفي سنة 1853، ليتولى الإمارة بعده ابنه أحمدو مو أحمدو Amadou mo Amadou أو أحمدو III (ت 1862)، انظر:

- Hampâté (B.A.) et Daget (J.), op. 234 et ss.
- ROBINSON (D.), op. cité, pp: 80-81-82; 94; 271.
- Ducoudray (E.), op. cité, p. 91.

2 - بنى شيخو أحمدو عاصمة جديدة له سنة 1821 على نهر باني Bani أحد روافد نهر النيجر الكبرى، وأطلق عليها هذا الاسم اعترافاً بفضل الله عليه .

3 - كثرة المضايقات والاضطهادات التي تعرض لها في هذين القطرين. ونظرا لأهمية هذا العامل فإننا سنعمل على التطرق إليه بشيء من التفصيل لتتضح الصورة أكثر ولنطلع بذلك على الخلفية التاريخية التي تتأسس عليها أحداث تاريخية لاحقة أخرى، عندما سيدخل الحاج عمر في حرب لا تبقي ولا تذر ضد كل من ماسينا وسيكو Segou في إطار حركته الإصلاحية التي رفع من أجلها لواء الجهاد المقدس بالمنطقة كما سيأتي.

يمكن تقسيم المصار التي نتحدث عن إقامته في ماسينا وسيكو إلى قسمين على الأقل، مصادر تنتمي للمعسكر العمري وأخرى لوجهة نظر الماسينيين، فإذا كان الصنف الأول من المصادر لا يعبر كبير اهتمام لهذه المرحلة الأخيرة من مراحل سفر شيخهم في طريق عودته، فإن مصادر ماسينا على العكس من ذلك تطلعنا على الكثير من أخبار الحاج عمر في نفس المرحلة، إلا أن منها ما هو مقبول ومعقول، ومنها ما هو ذاتي يصعب تصديقه بسهولة.

ويمكن تفسير اختلاف المعطيات ووجهات النظر حول بعض التفاصيل، في نظرنا، من جهة مصدرية إلى أخرى، بموقف كل طرف من الحاج عمر نفسه وحربه الجهادية. ففي الوقت الذي يرى فيه العمريون أن الجهاد المقدس الذي رفع لواءه شيخهم ما بين 1850 و1864 أتى لتخليص المنطقة من القهر والعبودية، ولتطهيرها من الشرك والوثنية والوقوف في وجه المسيحية، يرى الماسينيون أن ما قام به الحاج عمر حق

أريد به باطل، وأن جيشه عاث في الأرض فسادا باجتياحه لأراض يدين سكانها بدين الإسلام منذ قرون، وأن كل الذرائع الشرعية التي تستر خلفها واهية¹. ومن البراهين التي جعلنا نطمئن إلى وجهة هذا الطرح، أن المصادر التي تتحدث عنها كتبت في وقت متأخر عن وقوع الأحداث التي رافقت حركة الحاج عمر الإصلاحية التي كان من بين ضحاياها دولتا ماسينا و سيكو، Segou، وكثير من المعلومات التي وثقت هذه المصادر اعتمدت على الرواية الشفوية بعد وفاة الحاج عمر² بوقت طويل.

ما نريد أن نقوله بشكل مختصر، هو أن المصادر العمرية تجعل مرور شيخهم بماسينا وسيكو يتم بشكل عادي جدا، دون وقوع أي حدث مستفز ومهين له يحمله على اتخاذ موقف معاد لحكم البلدين المذكورين، ومستعد للانتقام لنفسه عندما يكون قادرا على ذلك، وحتى لا يقال

1 - هذا الموقف المعادي للحاج عمر ولحركته الجهادية من قبل الماسينيين لا زال هو السائد. وقد تأكد لنا ذلك من خلال تصريحات عدد غير قليل من المفكرين الماليين خلال الندوة التي دارت أشغالها بتمبكتو في غشت 1995 تحت عنوان: الثقافة العربية الإسلامية بإفريقيا جنوب الصحراء، غرب إفريقيا نموذجا، وقد نشرت أعمال هذه الندوة مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات بتونس سنة 1997.

وكان أكثر الأساتذة جدالا في هذه المسألة وعداء للحاج عمر الأستاذ إبراهيم باري Ibrahima Barry بصفته ماليا. وقد تعدت حدة النقاش بينه وبين الأستاذ صامبا ديانك Samba Dieng حدود اللياقة لأن الأستاذ الأخير سنغالي الجنسية متعاطف مع الحاج عمر ابن وطنه إلى حد كبير. بينما الأستاذ الأول يرى في الشيخ الفتوي غازيا لا أقل ولا أكثر.

2 - توفي الحاج عمر عام 1864.

أن ما جرى من حروب طاحنة بين الدولة العمرية ودولتي ماسينا وسيكو فيما بعد هو تفجير لهذا الحق، كما تقول بذلك وجهة نظر بعض مصادر الإماراتين الأخيرتين، والتي نقترح في ما يلي تقديم خطوطهما¹ العريضة.

تذكر روايات ماسينا من جملة ما تذكره أن شيخو أحمدو ملك البلاد طلب من الحاج عمر عند وصوله إلى العاصمة حمد الله أن يبارك في حياة حفيده أحمدو الثالث، لكن هذا الأخير الذي لم يكن عمره يتعدى عشر سنوات رفض هذه المباركة وشرع ييكي ويطالب بمغادرة المكان². وإذا كان أحمدو الثالث الطفل (ت 1862) هذا هو الذي سيكون ملكا على بلاد ماسينا في الوقت الذي سيهاجمها الحاج عمر ابتداء من سنة 1860، فإننا نستنتج بسهولة سبب رفضه التبرك بالشيخ الفوتي وهو طفل صغير، كما أرادت له ذك أخبار ماسينا، وكأنه تنبأ بما سيشكله عليه هذا الذي تطلب بركته من خطر³.

مثال آخر يفسر مرة أخرى رأيهم الخاص في تفسير الأحداث، ويتعلق الأمر هذه المرة بالتنافس الطرقي⁴ على بسط النفوذ بين القادرية

1 - نقصد وجهتي النظر.

2 - Hampâté (B.A.) et Daget (J.), op. cit., pp. 233 à 236.

3 - هذا يشبه إلى حد ما، ما وقع للسلطان المولى رشيد العلوي مع الدلايين قبل وصوله إلى الحكم.

4 - نقصد الطرق الصوفية.

ذات التاريخ الطويل في إفريقيا جنوب الصحراء الإسلامية والتجانية الحديثة العهد بها. فالقادرية المنتشرة بين سكان ماسينا، لم يرتح شيوخها لرؤية الحاج عمر يحل بهذه البلاد¹. ومن أبرز شيوخ القادرية كما هو معلوم أحمد البكاي الكنتي الذي حافظ على الإرث الصوفي لأبيه محمد وجده المختار الكنتي، الذي حملت الطريقة اسمه بالمنطقة فصارت معروفة بالمختارية الكنتية.

ولما كانت مدينة تمبكتو مقر إقامة أحمد البكاي، تخضع لنفوذ ماسينا الشكلي على الأقل، وبناء على أهمية الإشعاع الديني والثقافي للطريقة الكنتية بحوض نهري النيجر والسنغال وما جاورهما، مع ما يترتب على ذلك من ضرورة طلب خدمات شيوخها في الأمور الدينية والاجتماعية وحتى السياسية في أصعب الظروف، فإن الشيخ أحمد البكاي وهو يعرف مدى الاستفادة المادية والمعنوية التي كان يجنيها من مساعيه، كان كثير التردد على بلاطات حكام المنطقة كما رأينا في سوكتو Sokoto، وحسب ما تشهد به المراسلات بين الطرفين². وعندما حل الحاج عمر بحمد الله عاصمة ماسينا خاف أحمد البكاي على مكانته وحرك أنصاره من بعيد

1 - Robinson (D.), op. cité, p. 107.

- Ly Tall (M.), op. cité, p. 117.

2 - مخطوط رقم 147 ع ورقة 99 وما بعدها، خزانة علال الفاسي الرباط.

- Hampaté (B.A.) et Daget (J.), op. cité, pp. 273 à 286.

ضده، والعهد في ذلك على روايات ماسينا التي تتعمد في رأينا افتعال الأحداث المؤلمة ضد الحاج عمر لتبرر معاملته¹ القاسية لشعب ماسينا لاحقاً. كما أن المبالغة في إساءة الشيخ الكنتي للشيخ الفوتي، والتأكيد على موقف ملك ماسينا المؤيد للأول ضد الثاني، هو الذي يطعن في مصداقية الروايات الماسينية².

ومن الأمور التي لا خلاف فيها بين المصادر، حلول الحاج عمر بحمد الله عاصمة البلاد، وإعطائه دروساً بها لبعض الطلبة والمهتمين الذين تكاثروا عددهم³ شيئاً فشيئاً، موازاة مع إعطائه محاضرات في قضايا الشريعة الإسلامية بشكل عام، كان يعمل من خلالها على توطيد ركائز الطريقة التجانية ونشر تعاليمها على نطاق أوسع، فتمكن بذلك من تحقيق نتائج مهمة. ومن أبرز المريدين التجانيين الماسيين الذين ربحهم الحاج عمر إلى صفه، بمناسبة هذه الإقامة، والذي أبلى البلاء الحسن في الإخلاص للتجانية والمساهمة في كل عمليات الجهاد كقائد مقدام في الجيش العمري، الفقيه المختار بن وديعة الله المعروف يركي طلفي Yirkoy Talfé

1 - الضمير يعود على الحاج عمر.

2 - وقع بالفعل تحالف بين ملك ماسينا أحمدو الثالث، ومتصوفة تمبكتو القادريين المختارين بزعامة الشيخ أحمد البكاي من أجل القضاء على حركة الحاج عمر كما سيتضح لاحقاً.

3 - BNP, MO, FA, Man. 5519 FF°. 96-97. - 3

وكل أفراد عائلته¹ ثم الفقيه العلامة أحمد بن محمد كوريل Gorel².

وأمام هذا النجاح الذي أحرزه ببلاد ماسينا والشهرة التي صارت له بها، والقصائد التي صارت تنظم في مدح الشيخ الفوتي وطريقته من قبل المريدين الماسينيين، سيعمل الشيخ البكاي على إذكاء العداوة ضد منافسيه وتضييق الخناق عليه سرا حتى يجبره على الرحيل، موظفا في ذلك تلاميذه بالبلاد ووزنه لدى السلطات الحاكمة التي كان تصوفها قادريا. وقد أثمرت مساعي الشيخ البكاي الذي حز فيه رؤية تلامذته يقبلون على التجانية (حسب ما تفيدنا به المصادر المقربة من حمد الله)، الأمور الآتية:

1- تدخل شيخو أحمدو Seku Ahmadou I ملك البلاد شخصا لصالح القادرية، بإصدار أمره لبعض المريدين القادريين، يأمرهم بإنشاء قصائد هجائية ضد الحاج عمر والتجانيين لتكفيرهم والتشهير بهم، والعمل

1 - ترك المختار بن وديعة الله ثلاثة أبناء كرسوا حياتهم لخدمة التجانية وهم: المختار - أبو بكر ومالك . انظر:

- Robinson (D.), op. cité, p.272 et n. 10.

ومن تأليف المختار بن وديعة الله المشهورة:

- تأييدات ربانية للجماعة التجانية:

- تباكيات البكاي: انظر:

- BNP, MO, FA, Man. 5697, FF°. 29 À 42.

- BNP, MO, FA, MAN. 5599, FF°. 58 À 63.

- BNP, MO, FA, Man. 5519, FF. 96-97.

وتجدر الإشارة إلى أن المختار بن وديعة الله درس عند الكنتيين وتلمذ عليهم، وهذا ما زاد من

حنقهم.

على إقناع الناس بالتخلي عن طريققتهم. وقد نفذ أنصاره فعلا هذا الأمر وأنشأوا قصائد تمدح البكاي والقادرية وتنعت الحاج عمر بأقبح النعوت¹.

2 - لجوء بعض هؤلاء المريدين القادريين إلى سرقة مسودة أحد كتبه الأكثر أهمية ليلا، من أجل أخذ نسخة منه، والذي هو «رماح حزب الرحيم على نحو حزب الرحيم»، الذي كان على ما يبدو منهمكا في تحرير آخر فصوله، فاستاء جدا لما حدث، وألم به غضب شديد حسب نفس المصادر².

3 - لجوء حكام ماسينا إلى محاولة اغتياله، لأنه لم يعد يشكل خطرا على الشيخ البكاي والقادرية فحسب بسبب علمه وصلاحه، ولكن أصبح منافسا خطيرا للحكم، يجب التخلص منه في أقرب وقت، طبقا لنفس الروايات³.

4 - حظر نشاط الطريقة التجانية في البلاد بصفة نهائية⁴.
هذه باختصار هي أهم الأفكار التي روجتها أدبيات ماسينا في

- Robinson (D.), op, cité, p 108. - 1

- Ly Tall (M.), op. cité, p. 129.

- I bird. - 2

- Mage (Eugène), Voyage dans le Soudan occidental, PARIS - 3
1868, PP 143-144 et 154-155.

- BNP, MO, FA, Man. 5591, FF°. 96-97. - 4

موضوع إقامة الحاج عمر بها والتي بقدر ما تكشف عن وجود نوع من التحالف المصلحي بين الشيخ البكاي وحكام حمد الله بقدر ما تفسر التنافس القائم بين التجانية والقادرية على بسط النفوذ بالمنطقة. وقد أسفر تنسيق العمل بين البلاط الماسيني وحلفائهم من الفقهاء الكنتيين، وهو تحالف سيتضح بشكل أهم لاحقاً على إجبار الشيخ عمر الفوتي على مغادرة البلاد في اتجاه سيكو التي سيعمل الشيخ البكاي على الالتحاق بها قبل أن يغادرها خصمه لتصفية حسابه معه على ما يبدو. وقد كانت سيكو Ségou رغم كونها عاصمة إمارة وثنية تضم بعض الرعايا من المسلمين، وتربطها علاقات بالكنتيين، وما أن نزل الحاج عمر ضيفاً على بعض الجماعات الإسلامية بسيكو حتى حل بها البكاي يضيق الخناق عليه بعد أن حالت الظروف دون ذلك في ماسينا. ومن غير أن نعرف الكثير من التفاصيل عن إقامة الحاج عمر بسيكو، تخبرنا بعض الروايات بشكل غير مقنع أن مواجهة قد وقعت بين الشيخين هناك¹.

ومن الممكن أنه بعد فشل البكاي في هزم خصمه فكراً لجأ إلى الانتقام سياسياً، ويتضح ذلك من صدور أمر من ملك سيكو يقضي بسجن الحاج عمر لبضعة أشهر²، يحتمل أن يكون الشيخ الكنتي هو الذي يقف وراء

- Robinson (D.), op. cité, p. 109.- Ly Tall (M.), op.cité, p. - 1
129.

- I bid. - 2

هذا الإجراء الذي لجأ إليه الملك الوثنى بناء على نصائح البكاي المحذرة من خطر هذا الداعية التجاني الذي لا يمكن الاطمئنان إليه حيث ما حل. وبعد خروج الحاج عمر من سجن سيكو شد الرحال إلى مسقط رأسه،¹ ليستريح البكاي ومعه حكام المنطقة من منافسته، لكن هذه الاستراحة ستكون مؤقتة فقط لأن الشيخ الفوتي عندما سيصل بقواته فاتحاً إلى ماسينا وسيكو في بداية ستينات القرن 19، سيثأر لكل الإهانات التي لحقت به في هذين البلدين، وكل من تحالف معهما بما في ذلك البكاي، كما تجعلنا الوثائق المقربة من ماسينا نعتقد ذلك، على غرار ما حاولنا التنبيه إليه أكثر من مرة. إلا أنه من جهة أخرى وإعمالاً للعقل، واستقراء للأحداث، يمكن القول أن طريقة التعامل مع شعوب ماسينا وسيكو أثناء حربه معهما، ما كانت لتتم على غير ما تمت به حتى ولو لم يتعرض الحاج

- Robinson (D.), op. cité, p. 109. - 1

من جهة أخرى تشك الباحثة مادينا لي طال Madina Ly Tall في مصداقية الاخبار التي تقول بسجن الحاج عمر أو محاولة اغتياله، بدليل أن المصدر الأكثر تعاطفاً مع الشيخ الفوتي لم يتعرض لمثل هذه المحاولات، والمصدر هو: Tyam (M.A.), la vie d'El Hadg Omar - op. cité.

كما أن المصدر الأكثر تعاطفاً مع ماسينا لم يتعرض بدوره لأحداث السجن ومحاولات الاغتيال وهو: Hampâté (B.A.) et Daget (J.), op. cité. -

ثم تصنيف الباحثة (Ly Tall) مستدركة أن عدم تعرض هذين المصدرين للأحداث المذكورة، قد يكون سببه عدم رغبة هؤلاء المؤلفين في تسميم العلاقة بين أنصار الطرفين وهي العلاقات التي كانت على قدر غير قليل من التوتر سلفاً، انظر: Ly Tall (M.), op. cité, p. 129 -

عمر للمعاملة السيئة التي ربما اختلقتها المصادر المحلية، كما سنوضح ذلك في حينه، عنما نكون بصدد معالجة الغزو العمري للإقليميين المذكورين.

غادر الحاج عمر سيكو بعد خروجه من السجن مباشرة وتمت هذه المغادرة، في شهر مارس 1840¹ في اتجاه فوتاجلون التي بعث لحكامها رسالة يخبرهم فيها بقرب عودته وحلوله بينهم، لافتا انتباههم بنفس المناسبة أن الله جعل منه ممثلاً للرسول وخليفة للطريقة التجانية². غير أنه في طريقه إلى فوتاجلون توقف بعض الوقت في كانكان Kankan³ الواقعة على الضفة اليمنى لأعالي نهر النيجر، حيث استقبله حاكمها المسلم وبايعه، ووفر له بهاته البلدة التي تدين غالبية سكانها بالإسلام، كل شروط الراحة والطمأنينة⁴. ويبدو أن هدف الحاج عمر من هذا التوقف بهذا الجزء من الديار الغينية كان هو التعريف بنفسه، وبطريقته ومشروعه الجهادي الإصلاحى وكسب الأنصار إلى صفه.

وفي نهاية سنة 1840 حل بفوتاجلون وحط الرحال بتيمبو Timbo

1 - Robinson (D.), op. cité, 110.

2 - BNP, MO, FA, Man. 5732, FF°. 90 à 92.

3 - تقع في غينيا حالياً.

4 - Ly Tall (M.), op. cité, p. 130./-Robinson (D.), op. cité, p. 110-111.

عاصمة البلاد على الضفة اليسرى لأعالي نهر النيجر. ومما ساعده على سطوع نجمه بهذا الإقليم منذ وصوله إليه، أزمة الحكم التي كانت تعيشها البلاد بعد وفاة أميرها يحيى ودخول الطامعين في السلطة من أفراد الأسرة الحاكمة في حرب بينهم، فاستطاع الحاج عمر بحنكتة أن يقنع الفريقين بجعل حد للعداوة بينهما، وقبول حكم البلاد بالتناوب بين عمرا بن أخ الهالك وبين بوبكار Boubakar أحد أقرباء الأسرة المالكة¹.

وبفضل هذه المصالحة التي أعادت الأمور إلى نصابها زاد نفوذه المعنوي في البلاد، غير أن شتآنًا حدث بينه وبين أحد الحكام جعله ينسحب من العاصمة تيمبو Timbo² إلى مدينة جيكونكو Jegunko³ شرقا، وهي المدينة التي سيتخذها قاعدة أولية لتهييء أسس نشر الطريقة التجانية وتجديد الإسلام، ومحاربة الوثنية والمسيحية، ولم يكن بإمكانه تحقيق كل هذه الأهداف إلا بتأسيس دولة قادرة على رفع كل التحديات، لها جيش قوي ومخلص. وهذا لا يتأتى في نظره إلا بتربية جنوده تربية روحية أساسها الانضباط وحب الله ورسوله وأوليائه، إعلاء لراية الإسلام

1 - Robinson (D.), op. cité,/ - Ly Tall (M.), op. cité, p. 135 et ss. – p. 111-112.

2 - انظر الخريطة.

3 - Ly Tall (M.), op. cité, pp. 135 et ss. /- Robinson (D.), op. cité, – pp.111-112-113.

لنيل المطلوب. وبما أن الامتثال لتعاليم الشيخ والتقيد بكل أوامره ونواهيه من أهم القواعد الصوفية في علاقة المريد بشيخه، فإن الشيخ الفوتي سيخضع طلبته ومريديه لهذه القواعد، سعياً وراء تكوين جنود أكثر انضباطاً وامتثالاً لأوامر قائدهم. فكانت المدرسة التي بإمكانها تخريج مثل هذه الجنود في الزاوية التجانية وما توفره تعاليمها من قيم ومثل عليا، هدفها إعداد الإنسان الصالح الذي يؤمن بالله ورسوله وينهى عن الفحشاء والمنكر، ويقف في وجه الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون، ويأمر بالعدل والإحسان، ويساهم في إرساء دولة إسلامية تدين بتعاليم الإسلام الصحيح.

II - ظروف قيام الزاوية التجانية بالسودان الغربي.

قبل التطرق لموضوع قيام الزاوية التجانية بالسودان الغربي، وانتشار تعاليمها على أوسع نطاق على يد الشيخ عمر الفوتي، نرى أنه لا يمكن أن يتأتى بشكل واضح ومفيد إلا إذا أمطنا اللثام عن الأسباب الموضوعية التي كانت وراء ذلك، أي معرفة الوضع العام في أقاليم نهر السنغال وأسفله، والمناطق المتاخمة لها من كل الجهات، وهي الأقاليم التي شكلت مسرح انطلاق عمليات الدعوة لشيخ الطريقة وبناء قواعد دولته التجانية بها، قبل أن يغير وجهته شرقاً نحو بلاد كارطا Karta ونهر النيجر

الأعلى في اتجاه تمبكتو التي شكلت حدود إمبراطوريته الشرقية. فكيف وجد الحاج عمر بعد عودته من المشرق حالة هذه البلدان، سياسيا واجتماعيا واقتصاديا ؟

1- الوضع العام بالمنطقة: التردّي والاستياء نتيجة أسباب داخلية.

نقترح أولا إعطاء نظرة إجمالية عن خريطة أهم البلدان المعنية بالأمر في هذا المحور، والتي كان لها دور فعال في الأحداث بصفة مباشرة، مع الأخذ بعين الاعتبار الدور التاريخي، الفعال والمؤثر الذي لعبته فرنسا في صنع نفس الأحداث انطلاقا من مصب نهر السنغال بسان لوي St Louis، في إطار مشروعها الاستعماري الكبير بغرب إفريقيا، ولذلك فإن الحديث عن فرنسا كطرف قوي في تقرير مصير المنطقة المعنية بالدراسة يفرض نفسه بشكل كبير وملح.

إن الدول والإمارات التي نود التعريف بها والتركيز عليها توجد بصفة عامة في حوض نهر السنغال أو بعيدة عنه قليلا مثل كارطا شمالا، وفوتاجلون FutaDjallon وطامبا Tamba جنوبا. وتأتي أهميتها بالنسبة لموضوعنا من كونها تشكل الإطار الجغرافي الكبير الذي ولد فيه الحاج عمر مؤسس الزاوية التجانية بالسودان الغربي ونشأ فيه، لأن إقليم فوتاتورو Futatoro الذي ينتسب إليه صاحبنا يقع ضمن هذا الإطار، كما

توضح الخريطة ذلك، ناهيك عن ما تعج به أراضي هذه البلدان من خيرات معدنية وثروات فلاحية وبشرية، وقدم أهاليها في اعتناقهم للإسلام. لذلك لا نبالغ إذا قلنا أن نجاح مساعي الحاج عمر الدعوية والجهادية الأولى يرجع الفضل بشكل كبير فيها إلى الإمكانيات المتعددة التي تتوفر عليها نفس البلدان. ومما لا شك فيه أن الاستراتيجية التي أدت بالشيخ التجاني إلى هذا النجاح الأولي لنشر الطريقة التجانية بالسودان الغربي، بناها صاحبها على تصور محكم ومدرّس بشكل متقن لما للحاج عمر من خبرة بالميدان، فما هي إذن هذه الدول التي نود التعريف بها ؟

١ - مملكة غاجاغا Gajaga

تسمى أيضا غلام¹ Galam وتقع على الضفة الجنوبية لنهر السنغال عند نقطة التقائه بنهر الفاليمي Falemé الذي يشكل أحد روافده، كما تقع عند تقاطع الطرق البرية الآتية من السودان النيجيري شرقا ومن فوتا جالون وبلدان الماندينك Manding الغامبية جنوبا، وبلدان الساحل شمالا، وهي بذلك تحتل مركز الحركة التجارية النابض، مما جعل من السوننكي Soninke المسلمين الذين يشكلون معظم سكانها السود الأكثر ذكاء والأكثر مهارة في شؤون التجارة حسب شهادة موليان² Mollien،

1 - Bathily (A.), « la conquête française du haut fleuve (Sénégal) » - 1

1818-1887, Bulletin de l'I.F.A.N, Serie B, n°.1, 1972, p. 69.

2 - Mollien (G.), Voyage dans l'intérieur de l'Afrique aux sources du Sénégal et de la Gambie, fait en 1918, Paris, 1820, p. 166.

ومما زاد من أهمية هذا الموقع أن الذهب المستخرج من طمي نهر الفاليمي، والمعادن المتخرجة من تلال بوندو Bundu البلد المجاور والمصنعة في أفران عالية محلية، كل ذلك كان يمر عبر كُلام (كُاجاڠا).

وقد أفاد موليان Mollien أيضا أن بلاد كُلام كانت أحسن بلدان إفريقيا خصوبة بدليل ازدهار عدة محاصيل زراعية بها مثل: الدخن Mil -الأرز- الذرة - التبغ - القطن - النيلة L'indigo، فضلا عن أن الحليب والأسماك مادتان تشكلان غذاء السكان الرئيسي¹. ونظرا لثرائها الطبيعي وموقعها المتميز تعرضت البلاد لعدة تهديدات كما تشهد على ذلك محاولات جيرانه الأقوياء التي لم تكن وما ناجحة من أجل إخضاعها لسيطرتهم. وهكذا فإن جزءها الشمالي المسمى كُوي Goy، كثيرا ما حاولت قوتا الواقعة إلى الشمال منه ضمه، في حين نجد جزءها الواقع إلى الجنوب الشرقي المعروف بكاميرا Kamera أو كاجاكا العليا، كان غالبا ما يلجأ إلى التحالف مع الدولة العسكرية الوثنية البمبارية² أو طلب الحماية منها لتجنب الوقوع في قبضة الأعداء.

ولعل مثل هذا الخطر هو الذي فرض على إقليمي كوي Goy وكاميرا Kamera الاتحاد فيما بينهما بحد أدنى من الروابط، تحت سلطة حاكم

- I bid, p. 167. - 1

2 - نسبة إلى البامبارا Bambara وهي إثنية وثنية سوداء، وتوطن ببلاد كارتا Karta شمال شرق نهر السنغال.

يدعى تونكا Tunka، تم انتخابه من بين المرشحين الأكبر سنا عن الإقليميين¹. ومما كان يساهم في إضعاف مملكة كاجاكا إضافة لما سبق، دخولها في حروب مستمرة وطاحنة ضد بوندو Bundu من أجل السيطرة على تجارة الفاليمي Falémé، كما أنه خلال هذه الفترة، ونعني بها الثلث الأول من القرن 19، كانت بلاد فوتا الإسلامية، وبلاد كارطا الوثنية الأحسن تنظيما والأكثر قوة من كل الدول المحيطة بأعالي حوضي النيجر والسنغال، تطمحان إلى مد سيطرتهم ومجال نفوذهما على حساب الجيران. وبما أن كاجاكا Gajaga لها حدود مشتركة مع هاتين الدولتين، فإنها كانت تشكل على الدوام الضحية الأولى للهجمات التي تستهدفها من قبلها.

ومما زاد الوضع خطورة في كاجاكا وفاقم الأزمة السياسية التي كانت تنخر نظام الشيوخ المسنين الملكي، انخراط كوي Goy وكاميرا Kamera في نظام تحالفات مع مختلف القوى²، دون التنسيق مع باقي مكونات الدولة الأخرى، مما كان يتسبب في حدوث نزاعات مسلحة بين

1 من أجل اطلاع مفيد على هذا الموضوع يمكن الرجوع إلى:

- Bathily (Ibrahima Diaman), notices socia-historiques sur l'ancien Royaume soninke du Gadiaga, présentées et annotées par Abdoulaye Bathily, B.I.F.A.N, T 31, 1969.

- Flize (L.), Le Gadiaga, in Moniteur du Sénégal et Dépendances, Saint Louis, Mardi 15 Janvier 1857.

-Bathily (A.), op. CITÉ, P. 70. – 2

مختلف العشائر التابعة للأوليغارشيا الحاكمة داخل كاجاكا الكبرى، والمتعطشة للاستيلاء على الحكم دون غيرها بمساعدة قوى خارجية في غالب الأحيان، كانت تسعى إلى إضعاف المملكة التدريجي، حتى يسهل الاستيلاء عليها لأهميتها الاقتصادية والاستراتيجية، فضلا عن السلع التي كانت تأتيها من السودان النيجيري مثل الذهب والعبيد والعاج، وبفضل المقومات الاقتصادية صار المجتمع الكاجاكي مجتمعا طبقيًا منذ عدة قرون غير أنه خلال العقدين الأولين من القرن التاسع عشر، وعشية وصول الحاج عمر إلى المنطقة انقلب رخاء هذه البلاد إلى نقمة عليها، ووصلت إلى أقصى درجات الضعف بسبب الانشقاق الذي حدث بين إقليمي كوي Goy وكاميرا Kamera سنة 1833¹، ومن جراء اندلاع حروب أهلية في كل جهة من البلاد، لم يكن الحكام من رجال الدين المسلمين، وهم يساهمون في تجارة العبيد في المستوى المطلوب للمساهمة في وقف الانهيار الذي ساهمت فرنسا من جهتها في صنعه إلى حد كبير بانتهاج سياسة فرق تسد

ب - جديماخا Gidimakha.

تقع هذه البلاد على الضفة اليمنى لنهر السنغال الأعلى وروافده نهر البافينك Bafing، وهي مأهولة أيضا بالسونينكي Soninke، وتتكون من عدد كبير جدا من القرى الغنية فلاحيا وتجاريا، مستقلة تماما بعضها عن

I bid, p. 70. - 1

البعض الآخر¹ (جاجيلي Jagili، بامبيللا Bambela، دجوكونتورو-Djogun-turo)، مع الأخذ بعين الاعتبار أن المدن الواقعة قرب النهر، أو بعيدة عنه قليلا بين الوادي ومرتفعات أزابا Asaba، كانت في معظمها، نظريا تابعة لكاجاكا، وهي التبعية التي كانت تستند على قرابة الدم بين عائلة كاجاكا الأميرية وبين المهاجرين إليها، وينتج عن هذا أن دور جديماخا في النزاعات العسكرية والسياسية بين الإمارات المكونة للبلاد كانت محدودة، تكاد تنحصر في توزيع بعض المواد الضرورية كالدخن، على الجنود، لضمان سير الحرب، وغالبا ما كانت في حروبها تتحالف مع كاجاكا Gajaga.

غير أنه طيلة حقبة تاريخها، وخصوصا في الفترة التي تهمنا، كان عليها أن تواجه الضغط المستمر للمور Maures الذين كانوا يشنون غارات سلب ونهب على القرى، فيأتون على الأملاك ويأسرون الأطفال، وهؤلاء المور² كانوا ينتمون لقبيلة إد وعيش الشديدة البأس وإلى قبيلة اولاد مبارك³، الأولى كانت تمارس حياة الترحال بين تاكانت Tagant

1 - تجدر الإشارة إلى أن دراسة سان بيير Saint-pierre مفيدة جدا في موضوع أصول

جديماكا، انظر:

- Saint-Pierre (J.H) <les Sarakollé du Guidimakha>, Bulletin du Comité d'etudes historiques et scientifiques de l'A.O.F, Paris. La rose 1925. Introduction.

2 - المقصود بهم الموريطانيون.

3 - Bathily (A.), op. cité, p. 71.

والسنغال، بينما الثانية كانت تتحرك بين أدرار ونفس النهر. والجدير بالذكر أن جديماخا كانت من البلدان الأولى بأعالي النهر التي أعلنت ولاءها للحاج عمر، لأن السونينكيين الذين تتكون منهم أغلبية سكان البلاد كانوا في معظمهم مسلمين من الناحية النظرية على الأقل، إذ نجد الأسر ذات المرجعية الإسلامية في جديماخا تفتخر باعتناق أسلافها الإسلام منذ عدة قرون¹، ونظرا للأزمة السياسية والاقتصادية الخانقة التي أصبح السكان يعيشونها خلال النصف الأول من القرن 19، فإنهم رحبوا بدعوة الحاج عمر².

ج - بلاد بوندو Bundu

توجد هذه البلاد على الضفة اليسرى لنهر الفاليمي عند اقتراب التقائه بنهر السنغال وإلى الجنوب من كاجاكا التي تخلت عن بوندو بشكل سلمي³ وإرادي بقرار من تونكا Tunka (ملك) كوي Goy لصالح الامام مالك سي L'Almamy Malik Sy مؤسس مملكة الفولاني المسلمة⁴ حوالي النصف

1 - Fond Brevié, cahier N°10, IFAN (U.C.AD) Dackar, p. 132.

- Robinson (D.), op, cité, p/143.

- Robinson (D.), op, cité, p/149 et n 48. - 2

- Kamara (Ch. M), Histoire du Bundu, traduction et annotation - 3
par Moustapha N'Diaye, Bulletin de l'I.F.A.N, serie B, N°4, 1975, P. 784
et ss.

- Raffenel (A.) Rapport sur le pays de Galam, le Boundu et le - 4
Bambouk...extraits des Annales maritimes et coloniales, Paris.1844, pp.
27-28

الأول من القرن 17. ويرد كورتان Curtin سبب توظيف مالك سي للقب الإمام إلى تأثره بحركة ناصر الدين¹ الإصلاحية في المنطقة التي أجهضت لكن دون أن تخبو جذوتها في المنطقة.

وتتجلى أهمية بوندو من الناحية الاقتصادية في قدراتها الفلاحية الكبيرة التي جعلت منها مخزنا للحبوب Grenier بالسنغال الأعلى، بحيث أن الدخن على سبيل المثال يكثر على اختلاف أنواعه. ومما يفسر هذا الازدهار في الميدان الفلاحي ان جحافل كثيرة من البشر ومواشيهم كانت تقصد هذه البلاد باستمرار آتية من البلاد المجاورة في السنوات العجاف وفترات العوز والحاجة. كما أن قطعان بوندو Bundu من الثيران والخرفان والماعز السمينة كانت على الدوام عرضة لهجمات سونينكي Soninke كاميرا، حلفاء البامبارا Bambara الأشداء².

أما الفولانيون المستقرون الذين كانوا يشكلون غالبية السكان فقد عرفوا كيف يوفقون بين الفلاحة وتربية الماشية، وهذا ما يفسر ذلك الازدهار الذي جعل من بوندو البلد الذي يحقق الاكتفاء الذاتي من دون دول السنغال الأعلى الأخرى، والبلد الذي يلجأ إليه الفارون³. ونظرا

1 - Curtin (P.D.) Jihad in West Africa, Early phases and interrelation in Mauritania and Sénégal, journal of africa History, XII, I, 1972, PP. 18-19.

- Ly Tall (M.), op. cité, p. 27.

- Bathily (A.), op. cité, p. 71. - 2

- Ly Tall (M.), op. cité, p. 28. - 3

لموقعها المتوسط بين طرق القوافل التجارية الرابطة بين السودان النيجيري وأعالي نهر السنغال وروافده، والرابطة بين كوي Goy وفوتاجلون، فإن بوندو رغم عدم توفرها على ساكنة مهووسة بالتجارة فإنها مع ذلك لم تنج من أطماع القوى الغازية. إلا أنه رغم ذلك وعلى عكس كاجاكا، فقد نجحت بوندو إلى حد ما في المحافظة على استقلالها والانفلات من الهيمنة التي كانت بلاد فوتا تريد فرضها عليها، بل زادت في مساحة أراضيها إما عن طريق الحرب المستمرة والدبلوماسية أو هما معا على حساب كوي Goy وإمارات الماندينك Manding الغامبية جنوبا (تيندا Tenda، نياني Niani، وولي Wuli)، وختمت هذه السلسلة من الإنجازات الموفقة بضمان سيطرتها الفعلية على مجرى الفاليمي Falémé.

في فجر القرن 19، تعرضت بوندو Bundu لأزمة سياسية خطيرة، هددت وحدة البلاد. من جراء صراعات حادة على الحكم بين فرعي الأسرة الحاكمة، أحدهما كان يحكم شمال بوندو والآخر جنوبها¹، ودخلت بسبب ذلك في مرحلة من عدم الاستقرار كان من شأنها إضعاف سلطة الامام حاكم البلاد الزمني والروحي، زاد من حدتها تعدد الثورات المتفرقة والمستمرة هنا وهناك، أذكتها على الخصوص الاثنيات الوثنية (فادوبي Fadube، أقليلت المالينكي بالجنوب)، التي كانت تنظر باشمئزاز لما كانت

- Bathily (A.), op. cité, p. 72. - 1

تبذله الأسرة المالكة من جهود دعوية لنشر الإسلام، وللتعبير عن رفضها في نفس الوقت لثقل الضرائب المتنوعة التي كانت تنهك كاهل السكان المغلوبين على أمرهم.

لكن ما أضعف بوندو Bundu كثيرا هو التدخل الفرنسي في البلاد التي شكل موقعها طيلة القرنين 18 و 19 آخر محطة للطرق التجارية نحو غامبيا¹ وشهرتها بطريق العبيد التي تربط السودان النيجيري بالمراكز التجارية الانجليزية في غامبيا. ونظرا لهذه الأهمية إن الفرنسيين راهنوا في إطار سياستهم الاستعمارية على منافسة الانجليز في المنطقة للعمل على تحويل الطرق التجارية إلى الجهة التي يسيطرون عليها تجاريا في نهر السنغال، وهي بلاد كلام Galam (كاجاكا Gajaga)²، إلا أن الانجليز لم يبقوا مكتوفي الأيدي، فصارت هاتان القوتان الأوروبيتان المتنافستان تغازلان إمام بوندو وتحيطانه بأحسن المعاملة، مما انعكس سلبا على الرعية التي كانت ترى في ذلك تهديدا لاستقلال البلاد، ومسحا لهويتها الإسلامية³.

1 - Bathily (A.), Imperialisation and colonial expansion in Sénégal in the nineteenth century with particular reference to economic social and political developments of the Kingdom of Gajaga, Center of west Africa studies of Birmingham, 1975, pp. 57 et ss.

2 - I bid. - 2

3 - Ly Tall (M.), op. op. cité, p. 28. - 3

د - بامبوك Bambuk

تقع هذه البلاد في الزاوية الشرقية التي يشكلها التقاء نهر السنغال، برافده نهر الفالمي Falmé، وأغلبية ساكنتها من المالينكي Malinke المسلمين، تشتمل أراضيها على أغنى مناجم الذهب والحديد على الإطلاق بالسودان الغربي¹، وقد اخترقت شهرتها الآفاق منذ العصور الوسطى باعتبار أن ذهب بامبوك وبوري Bouré أسال لعب التجار والمستكشفين الأجانب والأمراء المحليين والملوك المجاورين الذين حاولوا السيطرة على إنتاجه وبيعه على امتداد عدة قرون²، لكن طبيعة البلاد المتضجرة، ومعارضة سكانها العنيدون أفشلت كل مشاريع الهيمنة.

وقد ظلت بامبوك عبارة عن مجموعة من الكيانات الصغيرة ذات الاستقلال الذاتي، والمنفصلة بالتالي بعضها عن بعض³ مع ملاحظة أن أهم مراكزها السياسية الواقعة حول مناجم الذهب كانت هي: تامبورا Tamboura، سيرمانا Sirmana وفربانا Farbanna التي كانت عبارة

1 - Bathily (A.), la conquête française..., op. cité, p. 72.

2 - Pascal (S.L.) <Voyage au Bambouk et retour à Bakel>, RAC, 1860, pp37 à 64.

3 - Gautier (E.F), l'Or du Soudan dans l'histoire, Annales - 2 d'histoire économique et sociale, n° 32, 31 Mars 1935, pp. 113 et ss.

- Carrère (F.), et Paul Holle, de la Sénégalie Française, Paris, - 3 1855, pp. 170 et ss.

- Robinson (D.), op. cité, p. 145.

عن مدينة حرة شكلت مكان لجوء لكل العبيد الفارين من مناطق أخرى.
ومما يميز ساكنة هذا الإقليم المالينكية الأصل، تعلقها بالوثنية رغم
الإسلام الشكلي لعدد غير قليل من الأهالي¹ وعداؤها للإسلام ورفضها
الانصياع لحكم الدول الإسلامية التي كانت في نظرها توظف الدين
للاستيلاء على ثروات البلاد الثمينة كما تشهد على أطماع بوندو Bundu
في مناجم كينيبا Keneba من جهة الغرب وأطماع بلاد كارطا الوثنية التي
هددت استقلال البلاد عدة مرات من جهة الشرق. أما فرنسا فلم تدخر
جهدا للوصول إلى ذهب بامبوك، فوظفت من أجل ذلك كل الإمكانيات
المادية والبشرية بإرسالها لعدة بعثات استكشافية ومغامرين على طول
القرنين 17 و 18، وخلال جزء مهم من القرن التاسع عشر 19، إلى أن
تمكنت من بسط هيمنتها بشكل رسمي في نهاية نفس القرن بعد أن واجهت
منافسة دول أوروبية أخرى في المنطقة كالبرتغال وإنجلترا وهولندا.

ومما يلفت الانتباه في هذه البلاد أنه رغم ثرائها المعدني الكبير فإنها
لن تلعب دورا سياسيا جهة الشرق. أما فرنسا فلم تدخر جهدا للوصول إلى
ذهب بامبوك، فوظفت من أجل ذلك كل الإمكانيات المادية والبشرية
بإرسالها لعدة بعثات استكشافية ومغامرين على طول القرنين 17
و 18، وخلال جزء مهم من القرن التاسع عشر²، إلى أن تمكنت من بسط

- I bid, p. 143. - 1

Saint Martin (Y.), l'Empire toucouleur et France, un demi siècle - 2
de relations diplomatiques (1864-1894)-Dakar, 1966, pp. 55-56.

هيمنتها بشكل رسمي في نهاية نفس القرن بعد أن واجهت منافسة دول
أوروبية أخرى في المنطقة كالبرتغال وإنجلترا وهولندا.
ومما يلفت الانتباه في هذه البلاد أنه رغم ثرائها المعدني الكبير فإنها
لن تلعب دورا سياسيا مؤثرا في المنطقة، بل على العكس من ذلك كانت
مستهدفة من قبل الكثير من القوى الخارجية والمجاورة كما رأينا، غير أن
نقطتي ضعفها الكبيرتين في نظرنا، تكمن أولا في التكوين الطبقي
لساكنتها، مما يترتب عن ذلك من استغلال بشع للمهتضعين على يد
الأغنياء، وتكمن نقطة الضعف الثانية في تجزئة البلاد إلى إمارات مستقلة
بعضها عن بعض. ومثل هذا الوضع لا يساعد بطبيعة الحال على تحقيق
وحدة البلاد الكبرى وتماسكها ضد الأخطار الخارجية على المدى الطويل
في غياب أية إيديولوجية دينية ذات مبادئ سامية كالإسلام مثلا قادرة على
توجيه الأمة نحو هدف واحد، وهذا ما جعل الحاج عمر يدخل البلاد فاتحا
سنة 1854، رغم انعدام الوحدة السياسية بها، بحيث كان عليه أن يفاوض
كل زعيم من زعمائها الوثنيين على حدة، ولم يصعب عليه سوى زعيم اقليم
سيرمانا Sirmana، المسمى ماندا كاؤولي Manda Kawulé الذي رفض
الدخول في الإسلام، فخاض الحاج عمر ضده حربا ضارية مات ماندا على
إثرها¹، ولم يكن لهذا الفتح أن يتم لولا التفات الأغلبية العظمى من السكان

1 - Bathily (A.), la conquête française ..., op. cité, p. 72.

- Tyam (M. A), Qacida en poular, op. cité, pp. 34 et ss.

المقهورين والمستضعفين حوله.

هـ - بلاد خاسو Le Khasso¹

تقع على ضفاف نهر البافينك Bafing، أحد روافد نهر السنغال، عند اقتراب التقائه بهذا الأخير، تمتاز تربة أراضيها بخصوبتها من جراء كثرة الأنهار التي تسقيها، وهذا ما يفسر ازدهار الرعي والقصص بها. وبموقعها هذا تشكل بلاد الخاسو بوابة النيجر الأعلى. وأضحت منطقة عبور للقوافل التي تربط المسافات النيجيرية ببلدان الحزام الغابوي الغيني (كونكودوكو Konkudugu، واسولو Wasulo، كانكان Kankan). كل هذه المؤهلات المتعددة جعلت من الخاسو Khassou سوقا حقيقية للعبيد المعد إما للخدمة المنزلية أو للتجارة².

أما المملكة نفسها فيرجع تاريخ تأسيسها إلى النصف الثاني من القرن 17 على يد الغزاة الفولانيين الآتين من باخونو Bakhunu الواقعة إلى الشرق من نيورو Nioro ببلاد كارطا، والذين فرضوا أنفسهم على السونينكيين الذين اقتلعت أجزاء من أراضيهم لصالح الدولة الجديدة، وشمل هذا الاقتطاع أراضي جومبوخو Jombokhu وجافونو Jafunu،

1 - للاطلاع على نظرة مركزة حول هذه البلاد يمكن الرجوع على الخصوص إلى:

- Mody cissoko (S.) <contribution à l'histoire politiques des royaumes du Khasso dans le haut Sénégal, des origines à la conquête française 17e s à 1890>. Docteur d'Etat, Université de Paris, 1979.

- Monteil (CH.), les Khassonke. Paris, le Roux, 1915.

2 - Bathily (A.), la conquête française ..., op. cité, p. 73.

وبسرعة كبيرة تم اندماج واختلاط بين الغزاة والسونينكي المحليين وتجمعات المالينكي، ترتب عنه ولادة لغة الخاسونكي Khassonke المستعملة في المنطقة بكاملها¹.

في بداية القرن 19، كانت بلاد الخاسو قد دخلت في حرب أهلية شديدة الدمار وقبلها كانت قد تعرضت للانقسام إلى عدة إمارات متناحرة في هذه الضفة أو تلك من نهر السنغال: على الضفة اليسرى توجد مثلاً إمارات مدينة Medine، خاسو صامبايا Sambaya أو خاسو الحقيقية، ثم إمارة اللوكو Logo، إمارة ناكাকা Nacaga. على الضفة اليمنى يتعلق الأمر بإمارة كونسيكا Koncega، ثم إمارة كولو Kulu، ثم إمارة طامورا Tamora وإمارة لوسوكا Le Souga.

كل هذه الكيانات داخل خاسو، لم تسع إلى الوحدة فيما بينها، بل على العكس من ذلك دخلت في تحالفات وتحالفات مضادة بين الأسر الحاكمة وكونيكاري Koniakary مثلاً عاصمة السونينكي القديمة التي كانت مستعملة كمركز للوحدة والتوحيد السياسي، ولذلك لم يعد لها ذلك النفوذ، وهذا ما أدى بالقوى الخارجية إلى النجاح في اختراق البلاد سياسياً وعملياً عندما تمكنت دولة كارطا الوثنية المجاورة من إبرام اتفاقية تحالف سنة 1808² مع صافيري Safere أحد الأمراء الطامعين في العرش ضد

1 - I bid.

2 - Ibid; p 73.

ديمبالا¹ Dembalba، فوجدها جيوش البامبار فرصة سانحة مكنتها من اجتياح البلاد ونهب الأموال²، وأسر الرجال والنساء، بعد أن احتلت العاصمة القديمة كنياكاري Koniakary، وكان من نتيجة هذا الانهيار الشامل طرد الأمراء الكاسونكيين من مدينة مدينة Medine وإبعادهم إلى الضفة اليمنى للنهر³. وهذا يعني أن بلاد الخاسو المهددة بتوسع وثنبي بلاد كارطا البامبارا، وجدت نفسها عاجزة عن استجماع أية قوة للمقاومة، وسوف لن تزيد حالتها بعد انتشار الفوضى وانعدام الأمن الذي قل معه الانتاج فلجأ الحكام إلى مزيد من فرض الضرائب التي أحدثت تدمرا عاما.

والواقع أن هذه الانقسامات لم تبلغ أوجها إلا بعد وفاة موحد البلاد هاودا ديمبالا Hawa Dembalba سنة 1833، وتزايد الاطماع الفرنسية في البلاد التي زارها والي سان لوي St Louis دوكرامون Bourdin se Grammont سنة 1847 مطالبا بإنشاء مركز تجاري في مدينة Médine⁴.

و - بلاد فوتاتورو Futatoro

تقع في الحوض الاسفل لنهر السنغال، تطل على المحيط الأطلسي،

1 - الحاكم الفعلي.

2 -Monteil (Ch); op. cite; p. 31.

3 -Perraut (lieutenant); <Rapport sur son Voyage à Nioro in Moniteur du Senegal et Dépendance;op. cite4; Mardi 1er Aout 1865; p.148.

4 -LY Tall (M); op. cité; pp. 23-24.

وهي موطن الحاج عمر الذي عرف الاسلام منذ عدة قرون خلت، إذ يعود اعتناق أهاليها هذا الدين إلى القرن الحادي عشر الميلادي على الأقل¹، على يد حركة عبد الله بن ياسين، ومنذ ذلك الوقت وإلى اليوم صار الإسلام عقيدة الأغلبية الساحقة من السكان. غير أنه خلال القرن 17، عصر ازدهار تجارة الرقيق بغرب إفريقيا تعرض الإسلام بفوتاتورو لبعض الهزات التي أبعدت الناس عن التشبث بالتعاليم الصحيحة لهذا الدين². ويرجع السبب في ذلك بالدرجة الأولى إلى الطبقة الحاكمة التي كانت معرفتها بالإسلام سطحية منذ دخول هذه الملة إلى المنطقة، فلا يمارسون من الشعائر إلا ما سهل عليهم مع محاولة تطويع بعضها وملائمته مع العادات والتقاليد الموروثة. ومع أن هاته المرونة ساهمت بالفعل في تزايد عدد المسلمين بإفريقيا جنوب الصحراء، إلا أنها في نفس الوقت أبعدتهم عن الإسلام السني ومقاصده وغاياته، وحالت بذلك دون سعيهم إلى الاهتمام بالفقه الإسلامي للتأكد من مشروعية معاملاتهم الدنيوية من بيع و نكاح وإرث، وظروف الاسترقاق والعنق، وللتبث من سنية العبادات التي يقومون بها

1 -Kane(o)le Futatoro des Satigi aux Almami; (1512-1807)/ Dakar 1986; T1; pp. 383 et s.

— فانسان مونتاي، الاسلام في إفريقيا السوداء، ترجمة إلياس حنا إلياس، بيروت 1983،

ص93.

2-Ly Tall (M); op. cité; p. 41.

حتى ينالوا رضى الله ورسوله.

هذه اللامبالاة في نظرنا مع ضعف الإيمان هي التي حملت الحكام ومعهم الرعية في القرنين 17 و18 على الاشتغال بتجارة الرقيق وتحقيق أرباح كبيرة بها دون الاكثرات بما قد ينجم عن ذلك من اكتناز أموال الحرام عن طريق الاتجار في رقاب عباد الله من دون موجب شرعي.

وما ينطبق على إقليم فوتاتورو في هذا الصدد ينطبق أيضا على باقي بلدان السودان الغربي. ولمزيد من المعلومات في هذا الموضوع والتأكد من صحة ما نقول بشكل مفصل، يمكن الرجوع بشكل خاص إلى أسئلة الاسقية وأجوبة المغيلي¹، ثم معراج الصعود إلى نيل حكم مجلوب

السود².

ومعلوم أن أولئك الذين لا يتورعوا عن مراكمة الأموال عن طريق تجارة الرقيق لا يجدون أدنى حرج في ارتكاب محاذر كالغزو والسلب والنهب والسبي، واستغلال المستضعفين من الطبقة الدنيا من الرعية. وبما أن الجنوب الموريطاني لا يفصله فوتاتورو سوى نهر السنغال، فإن قبائل الترارزة والبراكنة نشطت أيضا في تجارة الرقيق وأسكتت

1 - محمد بن عبد الكريم المغيلي، أسئلة الاسقية وأجوبة المغيلي، تقديم وتحقيق عبد القادر زبادية، والحركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر. د. ت.

2 - أحمد بابا التمبكتي، معراج الصعود إلى نيل مجلوب السود، مخطوط رقم 7248، الخزانة الحسنية، الرباط، ثم رقم 1724 بالخزانة العامة بالرباط، ضمن مجموع.

أصوات الزوايا المنددة، بل وحاربت شيوخها واستفادت إلى حد كبير من هذا الجوار الذي يضمن ازدهار تجارة الصمغ وتجارة العبيد التي لا تشكل فوتاتورو فيها سوى محطة متأخرة باعتبار أن الأسواق الأكثر ازدهارا في هذه التجارة تتكاثر طرقها ومصادرها كلما تقدمنا في اتجاه أعالي نهري السنغال والنيجر.

إن الأسر الإسلامية سواء من أصل الدينانكي Dinianke أولا، أو الطورودبي Torodbé فيما بعد التي توالى على حكم فوتاتورو حتى القرن التاسع عشر، سارت على نفس النهج فيما يتعلق بانتهاك حرمة الشريعة الإسلامية، وظلم الرعية واحتقارها بفرض أثقل الضرائب عليها وإخضاعها لكل أنواع السخرة والاذلال رغم ما هو معروف تاريخيا من أن ثورة الطورودبي Torodbé خلال القرن 17 قامت بمساندة عامة الناس لرفع كل المظالم.

ومما ينهض دليلا على أن أي شيء لم يتغير، قيام سلسلة من الثورات الإصلاحية على يد زعماء مسلمين، بعدما لوحظ من تساهل الطبقة الحاكمة المفرط مع المستعمر الفرنسي¹ الجاثم بسان لوي Saint Louis، وتسهيل تحركاته بالبلاد طولا وعرضا لترويج بضاعته وتأسيس المحطات التجارية واستكشاف بلدان أعالي النهر الغنية بالمعادن والمفضية إلى

1-Ly Tall (M); op.cité; p. 43.

السودان النيجيري، الذي خططت فرنسا للاستيلاء عليه انطلاقاً من السنغال، مقابل أداء ضرائب سنوية تافهة وتقديم بعض الهدايا والأسلحة لأولئك الحكام، معتمدة في مساعيها على خلق الضغائن وسياسة فرق تسد بين الأسر والعشائر المتنافسة على السلطة.

- أبرز الزعماء الذي قادوا هذه الثورة الإصلاحية بفوتاتورو:

- حركة ناصر الدين (ت 1674): انطلقت حركته الإصلاحية من جنوب موريطانيا وشارك في الحرب التي مات فيها والتي دارت في بلاد شنقيط بين حسان والزوايا وهي الحرب المعروفة بـ «شريب»¹. غير أنه قبل هذه الحرب كان قد أعلن ثورة على الفساد في ما وراء نهر السنغال شملت بالإضافة إلى فوتاتورو مناطق أخرى إلى الجنوب مثل جولوف-Jol-of، كايور Cayor والو Walo وفي أعالي نهر السنغال²، وأصبحت بذلك

1 - أحمد بن الأمين الشنقيطي، الوسيط...م.س، ص 493.

2 - الشيخ محمد اليدالي، نصوص من التاريخ الموريطاني، تقديم وتحقيق محمد ولد باباه، بيت الحكمة، قرطاج، 1990 ص 99-100، هامش 105. وللإحاطة بشخصية ناصر الدين يمكن الرجوع إلى نفس المصدر، ص 117 وما بعدها

والى:

Ould Cheikh (Abdelwedoud); Npmadisme; Isam et pouvoir politiaue dans la société maure précoloniale (XI-XIX es); Essai sur quelques aspects -du Tribalisme. Thèse de Doctorat en sociologie; Paris V; 1985.

نموذجاً يحتذى في إفريقيا جنوب الصحراء الإسلامية بعد اجهاض ثورة كل من مالك سي Malik Sy في بوندو التي قادها سنة 1690 والفا كاراموكو Alfa Karamoko انطلاقاً من سنة 1725 في حركتها لإصلاحية بفوتاجلون¹.

وهذه الثورات الإصلاحية خلال القرنين 17 و 18 ذات المرجعية الإسلامية كانت تروم تصحيح الأوضاع وتطبيق الشريعة الإسلامية، لكنها كانت تصطدم بجشع أولئك الذين يخافون على فقدان مراكزهم وامتيازاتهم من الوثنيين وبعض ضعاف العقيدة من المسلمين².

- حركة سليمان بال (1720 - 1776)³.

ينتسب إلى بلاد فوتاتورو، وقد تأثر بدوره بثورة ناصر الدين ويرجع سبب هذه الثورة بالدرجة الأولى كما تتحدث عن ذلك المصادر، إلى تجذر واستمرار الأزمة الخائقة التي وصلت إليها سينغامبيا Sénagambie عامة وفوتاتورو خاصة بالنظر لموقعها القريب من المحيط الأطلسي،

1-Rodney (w); Jihad and social révolution in Futa Djallon in the eighteen century; journal of the historical society of Nigeria; vol.4; No2 1986- -

2 -Ibid

3 - يعتبر عمل الشيخ موسى كامارا مفيداً جداً في التعمق في معرفة حركات رجال الدين بالسودان، بمن فيهم سليمان بال، ويحمل هذا العمل عنوان: زهور البساتين في تاريخ السودانيين، جزاً أن انظر:

-Kamara (Shaikh Moussa);Zuhur al Basatin Fi Tarikh al Sawadin; 2 vols; I;F;A;N; Dakar; collection des Manuscrits arabes.

الذي يجعلها باستمرار عرضة للأطماع الأوروبية وبسبب كثرة الاقتتال بين العشائر إما من أجل الوصول إلى السلطة، أو من أجل احتكار سلع تجارية سودانية نعينة في مقدمتها العبيد السود.

وتأتي أهمية فوتاتورو في هذا الصدد من كونها أقرب ما تكون إلى البحر، وهذا يعني أن من كانت لهم القدرة على الوصول إلى السلطة واحتكار السلع المطلوبة من الأوروبيين على الخصوص، فإنهم سيحققون من وراء ذلك أرباحا طائلة، ويحكمون في نفس الوقت على منافسيهم بالإفلاس في أعمالهم التجارية، من جراء سيطرة الأولين على الموانئ البحرية، وحرمان الأخيرين من الاستفادة من خدماتها، في وقت أصبحت فيه تجارة القوافل الصحراوية تتراجع أهميتها على المستوى القاري منذ القرن 16 لفائدة النقل البحري، يضاف إلى ما سبق سياسة السلب والنهب التي مارستها الطبقة الحاكمة على رعيته¹ وكذا ضغط البيضان (الشناقطة) على المجال الفوتي للاستفادة من مزايا. كل هذه العوامل أدت إلى تفجير ثورة سليمان بال. فهل سينجح في حركته الإصلاحية أم سيتم القضاء عليه كما حصل لحركة ناصر الدين؟

تمكن سليمان بال من الإعلان عن نفسه قائدا للثورة الإسلامية الإصلاحية بفوتاتورو سنة 1776² بعد رجوعه إليها من كايور Cayor

1-Capitaine (Steff); Fonds Brévié; cahier 1 à 7; I.F.A.N; (U.C.A.D); 1913; P.53.

2-Boubacar (Barry); le royaume du Waalo; le Sénégal avant ==

التي كان يدرس بمدرستها في مدينة بير¹ Pir . ورغم أن الفترة التي تحمل فيها مسؤولية تصحيح الأوضاع كانت قصيرة على ما يبدو، إذ مات في نفس السنة التي تفجرت فيها الثورة، فإنه حقق بعض الأهداف بعد أن قضى على نظام ملوك الدينياكي Dénianke الوثنيين الظالم بصفة نهائية، وضرب بيد من حديد على الذين اتخذوا من السلام وسيلة للقهر، كما استطاع أن يبعد خطر الشناقطة على بلاده² ولو إلى حين.

وقد مات في ساحة المعركة سنة 1776 دون أن يتمكن من معرفة لا زمن الإعداد للثورة ولا انطلاقها ولا تاريخ وفاته بالضبط، وما أن وافق سليمان بال المنية حتى تم تعويضه بالإمام عبد القادر³ من قبل أهل الحل والعقد.

– حركة الإمام عبد القادر (1729 – 1807)⁴ : كان رفيقا بال

في الدراسة وفي إعداد الثورة بفوتاتورو، وكان خير خلف لخير سلف في

= la conquête; Maspéro; Paris; 1972;p.215.

1 – تقع هذه المدينة في إقليم كايور Kayor جنوب مدينة سان لوي Saint louis، وهو

إقليم يحد غربا بالمحيط الأطلسي.

2-Boubacar (B) op. cité; p. 215 et s.

-Robinson (D); op. cité; p. 36 à 65

-Les Africains; op. cité; T 10; p.32

3-Boubacar (B); op. cité; p. 216

4 – قدمت موسوعة الافارقة في مجلدها العاشر نبذة مفيدة عن ثورة الإمام عبد القادر انظر:

-David(R); l'Almamy Abdoul Kader et la révolution musulmane du Sénégal au 18e s; les Africains; op. cité; T 10; pp. 17 à 35

مواصلة الإصلاح والثورة على الأوضاع الفاسدة. ويمكن القول أن هذه البلاد لم تشهد حكما إسلاميا بمعنى الكلمة إلا في عهده. وأهم المنجزات السياسية والتصحيحية المنسوبة إليه:

- رفع مكانة فوتاتورو عاليا من حيث القوة والمناعة بحيث أصبحت الكثير من المناطق المجاورة تدفع الجزية والإتاوات السنوية بما في ذلك البراكنة والترارزة جنوب بلاد شنقيط¹.

- سعي فرنسي سار لوي Saint Louis إلى الاتصال به بغية التفاوض معه على ضمان أمن مصالحها التجارية والاستكشافية بالمنطقة. وقد أمكن بالفعل إبرام اتفاقية بين الجانبين في 13 مارس 1785² مقابل أداء ضريبة للإمام عبد القادر. وقد ترتب عن هذه الإنجازات تحسن في الأداء والسلوك على المستوى الإداري والاقتصادي والعسكري، صارت معه فوتاتورو Futatoro تملي شروطها على فرنسا وتحول دون تحرشات البيضان، وتعمل بين الفينة والأخرى على توسيع مجالها خصوصا في حدودها الشرقية على حساب بوندو Bundu مثلا. ولهذا تتفق جل المصادر المحلية على القول بأن دولتين قويتين كانتا

1-Soh Siré Abbas; Chroniques du Fouta Sénégalais
annotés et introduits par Maurice Delafosse et Heinr Gaden; Paris; le-
roux; 1913; p. 48 et ss.

2-Robison(D); L'Almamy Abdoul Kader; op cité; p. 23.

دائمتي الأطماع في ممالك السنغال الأعلى الغنية اقتصاديا والضعيفة سياسيا وعسكريا، إحداهما تقع إلى الشمال الشرقي من نهر السنغال وهي دولة كارطا Karta الوثنية.

وثانيتهما فوتاتورو من الجهة الغربية. لكن لسوء حظ هذه البلد لم تطل فترة حكم الإمام عبد القادر. وإذا صح ما يقال من أن الثورة تآكل أبناءها، فإن أعداء الإصلاح من أبناء وطنه خططوا بتحالف مع قوى خارجية في مقدمتها للتخلص منه، لأنهم رأوا في صرامة تطبيق تعاليم الشريعة الإسلامية في عهده ما يحرمهم من الكثير من الامتيازات التي اعتادوا الاستفادة منها.

وهكذا ما أن علموا بفشل حملته في معركة بكايور Kayor في الجنوب الغربي للبلاد سنة 1796¹ حتى شرعوا في اتخاذ الإجراءات الضرورية لعزله بواسطة مجلس الشورى المعروف محليا بالجاكوردي Jaggorde، كما تراجعت فرنسا عن الاتفاقية السابقة ورفضت أداء الضرائب المتفق عليها في اتفاقية 1785، ونفذت حملات تأديبية في مطلع القرن 19 ضد النظام الإسلامي، فأحرقت القرى وسلبت ونهبت، وقد حاول الإمام عبد القادر استجماع قواته واسترجاع هيمنته بالتحالف مع قوى مجاورة مثل خاسو Khasso وكاديكا Gadjaga إلا أن ذلك لم ينفع أمام كثرة التنكلات الحاقدة عليه من داخل البلاد وخارجها بدليل أنه

1 -Baron Roger Klédon; Histoire africaine; Paris; 1829; pp. 127 et s.

استشهد سنة 1807¹ في معركة تحالفت ضده عدة دول وثنية بغية وضع حد للمد الإسلامي، في مقدمتها كارطا Karta وبوندو Bundu وكاميرا Kammera بتنسيق مع قوى فوتية.

فعادت البلاد على إثر اختفاء هذه الشخصية إلى ما كانت عليه من الفوضى واستغلال النفوذ وشراء منصب الإمامة من مجلس الجاكوردي Jaggorde† (الشورى). وهو ما أوصل البلاد إلى حالة من الضعف، فتح الباب على مصراعيه للتدخل الفرنسي التدريجي Futator مع بداية القرن 19م²، لتتمكن انطلاقاً من قوتاتورو من السيطرة على كامل نهر السنغال وروافده كمرحلة ضرورية لبسط نفوذها على السودان النيجيري مع نهاية القرن.

إن ما يهمنا بالدرجة الأولى من تقديم هذه النبذة عن فوتاتورو التي تعمدهنا تفصيل القول فيها إلى حد ما، مرده إلى كونها الأرض التي أنجبت الحاج عمر الفوتي شيخ الطريقة التجانية بالسودان الغربي كما علمنا. وبصفته هذه فقد عايش مع أسرته وهو طفل إلى أن صار شاباً كل المحن التي عاشتها من استهتار بالقيم الإسلامية واستغلال للطاقات البشرية وإهانة لكرامة الإنسان³، ومساهمة أهل الحل والعقد من المسلمين في

1-Dupont (Commandant de Bakel); Notice sur le Sénégal; 1818-1821. Archives du Sénégal; Fonds Brévié, Cahier 1à7; in Capitaine Steff; op. cité; p. 61

2 -Ly Tall (M); op. cité; p. 45.

3 - Capitaine (Steff); op. cité; p. 61.

تسليم البلاد للأعداء المسيحيين. كما أن أخبار بلاد سينيغامبيا -Sénégam-bie وما جاورها من البلدان شمالا وجنوبا كان على اطلاع عليها وعلى مشاكل أهلها والبؤس الذي يعيشون فيه، وهو الذي جاب البلاد طولا وعرضا من أجل الدراسة وتلقي العلم.

وما نريد التأكيد عليه باختصار شديد في هذا الصدد، هو أن الحالة التي يوجد عليها الإسلام ببلادها، وباقي بلدان السودان الغربي وما ينتج عن ذلك من كوارث اقتصادية واجتماعية وأخلاقية¹، بسبب التطبيق السيء لتعاليم هذا الدين أو جهلها بالمرّة من جراء الوثنية المتفشية في عدد من أقطار إفريقيا جنوب الصحراء، هي التي حملت الحاج عمر على اعداد العدة لتغيير الأوضاع باعتماد اصلاحات هيكلية عن طريق تجديد الإسلام في إطار الطريقة التجانية.

ز - بلاد كارطا Karta

تأسست دولة هذه البلاد على يد مجموعة من البامبارا Bambara الوثنيين المنفصلين عن أبناء عموماتهم بامبارا Bambara بلاد سيكو-Se-gou الواقعة على ضفة نهر النيجر اليسرى الى الشمال من باماكو. وقد قامت نواة هذه الدولة خلال النصف الثاني من القرن 18² في شمال شرق

1 - Kane(o); op.cité; p. 43.

-Boulègue (j); la Traite; l'Etat, L'Islam-Les Royoumes Wolof du XVe au XVIIIe; thèse de Doctorat d'Etat; Paris; 1986; T; pp. 381 et s.

2 -Ly Tall (M), op. cité; p. 66.

نهر الباخوي Bakoy أحد روافد نهر السنغال على ضفته اليمنى وهو المكان الذي يبعد نهر النيجر بنفس المسافة التي يبعد بها تقريبا عن نهر السنغال، كما يتضح ذلك من الخريطة. وقد وقع هذا الانشقاق الذي أدى بمجموعة من البامبارا إلى الانسحاب من سيكو بسبب الصراع على مجال النفوذ واقتسام غنائم الغارات والسلب والنهب.¹

حمل الزعيم الأول لجماعة المقاتلين المؤسسين لدولة كارطا اسم سونسال Sunsal الذي خلفه ابنه ماسال Masal في الحكم ومنه اشتقت كلمة مساسي Massassi² التي تطلق على المنحدرين منه تمييزا لهم عن إخوانهم في الدم بسيكو Ségou. ولم يبرز على المستوى العسكري والسياسي منذرية ماسال Masal بعد وفاته سوى ثلاثة اعتبروا المؤسسين الحقيقيين لمملكة كارطا بين أعالي حوضي السنغال والنيجر.³

وتفيد المصادر أن أكبرهم سنا واسمه سيامانان Sebamanan هو الذي حمل عبء تأسيس الدولة. أما أخواه دينيكابو Dénikabo وبوكاري Bokari فقد أخلصا له النية في كل مراحل العمل السياسي والعسكري، وهم يتقاسمون المهام كل حسب تخصصه. ومما سهل عليهم تمهيد بلاد

1-Ibid.

2 - يعرفون أيضا بكوليالي Kulibali . انظر:

- Robinson (D); op. cité; p. 165.

3-Ly Tall (M), op. cité; p. 66.

كارطا الشاسعة وإخضاع أهلها كثرة الكيانات السياسية المستقلة، بعضها عن البعض الآخر وتبعية عدد منها نظريا لبعض الدول القوية المجاورة غربا مثل خاسو Khasso وجاوارا Jawara، وهما الدولتان اللتان وجد الأمراء المساي أنفسهم مجبرين على الدخول في حرب طاحنة ضدهما، في محاولة من الجانبين لبسط النفوذ على المجال المتنازع عليه والذي رأى فيه كل طرف مسألة حياة أو موت.

وقد حسمت المعارك في نهاية الأمر لصالح كارطا (المساي)، لأنهم كما تصنفهم المصادر كانوا لا يتورعون عن استعمال أبشع وأحقر الوسائل لتحقيق النصر الميداني، مثل السلب والنهب والقتل وإحراق القرى، والغدر. فقد كانوا بهذا الوصف أقرب إلى قطاع الطرق منهم إلى رجال السياسة والدولة كما تصفهم بعض المصادر¹.

و ما فتئت مملكة كارطا تتسع بعد وفاة سييامانان Sebamanan شمالا على حساب ديافونو Diafunu وجنوبا نحو بلاد خاسو Khasso المنهارة بسبب الحرب الدائرة بين أمراء الأسرة المالكة من أجل الانفراد بالسلطة، و بلغت أقصى إتساعها في عهد كل من موسى كورابو Kurabo ما بين 1799 و 1808 و بوجان موريبا Bojan Moriba بين 1815 و 1832 واستطاعوا قهر كل المناطق المجاورة لهم في كل

1-Raffenel(A); Nouveau voyage dans le pays des Nègres; Paris; 1856; T1; p. 425.

الاتجاهات باستثناء موريطانيي أولاد مبارك بالساحل شمالا وبلاد سيكو Ségou، الارض التي انجبتهم أصلا بسبب خضوعها من الناحية الشكلية لدولة ماسينا الإسلامية المجاورة لها والحديثة النشأة على يد الملك شيخ أحمدو الفولاني الأصل خلال العقد الثاني من القرن 19. ولا يمكن فهم هذا الموقف من قبل دولة كارطا العاتية إلا بربطه بدولة فوتاتورو الإسلامية القوية غربا وما كانت تشكله من خطر على الحكام الوثنيين مثل المساسي خوفا من اكتساح الإسلام لمناطق نفوذهم.

أما موارد اقتصاد هذه البلاد التي كانت وراء هذه القوة فتكمن في سيطرتها على أقاليم نهر كولومبيني Kolombini غربا ونهري الباكي Bakoy والباولي Baulé جنوبا². وتعتبر كلها روافد لنهر السنغال، بها أحواض وسهول تزدهر بها زراعة الحبوب كالدخن وكثرة الأشجار على عكس المنطقة الشمالية المتاخمة للساحل وعلى حدودها مع أعلى نهر السنغال، استفادت كثيرا من غنى المنطقة بالصمغ وصناعة النسيج³ ولو

1-Mage (E); Voyage dans le Soudan occidental; (Sénégal-Niger)

librairie Hachette; Paris; 1868; pp/ 116 et 136 - 137.

-Ly Tall (M); op. cité; p.68.

2-Robinson (D); op. cité; pp. 167 - 171.

-Colonel Br. Abadie (Maurice); Nos richesses soudanaise et le chemin transsaharien; Paris; 1928; pp. 13 à 29.

-Honoré (M); transsaharien et la pénétration française en Afrique, thèse pour le Dotorat; Paris; 1901; p. 7.

على حساب بلاد خاسو Khasso المغلوبة على أمرها. غير أن الرافد الاقتصادي الأهم بالنسبة لكارطا يتمثل في الموقع الذي تحتله والذي جعل منها محطة غبور بالغة الأهمية، تربط بين بلدان السودان النيجيري الغنية والمحطات التجارية الأوروبية على طول نهر السنغال وفي المحيط الاطلسي. فكل القوافل التي تمر في وسط البلاد كانت تخضع لأداء رسوم مرتفعة على السلع التي تحملها عند الدخول والخروج¹.

وكان كل فرد من سكان البلاد يدفع ضريبة الرأس، كما كان الصانع والتجار والحرفيون والفلاحون يودون جبايات عينية، لذلك نجد شعب الجاوار Jawara وهو إحدى الاثنيات المكونة للبلاد، يدفع للدولة عشرة من الخيول سنويا، ثم ارتفعت فيما بعد إلى أربعين² مع اهتمام سكان كارطا أنفسهم بتربية الجياد، وهذا ما يجعل من الالة الحربية المساسية تتكون أساسا من الخيالة التي لا تسند مهمتها لغير الأحرار من المساسي.

أما العبيد فقد شكلوا الرئة التي تتنفس بها الدولة اقتصاديا وسياسيا وعسكريا، ويرجع ذلك إلى كون الحكام الذين يتحكمون في جزء مهم من طرق تجارة القوافل المؤدية إلى السودان النيجري بلد العبيد، والآتية منه يستحوذون على أكبر عدد من هذه السلعة البشرية، إما بالقوة أو بالأخص الأثمان، فيبيعون جزءا ويحتفظون بالجزء الأهم لاستخدامهم في الأراضي

1 -Raffenel (A.), Nouveau voyage ... op. cité, T1, p. 387.

2-Ly Tall(M); op. cité; p. 257.

الفلاحية وفي الأشغال المنزلية والحرفية ومختلف أعمال السخرة¹. لكن العبيد الذين كانت تتم تربيتهم واعدادهم للحياة العسكرية منذ سبع سنوات، كانوا يدخلون إلى ما يشبه مدرسة حيث يتعلمون استعمال الأسلحة وركوب الخيل² حتى سن الثامنة عشرة. وهذا يذكرنا بالمراحل التي كان يمر بها في تكوينه جيش العبيد بالمغرب حتى يصبح قادرا على خوض غمار الحروب³. وبصفة تكوينه هذه برهن جيش العبيد المساسي على قدرة لا نظير لها في الأداء والوفاء والاستبسال في ميادين القتال، لذلك نجد جيش كارطا الذي يقدره رافنيل Raffenel بخمسين ألف رجل (50000) يتكون في أغلبيته الساحقة من المسترقين⁴ الذين يحتل البعض منهم مناصب مهمة في قيادة الجيش وفي السياسة العامة للبلاد أحيانا، كما كان الشأن إلى حد كبير بالنسبة لجيش المغرب في القرنين 17 و18. ونظرا لكفاءة هذا الجيش وكثرة عدده والقسوة التي اشتهر بها، فإن القوى المجاورة مع ضعفها كانت تشتري خدماته من حكام كارطا بأثمان باهضة جدا، لصد الاعتداءات عن بعضها البعض أو لتوسيع مجال

1-Raffenel(A); Nouveau voyage...;op; cité; T 1;p. 246.

2-Monteil (ch); les Bambara de Ségou et du Karta; Paris; Maisonneuve et Larose; 1977; p. 113; n. 1.

3 - أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، دار الكتاب،

الدار البيضاء 1956، ج 7، ص 56.

4- Raffenel (A); Nouveau voyage...;op. cité; T 1; Introduction; p. v.

نفوذها، أو لاتقاء المساسي أنفسهم.

هذه باختصار شديد هي أهم المقومات الاقتصادية والعسكرية التي جعلت من كارطا القوة الأولى الضاربة في المنطقة، التي لم يكن تساويها من حيث الإقدام والتنظيم وصنع الانتصارات سوى فوتاتورو حيث دولة الأئمة الإسلامية، مع مراعاة الفارق بينهما في كيفية الأداء والأهداف والغايات. وخلال العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر، وهي الفترة التي تتزامن مع عودة الحاج عمر إلى بلاد فوتا وانشغاله في نشر تعاليم الطريقة التجانية والاعداد للجهاد، كانت بلاد كارطا على ما يبدو قد بلغت أوج قوتها العسكرية والاقتصادية على عهد الفاما (ملك) Fama Mamadi كانجان Mamadi Kanjan، الذي استطاع أن يشيد ثلاث عواصم¹ في مدة وجيزة ويغير إقامته من القديمة إلى الجديدة بالتتابع. ويرد دافيد روبانسون D. Robinson سبب هذا التغيير إلى تحرك محاور الطرق التجارية النشيطة وتحولها من مجال إلى آخر، ورغبة الملك في الاستمرار في مراقبتها للحيلولة دون فقدان الربح الذي يأتيه منها. وهذه العواصم على التوالي هي: ييليماني Yelimané في إقليم كولومبيني Kolombini ثم كوفي Koghe في الشمال الغربي، ونيورو أخيرا في الشمال. وقد أورد رافينيل Raffenel الذي زار المنطقة سنة 1847² جملة من الأخبار

1-Robinson (D); op. cité; p. 171.

2-Raffenel (A); Nouveau voyage...; op. cité; T 1. pp. 405 et p. 436.

المفيدة في هذا الصدد وحول الوضع السياسي والاقتصادي بشكل عام
لدولة كارطا في عهد ملكها مامادي كانجان Mamadi Kanjan.
سيتمكن الحاج عمر الفوتي خلال خمسينيات القرن 19 في إطار
مشروعه الجهادي من إحداث زلزال عنيف في مملكة المساسي الشديدة
البأس، ويرد ذلك في نظرنا إلى عدة أسبابا أهمها:
- الضربات المتلاحقة والموجعة التي كانت توجهها لها قبيلة أولاد
مبارك انطلاقا من الجنوب الشرقي الشنقيطي¹.
- ضعف سلطة الملك مامادي على قواد الجيش الكبار في المراكز
النائية².
- شساعة المساحة التي تكون هاته الدولة.
- تسليح الجيش ببنادق في حالة يرثى لها من الصدا والتآكل، مع
استعمال أردإ البارود بحيث أنها لم تكن تشكل خطرا سوى على مستعمليها
حسب تعبير رافينيل Raffenel³.
- كون الرعية للحكام المساسي الذين انقلوا كاهلهم بمختلف
أنواع الضرائب والسخرة والإهانة ورغبتها في التخلص من هؤلاء

1-Robinson (D); op. cité; p. 171.

2-Ibid; p. 172.

3 -Raffenel (A); Nouveau voyage...; op. cité; T 1. pp. 405 et p. 436
-Mage (E); Vpyage dans le Soudan occidental; op. cité; p. 63.

الأسياذ الطفاة.

- عاء الءول المءاورة بءون استثناء لمملكة كارطا وتطلعها إلى رؤفة
هذه الءولة الطاففة تنزل للءضفض ءفى تتخلص جمفعها من طفانها الءى
تعءى كل الأوصاف.

- شعارات المساواة والءءالة الاءءماعفة الءى كانت تتضمنها ءطابات
الءاء عمر وأءباعه؁ وهو فزءف على المنطقة بلءا بلءا؁ وفأمر بسرعة
بءفففر الءكام وتطفق ءعالفم الشرفعة الإسلامفة الءى ءضمن العفش الكرفم
للجمفع بءون ءمففز.

كانت هذه باءءصار هف الوضعة الاقاءصاءفة والاءءماعفة
والسفااسة فف بلاد كارطا الوءنفة عشفة ءءولها ءءء ءكم الءاء عمر
الإسلامف.

2 - ءءرفى والاسءفاء نءفءة الاطماع الفرفنسة:

لا فمكن فهم الوضع العام بشكل صءف فف سنفامبفا -Sénégam-
بفءامة وبلاد فوفاورو Futatoro ءاصة ءلال النصف الأول من القرن
19؁ أفف عشفة انءلاق الءاء عمر شفء الطرفقة ءءانبفة فف ءركفه
الاصلاءفة الءهاففة ءون معرفة الأدوار السفااسة والاقاءصاءفة
والعسكرفة الءى لعبءها فرنسا وأءرف من ءلالها فف مءرفاء الأءاء بفهذه
البلءان منذ القرن 17 مع ما فرفبء بءلك من الصراءاء الءى ءاضءها مع
ءول أوربفة أءرى مءل البرءغال وهولنءا وانءلءرا فف أفق بسط النفوذ على

أقاليم افريقيا الغربية الواعدة.

ولمعالجة هذا الوضع يتوجب التطرق لعلاقات فرنسا بكنفدرالية فوتاتورو من بدايتها حتى سنة 1854 وهو التاريخ الذي سيصبح معه الحاج عمر شريكا فاعلا مع الفرنسيين في صنع الأحداث التاريخية بالمنطقة، وهي العلاقات التي ميزتها مراحل بشكل عام.

١ - مرحلة العلاقات السلمية بين فرنسا وبلاد فوتا من

بدايتها إلى سنة 1817:

لم ترفع الراية الفرنسية في مياه نهر السنغال إلا في وقت متأخر مقارنة مع بعض الدول الأوروبية مثل البرتغال وهولندا وانجلترا التي كانت سباقة إلى سواحل غرب افريقيا منذ القرن 16. لكن عندما نجحت فرنسا في إنشاء نواة في سان لوي سنة 1659¹ عملت على إقفال مدخل النهر ومنع سفن غيرها من الدول الاستفادة من هذا الموقع والاطلاع على كنوز المنطقة وأسرارها. وحققت بذلك احتكارا تجاريا للشركات ذات الامتياز التي ستتعاقب على تنفيذ مشاريعها بالمنطقة حتى سنة 1763. وبغض النظر عن المشاكل التي لاقوها وخيبات الأمل التي كانوا يصابون بها من حين لآخر، فإن المخطط الذي وضعوه لأنفسهم كان يهدف بالدرجة الأولى إلى تحقيق الصعود مع نهر السنغال

1-Saint Martin (Y), l'Empire Toucouleur et la France; un demi siècle de Relations Diplomatiques(1846 - 1893); Dakar; 1967; p. 45.

أبعد ما يمكن للحصول من بلدانه على أكبر كمية ممكنة من السلع مثل الصمغ والعبيد للعمل في المزارع الأنتية (Les entilles)، والعاج وريش النعام والذهب¹.

لكن المنتجات الأخرى وأصناف العبيد لا يمكن شراؤها الا في أعلى النهر ببلاد كلام Galam المعروفة منذ عهد بعيد، وببلاد بامبوك Bambouk الخرافية، وهي بلدان لا يمكن الوصول إليها إلا عبر أراضي فوتا السنغالية التي يحكمها آنذاك السالتيكي (Saltiguis) الفولانيون². ومن الثروات الفلاحية المزدهرة بفوتا والتي كان يحقق فيها التجار الفرنسيون أرباحا كبيرة مادة الدخن (Mil) بعد شرائها بأبخس الاثمان على ضفاف النهر وقنواته بفوتاتورو، ثم يبيعونها بعد ذلك في مرفأ سان لوي Saint Louis بعد وقت وجيز³.

ومما تجدر الإشارة إليه أن الاتصالات بين الأهالي الفرنسيين في إطار المعاملات اليومية كانت تتم في ظروف سليمة حققت للشركات المعنية كل شروط النجاح دون خوف من النهب والسلب. ولم يتوفر هذا الأمن إلا بوجود إرادة سياسية

1-Bathiky (A); la conquête Française...;op. cité; p.67.

2 -Saint Martin (Y); op. cité; p. 46.

3 -Lemaire (jacques); Voyage aux Iles Canaries; Cap vert; Sénégal et Gambie; Paris; Collombat; 1965; P.75.

تسهر عليه وترعاه مقابل ثمن متفق عليه بين حكومة الأهالي وإدارة سان لوي.

وهذا المبلغ الذي يؤديه تجار الشركات الفرنسية سنويا هو المعروف بالضريبة العرفية Coutume التي غالبا ما كانت تؤدي طبقا لما أرده لابات¹ Labat في شكل هدايا من الأثواب القطنية البيضاء والسوداء، وبعض القطع من الأقمشة القرمزية d'ecarlate والأقمشة الصوفية. وقد استمر التفاهم بين الطرفين على هذا الأساس إلى أن فقدت فرنسا سان لوي لصالح إنجلترا سنة 1759².

وقبل هذا التاريخ كان المدير العام لشركة الهند بالسنگال، بيير دافيد Pierre David قد عمل على إنشاء حصن بودور Fort de Podor سنة 1743، بعد أن توفق في اختيار مكان له مزايا استراتيجية واقتصادية وسياسية، وعلى الحدود مع بلدان الموريطانيين والولوف والتكولور Toucouleurs يسمح بمراقبة تحركاتهم. لكن نشوة الفرنسيين بهذا الانجاز لم تطل بعد أن فقدوا سان لوي كما سبق، فزال مع ذلك كل وجود لهم في بلاد فوتاتورو³.

-1-Baptiste Labat 'Jean); Nouvelle Relation d'Afrique occidentale; Paris Cavellier; 1728; T3; pp. 210 et s

2-Saint Martin (Y); op. cité; p. 48.

3-Ibid.

استمر نفوذ الأنجليز على سان لوي وما والاها من السنغال لمدة عشرين سنة، وكان الصمغ هو أهم سلعة استأثرت باهتمامهم هناك، ولم تتعد أنشطتهم التجارية على ما يبدو اقليم بودور. وخلت طريق كلام تبعا لذلك من أي أثر للتجار الأوربيين نظرا لصعوبة الوصول إليها، في غياب أي اتفاقية ثنائية بين الانجليز والأهالي لتأمين المرور. واكتفى التجار الانجليز بتكثيف عملياتهم التجارية ببورطانديك Portendick على الخصوص، على الساحل الموريطاني¹. في سنة 1783 استرجعت فرنسا بصفة رسمية سان لوي وكوري Gorée وألبريدا Albreda بموجب معاهدة فرساي وأصبح لزاما عليها، بعد أن استرجعت ما ضاع منها من مستعمرات بغرب إفريقيا، العمل على إقصاء انجلترا من المنافسة بالمنطقة والحلول محلها في الاستحواذ على تجارة الصمغ وإعادة غزو الأسواق التي كانت في حوزتها قبل الهيمنة الانجليزية عليها على حسابها².

هذا مع ملاحظة أنه قبل عشرين سنة من هذا التحول أي سنة 1763، كان قد تم حدث آخر، وذلك عندما استبدل نظام احتكار الشركة بنظام التجارة الحرة، باستثناء تجارة الصمغ بسبب عدم قدرة شركة غويانة

1-Ibid.

2-Archives du Sénégal; I B1; pièce38M: les instructions du Maréchal de Castries; ministre de la marine insistent sur la protection à accorder au commerce libre ci qui nécessite plus que par le passé l'intervention du gouverneur.

Guyane أو «شركة الصمغ» صاحبة الامتياز في المتاجرة بهذه المادة على تسديد الضرائب العرفية التي تضمن لسفنها حرية المرور في بلادفوتاتورو عبر نهر السنغال. لذلك ومنذ أن توصل الكونط دو ريبانتيني le Comte de Répentigny والي سان اوي بتعليمات وزارية بتاريخ 21 يناير 1785، شرع في إجراء مفاوضات مع إمام فوتا عبد القادر (1796 - 1805) للاتفاق على المقتضيات الجديدة التي يتطلبها النظام التجاري المعدل¹.

وقد توصل الطرفان بالفعل إلى إبرام معاهدة بسان اوي يوم 31 مارس 1785،² جاءت بنودها على الشكل الآتي:

*الاتفاق على مسطرة تقضي بأن تنطلق سفينة في اتجاه كلام-Gal am قبل 20 يوليو من كل سنة، وتتوقف في طريقها وجوبا بمرفأ صالدي escale de saldé لمدة يتم الاتفاق عليها مع الإمام مسبقا. وخلال هذا التوقف يصعد إليها الإمام صحبة مرافق له ومعه أيضا ستة من ضباطه الأساسيين، ليتسلم من قائد السفينة الضريبة العرفية المتفق عليها دون زيادة أو نقصان لما ورد في المعاهدة³. غير أنه من أجل إطعام الإمام مع

1-Ibid.

2-<Extrait d'un palabre de traité> fait entre le Roi de France et Almamy; roi du Pays de Poules; le 31 Mars 1785; Archives du Sénégal; 13 G 9; chemise 5; pièce 4.

3-Saint-Martin (y);op. cité; p. 50.

مرافقيه تقدم إليه كهدية، على ظهر السفينة، ثور وستة (6) كلج من السكر الأسمر (Cassande) وستة (6) كلج من تفل قصب السكر، ومقابل ذلك يتوجب على العاهل التكروري¹ أن يحضر لملك فرنسا أحد الطيور الكواسر القوية الجميلة.

* رهيئتان من العائلة الملكية ترافقان السفينة في سفرها إلى كلام Galam وعند عودتهما يحصلان على هدايا صغيرة.

وينتهي نص الاتفاقية بالتصريح الآتي: «أنا الفقيه التزم باسم الملك وخلفه وطبقا للسلطات التي زودني بها وباسم رعايا كل البلاد الفولانية، بالوفاء والصدق، بتطبيق كل الشروط الواردة في هذه المعاهدة، وهي شروط أجدها حكيمة ومعقولة جدا، وأقبلها باسم الملك ليعمل بها. وأقسم أمام الله والمطلع على ما في القلوب أن هذه المعاهدة سوف تطبق بحذافرها كما قرئت علي وشرحت لي بكل وضوح وأن الترجمة بالعربية مطابقة لها تماما»².

أما لائحة الضرائب العرفية التي تضمنتها المعاهدة فتتقسم إلى ثلاثة أنواع:

أ - ضريبة قارة تسدها الشركة مقابل كل سفر إلى كلام ولا يدفع

1 - المقصود به هناك، ماك فوتا المسلم.

2 - <Extrait d'un palabre de traités> document cité.

أي شيء إذا لم يتم هذا السفر.

ب - ضريبة يدفعها كل زورق في ملكية سكان السنغال والتجار البيض الذين استقروا بها.

ج - ضريبة مرتفعة تفرض على التجار الوافدين من أوروبا، كانوا فرنسيين أو غير فرنسيين¹.

هذه باختصار هي أهم البنود التي تضمنتها معاهدة مارس 1785 بين والي سان لوي وحكومة الإمام عبد القادر الفوتية.

وأهم ملاحظة يمكن أن يخرج بها الدارس من أول قراءة لها، هي نجاح الجانب الفرنسي في تحقيق مكسب كبير، ستترب عليه اختراقات مهمة لصالح الفرنسيين في المجالات الاقتصادية والسياسية والعسكرية. ويتجلى هذا المكسب في التزام ملك فوتا الحالي، ومن يأتي بعده من الملوك بضمان مرور التجار الفرنسيين على سفنهم من سان لوي إلى بلاد كلام Galam عبر أراضي فوتاتورو. وهو شيء لم يكن معترفا لهم به من قبل. انتظمت المعاملات التجارية بين الطرفين على أساس هذه المعاهدة إلى أن حدث ما كدر صفوها وعرقل سيرها، عندما انشغلت فرنسا بالحرب في مطلع القرن 19، وتم حذف نشاط الشركات ذات الامتياز، وزاد في تأزم الوضعية الحصار الذي فرضه الانجليز على سان لوي، فتعذر مع هذه الوضعية أداء الضرائب العرفية من قبل الفرنسيين، مما حدا بالإمام

1-Saint-Martin (y);op. cité; p. 51.

إلى الاحتجاج وإصدار أوامره بمنع التجارة¹.

وبمجرد ما سككت طبول الحرب بموجب رسم أمان سنة 1802²
سارع الفرنسيون إلى تجديد المعاهدة مع إمام فوتاتورو بتاريخ 3
ماي 1804، وأهم التعديلات نقرأها في البندين الأول والثاني لهذه المعاهدة
المجددة:

البند الأول: تدفع الحكومة الفرنسية ضريبة عرفية سنوية للإمام سواء
تم السفر إلى كلام أو لم يتم.

البند الثاني: لم يتوقف الركب Convoi أكثر من عشرة أيام بمرفأ
صالدي³ Saldé لأداء الضريبة العرفية وهو في طريقه إلى كلام⁴.

شيئان مهمان وردا في هذا التعديل كما نلاحظ: أداء الضرائب سنويا
كيف ما كانت الظروف، ثم تعهد الحكومة الفرنسية بذلك مما يضيفي على
التعاقد مشروعية أكثر، وهذا يعني أن فرنسا أصبحت تدفع ما يشبه نوعاً
من الجزية لكنفدرالية فوتا، بغض النظر عن كل اعتبار تجاري.

1-Bathiky (A); la conquête Française...;op. cité; p.76.

2 - معاهدة السلم التي تم إبرامها بين بوناپارت Banaparte وانجلترا في لتاريخ أعلاه.
انظر: -Isaac(j); de la Révolution de 1789 à la Révolution de 1848; Paris; 1960; p. 229.

3 - تجنباً لتماطل المسؤولين الفوتيين الذي يستغلون مرور الأيام وتتاليها لابتزاز طاقم
السفينة .

4-Saint Martin (y);op. cité; pp. 51 - 52.

أما التعديل الذي خدم مصلحة الفرنسيين، فهو الذي حدد مدة التوقف بمرفأ صالدي Saldé بعشرة أيام لا أكثر لتفادي ماطلات السلطات المحلية التي كانت تتعمد التلكؤ في الإسراع بتنفيذ الإجراءات الإدارية وتأخيرها لأطول مدة زمنية ممكنة حتى ينفذ صبر طاقم السفينة وركابها من التجار، فيلجأون إلى تقديم الرشاوي لحل مشاكلهم. وهو ما اعتبره الجانب الفرنسي نوعاً من الابتزاز.

ومهما يكن فإن الأمور كانت تسير وفق رغبة الفرنسيين بشكل عام، إذ حققت معاملاتهم التجارية في المنطقة بين 1804 و1805 أرباحاً مهمة رغم ما شاب ذلك من سلب ونهب من قبل الأهالي لبعض السفن التي تتوقف عن السير بسبب نقصان مياه النهر، مما حدا بوالي سان لوي بلانشو Blanchot إلى تنظيم حملة عسكرية تأديبية ضد قرية فاناي Fanay شرق دكانا Daganal، ثم أحرقت اثنتي عشرة قرية بشرق بودور Podor، لكن الحملة خسرت في المعركة أربعة عشر قتيلًا بمن فيهم قائد الحملة نفسه وقبطان ومدعين وجرح ثمانية عشر جندياً¹.

لقد كان هذا أول حادث اصطدام مسلح بين الطرفين، وهو الوحيد في هذه المرحلة الأولى التي نعتنا علاقاتها بين الطرفين بالسلمية، لكنه اعتبر في نفس الوقت بداية لسلسلة طويلة من أعمال العداء التي تلي بعد فترات

1-Sabatir (A); le Sénégal; sa conquête et son organisation (1364 - 1952). Saint Louis; Imprimerie du gouvernement; S.d. p. 35

من السلم وتشوبها وتؤثر عليها كما سنرى في المحور الخاص بتدهور العلاقات بين الفرنسيين وكنفدرالية فوتاتورو.

وعوض أن تحقق حملة بلانشو الهدف المتوخى منها، فقد ألبت على العكس من ذلك السكان ضدها، وصاروا أكثر حذرا من كانوا، يشهد على هذا ما أصبح يجده الفرنسيون بعد هذا الحادث، وهم في طريقهم إلى أعالي النهر، من قوات تتربص بهم السوء وتناوشهم، مقلقة بذلك راحتهم، ومعرضة سلعهم وأرواحهم للخطر. وبهذا يمكن القول ان سياسة بلانشو التي اختارها بديلا عن الآلة الدبلوماسية، لم ينتج عنها سوى إفراز مناخ من البغض المتبادل وانعدام الثقة بين الجانبين، مما أدى في النهاية إلى الإساءة للعلاقات السلمية إلى ذلك الوقت بين فرنسيي سان لوي، وتكررة Toucouleurs فوتاتورو Futatoro.

بعد فشل حملة فاناي Fanay لم يجد بلانشو Blanchot والي فرنسا على السنغال (سان لوي) بدا من بذل المساعي للتفاوض مع إمام فوتا. وكان الوسيط في هذه العملية سيدي علي زعيم قبائل البراكنة بالجنوب الشنقيطي¹ الذي تنقل حتى سان لوي خصيصا لهذا الغرض وكله أمل في أن يحقق نتيجة إيجابية، لأن من شأن عودة العلاقات إلى حالتها الطبيعية بين الفرنسيين والفوتيين، أن يبقى على تجارة الصمغ في

1-Saint Martin (y); op. cité; p. 53.

نشاطهما العادي. وهذا يعني الحيلولة دون فقدان الأرباح التي يحققها
البراكنة من وراء هذه التجارة.

وقد أتت هذه المحاولة في نهاية المطاف أكلها عندما أمكن إبرام
معاهدة بين سيدي علي نيابة عن إمام فوتا، وبين بالنشو والي سان لوي
يوم 4 يونيو 1806. وبعد وفاة بلانشو Blanchot في شتنبر 1807
واصل المفاوضات وأنهاها خلفه لوفاسور Levasseur، لكن المفاوضات هذه
المرة من الجانب الفوتي كان هو مامادو كان Mamadu Kane أحد وزراء
الإمام يوسف خلف الإمام عبد القادر¹.

وقد وافق الإمام يوسف بصفة نهائية على معاهدة السلم يوم فاتح
أبريل 1808² وهي المعاهدة التي تضمنت ما ورد في اتفاقية يونيو 1806
وحافظت على مكتسبات معاهدة سنة 1804، كما سمحت لتجار سان لوي
بالمجيء كل سنة إلى فوتا لشراء العبيد، غير أن التجارة السان
لوسية³ سوف لن تنعم كثيرا بمقتضيات هذه المعاهدة الإيجابية وخصوصا
ما يتعلق بالبند الجديد المتعلق بتجارة العبيد، التي عمدت انجلترا إلى
حظرها بصفة رسمية عام 1815، عقب الانتصارات التي حققتها في بقاع
كثيرة من العالم بفضل أسطولها البحري العتيد واستيلائها من جديد على

1-Brigand (F); Histoire traditionnelle du Sénégal; Saint Louis; 1952;
pp. 23 et 28.

2 -Saint Martin (y); op. cité; p. 53.

3 - نسبة إلى سان لوي Saint Louis.

سان لوي من سنة 1809 إلى سنة 1816، بغض النظر عن الاستمرار في ممارسة هذه التجارة بشكل سري، من قبل بعض المهربين. غير أن مثل هذه المستجدات في السياسة الدولية لم تمنع فرنسا من الاستمرار في جني ثمار معاهدة 1806 مع الفوتين حتى سنة 1853¹ رغم ما عرفتة العلاقات بين الطرفين من مد وجزر طيلة هذه المدة قبل أن تدخل عهد التردي والخلافات المكشوفة².

ب - مرحلة تدهور العلاقات بين 1817 و 1854:

كان من الممكن أن تستمر العلاقات بين فرنسيي سان لوي وحكام فوتاتورو رغم بعض السلبيات التي كانت تشوبها، مثل حادث فاناي-Fa-nay الذي ظل معزولا ورغم المنافسة الانجليزية التي كانت تقصي فرنسا من المنطقة من حين لآخر³، لو وجد وال على المستعمرة الفرنسية بالسنگال أكثر مهارة ومرونة من القائد شمالتز Schmaltz ابتداء من عام 1817 بإمكانه مد الجسور من جديد مع الأئمة التكولور ومستشاريهم في فوتا بغية إبرام علاقات جديدة بالثقة.

1-Hardy (G); la mise en valeur du Sénégal de 1817 à 1854; Paris; la-rose; 1921; pp. 33-34

2 -Saint Martin (Y); op. cité; pp. 54-55.

3 - كما حدث مثلا عندما استولت إنجلترا مرة أخرى على سان لوي Saint Louis من سنة

1809 إلى 1816، انظر:

- Saint Martin (Y); op. cité; p. 54.

لقد كان خطأ شمالتز Schmaltz الأساسي والذي تورط فيه الولاية الذين أتوا بعده حتى سنة 1853 هو إهماله الشروع في إجراء مفاوضات جديدة واكتفاؤه بالسير على قاعدة الضرائب العرفية المقررة بموجب معاهدة 1806 بسبب اقتناعه ربما بأن الأمور ستسير على أحسن ما يرام مستقبلا لصالح فرنسا بنهر السنغال¹.

ولعل هذا التوقع المتفائل غير المشوب بالحد من قبل شمالتز، وبناء على تقاريره، أقرت الحكومة الفرنسية العزم على القيام بمشاريع كبيرة في السنغال مثل:

- التنمية الفلاحية على طول النهر.

- إعادة بناء المرافئ والحصون القديمة به.

- تعيين معمرين² Installation des colons.

وكان الهدف من وراء هذا البرنامج السعي إلى جعل السنغال مستعمرة نموذجية. وحتى لا يبقى المشروع حبرا على ورق، قرر وزير البحرية والمستعمرات إرسال بعثة علمية إلى المنطقة بتاريخ 6 أكتوبر 1817، أسندت مهمتها لمهندسين هما: السيد بريديف Bredef، مهندس الدرجة الأولى للمعادن بالهيئة الملكية ثم السيد شاستيلوس Chastel-lus مهندس جغرافي اللذين أرسلتا من قبل صاحب الجلالة لاستكشاف نهر

1 - Hardy (G); op. cité; p.34.

2 - Saint Martin (Y); op. cité; p. 55.

السنغال، والأصقاع الداخلية لهذا الجزء من افريقيا حتى مملكة كلام-Gal-am، بما فيها بامبوك Bambuk وبوندو¹.

غير أن هذين المهندسين لم يتمكنوا من مواصلة رحلتهم، ففشلت مهمة البعثة التي اضطر أفرادها إلى العودة من حيث أتوا، قبل الوصول إلى كلام Galam عندما اصطدم بريديف Bredef و شاستيلوس Chastellus بحذر التوكولور Youcouleurs المشغولين في الحرب ضد دولة البامبارا. وخوفا من أن يقدم الفرنسيون العون لأعدائهم، عمد إمام فوتا، بعد أن استقبل المهندسين الفرنسيين بأدب، وأخذ منهما الضريبة العرفية إلى إصدار أوامره بإيقاف سفينة البعثة، بعد أن تعدت ميناء صالدي Salde بقليل².

في السنة الموالية أي سنة 1818 أرسل حاكم السنغال (سان لوي) بالنيابة الكوماندان فلوريو Fleuriau بعثة جديدة في اتجاه كلام Galam بقيادة ميلاي Melay مع إضافة شاستيلوس Chastellus إليها، لكن الجديد في هذه البعثة هذه المرة، هو أن السفينة التي تقل أفرادها كانت مزودة بالمدفعية، مما ساهم في انضباط سكان فوتا، ومكن البعثة من الوصول إلى كلام³ Galam، وانجاز المهمة التي اسندت لها بخصوص دراسة روافد

1- Archives Nationales; Section Outre-Mer; Sénégal III; Instructions et rapports de mission Brédif et Chastellus (1-6 Octobre 1817).

2 - Saint Martin (Y); op. cité; p. 55.

3 - Ibid.

نهر السنغال واختيار مكان مناسب لإقامة حصن ثم اختيار موقع له في باكل Bakel، والذي مكث فيه أغلب أفراد العائلة بقيادة قائد السفينة الجديد ديبون Dupont، بعد مرض ميلاي Mélay وعودته إلى سان لوي. أما المهندس شاستيلوس فقد مات من مرضه بحمى الأمعاء¹.

من جهة أخرى أصبحت حكومة السنغال بعد بناء حصن باكل Bakel في خريف 1818 مجبرة على تنظيم رحلة سنوية عبر النهر بشكل مستقل عن الاعتبار التجارية، لنقل المدد والمؤن لحماية الحصن وتجديد العتاد والذخيرة لجنودها. وهذا يعني ضرورة العمل على ضمان المرور بشكل منتظم عبر البلاد التكرورية². ولذلك يستحسن التوفر على مراكز وسطية بين سان لوي وباكل Bakel، وهو ما يطلق عليه شمالتز: مؤسسات الحماية Etablissements de protection مع بناء مؤسسة محورية كبرى ويمكن القول أن بناء دكانا Dagana سنة 1821 استجاب لهذه الرغبة الأخيرة وهكذا تم تشييد قلعتين فرنسيتين إحداهما على الحدود الغربية لفوتا والثانية على تخومها الشرقية (باكل Bakel - دكانا Dagana).

كان من شأن القيام بهذه المنجزات والتحسينات العسكرية الفرنسية على طول نهر السنغال، لفت انتباه الأهالي إلى الخطر الأجنبي الذي أصبح يهدد بلادهم بالاحتلال ودخول الطرفين في مرحلة من تدهور

1-Ibid.

2 - المقصود بذلك البلاد التكرورية

العلاقات منذ 1819¹. وهذا يعني أن الاتصال بباكل لتموين الحامية أصبح عمليا أمرا مستحيلا بسبب موقف إمام البلاد العدائي من الفرنسيين²، ولم يمكن إيصال ما يلزم لجنود باكل Bakel وبصعوبة كبيرة إلا بواسطة قوافل البراكنة الموريطانيين.

ولعودة العلاقات إلى ما كانت عليه كان إمام فوطا اثناء المفاوضات، يصر بطبيعة الحال على أن يتخلى الفرنسيون عن حصني باكل وداكانا Dagana غير المكتملي البناء. ولما كان كل طرف يحرص على عدم تقديم أي تنازل، فقد توقفت المفاوضات وتبدل إطلاق نار البنادق والمدافع بين الجانبين في شهر مارس 1820.

بعد مرور بعض الوقت على هذا الحادث، حاول كل من لوكوبي Le Coupé (1820 – 1822) الذي عوض الكولونيل شمالتز Schmaltz في ولاية سان لوي، ثم البارون روجي Baron Roger خلفه (1826 – 1822)، السعي لإعادة بناء العلاقات مع الفوتين على أسس سلمية، وهو ما تم التوصل إليه إلى حد ما. فعادت أعمال الفرنسيين في النهر إلى سالف عهدها من الازدهار رغم وقوع بعض الاصطدامات البسيطة من حين لآخر والتي كان يعرف البارون روجي Baron Roger كيف يعالجها وهو يهدد بنقص قيمة الضريبة العرفية لصالح الإمام³.

1-Archives Nationales; Section Outre-Mer; Sénégal III; 2; journal de Voyage de Grandin (1817).

2-Ibid.= =

إن سياسة الترغيب والترهيب هذه هي التي طبقها أحد الذين خلفوا روجي Roger في منصبه، وهو قبطان السفينة برو Brou (1831 - 1829) عندما وافق على إرضاء مطالب أحد قادة فوتا الرئيسيين، وهو المعروف بلام طورو Lam Toro أي حاكم طورو. وكان مطلبه الحصول على ضرائب عرفية خاصة به (رشوة)، وقد أثمر هذه التفاهم إبرام معاهدة جديدة بين الجانبين يوم 31 غشت 1830¹، وبموجبها صار من حق لام طورو أن يحكم أحد أقاليم كنفدرالية فوتاتورو الكبرى، فقط وهو إقليم طورو Lam Toro القريب من البحر، وهو بصفته تلك يمثل الإمام الذي يوجد على رأس الكنفدرالية.

وقد استغل الصلاحيات المخولة له مقابل امتيازات مادية لم يكن يحلم بها، لكي يبرر هذه الاتفاقية التي أطلقت أيدي الفرنسيين في فوتا وضمنت لهم الحماية بفضل تحالف اللام طورو Lam Toro معهم، المعبر عنه في البندين الأول والثامن من هذه المعاهدة. وفي المقابل تعهد والي السنغال برو Brou بموجب الفصل الثامن والتاسع بحماية لام طورو في حالة دخوله في حرب مع الإمام نفسه، مقابل حياده في حالة قيام حرب بين الفرنسيين والإمام (الإمام فوتا)، وباحترام القرى الخاضعة لنفوذه والدفاع

2-Hardy (G), l'affaire Duranton; (1828-1838) Annales et ==
mémoires du comité d'études histriques d'A.O.F; 1917; pp
436.-413
1-Archives du Sénégal; 13 G9, chemise 5, pièce 27

عنها، طالما ظل ملتزما بالتعهدات التي وقع عليها¹.

إن الأمر الخطير في هذه المعاهدة ، هو ما اشتملت عليه من بنود تمكن فرنسا من تفكيك مكونات كنفدرالية فوتاتورو في الوقت المناسب بفعل الانتماء المزدوج الذي أصبحت توجد عليه طورو، بعد توقيع حاكمها على هذه المعاهدة. فقد أصبحت في الحقيقة بلاد طورو مرتبطة بفوتا وبمستعمرة سان لوي الفرنسية في آن واحد. وهكذا عندما قررت فرنسا فصل طورو Toro عن فوتا بموجب معاهدة 1859، وجدت الأرضية القانونية ميسرة، ثم ما لبثت أن ضمت فرنسا هذا الاقليم إلى سان لوي سنة 1863² كما سنرى.

ومن جهة أخرى يبدو أم إمام فوتا لم يكن قادرا على الاعتراض على هاته المعاهدة التي انتهكت سيادة البلاد، إما لأنه كان يعرف لام طورو Lam Toro الحقيقية، وإما أنه كان لا يرغب في فقدان ريع الضرائب العرفية أو للسببين معا. والواقع أن الفرنسيين باستفادتهم من التجارب الاستعمارية السابقة نهجوا في بلاد السنغال سياسة فرق تسد³ بين الأمراء بمساندة البعض لإضعاف البعض الآخر، وحققوا الكثير من

1-Ibid.

2-Traité du 10 Avril 1859, entre le Lam-Toro Amady Boukar et le colonel Faidherbe. Archives du Sénégal; 13 G5; p. 75.

3 -Faure(C), le premier Séjour de Duranton au Sénégal; Revue d'histoire des colonies françaises, TII, année 1921; pp. 240 et ss.

الأهداف.

هذا التقديم الذي كانت تحزره فرنسا في الميدانين السياسي والدبلوماسي في نهر السنغال مدعما بالآلة العسكرية خدمة لانجاح المشاريع الاقتصادية المشار إليها آنفا، غالبا ما كان يكبح جماحه مستجدات سياسية وعسكرية، إقليمية ودولية مثل الحروب في أوروبا وفيما وراء البحار التي كانت فرنسا طرفا فيها، ومنافسة الدول الأوروبية لها في غرب إفريقيا وخصوصا إنجلترا التي أقصتها من سان لوي وكوري-Go-ree عدة مرات. لكن الأمر الأكثر تثبيطا وسلبية لتقدم فرنسا في أعالي نهر السنغال، التغيير المستمر والسريع لولاية سان لوي، مما كان يحول دون مواصلة العمل الدبلوماسي، كما شهدت بذلك تقارير بعض هؤلاء الولاة أنفسهم. وللبرهنة على ذلك يكفي القول أنه ما بين 1829 و1845 تناوب على حكم مستعمرة السنغال الفرنسية اثنا عشر واليا أو نواب ولاية¹، ولعل هذا الواقع هو الذي أفضى إلى دخول الأهالي في مواجهات مستمرة، إما لعدم وفاء فرنسا بالتزاماتها بفعل تعيين مسؤولين جدد يتهربون من تطبيق ما التزم به أسلافهم أو بسبب سوء تطبيق موظفي الإمام، ولام طورو Lam Toro لمقتضيات المعاهدات إما بشكل مقصود بغية الحصول على الهدايا من الفرنسيين، أو لظروف الحرب المستمرة ضد بامبارا Bambara كارطا

1-Saint Martin (Y); op. cité, p. 60

أو ضد الوالو Walo وضد المور Maures والتي كانت تجعل الفوتيين يأخذون جانب الحيطة والحذر من حكام سكان سان لوي خوفا من ان يقدموا السند العسكري لأعدائهم.

وقد أدت هذه الحالة من انعدام الثقة بين الطرفين إلى تعرض السفن الفرنسية وتجارها والمتعاونين مع فرنسا إلى جملة من الاعتداءات وأعمال السلب والنهب رد عليها الفرنسيون بكل ما يتطلب الموقف من الصرامة، والتي نقترح فيما يلي عرض بعد الاحداث منها.

بدأ رد فعل السلطات الفرنسية الصارم في 10 يونيو 1840¹ عندما فرض القبطان كاي Caille على الامام اتفاقية تتعرض لكيفية التعامل مع نتائج أعمال السلب والنهب. ومن ضمن وسائل الردع المفروضة في هذه الاتفاقية إرسال أربعة من الرهائن المختارين من بين العائلات الأكثر شغبا، ثم اردفت هذا الاجراء المهين برفض تسديد الضرائب العرفية على القاعدة المتفق عليها، مما ساهم في توتر العلاقات وانعدام الثقة بين الجانبين وأفضى بالوضع من جديد إلى الانفجار، بعد سنتين من تاريخ أخذ الرهائن، ويتعلق الأمر هذه المرة بنهب سفينة وقتل أو جرح عدد من التجار على يد أهالي كاركاس Caracas على الضفة الجنوبية لوسط نهر السنغال.

أمام خطورة الوضع والشعور بخدش كرامة الفرنسيين لجأ والي

1-Ibid.

فرنسا على السنغال بويط ويلوميز Bouet Willaumez إلى الرد بعنف بعد أن توصل بتعليمات صارمة في الموضوع من وزير البحرية، وقبل 10 غشت 1843 كان ويلوميز Willaumez قد نفذ ما أملي عليه، ويتضح ذلك من خلال رسالة له إلى وزيره تحمل نفس التاريخ: « لقد نفذت تعليمات فخامتكم: فكركاس ملجأ قطاع الطرق والمجرمين الذين ذهب تجار السنغال ضحيتهم على عهد أسلافي صارت خرابا ورمادا. والجنود الجيدو التسليح دافعوا عن أنفسهم بشجاعة. أربعون من القتلى وعدد مماثل من الجرحى فروا بمساعدة السكان الهاربين إلى الداخل»¹.

ومن النتائج السياسية التي ترتبت على هذا التدخل العسكري الفرنسي، اندهاش التوكولور لحجم القوة وفعالية آلياتها، وتشككهم في قدرة حكوماتهم على حمايتهم. وأمام هذا الوضع أجبر الإمام على الاستقالة من قبل مستشاريه وتم تنصيب إمام جديد سرعان ما طلب التباحث مع الفرنسيين، وهذا الإمام هو بابالي Babaly، وفي الوقت نفسه استغل بويط ويلوميز Bouet Willaumez حالة الضعف هذه وعدم الاستقرار في بلاد فوتاتورو، ليستغل بسرعة نتائج انتصاراته ودون انتظار التباحث مع الإمام الجديد، فقرر وأعلن أن ركبا Convoi سيتوجه

1-Lettre du gouverneur au Ministre de la Marine et des colonies;
Archives du Sénégal; 25 Septembre 1843, 2B 22 Fo. 24.

لكلام Galam في شتنبر 1843، وسوف لن يتوقف في صالدي Saldé لأداء ضريبة عرفية¹.

وفعلا أدت السفينة مهمتها كما أراد لها ويلوميز Willaumez والي سان لوي دون أن يمسخها أحد بأذى، وهو أمر ابتهج له الفرنسيون وجعل بويط ويلوميز Bouet Willaumez يكاتب وزير البحرية مخبرا إياه بهذا الإنجاز السار الذي يبشر بأن الأمور ستسير على أحسن ما يرام² بفضل استعمال القوة والتلويح بها، لكن الجولم يصف تماما للفرنسيين بسبب تقييمه السيء للأوضاع واعتداده بالنفس، المبالغ فيه على ما يبدو وهي أمور جعلته يمعن في احتقار الأهالي، ويعتقد أن الأمر قد قضي.

ونسوق مثالا فقط مما قام به من إهانة للشعب وحكومته في فوتاتورو من جملة أمثلة عديدة، فبعد التوفيق الذي حالفه في سياسته بنهر السنغال كما سبق توجه شخصيا رفقة جماعة من ضباطه إلى صالدي Sal-dé حيث يقيم الإمام وأهم مساعديه ليفرض عليهم مطالبه التي حددها والمتمثلة في:

- تقديم قطيع من 450 ثورا إلى داكانا Dagana كتعويض للخسائر التي تسببوا فيها.

1 -Lettre du gouverneur au Ministre de la Marine et des colonies;
Archives du Sénégal; 25 Septembre 1843, 2B 22 Fo. 35

2-Ibid.

– التنازل عن سنتين من الضرائب العرفية.

– تقديم رهائن من أبناء زعماء كاسكاس Cascas ودونكيل Don-

guel¹، ثم أشفع هذه المطالب بتهديد الإمام بشكل قاس، مصرحاً له، أنه في حالة عدم الاستجابة سوف لن يكتفي بضربه على رجله، ولكن سيعلن ضده حرباً مخزية باستطاعته أن يشكل حلفاً من أجلها تتكون من قوات: والو Wallo و كايور Cayor ومور (Maures) الترارزة الذين عرضوا عليه حسب قوله مثل هذا التحالف².

ومع أن الفرنسيين استفادوا من سياسة العصا الغليظة بامتثال إمام فوتا لهذه الإكراهات فإن الواقع كان يعكس أشياء أخرى مثل عداء أغلبية السكان للفرنسيين وعودة بعض أعمال النهب والسلب، وشعور فرنسا من جهتها بالغبن والدونية لاستمرار سريان أداء الضرائب العرفية من الناحية القانونية، مما كان يحتم على حاميتها بالمنطقة التزام الحذر على الدوام. وهذا ما كان يتطلب اعتمادات مرهقة من جهة، ويقلل من أرباح التجار الفرنسيين بالمنطقة ويضع المشاريع التي كانت تراهن عليها المنطقة في كف عفريت من جهة أخرى، مما يعني أن الأمور إلى حدود سنة 1850، وقبل مجيء فيدرب إلى السنغال سنة 1854³ لتحمل مسؤولية الوالي

1- Saint Martin (Y), op. cité; p. 61.

2 -Ibid, p. 62.

3 -Méniard(j); les pionniers du Soudan avant, avec et après Archinard, Paris, 1931, pp. 14-15.=

الفرنسي بها لم تكن قد أخذت طريقها في غرب افريقيا كما تطمح إلى ذلك فرنسا. وهذا ما دفع بالدوائر الحكومية المعنية إلى الانكباب بجدية على دراسة هذه الملف بناء على تقارير ولاية المستعمرة السنغالية وتجارها لاستخلاص العبر وتقييم الحصيلة والنتائج من جهة والوقوف على أهمية المشاريع التي خططوا لها سابقا، والمقترح انجازها مستقبلا ومعرفة الصعوبات المادية والسياسية والميدانية التي تعرقل تقدم الاستعمار الفرنسي في نهر السنغال.

ج - طبيعة المشاريع الاستعمارية والأفاق المستقبلية وصعوبات التطبيق (1826 - 1854):

تؤكد كل المصادر والوثائق الفرنسية التي تناولت هذا الموضوع وبناء على تقارير ومذكرات حكام سان لوي، المستعمرة الفرنسية بالسنغال منذ القرن 17، أن المشروع الرئيسي في مخطط السياسة الاستعمارية الفرنسية في نهر السنغال كان يهدف بالدرجة الأولى إلى استكشاف مناطق أعالي نهر السنغال مثل بلاد كلام Galam ذات المواقع التجاري والفلاحي المهم، وبامبوك Bambouk الغنية بمناجم المعادن النفيسة مثل الذهب، مرورا ببلاد فوتاتورو التي تشكل جزء النهر الأسفل والأوسط ذي الغنى الفلاحي¹.

= -Coursier(A), Faïdherbe, du Sénégal à l'Amérique du Nord. Paris, 1989, p. 44 et s.
1-Honoré(M), op. cité; p. 7.

وكانت فرنسا مصرة على تحقيق هذا الهدف مهما كلفها الثمن لقطع الطريق على المنافسة الانجليزية التي كانت تقهرها¹. هذا المشروع هو الذي سخرت له بعثات كانت فاشلة في معظمها، وأهمها بعثة شاستيلوس Chastellus وبريديف Brédef سنة 1817، وبعثة ميلاي Mélay سنة 1818، وتنقلات البارون روجي Roger الناجحة نسبيا عبر النهر حتى أعلاه ما بين 1822 و1826، لكن أسباب ومشاكل واعتبارات اعترضت فرنسا في المنطقة وحالت دون تحقيق هدفها إلى حوالي منتصف القرن 19. فما هي إذن أهم هذه الأسباب والمشاكل الكامنة وراء فشل المحاولات الفرنسية؟ وما هي الحلول التي يجب توفيرها؟

*** التعصب الإسلامي أكبر عقبة**

يمكن تلمس بعض عناصر الجواب من التقرير الذي رفعه دورانتون Duranton الذي استطاع ان يتعدى باكل Bakel ونهر الفاليمي Falemé ويصل إلى أعالي نهر السنغال سنة 1826 بعد أن قام برحلة في افريقيا دامت ست سنوات وحرر على إثرها مذكرة مطولة لوالي السنغال يعكس فيها الأفكار التي أوحى له بها الوضعية التجارية والسياسية في الأقاليم التي زارها².

1-Barry (B), le royaume du Wallo..., op. cité; pp. 218 et ss.

2-Saint Martin(Y), op. cité, pp. 63-64.

وأول ملاحظة تثير الانتباه في هذه المذكرة، انطباعه السيء عن التكولور Toucouleurs الذين يشكلون أكثر نسبة من سكان نهر السنغال وسخطه الكبير عليهم، وعلى وجه التحديد سكان فوتاتورو المسؤولون في نظره عن أحداث داكانا Dagana خلال سنتي 1819-1820 وعن باقي المشاكل، ولذلك فهو يقترح العمل على تغيير سلطة الأئمة، في فوتا Le Pouvoir des almamis وتعويضها بسادة البلاد القدامى الحقيقيين من الدينانكي Dénianke بغية إعادة نظام أسرة السيراتيك Siratiques الوثنية وهو النظام الملكي الذي كان يحكم البلاد قبل النظام الاسلامي¹.

وبهذه الطريقة يرى دورانتون Duranton أنه يمكن النيل من غطرسة التكولور Toucouleurs والحاق ضربة موجعة بالإسلام، لتتاح له الفرصة بذلك لإملاء المعاهدات التي تخدم المصالح الفرنسية، على الملك الذي سيدين للفرنسيين بعرشه. وتدعيما لموقفه يضيف نفس المصدر أن التكولور Toucouleurs الذين تدفع لهم فرنسا الضرائب العرفية يعتبرون الرعايا الفرنسيين، كأتباع لهم، بل ينال هؤلاء الرعايا منهم أقبح المعاملات. وعلى العكس من ذلك يفيد دورانتون Duranton، وطبقا لما عاينه، فإن ملوك باول وسالوم Baol والولوف Jolof وبامبوك وخاسو، وكارطا الذين

1 -Faure(C), <Le premier séjour de Duranton au Sénégal, Revue d'histoire des colonies Françaises, 2e semestre, 1921, p. 252.

لا تؤدي لهم شيئاً يحترمونا ويعرفون قدرنا¹. هذا الموقف المعادي للمسلمين في فوتاتورو وأعالي نهر السنغال هو الذي عبر عنه أيضا بويط ويلوميز Bouet Willaumez والي فرنسا على السنغال منذ شهر فبراير 1843 بالقول: «إن التعصب الإسلامي الذي بدأ يختمر هناك سيجعل من التنازلات لصالح نفوذنا بسينغامبيا أمرا خطيرا»².

ومع ذلك فإنه يلاحظ أن هذه العوائق الموضوعية لم تتن فرنسا عن مواصلة تنفيذ خططها، خصوصا بعد النجاح النسبي لبعثة رافنيل الذي تمكن اثناءها من زيارة مناجم ذهب بامبوك وأخذ عينات منها خلال سنة 1843-1844. كما اعد بنفس المناسبة مشروع إقامة مركز فرنسي محصن ب سينوديوبو Sénoudébou³.

وقد ترك نشر رحلته الاستكشافية أثرا مهما في الرأي العام الفرنسي الذي اطلع بفضل ذلك العمل على المشاكل البعيدة بمستعمرة سنغال. وهو ما شجع الحكومة الفرنسية على قبول مزيد من التضحيات، خصوصا بعد اطلاعها على تقرير والي سان لوي St Louis بويط ويلوميز-Bouet Wil laumez سنة 1844 الذي يقترح فيه مجموعة من الاجراءات الهادفة إلى

1-Ibid.

2-Archives du Sénégal, 2 B22, Fo. 38, 25 Septembre 1843.

3 - دون رافنيل كرئيس بعثة مشاهداته وأفكاره في كتاب له، انظر:

Raffenel (A), voyage dans l'afrique occidentale, (1843-1844); Paris; 1846.

تقوية حظ *انجلم* المشاريع الاستعمارية الفرنسية بغرب افريقيا والحفاظ على المكتسبات المنجزة. وأهم الاجراءات التي طالب ويلوميز Willaumez الاسراع بتنفيذها في السنغال إنشاء إدارة قارة للشؤون الخارجية بسان لوي لتلافي الاضرار الناجمة عن عدم استقرار الولاية¹. وقد استجابت الدوائر المسؤولة لطلبه دون تأخير، فصدر قرار وزاري بتاريخ 21 نونبر 1845 يقضي بإنشاء الإدارة التي طالب بها، وقد تم تعيين الرائد كاي Caille مديرا لها².

لم تكن مطالب بويط تنحصر في إنشاء إدارة قارة فحسب، بل طالب في رسالته باعتماد برنامج سياسي وعسكري مفصل وطموح سيعمل فيدر ب Faidherbe على تطبيقه نقطة، ونكتفي بإدراج فقرة صغيرة من رسالته في الموضوع لمعرفة نوايا بويط Bouet الحقيقية تجاه شعوب المنطقة، خصوصا الاسلامية منها: « العمل على تفكيك كونفدرالية فوتا التي أصبحت مقلقة بسبب عقليتها المهيمنة، وتعصب سكانها، وشساعة أرضها، والعمل على معاقبتها بقساوة كلما لجأت للعنف، ثم الاقدام على خفض قيمة الضرائب العرفية بالتدريج لحذفها نهائيا فيما بعد... »³.

1-Archives du Sénégal, lettre de Bouet au Ministre, 6 Septembre 1844.

2-Saint Martin(Y), op. cité, pp.66.

3 - Ibid.

لقد أرقت مسألة فوتا ونظامها الإسلامي فرنسا وعقدت المسؤولين على ملف القضية، بل وذهبت بحياة الكثير ممن ارتادوا الادغال الافريقية بغية خدمة الأمجاد الفرنسية. وقبل أن ننتقل إلى الحديث عن المشروع الثاني الذي خططت له فرنسا بغرب افريقيا، نسوق بعض أسماء الذين انتحروا أو ماتوا لا سباب بيئية ومناخية دون ذكر الذين سقطوا في ميادين القتال:

– انتحار القبطان أوليفييه Olivier والي السنغال سنة 1845 لشعوره بعدم القدرة على تحمل المسؤوليات المناطة به¹.

– موت بوردون دوكرامون Bourdan de grammont والي السنغال منذ سنة 1847 متأثرا بمرض الحمى الذي أصابه وهو في طريقه إلى أعالي نهر السنغال عبر باكل Bakel².

– وفاة الكومندان كاي Caille الذي خلفه في نفس السنة التي توفي فيها دوكرامون de grammont ، وبعد بضعة أسابيع فقط³.

المشروع الذي يأتي في الدرجة الثانية من الأهمية بالنسبة لفرنسا يتعلق بضرورة القيام بمزيد من الاستكشافات لمعرفة ما إذا كان بالإمكان

1-Schefer (CH), Instructions générales données de 1763 à 1870 aux gouverneurs et ordonnateurs des établissements français en Afrique occidentale; Paris, société de l'histoire des colonies françaises, 1927 TII, pp. 162-163.

2-Saint Martin(Y), op. cité, p.67

3-Ibid.

ربط المستعمرة الفرنسية بالسنغال ومن خلالها غرب افريقيا بالجزائر الفرنسية والمغرب، يتضح ذلك من بعض أخبار رحلة رافنيل Raffenel الثانية في نهاية سنة 1846، التي كان الهدف منها اختراق افريقيا من المحيط الأطلسي غربا إلى البحر الأحمر والمحيط الهندي شرقا، لم تقده إلى أبعد من شرق بلاد كارطا. ولم يتمكن بذلك من التعرف حتى على نهر النيجر، ولا تأتي له دراسة إمكانية الربط ميدانيا بين الجزائر والسودان الغربي كنقطة مهمة في برنامج رحلته، مع ملاحظة ان اهتمام رافنيل Raffenel بهذا الموضوع ومن ورائه وزارة البحرية الفرنسية، لم يكن وليد هذه الرحلة. فقد كتب سنة 1844 مخاطبا الرأي العام الفرنسي والحكومي بما يفيد أن استعمار السنغال يجب أن يكون بداية فقط لنظام استعماري شاسع قد تكون نهايته في يوم من الأيام أودية الأطلس ذات الجمال الباسم، ثم أضاف قائلا : «...لابد في يوم من الأيام أن ترتبط افريقيا الغربية بإفريقيا الشمالية حيث أعلام فرنسا، ليسند بعضها البعض، وليتأتى نشر مزايا حضارة بالغة الرقة عبرها»¹.

ومما يبرهن على أهمية مشروع ربط الجزائر والمغرب بالسنغال أيضا، تجاوب الوزير المعني مع هذه الاهتمامات وإصداره تعليمات تخدم نفس الهدف. فقد أمر في رسالة له بتاريخ 9 أكتوبر 1847 إلى والي سeln

1-Raffenel (A), Voyage dans L'Afrique occidentale; op. cité, p. 314.

لوي بالنيابة دوشاطو DUCHTEAU بأن لا يضيع مستقبلا أية فرصة لمعرفة ما إذا كان هناك تواصل تجاري بين السنغال والصحراء الجزائرية، بل حثه في النهاية على البحث عن دليل يساعد على استكشاف البلدان التي يتوجب عبورها «لربط مؤسساتنا بالسنغال مع ممتلكاتنا بالجزائر»¹.

كان دوشاطو Duchteau قد غادر منصبه بالنيابة، وعندما خلفه الوالي بودان Baudin بادر إلى إخبار الوزير بما يفيد وجود اتصالات بين المغرب والجزائر من جهة، والسنغال من جهة أخرى، والدليل حسب نفس المصدر هو أن التجار الموريتانيين يتاجرون مع تمبكتو والمغرب وقسنطينة، ويأتون إلى باكل، وبشكل أقل إلى سان لوي، كما أن السود من جهتهم يتاجرون مع تمبكتو لكن لا يتعدونها إلا ناذرا. فهم ينطلقون من باكل في شهر شتنبر ويتجهون إلى سيكو Ségou مارين بكارطال Kartal وبامبوك Bambouk وجني Jenné وتمبكتو، ثم عبر الصحراء نحو قسنطينة وبسكرة أو المغرب². لكن هل بالإمكان السير قدما بهذا المشروع حتى نهايته؟ الجواب بالسلب طبعا، والعائق الرئيسي حسب بودان Baudin هو نفسه الذي اصطدمت به المشاريع الأخرى وهو التعصب الإسلامي.

1-Schefer (CH), op. cité, TII, p. 184.

2-Saint Martin (Y), op. cité, p. 69.

فقبل تنظيم التجارة العابرة للصحراء وتدليل عقباتها الميدانية لصالح فرنسا، وقبل مواجهة المناطق غير المعروفة بالسودان وأخطار الصحراء، يرى نفس المصدر أنه لا بد من العمل أولاً على تنحية الحاجز التكروري Toucouleurs ويقصد به سكان فوتاتورو Futatoro ونظام حكوماتهم الإسلامي. وهذا الرأي يوافق تماماً رأي رافنيل Raffenel الذي عبر عن أسفه لاستمرار أداء الضرائب العرفية لحفنة من الزعماء الجشعين، من قبل سفن سان لوي Saint Louis وتجارها بمجرد الابتعاد عن هذه الأخيرة قليلاً في اتجاه أعالي النهر، وهو يرى أنه إذا استمر هذه النظام على حاله فإنه يمكن أن تسري عدواه وتنتشر على طول الطريق التجارية من السنغال إلى بلاد المغرب¹.

هذه إذن هي أهم المشاريع التي كان يخطط لها الفرنسيون في غرب إفريقيا وتلك هي العقبات التي اعترضتها وقد لاحظنا أن الحلول المقترحة بشكل عام تتفق على اللجوء إلى رهان الصرامة واستعمال القوة ضد حكام فوتاتورو ألد أعدائهم. لكن هناك مشاكل ترتبط بالفرنسيين أنفسهم أيضاً مثل عدم استقرار الولاية في المستعمرة السنغالية، وتفاهة الاعتمادات المرصودة لهذه المستعمرة بسبب مشاكل فرنسا الحربية الإقليمية والدولية، مما كان يؤثر على الإرادة السياسية في الحسم بشكل جريء في

1-Ibid.

السياسة الواجب انتهاجها بغرب افريقيا. وهذا يعني أن سياسة الحزم المقترحة كانت في حاجة إلى حكومة قوية وإلى وجود وال حازم في السنغال لمد طويلة.

وما من شك في أن سياسة فرنسا تجاه السنغال وما ارتبط به ستتغير بشكل جذري في اتجاه الحسم بعد أحداث الثورة الفرنسية سنة 1848، التي أفرزت نظام الجمهورية الفرنسية الثانية الذي انبثقت عنه حكومة قوية، يتضح حزمها واصرارها على جعل حد للإهانات التي كانت فرنسا ضحية لها بالسنغال في العهود السالفة، من التعليمات الموجهة في نهاية سنة 1853 للوالي بروطي Protet. ومما جاء فيها: «... يجب أن تدينوا المعاهدات الراهنة، وأن تستعدوا للاتفاقيات الجديدة التي ستعوضها. إن النظام الذي يبدو أكثر عقلانية في هذا الصدد، والأكثر بساطة والذي يجب أن يعوض الضرائب العرفية... هو أداء واجب محدد تقدره الإدارة المحلية، يحصل على السلع التجارية»¹.

وفي السنة الموالية (1854) أصدرت تعليمات أخرى أكثر صرامة: «نحن سادة النهر... ويجب على الخصوص ان نخلص أنفسنا من كل ما من شأنه أن يشكل مظهرا لضريبة تجبى من الحكومة، أو ابتزازا

1-Schefer (CH), op. cité, TII, p. 241

مفروضاً على التجارة»¹. ستطبق بالفعل كل هذه التعليمات ، وستتبنى حكومات الجمهورية الثانية كل الطروحات المتشددة التي وردت في رسائل وتقارير الولاية السابقين. وسوف لن نبالغ ان قلنا ان النصف الثاني من القرن 19 كان كافياً لتحقيق كل أهداف فرنسا الاستعمارية بغرب إفريقيا.

لكن الذي يهمنا من هذا المحور الذي حاولنا من خلاله تقديم بعض الأفكار عن تطور الأطماع الفرنسية بغرب إفريقيا، وقبل ذلك عرفنا بمختلف قوى المنطقة الأخرى، هو محاولة فهم الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية المتردية التي كانت عليها شعوب كل هاته البلدان عشية عودة الحاج عمر من رحلته المشرقية إلى بلاده.

ففي خمسينيات القرن 19، وفي الوقت الذي أخذت فيه حكومة الجمهورية الفرنسية الثانية المسألة السنغالية بما ينبغي من الجد، على عهد الوالي بروطي Protet ثم من بعده فيدر ب Faidherbe على الخصوص² كان الحاج عمر الفوتي على أهبة الاستعداد لإعلان الجهاد بغية تجديد الإسلام ومحاربة الوثنية والمسيحية، موظفاً في ذلك مفاهيم صوفية في إطار الطريقة التجانية التي عمت تعاليمها كل السودان الغربي. ومن البديهي أن تعارض المشروعات التجانية الإسلامية، والفرنسي

1-Ibid; p. 244.

2-Coursier(A), Faidherbe..., op. cité, pp. 44 et ss.

المسيحي المراد تحقيقهما في نفس المجال، سيفضي إلى التصادم بين القوتين. إلا أن الحاج عمر رغم قلة أهمية جيشه مقارنة مع الفرنسيين، ورغم كثرة أعدائه، فإن الأوضاع العامة المتردية التي حاولنا إعطاء نبذة عنها بسينيغامبيا Sénagambie وإغراءات وسحر التعاليم التجانية الواعدة في الدارين، ساعدته على تخطي الكثير من الصعاب كما سنرى.

3 - التعريف بأهم بلدان حوض نهر النيجر المشمولة بالدعوة العمرية التجانية:

بما أن الحركة العمرية الجهادية الاصلاحية التجانية شملت بلدان نهري النيجر والسنغال وما بينهما من أقاليم نرى من المفيد أن نقدم نبذة مختصرة تعرف بأهم بلدان حوض نهر النيجر، التي شكلت مسرحا للحركة المذكورة وحلبة للصلوات العسكرية والسياسية المؤلمة التي رافقتها خلال النصف الثاني من القرن 19.

1 - بلاد فوتاجلون Futa Djallon:

تشكل هذه البلاد في حقيقة الأمر منبعاً لنهر النيجر، وهي تابعة في الفترة الراهنة للسيادة الغينية. ويدين الحاج عمر الفوتي لهذه البلاد بالشيء الكثير. فيها درس لمدة طويلة¹ وتعمق في معرفة الكثير من العلوم

1-Ralph Willis(j),The Writings of al Hajj Umar Al Futi and Mukhtat Ben W adi at Allah: Literary themes, sources, and influences, = =

الاسلامية خلال شبابه وبها تعرف على أستاذه عبد الكريم الناقل الذي لقنه الطريقة التجانية ورغبه في الانخراط فيها.

ونظرا لتوسط فوتاتورو من حيث الموقع بين بلاد شنقيط شمالا وفوتاجلون جنوبا وهما بلدان إسلاميان أنجبا الكثير من الفقهاء والأساتذة الذين أفنوا أعمارهم في تدريس مختلف العلوم الاسلامية، فإن الحاج عمر الفتوي الأصل (من فوتاتورو) والنشأة تتلمذ على أساتذة فوتاجلون أكثر مما تتلمذ على فقهاء بلاد شنقيط الاقرب منه جغرافيا. ويمكن إرجاع ذلك في نظرنا ربما إلى أسباب ثقافية أو سياسية أو عائلية أو إلى كل هاته الأسباب جميعها. وقد ظل على صلة وثيقة بهذا القطر مدة طويلة من حياته. ولم يطل غيابه عنه إلا بسبب المدة الطويلة التي استغرقتها رحلته إلى الديار المقدسة ذهابا وإيابا.

لكن بعد عودته، وخلال كل الفترة الزمنية التي أكمل فيها تأليف بعض كتبه وبناء زاويته لنشر تعاليم الطريقة التجانية وكسب الأنصار الذين كونوا نواة جيشه الاسلامي، كانت الأرض التي أوتى وأزرتة وشكلت منطلق عمله الدعوي الاصلاحى الجهادي في اتجاه أعالي نهر السنغال وما وراءه، هي أرض فوتاجلون وتحديدًا مدينة جيكونكو Jégunko. واعتبارًا لهذه الأدوار التي لعبتها هذه البلاد في حياة الحاج عمر مؤسس الزاوية التجانية

= = Studies in West African Islamic History, Volumel, The cultivators Of Islam, Princeton University, 1979, p. 177
-Robinson (D), op. cité, p. 60.

وناشر تعاليمها بالسودان الغربي، رأينا من المفيد تقديم نظرة موجزة
تعرف بها.

تقع فوتاجلون Futa Djallon في منطقة جبلية من غينيا الحالية
تشكل منبعا لانهار النيجر والسنغال وغامبيا. وقبل أن يصل إليها الفولاني
يسوقون قطعانهم بحثا عن المراعي حوالي القرن الحادي عشر الميلادي،
نازحين من الشمال كان سكانها الأولون يتكونون من الديالونكي¹
Dialonke ودون أن نخوض في مسألة الأصل الحقيقي للفولاني الذين
تشعبت حولهم الآراء والفرضيات ترى بعض المصادر أن شعب الفولاني
الذي وصل ابتداء من العصر الوسيط إلى ضفاف نهر السنغال قادما من
بلاد الحبشة أو حوض النيل عبر الصحراء التي لم تكن جرداء بعد، ثم
موريطانيا، قادت ظروف الهجرة المعاكسة في اتجاه الشرق بعضه إلى
الاستقرار بفوتاجلون، ابتداء من القرن الحادي عشر الميلادي، وعاش إلى
جانب شعب الديالونكي حتى القرن 16 دون مشاكل كبيرة². غير أنه في
نهاية القرن 17 وبداية القرن 18 وصلت أفواج جديدة من الفولاني
المسلمين قادمة من فوتاتورو (السنغال) ومن ماسينا (السودان المالي)،

1-Diallo(T), <La mission du Dr Bayol au Fouta Djallon (1881)
ou la signature du 1er traité de protectorat de la France sur le
Fouta Djallo>, Bulltin de l'IFAN, T 34 series b, No. 1, 1972, pp.
113 et ss.
-Marty (P); L'islam en Guinée(Fu ta Djallon), R. M. M; No. 34,
1916-1918,pp. 69 et ss.
2-Ibid.

فغيرت التوازن القائم بالبلاد بين الشعبين الديالونكي والفولاني عندما شرعت الجماعات الفولانية المسلمة في غزو بلاد الديالونكي بين 1694 و1725 باسم الدين المحمدي، وتمكنت من فرض هذا الدين بالقوة على الوثنيين من العرقين الديالونكي والبولي Poulli¹.

ومنذ أن تحقق اسلام هذا البلد صار يحمل اسم فوتاجلون Futa Djallon وهو مشتق من اسم الشعبين المسلمين: من الشعب الفولاني الآتي من فوتا ومن شعب السكان الأصليين Djalonke أو ديالونكي-Dia lonke، ومنه اشتق لفظ دجالون².

ورغم بعض أعمال المقاومة التي استغلت طبيعة المنطقة الجبلية للحيلولة دون نجاح الدعوة الإسلامية، فإن البلاد أصبحت منذ 1726 تخضع لنظام حكم إسلامي سرعان ما نجح في خلق مجتمع جديد بفوتاجلون. وهو الحدث الذي يؤرخ لقيام أول مملكة فولانية إسلامية بغرب افريقيا أيضا، قبل أن ترى الدول الإسلامية الفولانية الأخرى النور، مثل دولة سكوتو التي قامت في نهاية القرن 18 وبداية القرن 19، ثم دولة ماسينا التي نشأت بعد هذا التاريخ بقليل³. بعد قيام النظام الإسلامي

1 - اسم القادمين الأوائل من الفولاني إلى فوتاجلون.

2-Diallo (T); op. cité, p. 119 et s.

3-Ibid

-Marty (P), L'islam en Guinée, op.cité, pp. 70-71 et 76-77.

قسمت البلاد إلى سبعة أقاليم أهمها: تيمبو العاصمة السياسية ومقر ملك البلاد، وفوكومبا العاصمة الدينية، وهي مدينة مقدسة، بها يتم تتويج أئمة فوتاجلون قبل انتقالهم إلى العاصمة السياسية¹.

ومما يشد الانتباه في هذه الدولة الفولانية الإسلامية بفوتاجلون خلال القرن 18 ومطلع القرن 19، أنها عملت على سن نظام حكم دستوري إلى حد ما، يتم من خلاله التناوب على الحكم مع فصل السلط والحرص على تطبيق تعاليم الشريعة الإسلامية في مختلف المصالح الحكومية والمرافق الإدارية. وعمل هذا النظام على توطيد مكانة الإسلام في فوتاجلون بسن تعليم إسلامي فعال شمل مع مرور الزمن أغلب المستويات وصار بذلك منارة يمتد إشعاعها إلى ما وراء حدود البلاد. ورغم ما شاب هذا النظام من ضعف بسبب اقتصار التناوب المشار إليه على أسرتين فقط هما أسرة ألفيا Alfaya وأسرة الصورايا Soraia² المنحدرتين من الأسرة التي كانت وراء قيام النظام الإسلامي بالبلاد. ورغم بعض العيوب والصراعات المترتبة عن ذلك مثل أي نظام، فإن مزاياه كانت أكثر من سلبياته بشهادة عدد من الدارسين نذكر منهم على سبيل المثال:

لويس طوكسيي Louis Tauxier³ بول مارتي Paul Marty⁴

1-Diallo (T); op. cité, p. 121.

2-Ibid, p. 124.

3-Tauxier (L), Moeurs et histoire des Peuls, Paris, 1937, pp. 13 à 30.

4-Marty (P), op. cité.

ديموجو Démougeot¹ ثم أرسان Arcin².

ومن مزايا هذا البلد أيضا تماسك سكانه ضد كل خطر خارجي وكثرة الأنهار التي تسقي المجال الزراعي ذي الهضاب والسهول الخصبة، وهي عوامل جعلت فوتاجلون تعرف ازدهارا اقتصاديا طيلة القرن 19 وقد ساهم في هذا الازدهار أيضا الموقع الاستراتيجي الذي شكل صلة وصل بين السودان النيجيري وأعالي نهر السنغال شرقا، والمحيط الأطلسي ونهر غامبيا غربا حيث تنشط التجارة الأوربية وخصوصا الأنجليز³.

وبفضل هذه المقومات الطبيعية كانت القوافل التجارية التي تربط بين داخل افريقيا والمحيط الأطلسي تحقق أرباحا كبيرة لأصحابها من سكان البلاد والتجار الآتين من آفاق بعيدة كتجار العبيد، مما كان يحقق للدولة مداخيل مهمة بفضل الرسوم التي كانت تفرضها على السلع المنقولة ذهابا وإيابا. أما الإنتاج الفلاحي والزراعي فقد توفرت فيه عوامل ازدهاره في الجنوب خصوصا وأهمها⁴:

– وفرة الأمطار وانتظامها.

1-Démougeot (A),notes sur l'organisation politique et administrative de Labé avant et depuis l'occupation française, Paris, Larose; 1914, p.16 et ss.

2 -Arcin(A),histoire de la guinée française, paris, 1911, p. 391 et ss.

3 -Ibid.

4 - Robinson (D), op. cité; p. 57.

- ارتفاع أرضها بشكل لا يسمح بركود المياه، مما يحول دون وجود
ذبابة تسي تسي¹.

- قرب البلاد من بلدان سينغامبيا S n gambie التي تعتبر سوقا
رائجة لتسويق المنتجات الفائضة عن الاكتفاء الذاتي.

- قربها من المرافئ النهرية مثل ريو نونيز Rio Nunez، وريو
بونكو Rio Pongo²، والموانئ الأطلسية التي تأتي في مقدمتها. وأهم
المنتجات الفلاحية التي يتم تسويقها في الداخل والخارج الحبوب كالرز
وقطعان المواشي واللحوم.

أما السلع التي كانت تحتاج لها فوتاجلون مثل الملح والأثواب
والأسلحة فكانت تقايضها في الشاطئ الأطلسي بذهب بامبوك Bambouk
وبوري Bour ، وخيول الساحل والعبيد المجلوبين إما من الأسواق
الداخلية أو من الأسرى الذين كانوا يقعون في أسر الجند النظامي
الإسلامي، عقب الحملات العسكرية الجهادية الموجهة ضد الوثنيين³، في
إطار الجهد المبذول لنشر العقيدة السلامية في كل أرجاء البلاد.

1 - Ibid.

2 - 1792 - Mouser(B), <Trade, Coasters and conflict in Rio Pongo
from 1792 to 1808>, JAH, 14.1(1973).

- Mouser (B), <The Nunez affaire>, Bulletin des s ances de
l'Academie Royale des sciences d'outre Mer, (Bruxelle), 1973.

3 - Robinson (D), op. cit , PP. 57-59.

هذه إذن باختصار شديد هي أهم مميزات دولة فوتاجلون الإسلامية التي اختارها الحاج عمر مقاماله عند عودته من المشرق العربي لأسباب موضوعية وإيديولوجية سبق التطرق إلى أهمها. وبقي أن نقول فقط أن اختياره لهذا البلد كان يفرض نفسه لسبب آخر سنعود إليه لاحقاً، وهو قرب الموقع من الموانئ التي يهيمن عليها الانجليز، مصدر تسليح جيشه الرئيسي وورقته الراحبة في مواجهة كيد الفرنسيين.

ب - بلاد طامبا Tamba¹ .

تأتي أهمية هذه البلاد الصغيرة المساحة من كونها تشكل المحطة الثانية والحاسمة بعد رجوع الحاج عمر من المشرق. فقد غادر مدينة جيكونكو الفوتاجلونية حوالي سنة 1849 مجبراً لأسباب سياسية وإن كانت الروايات تختلف في هذا الموضوع كما سنرى، واختار الإقامة في بلدة دينكراي Dinguiray الخاضعة لنفوذ طامبا Tamba الدولة الوثنية الحديثة النشأة.

تقع هذه المملكة المالينكية Malinke على الحدود الشرقية لفوتاجلون بين نهري البافنيك Bafing والتينكيسو Tinkisso. وهذه الدولة الفتية لم تكن شيئاً يذكر قبل نهاية الربع الأول من القرن 19. وقد رأت النور مستعملة

1 - من أجل اطلاع أوسع على بلاد طامبا يمكن الرجوع إلى:

- Arcin(A), Histoire de la Guinée française; op. cité, pp. 104-105.
- Caillé (R), Journal d'un voyage à Tombouctou et à Jenné, pendant les années 1824-1828, Paris, Vol. 1, pp. 284 à 348.

القوة ومستغلة دخول الدول المجاورة لها في فترات ضعفها وصراعات حكامها على السلطة، وهي ظروف أفسحت لها المجال لاقتطاع أراضي عنوة لفائدتها على حساب سيكو شرقا، وكارطا شمالا، وفوتاجلون غربا، لتأسس بذلك هذه المملكة وتتطور مع مرور عشرينيات القرن 19¹. ونظرا لموقعها المتميز أصبحت تراقب عن كثب مناجم ذهب بوري. وتتحكم في الحركة التجارية النشيطة بفعل إشرافها على مختلف الطرق القافلية المؤدية إلى السودان النيجري والبلدان المطلة على الساحل والآتية منها في طريقها إلى الموانئ الأطلسية، موجهة بذلك ضربة موجعة لفوتاجلون على الخصوص التي كانت تستفيد من هذا المجال الذي كان ملكا لها بالأمس القريب.

ودون أن نطيل في موضوع طامبا Tamba أكثر من اللزوم، نخلص إلى القول بأن الحاج عمر عندما هاجر من جيكونكو Jégunko إلى دينكراي Dinguiray² فقد هاجر حسب قناعته من بلاد الإسلام إلى الكفر والوثنية، كإجراء مرحلي لأسباب تكتيكية، استراتيجية واقتصادية، أملت عليها الظروف الصعبة التي كان يمر بها قبل الإعلان عن انطلاق عمليات الجهاد. وقد وفق في معالجة الكثير من التناقضات، وأفلح في الخروج من أصعب المآزق في مرحلة دنكراي كما سنرى.

1-Robinson(D),op.cité, PP. 57-59.

2-Ly Tall(M),op. cité, p. 135.

وبعد أن قدمنا نبذة عن فوتاجلون Futa Djalon وطامبا البلدين اللذين تشكل أراضيها منبعاً لنهر النيجر، واللذين كونا منطلقاً ومسرحاً لعمل الحاج عمر الدعوي والجهادي الإصلاحى المؤسس على تعاليم الطريقة التجانية، ننتقل إلى التعريف ببلدين آخرين يقعان على ضفاف نهر النيجر إلى الشرق من بلاد السنغال، وخضعا بدورهما لحركة الحاج عمر الجهادية بعد سلسلة من الأحداث المؤلمة التي توجت في النهاية بانتصار الإسلام بفضل الجحافل التجانية بقيادة الحاج عمر نفسه. وهذان القطران هما سيكو وماسينا.

ج - بلاد سيكو¹:

تقع هذه المملكة الوثنية على ضفتي نهر النيجر الأوسط إلى الشمال من باماكو Bamako العاصمة الحالية لمالي. وكانت مساحتها تمتد في هذه الفترة التي تهمنا، من ضواحي باماكو Bamako التي تقع على الضفة اليمنى لنهر جنوباً حتى الدلتا شمالاً التي يطلق عليها دلتا Delta ماسينا.

يرجع تاريخ تأسيسها إلى حوالي منتصف القرن 18. وأول من أسسها من ملوك البامبارا هو نكولو Ngolo (1750-1787) المنتمي لأسرة جارا. وقد عرفت هذه الدولة أوج عزها في عهد ابنه مونزون

1-Kamara(M), Histoire de segou. Présentation, traduction et annotation par Moustapha Ndiaye Bulletin de l'I.F.A.N, serie B, No 3, 1978, pp. 458 à 488.

Monzon¹ (1790-1808) وحفيده دا Da (1808-1827)². وهؤلاء الملوك البامبارا حكام سيكو Ségou هم من أبناء عمومة بامبارا كارطا كما مر بنا في مكان آخر من هذا البحث. ترجع قوة المملكة الاقتصادية والعسكرية في فترة مجدها إلى عدة أسباب أهمها:

أ - موقع البلاد الذي يخترقه نهر النيجر فيضمن لها بذلك وفرة المياه على الدوام كما يسمح بسقي مساحات مزروعة مهمة في الفصل الجاف، أما نظام الأمطار فيتيح ازدهار عدة محاصيل كالحبوب والقطن على الخصوص.

ب - دور سيكو في الربط بين اقتصاديات الصحراء والساحل شمالا، واشتغارها بتصدير الملح والدواب والخيول وبيع السافانا والأقاليم الغابوية جنوبا، من حيث كان يأتي الذهب والعبيد وجوزة الكولا La noix³ de Kola.

وكانت الزوارق والسفن الصغيرة لصيادي الصومونو التي تجوب النهر طولاً وعرضاً، تنقل هذه المنتوجات من مختلف الموانئ التي تصل إليها السلع المحملة على ظهور الجمال والحمير التي تقصد النهر من كل حدب وصوب.

1-Robinson(D),op.cité, PP.232-233

2-Ibid.p. 232.

3-Monteil (CH), les Bambara de Segou et du Karta, op. cité.

يشتمل هذا الكتاب على معلومات قيمة حول المقومات الاقتصادية لبلاد سيكو.

ج - مساهمة فئة الماركا Marka من السكان في تنشيط إنتاج وتجارة القطن والنيلة والصناعة النسيجية بكمية تسمح بتصدير الفائض عن حاجة البلاد بأثمان مربحة¹.

د - لجوء النظام الحاكم إلى عمليات الغزو وشن الغارات على المناطق المجاورة الغنية منها على الخصوص مثل تامبا Tambala في الجنوب الشرقي ولجوء الجيش (Tonjon) إلى السلب والنهب لتغذية بيت مال الدولة، كما يفعل إخوانهم حكام كارطا Karta. وكان جيش سيكو Ségou مثل جيش كارطا كذلك يحدث الرعب في الجهات التي يغزوها لكثرة عدده وقسوته وحسن تسليحه وتطلع الكثير من أطره إلى تسلق أعلى المراتب. فهذا الجيش الذي قلنا عنه عندما كنا بصدد الحديث عن كارطا، إنه يشبه في مراحل إعداده وتدريبه جيش عبيد البخاري إلى حد كبير، مع مراعاة بعض الفوارق، تتوفر عليه سيكو بأعداد كبيرة جدا، بسبب سهولة الحصول عليهم شراء أو قنصا في أوقات الحروب².

ويمكن أن نتحدث بالنسبة لهذا الجيش عن وجود طبقية في مكوناته، أعلاهم مرتبة أولئك الذين ينخرطون في خدمة العرش، إلا أن نقطة ضعفهم هي إسهامهم في تدهور الأوضاع عندما تضعف سلطة أسيادهم. ومن الأمور المهمة التي نود الإشارة إليها بالنسبة لهذه المملكة الوثنية، ما

1-Robinson (D), op. cité; p. 231.

2-Ibid, P. 233.

امتان به حكامها من تسامح مع المسلمين، فسلالة الماركا Marka الذين تحدثنا عن نشاطهم التجاري والصناعي سابقا يعتنقون الإسلام، ولهم مدارسهم القرآنية ومساجدهم وقضاتهم وعاداتهم وأزيائهم الإسلامية¹. لكن دون أن يرقوا في ذلك إلى مستويات عالية من النسك والتثقيف، والتعمق في المعرفة الإسلامية لانعدام معاهد تهتم بذلك بسبب قلة هذه الفئة المسلمة التي تشكل جزيرة وسط خضم من الوثنيين وعبداء الأصنام، باعتبار أن سيكو Ségou كانت تضم معابد تأوي خليطا من الأوثان التي تجسد ألهة البامبارا Bambara. وهذا موضوع له أهميته، سنتطرق له في حينه عند مناقشتنا لاحقا لقضايا شائكة سنعمل على توضيحها.

هذه القوة الضاربة لدولة سيكو Ségou بدأت في الأفول منذ منتصف القرن 19، بعد أن انفصل عنها إقليم ماسينا الكبير الذي كان يشكل نصفها الشمالي تقريبا. وقد وقع هذا الانفصال عندما نجحت قبائل الفولاني التي تتكون منها غالبية السكان في العمل على إنشاء خلافة إسلامية عاصمتها

1 - تمكن الإسلام من بعض سكان سيكو Ségou قبل قيام دولة ماسينا Macina وبعدها بفضل المجهودات التي بذلها الفقهاء الكنتيون انطلاقا من تمبكتو والعلاقات الطيبة التي كانت تجمع بين الطرفين. انظر:

Marty(P), Etude sur l'islam, Tribus du Soudan, Paris, 1921, T. LV, PP. 47-52, 60, et 64.

حمد الله بقيادة شيخو أحمدو في عشرينيات القرن 19¹. وقد أضعف هذا الانفصال سيكو بطبيعة الحال لأنها حرمت بذلك من جزء كبير من المداخل التي كانت تأتيها عن طريق التجارة والفلاحة مع الشمال والشرق، بما في ذلك تمبوكتو² لا تخفى أهميتها الكبيرة في تنشيط الحركة الاقتصادية بالمنطقة. وقد وقع هذا الانفصال في نفس الوقت الذي ظهرت فيه دولة طامبا Tamba تقريبا في جنوب سيكو Ségou الغربي.

هذا التقليل في المساحة أدى إلى ضعف الموارد الاقتصادية وتراجع كبير في أهمية الغنائم وهذا شيء تسبب في الشعور بالسخط وعدم الرضا، من قبل الأعداد الكبيرة التي يتكون منها الجيش الذي اعتاد جنوده العيش الرغيد عن طريق السلب والنهب فظهرت في صفوفه محاولات انقلابية عديدة، أدت إلى حالة عدم استقرار النظام السياسي حوالي منتصف القرن 19².

وكانت أبرز هذه المحاولات هي التي تحالف فيها زعماء الطونجون Tonjon (جيش العبيد)، مع أخ الملك طوروكورو ماري جارا Torokoro Mari Jara في خمسينيات نفس القرن من أجل اغتيال ميسبب ما علموه من احتمال اعتناقه الإسلام وقبول دعوة الحاج عمر

1 - Marty(P), Etude sur l'islam, Tribus du Soudan, Paris, 1921, pp. 177 et ss. **T II**.

-Ly Tall (M.), op. cité, p. 128.

2-Robinson(D.), op. cité, p. 234.

سرا¹، وقد نفذ المتآمرون قتله بالفعل غرقا بعد أن رموه في النهر وعوضوه بأخيه بينا علي Bina Ali سنة 1858²، ولعل هاته الحالة من الضعف هي التي ستسهل على الحاج عمر الاستيلاء على سيكو Ségou في بداية ستينيات القرن 19 بعد أن حدث بينه وبين ماسينا من الفتن والحروب بسبب السيادة على سيكو ما يمكن أن نسميه بفتنة السودان الغربي الكبرى. فما هي دولة ماسينا إذن؟

د - بلاد ماسينا Macina: دولة الخلافة³.

نشأت هذه الدولة على قاعدة الخلافة الإسلامية خلال العقدين الثاني والثالث من القرن 19. وتقع على ضفاف دلتانهر النيجر الأوسط إلى الشمال الشرقي من سيكو التي كانت ماسينا تخضع لها كما سبق. ولم تنفصل عنها إلا بعد قيام نظام حكم إسلامي بها. وتمتد شمالا إلى مابعد بحيرة ديوبو Lac Debo، وفي أوج قوتها كانت تدخل تمبوكتو تحت نفوذها⁴.

1-Ibid.

2-Mage (E.); Voyage dans le Soudan occidental, op. cité, pp.155, 143, 154

3 - من الدراسات الأكثر تركيزا وإحاطة حول دولة ماسينا الإسلامية يمكن ذكر:

-Hampaté(B.A) et Daget (J), l'Empire Peul de Macina , op. cité.

-Marion(J)<the economic foundations of an Islamic Theocracy: the case of Macina>,JAH. (1976).

4-Barth(H), Voyage et Découvertes dans l'Afrique septentrionale et centrale pendant les années 1849 à 1855, Paris, 1860, T3, p. 683 et ss.

وعن ظروف قيامها يمكن القول باختصار إنه خلال القرن 18 وبداية القرن 19، كان سكان هذه البلاد وأعظمهم من الفولاني يعانون من تسبب قبائل الطوارق بالشمال والبابارا بالجنوب، والتي كانت تعيش على اقتصاد الغزو والسلب والنهب معرضة جيرانها لأفدح الخسائر. وفي الوقت نفسه كان الاسلام قد تمكن من قلوب عدد لا بأس به من الماسينيين، فولانيين وغير فولانيين بسبب الاثر الذي تركته الممالك السودانية الاسلامية في العصر الوسيط وبداية العصر الحديث، مروراً بالاسهام المغربي في المنطقة خلال القرنين 17 و18¹ غير أن الدولتين الاسلاميتين الفولانيتين اللتين أثرتا بشكل مباشر في ماسينا وشكلتا نموذجا يحتذى في الجهاد بافريقيا جنوب الصحراء خلال فترة التاريخ المعاصر علاوة على ممالك فوتاتورو، هما دولتا فوتاجلون في أرض غينيا إلى الجنوب من السنغال ودولة سكوتو SOKOTO بشمال نيجريا.² ومن البديهي أن تكون استفادة ماسينا الاسلامية من تجربة هذه الأخيرة أكبر، واعتمادها عليها في الأوقات الحرجة أمر وارد بشكل مباشر أو غير مباشر نظرا لتقارب الدولتين من حيث موقعهما الجغرافي من جهة، ولكون دولة سكوتو الإسلامية حديثة النشأة أيضا، إذ لم تتأسس إلا في مطلع القرن 19 على يد

1-Robinson (D), op. cité, p. 79et ss.

2-Ibid.

عثمان بن فودي الفولاني الأصل¹ وهكذا يمكن القول إنه ما بين القرنين 18 و19 تكونت أربع دول إسلامية فولانية بالسودان الغربي:

– دولة فوتاجلون Futa Jallon

– دولة سكوطو Sokoto

– دولة ماسينا Macina

– امبراطورية الحاج عمر التجانية كما سنرى.

وبفعل هذا الحضور الإسلامي المستمر والمنتشر بشكل متماسك على كل بلدان السودان الغربي والأوسط، ازدادت جذوة الإسلام توهجا في ماسينا، تولدت عنها أسر امتازت بنبوغها في العلوم الإسلامية على غرار عائلة حاما لوبو Hamma Lobbo². وهكذا، فغداة الثورة الإسلامية الفولانية في سكوطو في بلاد الهاوسا على يد عثمان بن فودي، حوالي نهاية العقد الأول من القرن 19، كانت كل الشروط متوفرة لتحقيق نفس التجربة في ماسينا. وكان أبرز المرشحين لقيادتها أحمدو حمادي بوبو Ahmadu Hammadi Bubu من أسرة حاما لوبو Hamma Lobbo وهو فقيه من إقليم فيتوكا Fittuga، عرف منذ شبابه بمعارضته للقوى الغازية

1 – محمد بلو بن عثمان بن فودي، إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور، م. س، ص 9 وما

بعدها.

2-Ly Tall(M.); p. 104.

لبلادته¹.

قضى أحمدو حمادي معظم وقت تكوينه واستكمال دراسته في جني Jenné، وهذا ما يدل في تقديرنا على أن هذه المدينة التي خضعت مدة طويلة للحكم المغربي، كانت على مستوى محترم من الفكر والثقافة الإسلامية بفصل علمائها وفقهائها الذين بوأوها هذه المكانة، عكس ما ذهبت إليه الباحثة مدينا لي طال Madina Ly Tall بشكل متناقض من أن هذه المدينة عرفت أقولا على إثر الاحتلال المغربي².

وقد توج أحمدو حمادي³ بوبو هذه الدراسة بأسفار غيبته عن بلاده مدة طويلة إلى أماكن لم تفصح عنها الوثائق المتوفرة. وبعد عودته استقر برونندو سيرو Rundu Siru قريبا من جني، حيث قصده الكثير من التلاميذ والمحبين سرعان ما لفت تكاثر عددهم وتحركاتهم انتباه السلطة التي وصلتها نوع الأفكار التي كان يناقشها الأستاذ مع تلاميذه، فعبرت له عن امتعاضها مما يحدث، فاضطر للرحيل عن هذا المكان والتجأ إلى بلدة

1-Ibid.

2-Ibid.

ونفس الحكم أصدره باحث مالي آخر متهما بذلك المؤرخين المغاربة بالتحيز في كتاباتهم التاريخية بخصوص أحمد المنصور السعدي في السودان الغربي وما ترتب عن ذلك من بسط للنفوذ المغربي على حوض النيجر الأوسط والغربي، انظر:

- Issifou(Z.D), L'Afrique Noire dans les relations internationales au 16ème S, op. cité, pp. 3 et 14

3 - هو الذي سيعرف كملك بإسم شيخو أحمدو كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

نوكوما Nukuma التابعة لإقليم سيبيرا Sébéra¹...وعندما أدرك أن دعوته إلى التغيير قد حققت ما يكفي من الأنصار، وأن حدا أدنى من الشروط قد توفر للإعلان عن ثورة إسلامية جهارا، عمد أولا إلى ركوب خدعة سياسية أعلن بموجبها عن بيعته لخليفة سكوطو Sokoto محمد بلو الذي استقبل مبعوثيه حسب أخبار محلية سنة 1232 هـ (1816-1817). وتضيف نفس المصادر أن الفقيه أحمدو حمادي، كان قد دخل في اتصالات منذ سنة 1231 هـ (1816) مع عبد الله بن فودي عم محمد بلو من أجل الحصول على استيضاحات مرتبطة بتأويل آيات قرآنية لها علاقة بممارسات بعض مسلمي جني Jenné². وفي نفس الوقت الذي كان فيه الفقيه أحمدو حمادي بوب يكتف الاتصالات بخلافة سكوتو بحثا عن المشروعية والسند ضد بامبارا سيكو الأشداء ومن يدور في فلکهم من أهالي ماسينا، لجأ لنفس الغرض على ما يبدو إلى إقحام نصوص بشكل مقصود في تاريخ الفتاش تضيف عليه المشروعية المطلوبة لتقلد زمام الخلافة الإسلامية في ماسينا³.

1-Ly Tall(M.); p. 104.

2-Hampaté (B.A.) et Daget(J), op. cité, p. 40.

3 - كان وراء هذا الإقحام وزير السلطان شيخو أحمدو وكتابه الفقيه نوح بن الطاهر، كما يتضح ذلك من نداء لهذا الأخير، يقول فيه: «...يا إخوان الفقير نوح بن الطاهر بن أبي بكر بن موسى... هذا تنبيه لكم وإعلام وتبصرة وتذكرة ونصيحة لسلطان الغرب فاس ومراكش ومن =

وكان السبب المباشر الذي أشعل فتيل الثورة ضد أسرة أردو الحاكمة أن أحد أمراء هذه الأسرة المالكة جرد أحد المواطنين البسطاء مما يملك. وعندما بلغ هذا الاعتداء إلى علم قائد الثورة الإسلامية، بعث بأحد تلاميذه إلى الأسرة الحاكمة للتوسط في القضية لانصاف المشتكي، لكن النتيجة كانت سلبية، فدخل الطرفان في مواجهة مسلحة، كانت لصالح النظام الحاكم. ولم ينج الفقيه إلا بفضل حصانة بلدة نوکوما N. ukuma.

وبعد هذا الفشل اتصل أحمدو من جديد بسكوطو التي يبدو أن خليفته قد زوده ببعض النصائح وربما ببعض الجنود أيضا. فخاض جيش الثورة الإسلامية من جديد معركة ضد النظام الحاكم عندما اضطر للدفاع عن نفسه ورغم قلة عدد الجنود المسلمين فإن النصر كان حليفهم لضراوة المقاومة التي أبدوها رغبة في الاستشهاد بينما جيش العدو كان هدفه الغنائم فقط¹.

بعد هذا النجاح العسكري ازداد أنصار أحمدو حمادي بوبو، بشكل

= = معه من الرعية من تنبكت وأروان وأبو جبيهة وتودن وأهل سوس الأدنى والأقصى وتوات وغدامس والاندلس إلى تونس والجزائر والبرابر إلى مصر وقبروان وتلمسان ومن يليهم إلى منتهى الإسلام... إن الشيخ أمير المؤمنين أحمد بن محمد بن أبي بكر الذي قام لإحياء دين الله والجهاد في سبيله في أرض ماسن وماوالاها... هو الثاني عشر من الخلفاء المجددين الذي بعده المهدي فإن قيل أين المصداق قلت نص تاريخ الفتاش... انظر:

-BNP, MO. FA. Man. 5259 FFo75 à 78.

1-Hampaté (B.A.) et Daget(J), op. cité,p p. 29à41.

كبير تتشكل أغلبيتهم العظمى من الفولاني الذين طالما عانوا من طغيان
حكام سيكو والحاكمين باسمهم في ماسينا. وشكلت نوكونا N ukuma
مقر قيادة الثورة الإسلامية مكان لجوء لهم، وعلى إثر هذا الحدث اعتنقت
قبائل الفولاني بماسينا الإسلام بأعداد كبيرة جداً¹.

ومع علمنا بوجود الكثير من الثغرات في تفاصيل الرواية المتعلقة
بقيام الثورة الإسلامية بماسينا مثل الخبر المتعلق ببعثة أحمدو حمادي إلى
سكوطو واختلاف المصادر حول السلطان الذي استقبلها هل هو عثمان بن
فودي أم ابنه محمد بلو وعدم تقديم تواريخ دقيقة لقيام المعارك بين
الطرفين ولا متى تم تنصيب هذا الفقيه خليفة على ماسينا بشكل رسمي
وفي أي تاريخ بنى عاصمته بشكل محدد، مع علمنا بكل هذا فإن الخيوط
الرئيسية لنسج هذه الرواية حسب هامباتي Hampaté Bâ با وجان داجي
J. Daget. وبعض تقارير الضباط الفرنسيين تكاد تتفق على الأمور الآتية:
- اتخاذ لقب الشيخ بعد النصر الذي حققه على الوثنيين في نوكونا ،
فصار يسمى شيخو أحمدو.

- بعد فشل كل عمليات المقاومة ضد النظام الجديد من قبل أسرة
الأردو الحاكمة وأنصارها، نقل أحمدو حمادي عاصمته إلى قرية كوبي
Kobe التي أطلق عليها بعد هذا التغيير حمد الله، دون أن نعرف متى

1-Ibid.

حدث ذلك.

- لجوء الخليفة إلى تقسيم البلاد إلى أقاليم عسكرية خوفا من نشوب انقلابات مضادة على رأس كل إقليم أمير يساعده مجلس استشاري ديني.

- إعلان الدين الإسلامي دينا رسميا للبلاد لماسينا في كل مرافق حياة الدولة وأن القرآن هو قانونها الأسمى، ومن هنا جاءت تسمية ماسينا بدينالDinal(الدين)¹.

- بعد أن تجاوز مرحلة إرساء التنظيمات الضرورية لضمان سير الدولة العادي، وبعد أن استرجع أنفاسه واستكمل تنظيم قواته بدأ في توسيع نفوذ مملكته منذ سنة 1826 بعد أن ترك بها حامية عسكرية. وفي اتجاه الجنوب شن حملات ضارية ضد سيكو وحكامها، استياده بالأمس القريب. ورغم أن المعارك بين الطرفين لم تسفر عن غالب أو مغلوب فإن المفاوضات بينهما أسفرت عن اتفاقية ترسيم الحدود بين الدولتين، وهذا يعني أن انفصال ماسينا عن سيكو أصبح واقعا معترفا به من قبل حكامها القدماء².

بعد ذلك خاضت ماسينا معارك ضد كارطا غربا من أجل السيطرة على إقليمي باخونوBakhunu وجاواندوJawando خلال سنة 1834، كما دخلت في مواجهات ضد بلدان طومبوTombo والموسيMossi

1-Ly Tall(M), op. cité; p. 105.

2-Ibid, pp. 105 - 106.

شرقاً لتأمين مجالات نفوذها والسيطرة على محاور طرق القوافل التجارية العابرة للبلاد في كل الاتجاهات¹، خصوصاً في اتجاه تمبكتو شمالاً، وجني ونيورو وولاتة غرباً، وفي اتجاه سكوطو وبرنو شرقاً. وعندما وصل الحاج عمر إلى دولة ماسينا في نهاية سنة 1839، في طريق عودته من الديار المقدسة وجد خليفته أحمدو شيخو على رأسها، وهي تنعم بوحدها واستقلالها عن دولة سيكو الوثنية، وتتطلع إلى تحقيق مزيد من القوة والاستقرار لتوسيع دائرة إشعاعها الإسلامي. وقد قيل الكثير عن مرور الحاج عمر في نهاية ثلاثينيات القرن 19 بأرض هذه الدولة، وتضاربت الأخبار حول طبيعة الاستقبال والمعاملة التي خص بها الشيخ التجاني من قبل أهل الحل والعقد في البلاد والتي تختلف من مصدر لآخر ومن رواية إلى أخرى. فإذا كانت بعض هذه المصادر ترى أنه أحيط بأحسن الرعاية والحفاوة فإن بعضها الآخر يرى عكس ذلك، ويدفع بتطور تردي العلاقات بين شيخو أحمدو والحاج عمر إلى درجة تهديد هذا الأخير بالقتل. ولاحقت هذه العداوة الشيخ الفوتي في سيكو التي سجن بها لبضعة أشهر قبل التحاقه بفوتاجلون² كما علمنا.

هذه الأرضية المعرفية التي تعمدنا تقديمها حول سيكو وماسينا في علاقتهما بالحاج عمر، تفرض نفسها في تقديرنا لفهم التصادم الفكري

1-Ibid. p. 106.

2 - هناك من يشك في هذه الرواية المتعلقة بالسجن، وقد اشرنا إلى ذلك سابقاً.

(الإيديولوجي) والعسكري الذي ستدخل فيه دولة ماسينا الإسلامية ضد دولة الحاج عمر التجانية لمساندة دولة سيكو Sékou الوثنية. وباختصار شديد يمكن القول أن المواجهة ترتبت عن نازلة فقهية، كان كل طرف يؤول النصوص المقدسة المتعلقة بها بشكل يجعل الحق إلى جانبه، وهذه النازلة طرحت عندما وصلت جيوش الحاج عمر الفوتي في فتوحاتها، قادمة من أعالي نهر السنغال وكارطا إلى دولة سيكو الوثنية فاقتمتها في بداية ستينيات القرن 19 وحقت نصرا بينا على المشركين بها. وخوفا من أن تمتد أطماع الدولة التجانية إلى خلافة ماسينا، لم يتردد شيخو أحمدو في التحالف مع جيرانه وسادته الوثنيين منذ عهد قريب. وهنا تطرح الإشكالية: إلى أي حد يحق لدولة مسلمة أن تتحالف مع دولة مشركة ضد دولة إسلامية أخرى ؟

كان الجواب الذي وصل إليه الحاج عمر هو تكفير خليفة دولة ماسينا وإعلان الحرب ضده. لكن حجة شيخو أحمدو لا تقل أهمية، فهو يرى أن سيكو لم تعد دولة وثنية وأن غالبية سكانها اعتنقوا الإسلام والفضل في ذلك يرجع إلى المجهودات التي بذلتها دولته للوصول إلى هذه النتيجة. لكن الحاج عمر الخبير بأحوال ماسينا Macina وسيكو Sékou وأوضاعهما لم يقتنع بحجة شيخو أحمد، فكانت الفتنة الكبرى، كما قلنا سابقا، وكما سنفصل لاحقا.

فهل يمكن القول أن حكام ماسينا وسيكو رأوا في الشيخ التجاني

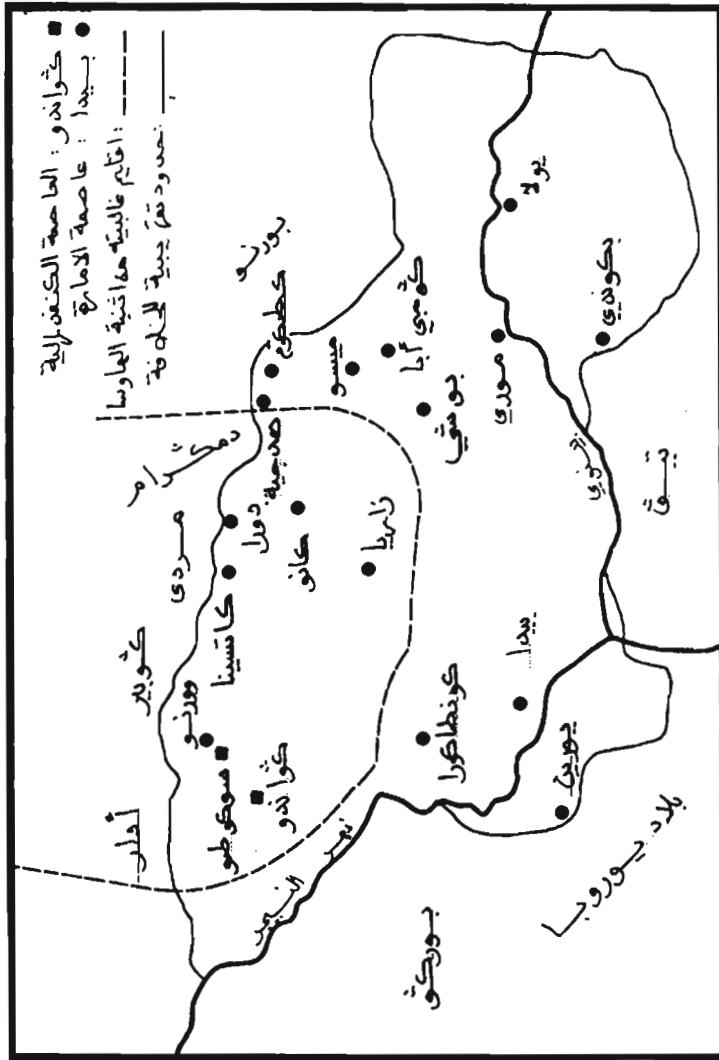
وهو يمر ببلدانهم شرا يمكن أن ينقلب ضدهم، فكادوا له وتربصوا به أملا
في التخلص منه؟ لكن إذا كان هذا الطرح صحيحا، لماذا لم ينفذوا قتله وقد
كان بإمكانهم ذلك؟

تترك هذا الموضوع مؤقتا، وسنعود إليه في مكان مناسب لنتساءل
أكثر ونستنتج الخلاصات الممكنة.

ملحق

خاص بالخرائط

خريطة رقم 5: حمله في مسقطوط خلال القرن 19

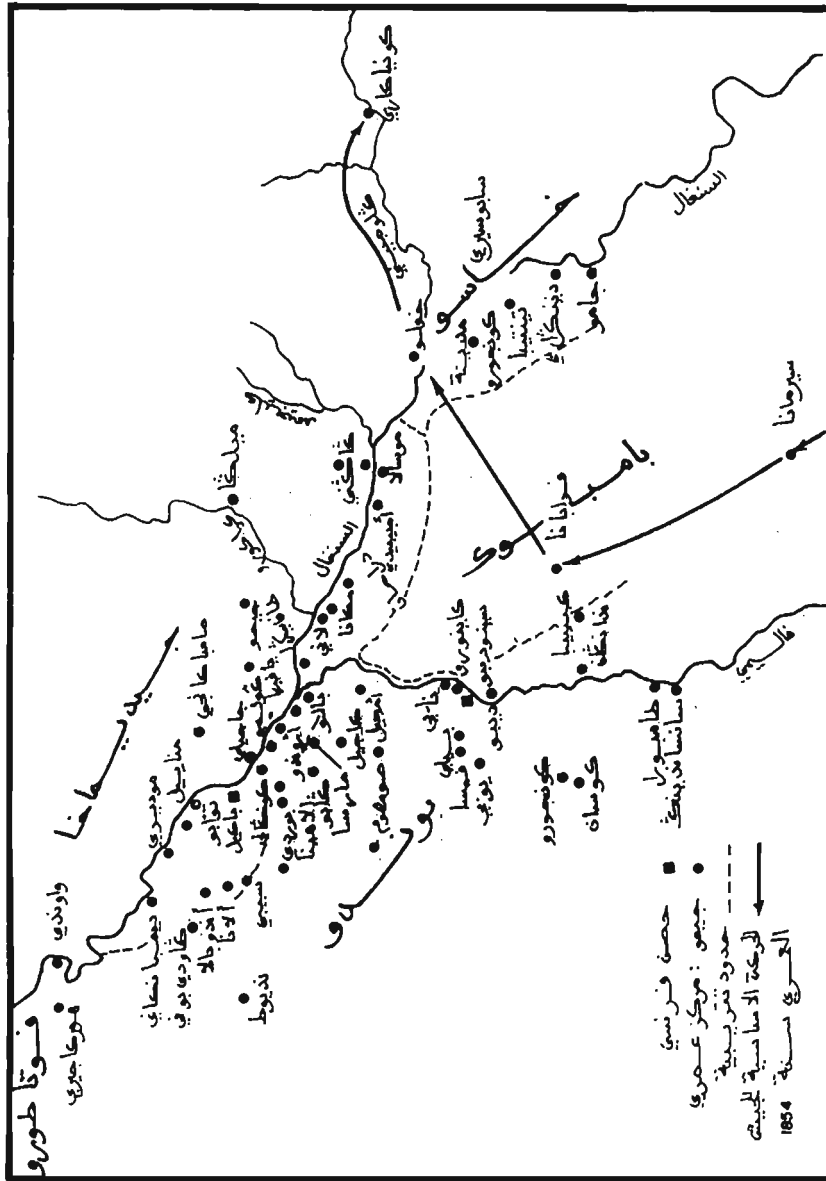


المصدر : Robinson (D.), la guerre sainte d'Al Hajj Omar, p. 75

انظر الجزء الثاني، الصفحة 398

523

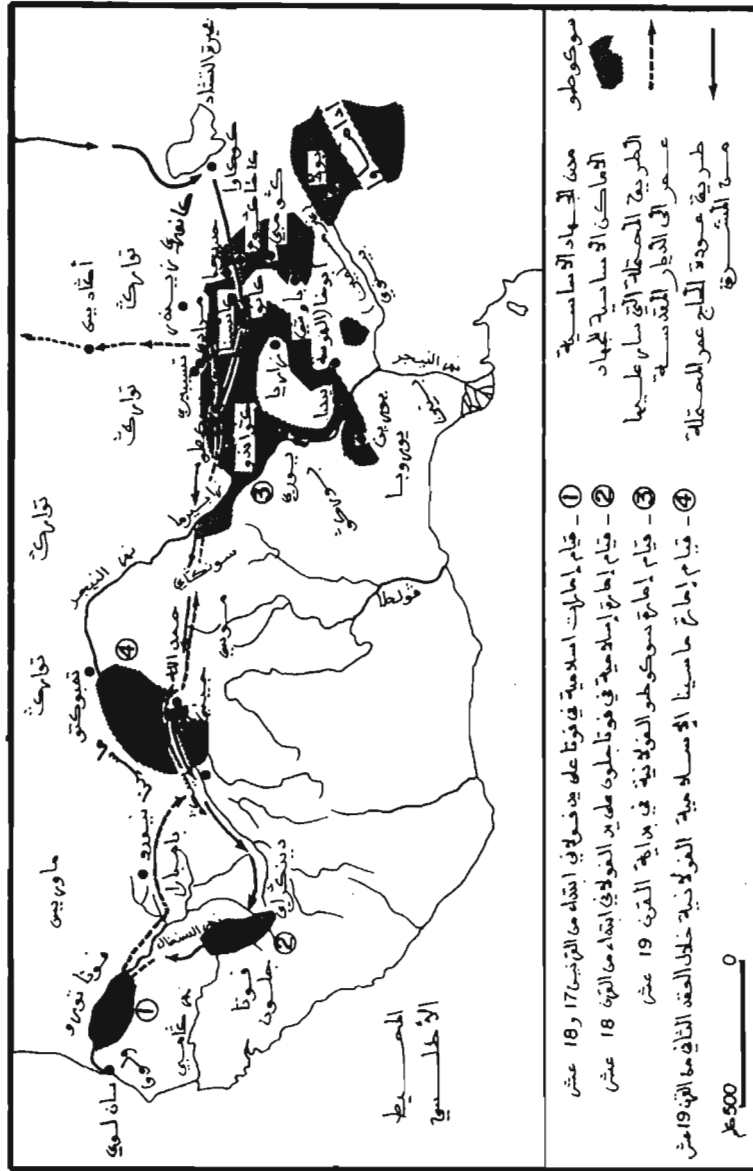
خريطة رقم 7 : سنجامبيا الشرقية ما بين 1854 و 1860



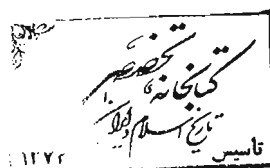
المصدر : Robinson (D.), la guerre sainte d'Al Haj Omar.

انظر الجزء الثاني، الصفحة 424

خريطة رقم 8 : الدول الإسلامية التي قامت على الجهاد



انظر الجزء الثاني، الصفحة 444

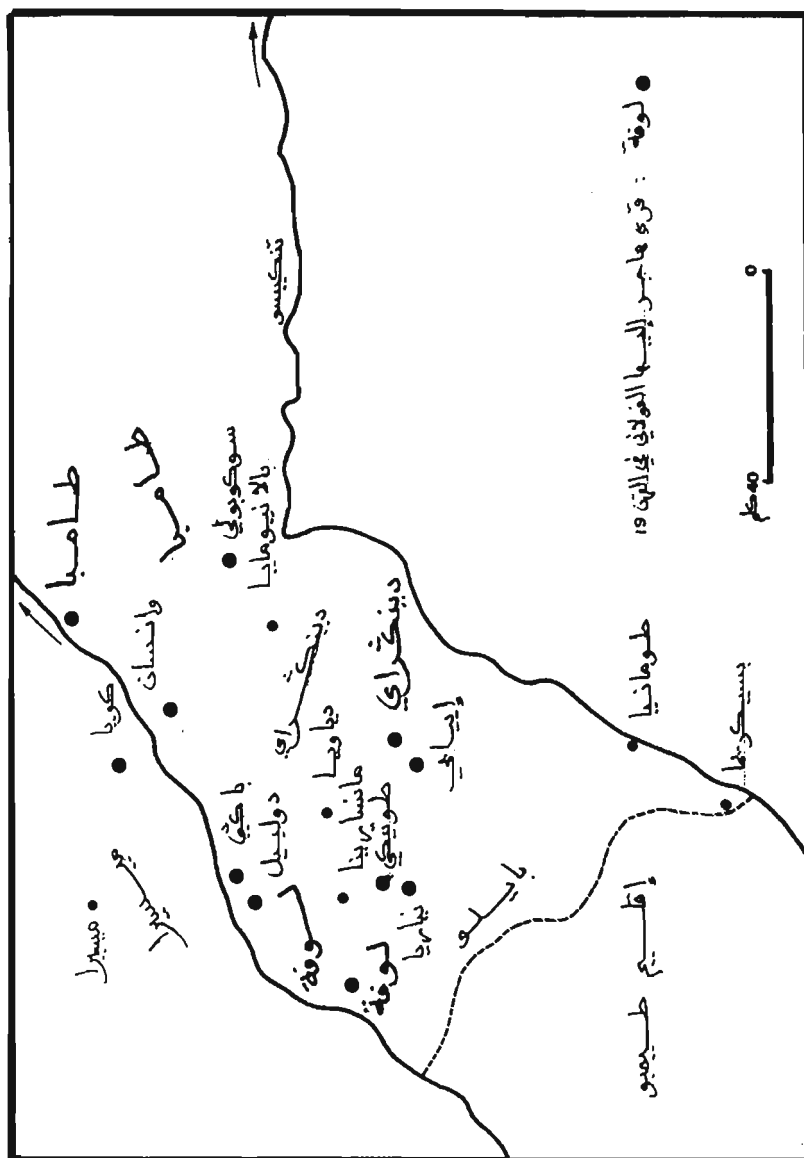


□ تدمر : عاصمة فدر السمة
 لائي : عمالة
 --- الحدود في نهاية القرن
 - - - منطقة الهيمنة حوالي
 ← الاتجاه الرئيسي للتوسع

Robinson (D.), la guerre sainte d'ol Hajj Umar, p.58, للمصري

533

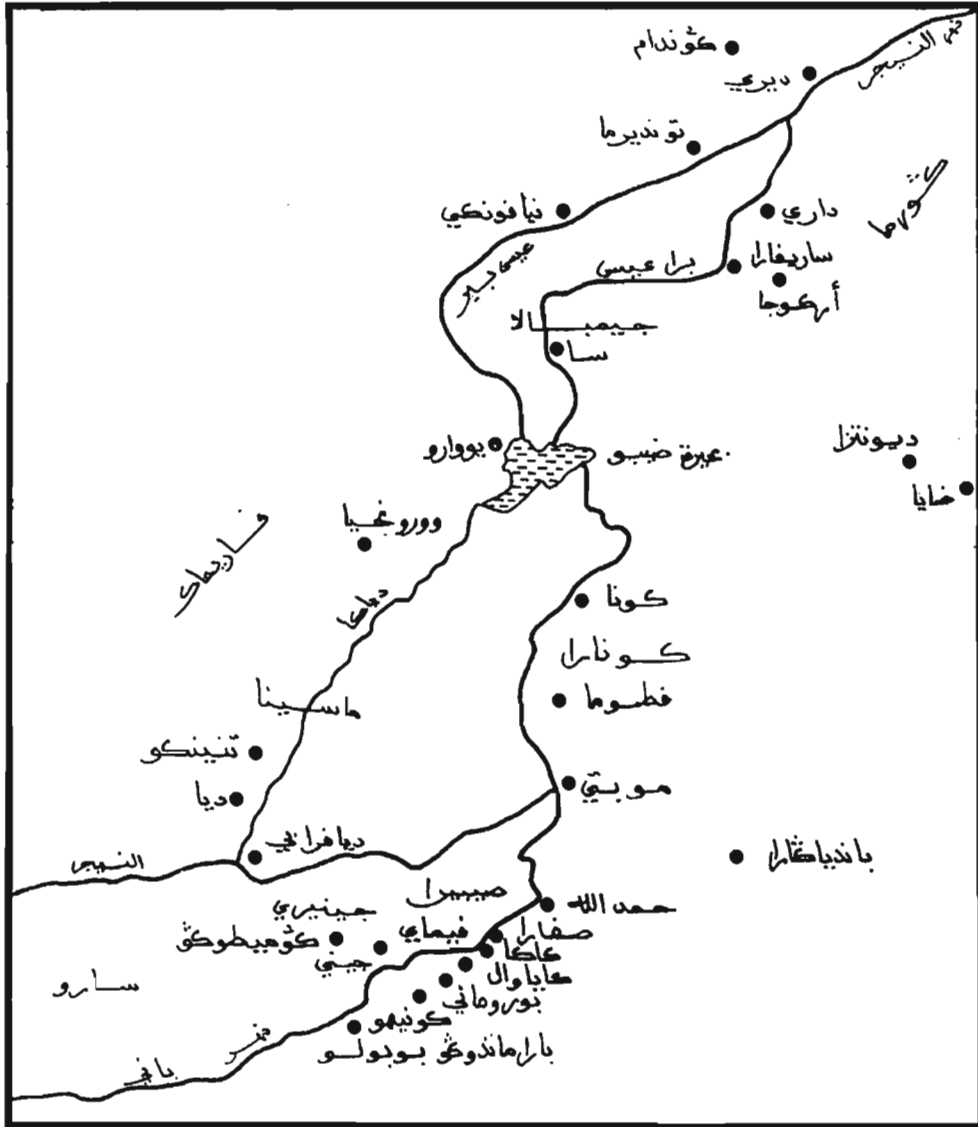
خريطة رقم ٨٨: طامبا خلدل نهائية القرى ١٩٠٠ وبها توجد ديتكراي التي انطلقت منها عمليات الجهاد



المحدر ، Robinson (D.), la guerre Sainte d'al-Hajj Umar p. 129

انظر الجزء الثاني، الصفحة 501

خريطة رقم 13: ماسينا خلال القرن 19



Robinson (D.), la guerre sainte d'al Hajj Umar, المصحح

انظر الجزء الثاني، الصفحة 508

فهرس الجزء الثاني

الباب الثالث : الإنتاج الفكري لأهم رجالات الطريقة التجانية بالمغرب	
3	 خلال القرن 19 والنصف الأول من القرن 20
5	 الفصل الأول : مؤلفات جامعة لأوراد الطريقة وعلوم شيخها
I - ملاحظات أولية : كتب منسوبة لأشخاص رروا	
7	 عن الشيخ المؤسس
8	 1 - جواهر المعاني
15	 2 - الجامع لما افترق من درر العلوم
44	 3 - الإفادة الأحمدية لمريد السعادة الأبدية
II - أوراد الطريقة وعلوم وكرامات شيخها من خلال جواهر المعاني	
63	 والجامع لما افترق من درر العلوم
63	 1 - أوراد الطريقة
	 2 - علوم شيخ الطريقة من خلال جواهر المعاني والجامع
90	 لما افترق من درر العلوم
125	 الفصل الثاني : مؤلفات الجيل الثاني وأغراضها
128	 I - مؤلفات منافحة عن الطريقة وشيخها
133	 1 - رد الفقيه محمد أكنسوس على انتقادات أحمد البكاي
167	 2 - محمد بن محمد الصغير بن أنبوجة العلوي التيشيتي
198	 3 - محمد بن عبد الله العلوي
203	 4 - محنض باب بن أعبيد الديماني
204	 5 - سيدي عبد الله بن أحمد دام
206	 6 - أحمد بن محمد بن العباس العلوي الشنجيطي
222	 7 - محمد بن الأمين الشنجيطي

- 224 8 - محمد العربي بن إدريس العلمي اللحياني
 231 9 - محمد بن عبد السلام كنون
 242 10 - إبراهيم الرياحي التونسي

II - مؤلفات التعريف بالطريقة وأكابرها

- 242 1 - ابن باب بن أحمد بيب الشنقيطي العلوي التجاني
 243 2 - محمد العربي بن السائح
 247 3 - عبيدة بن محمد الصغير بن أنبوجة الشنقيطي التيشيتي
 251 4 - أحمد بن محمد بن العباس العلوي الشنجيطي
 253 5 - محمد أكنسوس
 255 6 - محمد بن محمد بن عبد السلام كنون
 259

III - مؤلفات في مدح الطريقة

- 267 1 - ديوان ترياقي الفهوم
 268 2 - أشعار في مدح الشيخ والطريقة
 274 3 - أشعار في مدح الزاوية التجانية الفاسية
 280 4 - أشعار في مدح أبناء الشيخ سيدي أحمد التجاني
 283 5 - أشعار في مدح الشيخ علي حرازم برادة وكتابه جواهر المعاني
 285

الفصل الثالث : مؤلفات الجيل الثالث خلال النصف الأول

289 من القرن 20

I - مؤلفات منافع عن الطريقة

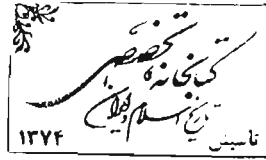
- 293 1 - مؤلفات الرد على أشخاص معينين خلال النصف الأول
 293 من القرن 20
 311 2 - مؤلفات الرد ذات الخطاب العام

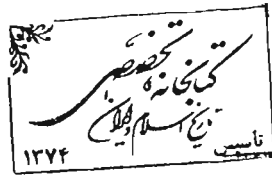
II - مؤلفات في نشر الطريقة والتعريف برجالاتها

- 314 1 - أحمد سكيرج
 315 2 - محمد بن عبد الواحد النظيفي السوسي
 316 3 - محمد بن محمد الحجوجي
 317 4 - محمد علوان الجوسقي
 319

320	 5 - الأحسن بن محمد البعقلي
321	 6 - محمد الزهري الغمراوي
321	III - مؤلفات في فقه الطريقة وبيان شروط وأحكام أورادها
321	 1 - أحمد سكيرج
325	 2 - محمد النظيفي السوسي
327	 3 - الحسين الإفرائي
328	 4 - محمد سعد بن عبد الله الرباطي
329	 5 - محمد الشافعي الطصفاوي التجاني
329	 6 - أحمد التجاني بن محمد الشنقيطي
330	 7 - محمد الحافظ المصري التجاني
331	IV - مؤلفات في مدح الطريقة
331	 1 - أحمد سكيرج
342	 2 - سلطان المغرب المولى عبد الحفيظ
343	 3 - المؤرخ عبد الرحمان بن زيدان
345	 4 - عبد الكريم بن العربي بنيس
346	 5 - محمد سكيرج أخ المؤلف أحمد سكيرج
349	الباب الرابع : قيام الزاوية التجانية بالسودان الغربي
	الفصل الأول : الظروف الممهدة لقيام الزاوية التجانية
351	 بالسودان الغربي
	I - التعريف بالحاج عمر الفتوي مؤسس الزاوية التجانية
352	 بالسودان الغربي
352	 1 - نشأته ودراسته
	 2 - رحلته إلى الحجاز وأخذه الطريقة عن محمد الغالي
358	 بوطالب المغربي الأصل
387	 3 - رحلة العودة إلى السودان الغربي

424		II - ظروف قيام الزاوية التجانية بالسودان الغربي
		1 - الوضع العام بالمنطقة : التردي والاستياء
425		نتيجة أسباب داخلية
459		2 - التردي والاستياء نتيجة الأطماع الفرنسية
		3 - التعريف بأهم بلدان حوض نهر النيجر المشمولة
494		بالدعوة العمرية التجانية
519		ملحق خاص عن الخرائط





رقم الإيداع القانوني : 2000 / 1738

مطبعة فجمالة

زنقة ابن زيدون - المحمدية (المغرب)
الهاتف : 32. 46. 45 (023) الفاكس : 32. 46. 43 (023)

© 2006 The Authors
Journal compilation © 2006 Blackwell Publishing Ltd

الطريق إلى الجنة في المغرب والسودان الغربي

المملكة المغربية

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

تاريخ
تصوف

٢

٦

١٨